

الفُرُوسُ

١٥ - ١٦

سماعة الشيخ
الدكتور محمد الصادقي

الفروق

في تفسير القرآن
بالقرآن والسنة

الجزء الخامس عشر والسادس عشر

سورة الكهف - مريم

دار النواش الإسلامية
للطباعة والنشر والتوزيع
بجدة - ليبيا

(١٨) سُورَةُ الْكَهْفِ مَكِّيَّةٌ

وَأَيَّاتُهَا عَشْرٌ وَمِائَةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا (١) قَيِّمًا لِيُنْذِرَ بَأْسًا
شَدِيدًا مَن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا (٢) مَّا كَثُِبَ فِيهِ
أَبَدًا (٣) وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا (٤) مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ
مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا (٥)﴾

فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا (٦) إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى
الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا (٧) وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾

المحور الرئيسى في الكهف هو تصحيح العقيدة وتثبيتها وإصلاح المنهج الفكري
والنظري وإقامة القيم القيّمة بميزان الله ، فيها ابتداء بالحمد لله منزل الكتاب القيم الحاوي
تلکم القيم ، وانتهاء بالعمل الصالح ونفي الشرك ، وبينهما قصص منقطعة النظير في سائر
القرآن ترأسها الكهف وتختتمها قصة ذي القرنين وبينهما قصة الجننتين ، وقصة موسى مع
خضر ، وإشارة الى قصة آدم وإبليس ، وهذه القصص تستغرق احدى وسبعين من عشر
ومائة من آي السورة ، ثم وما تتبقي منها تعقيبات على قصصها وإلى بعض مشاهد القيامة
وسائر الحياة ام ماذا من مذكرات هذه القصص ، فإنها ليست مجرد قصص تروى ، بل هي
حقائق تاريخية تلقى كدروس منضجة للعقول منتجة في كل الحقول لمن القى السمع وهو
شاهد.

ولماذا قصة الكهف بين قصصها تختص اسم السورة بنفسها؟ لأنها كهف لمن يفر
بدينه ، كهف للمتمسكين بالتوحيد ، المستقيمين فيه ، المحافظين عليه ، والتوحيد هو حجر
الأساس فيما يتبناه القرآن في سوره كلها ، فلتكن هذه كهفا بينها.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا (١) قِيمًا لِيُنْذِرَ بَأْسًا
شَدِيدًا مِّنْ لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا (٢)﴾ ﴿الْحَمْدُ
لِلَّهِ﴾ تستغرق كل حمد من كل حامد ولكل محمود فتحصره في الله ، لأنه الله ، وتحسره عمن
سوى الله لأنه سوى الله ، ثم لأنه ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ كما في فاتحة الكتاب ، ربوبية تكوينية
وتشريعية للعالمين ككل ، وهنا لأنه ﴿أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ فانه كأنه هو ربوبيته كلها ،
فانه الغاية القصوى من خلق الكون بمن فيه العالمون ، فالحمد لله لأنه ﴿أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ
الْكِتَابَ﴾ كالحمد لله لأنه ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾!

و «انزل» اللاحقة بنزول دفعي كما التنزيل هو التدريجي . لا يعني هنا نزوله في ليلة
القدر حيث الغاية المعنية هنا ﴿لِيُنْذِرَ .. وَيُبَشِّرَ﴾ لا تناسب إلا تفصيل الكتاب المنزل ،
الهم إلا اعتبارا للكتاب المفصل أمرا واحدا طيّا عن طول الزمان وعديد النزول ، بل
«الكتاب» ككل.

ولماذا «على عبده» لا محمد ولا الرسول؟ علّه للتدليل على الشرط الأصيل في ذلك
الإنزال التنزيل وهو العبودية القمة ، فبانزال الكتاب على عبده تحصل الرسالة!.

ثم و «عبده» مفردا كأنه هو عبده لا سواه ، دون عبد من عباده؟ تلميحا لأنه في قمة العبودية ، لا يساوى ولا يسامى ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾. فمحمد (صلى الله عليه وآله وسلم) «عبده» كأنه فقط لا سواه ، فلا نجد «عبده» في اشرف المواقف إلا إياه ﴿نَزَلَ الْفُرْقَانُ عَلَى عَبْدِهِ﴾ ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ﴾ ﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾ ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ اللهم إلا ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكْرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾^(١) ولكن «زكريا» هنا تبين انه لولاه لما عرف ب «عبده».

وكذلك القرآن كتابه «الكتاب» كل الكتاب كأن لا كتاب سواه ، كتاب في القمة ينزل على (عبد) في القمة ولأنه يحوي كل كتابات الوحي وزيادة! ثم ﴿وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ، قِيمًا﴾ حالان وصفيتان ، أولاهما سالية تسلب عنه كل نقص وانحراف ، وأخراهما ايجابية تثبت له كل كمال ، وهذه طريقة مثلي في كل تعريف كامل وكما في أسس الإسلام ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ تخلية ثم تجلية.

والعوج فتحا هو ما يدرك بالبصر سهلا ، وكسرا ما يدرك بالبصيرة ، فلا يرى ارباب البصيرة في القرآن ونبيه انحرافا واعوجاجا وفطورا : ﴿فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِنْ فُطُورٍ﴾ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٦٧ : ٤﴾ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ ﴿٣٩ : ٢٨﴾ وحقيقته ان يكون فيما يصح عليه ان ينتصب ، ويميل ويضطرب ويستقيم ،

(١) على الترتيب ٢٥ : ٥٢.١ : ٥٧.١ : ٢٩.٩ : ٢٦ و ١٩ : ٢.

فقد يجعل الله ما يتوارد عليه الحالتان فهو غير معصوم ، أم لا يتوارد له الا حالة واحدة كما القرآن ونبي القرآن ، فالعصمة لزامهما دون نكوب عن المنهاج ولا هوة الاعوجاج.

والقيّم هو مؤكد القيام والقوام ، تعنيهما «قيّما» أيا كان ، قواما في نفسه إذ يهدي للتي هي أقوم ، وقياما في دعوته إذ يقوم القاعدين ويستيقظ النائمين ،

في سائر القرآن لا نجد قيوما إلا الله ولا قيما إلا القرآن وقد يقرنان : ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ (٣ : ٢) فمن قيموميته نزل ذلك الكتاب القيّم ، فهو قيّم كما الله منزله قيوم ، باق يدوم ما بقي الدهر دون تحرف او نسخ.

فالقرآن قيّم كما نبي القرآن ، والدين منهما وبينهما قيّم ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ (٣٠ : ٤٣) ﴿رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً. فِيهَا كُتِبَ قَيِّمَةٌ﴾ (٩٨ : ٣) ﴿وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ (٩٨ : ٥) وأقوم القيّم في هذا الدين والكتاب قمة التوحيد القيمة ﴿أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ (١٢ : ٤٠) وكما ينبو من الفطرة التي فطر الناس عليها ، ﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٣٠ : ٣٠).

ثم «له» في الحال الاولى تعني «عبده» و «الكتاب» على البذل ، كما الجملة حال عن الإنزال ، فتعني : انزل ﴿وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا﴾ : إنزال دون عوج ، كما ومنزل دون عوج : الكتاب ، ومنزل دون عوج «عبده» حال مثلثة عن ثلاث : إنزالا ومنزلا ومنزلا!
و «قيما» حال مربعة ، هذه ، والله ، فانه قيّم وإنزاله قيّم وكتابه قيّم وعبده قيّم!

ومن العوج في إنزال الكتاب الوحي ان يشتبه بوحى الشيطان او ينسى ، ومن العوج في «عبده» نقصان في مثلث العصمة : تلقيا وإلقاء وتطبيقا لوحى الكتاب ، ومن العوج في الكتاب ، تعرضه لتحريف او نسخ ، او عوج له في دلالة او مدلول أما ذا ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عَوْجٍ﴾.

وكما الله قيم ، فانزاله «الكتاب» قيم وكتابه قيم ورسوله قيم بقمة العبودية وقوامتها أماذا من لزامات الرسالة بالوحي.

فكل عوج من العوج عن الثلاث منفية ، وكل قوامة وقيام للأربع مثبتة. ولماذا «لم يجعل» والعبد دون اتصال بالوحي اعوج دون ان يجعل له عوج ، وهو متصلا بالوحي ليس له عوج؟

وهكذا الأمر في الكتاب ، وأما الأنزال فطلما العبد متصلا بالوحي ليس له عوج؟ علّ جعل العوج في «عبده» ان ينقص من كماله الرسالي كما في الكتاب من كماله في الوحي ، فلان الوحي والرسالة يقتضيان كمالا دون عوج ، فلا يتصور لهما عوج إلا ان يجعل لهما عوجا.

وما هو الهدف في ذلك الإرسال مختصرا لا مختصرا؟ : ﴿لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّنْ لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا. مَا كَثِيرٌ فِيهِ أُنْبَاءٌ﴾.

وترى ما هو البأس الشديد؟ ومن لدن من هو؟ انه بأس شديد من الله عذابا في الدنيا وأشد منه في الاخرى ، وبأس شديد من رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) حربا منه ومحاربا هو من لدنه كعلي (عليه السلام) فانه من رسول الله وحريه منه فمن لدنه : الله ، يعم عذابات الله ، ومن لدن رسول الله : يعم لدنه متصلا : حربه ، ومنفصلا محاربه الذي هو من لدنه (١).

(١) فضمير الغائب راجع الى الله اصاله ، والى الرسول رسالة ، رجوعا بدليا الى كل .

«من لدنه» تتعلق بالمستقر المحذوف «كائنا» لينذر بأسا كائنا من لدنه ، لا لينذر من لدنه لأنه من توضيح الواضح!

فنتيجة عدم القوام بهذا القيم ، بأس في الحياة الدنيا ومعيشة ضنك : ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ ﴿بِأَسْهُمَ بَيْنَهُمْ شَدِيدُ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾ (٥٩ : ١٤) ثم بأس أشد في الأخرى : ﴿وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا﴾ (٤ : ٨٤).

﴿وَيُنْشِرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ﴾ فغير المؤمنين التاركين الصالحات يندرون بأسا شديدا ، والمؤمنون العاملون الصالحات يبشرون أجرا حسنا ، فأين هم المؤمنون التاركون الصالحات؟ طبعاً هم عوان بين ذلك ، لا الى بأس شديد ولا أجر حسن. لهم بأس قدر ترك الصالحات ، ولهم أجر قدر الإيمان والحسنات ﴿مَا كُنْتُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾. هؤلاء في بأس شديد وأولاء في أجر حسن.

ومن بين المنذرين من هم من انحسهم وأسوئهم أدبا لرب العالمين : ﴿وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ (٤) مَا هُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِإِبَائِهِمْ كِبَرٌ تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ (٥).

﴿اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ ولادة او تشريفا ﴿مَا هُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ﴾ جنس العلم أيا كان ﴿وَلَا لِإِبَائِهِمْ﴾ الذين هم على آثارهم مقتدون ، مقلد جاهل ومقلد جاهل في قوله جاهلة قاحلة ﴿كِبَرٌ تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ ولا ترتبط

. على حدّه ، ومن بأسهم في الأولى في التأويل ام عموم الدلالة كمصدق جلي وفي بأس الحرب الامام علي (عليه السلام) وهو من لدن رسول الله كما في تفسير العياشي عن البرقي عن رواه رفعه عن أبي بصير عن أبي جعفر (عليه السلام) لينذر بأسا شديدا من لدنه قال : البأس الشديد علي وهو لدن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قاتل معه عدوه فذلك قوله : ﴿لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ﴾.

بعقولهم وأفكارهم فلا تتجاوز الأفواه ، فالكلمات العاقلة العالمة تخرج من نبعة العلم ومصدر العقل ثم تصل الى الفم ، ف ﴿إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ ذا بعدين ، حيث تناحر كلمتهم تلك لا فقط الواقع بل وعقولهم إذ ﴿مَا هُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ﴾!

فهناك صدق مطلق : قول يوافق مثلث العقيدة والعمل والواقع مسنودا الى دليل بارع ، وكذب مطلق : لا يستند الى علم نفسي ولا علم تقليدي ولا يوافق الواقع ، ومن أكذبه ما يستحيل دليلا وواقعا كالقول ﴿اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ ف ﴿إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ تحصر قولتهم تلك في كذب على كل ابعاده ، عريقا في الكذب حيث يستحيل صدقه لاستحالة واقعه والدليل عليه.

وبينهما صدق وكذب نسيان ، كمن يقول ما لا يعتقد ولا يعمل وفقه رغم انه واقع كقولة المنافقين ﴿نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ فانها صادقة بجنب الواقع وكاذبه في نفسه إذ لا يعتقد.

او يقول ما يعتقد ويخالف الواقع ، وافقه عمليا او خالفه ، وهو يعاكس قول المنافقين ، فأردء دركات الكذب هو المطلق المستحيل ، ثم المطلق الممكن ، ثم ما يخالف العقيدة ثم المخالف للواقع ، ثم ما خالفه عمله.

كما واصدق الصدق هو المطلق الواجب ثم ما بعده نازلا فنازلا.

والقائلون اتخذ الله ولدا ، كاذبون في ابعاده كله : ١ لا علم لهم شخصا ٢ ولا تقليديا ٣ فلا يعتقدون ما يقولون ٤ ولا يوافق الواقع ٥ ولن يوافقه ٦ ولن يجدوا له ولدا ٧ ولن يجدوا لقولهم برهانا ، فهم في دركاتهم السبعة الجهنمية من كذبهم ف ﴿إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾! وإنها كلمة خاوية المدلول لا تحوي معنى بأي معنى ، إذ لا تدل على

واقع معتمد ولا الواقع المطلق ، إذا فهي «كبرت» في الأكاذيب إذ ليس فيها إلا كذب ، معناها فظيع ، وفحواها عظيم ، فكبرت الكلمة كلمة تحرصا في ذات الله دون تحرس.

﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾

﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (٢٦ : ٣) ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ

حَسْرَاتٍ﴾ (٣٥ : ٨) وبخوع النفس هو قتلها غما وهما ، وكان الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) يتحسر على تركهم الايمان كأنه باخع نفسه ، فنهاه الله تعالى عن ذلك تحننا عليه وتلطفا ، وما «لعل» هنا إلا موضع ترج لموقف الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) من دعوته لو خلى وطبعه والله ينهاه تحننا وتعطفنا عليه لا انه تعالى يترجّاه وحاشاه!

و ﴿بِهَذَا الْحَدِيثِ﴾ هو القرآن كما ونبي القرآن حديث ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ. أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ... فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ (٧ : ١٨٥) وكما الله ثالث اثنين حديث : ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ (٤٥ : ٦) والقرآن ونبيه من آياته ، أحاديث ثلاثة لا تعني حدثا ولا سيما في الله ، وإنما ما يتحدث عنه ناصعا مبرهنا لاخفاء فيه ، إلا في القرآن ونبيه فإنهما من حديث حادث اضافة ناقصة عن حديث الله غير الحادث ، ومن الطريف الطريف ان هذا الحديث القرآن يعم الثلاثة في بعدين ، ثانيهما انه أهم حديث في القرآن حيث يتحدث عن الله ، ويتحدث عن نفسه وعن رسول الله ، تعريفات ثلاث تمثلت الحديث!

و «آثارهم» هي الآثار السيئة في الحياتين فهي من مخلفات ﴿لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا

الْحَدِيثِ﴾ فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ، ولا تبخع على آثارهم أسفا! .. أو ان آثارهم خلفهم ، تلاحقهم لتلحقهم قاتلا نفسك

خلفهم ﴿إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا...﴾ ألا يا صاحب الرسالة السامية؟ أنت تؤدي واجبك ثم وما عليك
الا يهتدوا ف ﴿لَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ (١٦ : ١٢٧) ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ
الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾.

وفي الحق حقيق لحامل رسالة ودعوة ان يبضع نفسه إذا قصر في رسالته ، والرسول
(صلى الله عليه وآله وسلم) ما قصر ولن : فلما ذا البخوع أسفا؟.

وغير حقيق له ان يبضع لماذا الله ما حملهم على الهدى وهم مصرون على الردى ، فان
الله لا يحمل أحدا لا على هدى ولا ردى ، فلما ذا البخوع أسفا؟.

وغير صحيح ان يبضع لماذا هم مصرون على الضلالة ، وهو تقصير منهم لا منه فلما
ذا البخوع أسفا على آثارهم : خلفهم . وعلى آثارهم بأعمالهم ف ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾ ﴿إِنْ
عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾؟

وقد بلغت وما اهتمدوا وليس الله ليهدي قوما يخالفونه الى الردى ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ
عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ﴾!

﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ (٧) ﴿وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا
عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ (٨).

والناس بالنسبة لما على الأرض الزينة منقسمون الى ناس انسان ، ونسنان حيوان :
﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ (٣٠ : ٧).

وهؤلاء يعلمون ﴿إِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾ (٢٩ : ٦٤) «فمن ابصر إليها
أعمته ومن ابصر بها بصرته» (١) ف ﴿مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةٌ لَهَا﴾ لا

(١) من وصف الامام علي (عليه السلام) للدنيا بين الناظرين إليها.

هي غاية للحياة عليها ولا باقية وإنما «متاع قليل ثم إلينا يرجعون»!

فلما ذا ﴿زِينَةً لَهَا﴾ معاصرة للعائشين عليها دائرة؟ ﴿لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾!

ابصارا لها فإخلاذا إليها أو ابصارا بها فزهدا فيها! «ليبلوكم أيكم احسن عقلا وأورع عن محارم الله وأسرعكم في طاعة الله» ^(١) حيث العاقل ينظر الى هذه الزينة الفانية إبصارا بها الى ما وراءها ، لا إبصارا إليها كغاية قصوى ، فهو إذا فيها ورع عن محارم الله سرع في طاعة الله! لا هلع ولا هرع في زينتها! ولماذا ﴿أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾؟ وهم القلة القليلة ، لا «أسوء عملا» وهم الكثرة الكثيرة؟ لأن الهدف الرئيسي من البلاء بزينة الحياة الدنيا هو التسابق في حسنات الأعمال مهما قل أصحابها ، دون سيئاتهما مهما كثر أصحابها.

ومن آيات اندثارها واندحارها ﴿وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾.

الصعيد هو المرتفع الصاعد حيث تصبح الأرض بما عليها يوم قيامتها كتلة مرتفعة كلها ، «جرزا» لا نبات فيها ^(٢) ، قاحلة لا ماء فيها ولا كلاء : ﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا. لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ (٢٠ : ١٠٧).

فالجرز مأخوذ من «ناقة جروز» إذا كانت كثيرة الأكل لا يكاد لحياها

(١) الدر المنثور ٤ : ٢١١ اخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه والحاكم في التاريخ عن ابن عمر قال : تلا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) هذه الآية : «لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا». فقلت : ما معنى ذلك يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)! قال ..

(٢) في تفسير القمي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر (عليه السلام) في قوله تعالى : «صَعِيدًا جُرُزًا» قال : لا نبات فيها.

يسكنان من قضم الأعلاف ونشط الأعشاب ، ك «سيف جراز» إذا كان يبرى المفاصل ويقطّ الضرائب ، فسميت ارض القيامة جرزا إذ كانت كأنها أكلت نبتها فلم تدع منه نابغة ولا تركت طالعة!.

«لنبلوهم» تلمّح ان افعال الله تعالى مغية لحكم وأغراض ، وهنا ﴿زِينَةٌ لَهَا﴾ لغرض الابتلاء ، فالدنيا دار بلاء برخائها وعنائها وأكثرها عناء ، والغرض الأسمى من الابتلاء التسابق في الحسنى ان يتذرعوها الى الله زلفى ﴿أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾؟ فليست السوئى أو التسابق فيها من أغراضها.

وترى ان الله يبلو عباده اختبارا واستعلاما وهو علام الغيوب ، فانه يعلم السر وأخفى؟ كلا! وإنما الابتلاء بالخير والشر كدحا الى ربحهم كدحا ليتكاملوا ، وليعلموا هم أنفسهم من هم ، فعند الامتحان يكرم المرء او يهان!

فالله يعلم مسائرهم ومصائرهم ولكنه يبلوهم لكي يزهد من يزهد ، ويزهو من يزهو ، فيجزى على ما يصدر منهم فعلا ، بما يحصل منهم في هذه البلوى عملا ، وهنا يسكت عمن لا يحسنون صنعا حيث الهدف الاسمى ﴿أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾؟ فلهذه الزينة نهاية محتومة ، ستعود الأرض عنها جرداء لا ماء فيها ولا كلاء!.

﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ (٩) إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى

الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا (١٠) فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي
 الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا (١١) ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا (١٢) نَحْنُ
 نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى (١٣) وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ
 قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُو مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا (١٤)
 هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْ لَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ
 كَذِبًا (١٥) وَإِذْ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ
 وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا (١٦) وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ
 وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ

الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ
وَلِيًّا مُرْشِدًا (١٧) وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ
بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُغْبًا (١٨) وَكَذَلِكَ
بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ
أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ
مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا (١٩) إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي
مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبَدًا (٢٠) وَكَذَلِكَ أَعِزَّنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ
لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا

ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا رُبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا (٢١)
 سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ
 وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا
 تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا (٢٢) وَلَا تَقُولَنَّ لشيءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا (٢٣) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ
 وَادْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَنْ يَهْدِيَنِّي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا (٢٤) وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ
 ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا (٢٥) قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ
 بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾

﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ (٩) :

ثماني عشرة آية تنزل تعريفا بقصة اصحاب الكهف ، تتقدمها اية الاستعجاب من عجب قصتهم في حسابان ، فأيات الله كلها عجب وليست فقط قصة اصحاب الكهف وفيها اعجب منها ، ومنها حسب الروايات رأس الحسين (عليه السلام) المجذوذ حيث تكلم وقرأ آيات من الكهف الى ﴿أَمْ حَسِبْتَ﴾ فقيل : «أمرك اعجب»! ^(١).

ولأن «عجبا» مصدر تلمح الى ان القصة كانت في حسابان من أعجب العجب ، وعلّ من عجبها ترك الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم) الاستثناء بمشيئة الله لما سئل عنها فقال : ﴿إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا﴾ اطمئنانا بربه انه يوحي اليه بها ، واستعجالا لجوابهم ، لذلك تتقدم القصة بعد احتباس الوحي ردحا من الزمن آية التأنيب بهذا العجب ﴿أَمْ حَسِبْتَ﴾ ف «ام» عطف على محذوف يناسب المقام ك «أحسبت انك تملك وحي ربك فقلت : ﴿إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا﴾ دوغما استثناء بمشيئته؟ ﴿أَمْ حَسِبْتَ﴾.

(١) نور الثقلين ٣ : ٢٤٢ ح ١٥ في الخرايج والجرايح عن المنهال بن عمرو قال : والله أنا رأيت رأس الحسين (عليه السلام) حين حمل وانا بدمشق وبين يدي رجل يقرأ الكهف حتى بلغ قوله ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ فانطق الله تعالى الرأس بلسان ذرب طلق قال : اعجب من اصحاب الكهف حملي وقتلي وفي ١٦ في كتاب المناقب لابن شهر آشوب وروى ابو مخنف عن الشعبي انه صلب رأس الحسين (عليه السلام) بالصيف في الكوفة فتنحى الرأس وقرأ سورة الكهف الى قوله : ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَرِذْنَاهُمْ هُدًى﴾ ، وسمع ايضا يقرأ ﴿أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾

عجبا؟ فأسرعت في وعد الجواب ام ماذا؟^(١).

لا هذا ولا ذاك ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ ...

وإن في احتباس الوحي عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) لطف خفي ، وآية هي أعظم وأدل على نبوته من إخباره بقصة اصحاب الكهف ام ماذا؟ فلو لم يكن رسولا ما اخرهم في طائل من الزمن^(٢) فوحي القرآن وآياته اعجب من هذه القصص!

(١) المصدر ح ٢٩ في تفسير علي بن ابراهيم القمي حدثني أبي عن ابن أبي عمير عن أبي بصير عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال : كان سبب نزول سورة الكهف ان قريشا بعثوا ثلاثة أنفار الى نجران : النضر بن الحارث بن كلدة وعقبة بن المعيط والعاص بن وائل السهمي ليتعلموا من اليهود والنصارى مسائل يسألونها رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فخرجوا الى نجران الى علماء اليهود فسألوهم فقالوا : اسألوه من ثلاث مسائل فان أجابكم فيها علي ما عندنا فهو صادق ثم سلوه عن مسألة واحدة ، فان ادعى علمها فهو كاذب . وهي مسألة وقت الساعة . الى ان قال : فرجعوا الى مكة واجتمعوا الى أبي طالب فقالوا يا أبا طالب ان ابن أخيك يزعم ان خبر السماء يأتيه ونحن نسأله عن مسائل فان أجابنا عنها علمنا انه صادق وان لم يخبرنا علمنا انه كاذب فقال ابو طالب : سلوه عما بدا لكم فسألوه عن الثلاث (اصحاب الكهف . موسى وخضر . ذي القرنين) فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) غدا أخبركم ولم يستثن فاحتبس الوحي عليه أربعين يوما حتى اغتم النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وشك أصحابه الذين كانوا آمنوا به وخرجت قريش واستهزؤا وآذوا وحزن ابو طالب فلما كان بعد أربعين يوما نزل عليه سورة الكهف فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : يا جبريل لقد ابطأت! فقال : انا لا نقدر ان ننزل إلا بإذن الله تعالى فانزل الله عز وجل : ﴿أَمْ حَسِبْتَ﴾ «يا محمد» ﴿أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ ثم قص قصتهم فقال ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ...﴾.

(٢) اختلفت الروايات في انه احتبس يومين او ٣ . ٤ . ١٢ . ١٥ . ٢٥ . او ٤٠ والأخير هو الأقرب كما يأتي عن تفسير القمي عن الامام الصادق (عليه السلام).

وتسلية لخاطره الأقدس تنزل عليه سورة الضحى ﴿.. مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ..﴾
وإنما احتباس الوحي كنفس الوحي وجهة من التربية الربانية.

فلقد كان الرسول زمن الاحتباس في حالة مزرية مضرعة مربية ، إذ بدر الوحي الحبيب
من الحبيب مسليا خاطر الحبيب ومربيا له ﴿أَمْ حَسِبْتَ ... وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ
غَدًا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَادْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِّي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا﴾
وهذا في أخريات القصة لكيلا يفاجأ في بدايتها بنص التنديد ، اللهم إلا تلميحا مليحا مريحا
: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾؟

لا تحسب انها عجب وفي آياتنا ما هي اعجب ، فأنت بقرآنك ورسالتك في قمة
العجب ^(١) ولذلك تفتتح السورة بما افتتحت تقييما للكتاب ونزوله ومنزله «قيما» من منزله
القيوم فحمدا له كل الحمد ^(٢)!.

ترى ومن هم اصحاب الكهف والرقيم ، هل هم اصحاب الكهف وآخرون اصحاب
الرقيم ، وقد أهمل عن ذكر الآخرين؟ وهذا خلاف البلاغة في أدناها فضلا عن أعلاها! فهم
جماعة واحدة تعرف بالكهف والرقيم.

ثم الكهف معروف فما هو الرقيم؟ إنه المرقوم وعَلَّه على باب

(١) الدر المنثور ٤ : ٣١٢ . اخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في آية العجب : يقول الذي آتيتك من العلم
والسنة والكتاب أفضل من شأن اصحاب الكهف والرقيم وبنفس روا من مجاهد كانوا بقولهم ١ عجب آياتنا ليسوا
بأعجب آياتنا.

(٢) لم يكن ذلك الحسبان من الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) بل ممن سألوه فهو من باب إياك أعني واسمعي
يا جاره ، فقد كان الرسول يعيش أعجب آيات ربه ومنها نفسه المقدسة بقرآنه وسنته!.

الكهف ^(١) تعريفاً بحالهم ، ويؤيده قرن الكهف بالرقيم ، رقيماً للكهف بأصحابه فهما واحد كأصحابهما جماعة واحدة ، لا اسم القرية التي خرجوا منها ^(٢) فإنهم تركوا صحبتها الى الكهف فليسوا من أصحابها! اللهم إلا إشارة الى الحالتين المختلفتين ، ولكن لا تعرف لحد الآن بلدة الرقيم! او قد تجمعهما الرقيم! رقيماً على باب الكهف رقم فيه مبدأهم ومآلهم! وأما ان الرقيم هو كلبهم ، فذلك هتك لساحتهم انهم اصحاب كلب ، او الكلب صاحبهم ، ثم لا يعرف كلب رقيم ، أبعد ما أهمل عن اسمائهم هنا يبرز كلبهم باسمه وهم محبوبه؟!

﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ۝ ١٠ فَضَرْبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ۝ ١١ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ۝ ١٢﴾

هذه الثلاث بين الثمانية عشرة في قصتهم إجمال عن تفصيل ، يضم ما فعلوه وقالوه :

﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ . . .﴾ وما فعله الله أولاً «فضربنا . . .»

(١) نور الثقلين ٣ : ٢٤٤ ح ٢١ العياش عن محمد عن احمد بن علي عن أبي عبد الله (عليه السلام) في الآية قال : هم قوم فروا وكتب ملك ذلك الزمان بأسمائهم وأسماء آبائهم وعشائهم في صحف من رصاص وفي الدر المنثور ٤ : ٢١١ عن ابن عباس قال : الرقيم الكتاب وعن أبي صالح قال : الرقيم لوح مكتوب وعن سعيد بن جبير قال : الرقيم لوح من حجارة كتبوا فيه قصة اصحاب الكهف وأمرهم ثم وضع على باب الكهف وعن السدي قال : الرقيم حين رقت أسماءهم في الصخرة كتب الملك فيها أسماءهم وكتب انهم هلكوا في زمان كذا وكذا في ملك ريبوس في سور المدينة على الباب قول هذا قول جميع اهل المعاني والعريية ثم كما يأتي احتمال آخر للرقيم انهم ثلاثة من اصحاب الكهف رقموا خالصات اعمالهم!.

(٢) الدر المنثور عن ابن عباس قال : الرقيم واد دون فلسطين قريب من أيلة.

وأخيرا ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ...﴾ طيا لهما باختصار دون احتصار : ﴿أَمْ حَسِبْتَ .. إِذْ أَوْى ..﴾^(١)
استعراضا لخطوطها الرئيسية كبراعة استهلال ومن ثم التفصيل.

﴿إِذْ أَوْى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا
رَشَدًا﴾^(٢).

(١) «إِلَى الْكَهْفِ» دون ومن الرقيم من الشاهد انه ليس البلدة التي خرجوا منها ثم ولم يأت ذكرها في تفصيل
القصة وعلى اية حال فالروايات مختلفة في انهم جماعة واحدة ام جماعتان وظاهر القرآن الوحدة.
ثم تختلف الروايات في «الرقيم» اهو اسم البلد الذي خرجوا منه او الوادي الذي فيه الكهف او جبله او اسم
كلبهم ، او هو لوح من حجر او رصاص او نحاس او ذهب رقم فيه أسماءهم واسماء آبائهم وقصتهم ووضع على
باب الكهف او داخله او معلقا على باب المدينة او في بعض خزائن الملوك ، او انه لوحان ، اثني عشر وجها في
الرقيم وما في المتن هو الأنسب والله اعلم.

(٢) في قصة اصحاب الكهف روايات متضاربة بعضها خلاف نص القرآن او ظاهره ، وبعضها لا توافق القرآن
ولا تخالفه وثلاثة توافق نص القرآن أو ظاهره ومن الثالث الا في البعض من مواضعها ومن أسلمها ما رواه القمي
في تفسيره حدثنا أبي عن ابن أبي عمير عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال : كان سبب نزول سورة الكهف . الى
قوله في القصة . : سألوا رسول الله عن الثلاث المسائل فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : غدا أخبركم
ولم يستثن فاحتبس الوحي عنه أربعين يوما حتى اغتم النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وشك أصحابه الذين كانوا
آمنوا به وفرحت قريش واستهزءوا وأذوا وحزن ابو طالب فلما كان بعد أربعين يوما نزل عليه سورة الكهف فقال
رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : يا جبرئيل لقد ابطأت؟ فقال : انا لا نقدر ان ننزل الا بإذن الله فانزل الله
تعالى : ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ ثم قص قصتهم فقال : إذ أوى الفتية الى
الكهف ..

قال : فقال الصادق (عليه السلام) : ان اصحاب الكهف والرقيم كانوا في زمن ملك .

. جبار عات وكان يدعو اهل مملكته الى عبادة الأصنام فمن لم يجبه قتله وكان هؤلاء قوماً مؤمنين يعبدون الله عز وجل ووكل الملك بباب المدينة ولم يدع أحداً يخرج حتى يسجد للأصنام فخرجوا هؤلاء بعلقة الصيد وذلك انهم مروا براع في طريقهم فدعوه الى أمرهم فلم يجبههم وكان مع الراعي كلب فأجابه الكلب وخرج معهم.

قال (عليه السلام) : فخرج اصحاب الكهف من المدينة بعلقة الصيد هرباً من دين الملك فلما امسوا دخلوا الى ذلك الكهف والكلب معهم ، فالقى الله عليهم النعاس كما قال الله : ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾ فناموا حتى أهلك الله ذلك الملك واهل المدينة وذهب ذلك الزمان وجاء زمان آخر وقوم آخرون ، ثم انتبهوا فقال بعضهم لبعض : كم نمتنا هاهنا؟ فنظروا الى الشمس قد ارتفعت فقالوا : نمتنا يوماً او بعض يوم ثم قالوا لواحد منهم خذ هذه الورق وادخل المدينة تنكراً لا يعرفونك فاشتر لنا طعاماً فإنهم ان علموا بنا وعرفونا قتلونا او ردونا في دينهم ، فجاء ذلك الرجل فرأى مدينته بخلاف التي عهد لها ورأى قوماً بخلاف أولئك لم يعرفهم ولم يعرفوا لغته ولم يعرف لغتهم فقالوا له : من أنت؟ ومن اين جئت؟ فأخبرهم فخرج ملك تلك المدينة مع أصحابه والرجل معهم حتى وقفوا على باب الكهف واقبلوا يتطلعون فيه فقال بعضهم هؤلاء ثلاثة رابعهم كلبهم وقال بعضهم خمسة سادسهم كلبهم وقال بعضهم سبعة وثامنهم كلبهم ، وحجبهم الله بحجاب من الرعب فلم يكن يقدم بالدخول عليهم غير صاحبهم فانه لما دخل عليهم وجدهم خائفين ان يكونوا اصحاب دقيانوس شعروا بهم فأخبرهم صاحبهم انهم كانوا نائمين هذا الزمن الطويل وانهم آية للناس فبكوا وسألوا الله ان يعيدهم الى مضاجعهم نائمين كما كانوا.

ثم قال الملك : ينبغي ان نبني هاهنا مسجداً نزره فان هؤلاء قوم مؤمنون فلهم في كل سنة تقليباً ينامون ستة أشهر على جنوبهم اليمنى وستة أشهر على جنوبهم اليسرى والكلب معهم باسط ذراعيه بفناء الكهف وذلك قوله تعالى : ﴿ثُمَّ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ﴾ الى آخر الآيات.

وهذه الرواية وهي اسلم روايات القصة قد تخالف آياتها في مواضع.

منها ان المختلفين في عدتهم هم الذين اعثرهم الله عليهم! وهم برؤيتهم على اية حال عارفون عدتهم ، و ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ...﴾ تحول الاختلاف في عدتهم عنهم الى الآتي!.

تطلبوا من الله رحمة لدنية في البداية ورشدا في النهاية ، وكأن «رحمة» او منها ﴿فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ ..﴾ : تخلصا من جبارهم وهم أحياء دونما حاجة الى شراب وغذاء! وكأن «رشدا» او منه ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ ..﴾ رشدا لهم ولمن عثروا عليهم! ﴿أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ﴾ كما أمرهم الله «وإذا اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله فأووا الى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيئ لكم من أمهم مرفقا» وطبعا بإلهام دون وحي ، والأوي تلمح بفرارهم في اعتزلهم عما سوى الله وإيمانهم بالله ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا ...﴾ التماسا مما وعدهم وقد حقق لهم ، ولم تكن تلك الرحمة وذلك الرشدا بالإمكان وهم بين الطغاة المستكبرين.

هنا «من لدنك» تدل على مدى هيمانهم لرحمة بعد ما لاقوا من ضغط بغيض ونقمة ، رحمة لدنية عن نقمة شيطانية ، ثم تهيئة فيها من أمرهم الإمر رشدا : لهم ولمن سواهم ، ومن رحمته ﴿زِدْنَاهُمْ هُدًى ١٢ . وَرَبِّطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ ١٤﴾ ومن الرشدا من أمرهم هدى من اهتدى بذكرهم واقتدى بهداهم!

﴿فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾ ١١ هنالك مثلث من زوايا الحياة وراء اليقظة التامة ١ ، نعسة يسمع فيها الأذن ضربا على البصر وهو نوم نسبي ٢ ونومة لا يسمع فيها الأذن ، والقلب حيّ ضربا على الأذن ، حيث ينام بعد البصر ، وهو نوم مطلق. و ٣ موة عن الحياة الدنيا الى حياة برزخية ضربا على القلب ، والحياة في مثلثها هذه باقية على درجاتها ، وهنالك موة مطلقة ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ﴾

.. ومنها نومتهم الثانية ، وهم لم يموتوا ولا تحمل نومتهم حكمة والقرآن يحيل اطلاق الرسول عليهم وهم نائمون ﴿لَوْ اَطْلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا ..﴾!! ومنها تقلبهم في كل سنة مرتين ، وماذا يفيدهم ذلك التقلب البعيد ، وان كان لا تضاد آية التقلب ، الا انها لا تلائمها ، ثم هي بعيدة في الواقع!.

﴿فَصَعَقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ ومن ورائها حياة مطلقة ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾!.

﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ﴾ هي النومة المطلقة ولكن لا كالعادة المستمرة وإنما ﴿سِنِينَ عَدَدًا﴾!

وترى ماذا تعني «عددا» و «سنين» وهو جمع ، لا محالة عدد؟ قد تعني استقلالا لما استكثر من سنينهم ﴿ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تَسْعًا﴾ فهناك رقعات وموتات ام ماذا من خوارق العادات اكثر من هذا العدد.

فالسنين العدد هنا كدراهم معدودة في يوسف (٢٠) ونفيا عن عجب القصة ، ﴿أَمْ حَسِبْتَ ..﴾ ام وزيادة هنا هي ان سنينهم معدودة معلومة كعدددهم!.

إن الضرب التام على الأذن يسبقه نوم البصر ويقارنه نوم القلب دون موته ، وقد يعبر عنه بتغشية النعاس التي هي حدث صغير من الأحداث : ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسُ أَمَنَةً مِنْهُ ..﴾ (٨ : ١١) واليقظات الثلاث في الإنسان : بصرا وأذنا فقلبا لما تغشى بالنعاس فهناك يتم النوم ويطم ، وقد يستمر باستمرار سببه عاديا كما في سائر النوم ، أم خارقا للعادة كما في ذلك النوم ، حيث ضرب فيه على آذانهم سنين عددا حين يضرب على آذان الآخرين ساعات ، فلم يكن موتا ولا كنوم الآخرين وإنما نومة خارقة العادة ^(١).

(١) وقد يعنيه «أماهم» فيما يرويه الطبرسي في الاحتجاج عن أبي عبد الله (عليه السلام) حديث طويل يقول فيه : وقد رجع الى الدنيا ممن مات خلق كثير منهم اصحاب الكهف أماهم الله ثلاثمائة عام ثم بعثهم في زمان قوم أنكروا البعث ليقطع حجتهم وليريههم قدرته وليعلموا ان البعث حق (نور الثقلين ٣ : ٢٥٢ ح ٢٩).

فالضرب على آذانهم سنين إبطال لمفعولياتها في سنين دون صمم ، ولكنما الضرب على القلب يطل حياته فهناك الموت وان كان الى أمد كما في عزيز والمختارين من قوم موسى آمن ذا ، فهذا احسن تعبير وأشملة لرقدتهم في سنين ، في حين ﴿تَحْسِبُهُمْ أَيَقَاطًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾ كأن لم يضرب على ابصارهم وهم مضربون عن الإبصار!

فانما «ضربنا ﴿عَلَى آذَانِهِمْ﴾ فأصبحوا كمن ضرب سماخه فهو موقوذ مأموم ومشدوده مغمور^(١).

﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحَزِينِ أَخْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا﴾ ١٢.

«بعثناهم» عن نومهم فالبعث ضروب شتى وهو منها : ﴿هُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾ (٦ : ٦٠)

«لنعلم» أبعد جهل؟ ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾! ام تحققا لمعلومه؟ وغير فصيح ولا صحيح ان يعبر عنه ب «نعلم»! وهما إذا كان من العلم ، ام هو من العلم لنجعل مبعثهم علامة : ﴿أَيُّ الْحَزِينِ أَخْصَىٰ..﴾ كما في أمثالها العشرة الأخرى في سائر القرآن^(٢).

وهذا هو الصحيح الفصيح.

(١) هذه الخمسة تعني على الترتيب خرق الاذن . ضرب يشرف الى الموت . مشجوج . المشدوخ الرأس ، المغمى عليه ، ننقل هذه الجملة الجميلة عن السيد الشريف الرضى من كتابه مجازات القرآن ص ٢٠٨ .

(٢) وهو من علم يعلم علما يعني جعل علامة (لسان العرب) ، ومن الشاهد عليه اضافة الى الآيات المحكمات في الخطة العلمية الإلهية ان «نعلم يعلم» في مواردها الإحدى عشر تدخل اما على مفرد «لنعلم الصابرين منكم» او جملة كمفرد كما هنا ، وهو بكسر العين يدخل على مفعولين.

وترى من هما الحزبان؟ أما حزب الايمان اصحاب الكهف وحزب الكفر المختلفان في أمد لبثهم إحصاء؟ ولم يسبق ذكر عن حزب الكفر ، ولا انهم بقوا الى بعثهم ، ولا انهم عرفوا كهفهم حتى يحصوا لبثهم! ام هما من اصحاب الكهف أنفسهم حيث افترقوا فيما احصوا من لبثهم : ﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ ..﴾.

و «أحصى» فعلا من الإحصاء ، فأيهما احصى وأي ما احصى ، فالحصى ﴿قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ﴾ عالمن انهم لبثوا ردحا بعيدا من الزمن يعلمه الله ، وغير المحصى ﴿قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ ثم الأولون كملوا إحصاءهم حيث بعثوا أحدهم بورقهم فتبين لهم كم لبثوا؟

ثم و «أحصى» افعل تفضيل فهما أحصيا والأولون احصى من الآخرين ، ولكن الآخرين لم يحصوا اللهم إلا ظاهرا من نومتهم بآية الشمس غاربة فيوم ام زائلة فبعض يوم!^(١). وجهان أولهما أوجه ولثانيهما وجه بعيد او علّهما معنيان ان الآخرين احصوا وان كان إحصائهم لا يحسب بشيء ، والإحصاء الصحيح العلم انهم لبثوا أمدا بعيدا لا نعلمه ، ثم الأصح الأعلم ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾ إحصاء أو لا إحصاء غلط ، ثم إحصاء صحيح ، ومن ثم إحصاء أصح هو من الله.

﴿لَنَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ١٣ وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَدْعُو مِنْ دُونِهِ إِنْهَاءً لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا﴾ ١٤ .

(١) قال ابو علي الفارسي «أحصى» ليس من باب افعل التفضيل لان هذا البناء من غير الثلاثي المجرد ليس بقياس.

الى مشهد التفصيل من قصتهم شرحا لما أجمل ، أترى هنا تفصيلا عن كلما حصل من غث وسمين؟ وهذه حكاية تاريخية وليست قصة! وإنما «نقص» قصا «نبأهم» فالنبا خبر ذو فائدة عظيمة ، والله يقص أنباء ما قد مضى من غيرها ، اصطفاء للمفيد منها نبراسا ينير الدرب على العالمين.

هنالك في التأريخ مزيج مما يفيد : «أنباء» وما لا يفيد أو يقل ، ومن المفيد ما هو حق وما هو باطل ^(١) والقرآن يقص منها انباء الحق ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ﴾ قصا بالحق عما هو حق مصاحبا لذكرى الحق ^(٢) حق صراح لا يشوبه باطل في أي حقل! ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ...﴾ : مربع من التعريف برجال القصة : «فتية - آمنوا - زدناهم - وربطنا» كل ذلك يربطها برباط القيام في كلمة التوحيد : ﴿رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ .. لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا﴾ ثم تزييف الشرك في ربوبيته ﴿لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا﴾!

١ ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ﴾ : الفتى هو الطري من الشباب وقد يطلق على كل طري شابا ام غير شاب ، وكما يروى ان اصحاب الكهف كانوا كهولا ^(٣) ولفتوتهم في طراوة حريتهم ورجولتهم سموا فتية ، وإلا لماذا «فتية» لا أناس

(١) فقد يختلق امر فيه تقوية لجانب الحق ولكن الغاية لا تبرر الوسيلة.

(٢) بالحق هنا حال من القص ومن النبأ وظرف للقص بباء المصاحبة.

(٣) نور الثقلين (٣ : ٣٤٥ ح ٢٥) في روضة الكافي علي بن ابراهيم (رض) قال : قال : ابو عبد الله (عليه السلام) لرجل : ما الفتى عندكم؟ فقال : الشاب ، فقال : لا الفتى المؤمن ، ان اصحاب الكهف كانوا شيوخا فسماهم الله عز وجل فتية بايمانهم. وفي الدر المنثور اخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) اصحاب الكهف أعوان المهدي (عليه السلام) وفي البرهان عن ابن الفارس قال الصادق (عليه السلام) وسبعة من الكهف يعدهم من اصحاب المهدي (عليه السلام).

ام رجال؟ ثم ولا اثر هنا عن مشاغلهم ومناصبهم^(١). إلا أنهم فتية الايمان والقيام.

﴿أَمْنُوا بِرَبِّكُمْ﴾ في قلوبهم بصرامة وصراحة.

٣ ﴿وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ كما هي سنة الله : ﴿وَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾ ٤

﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ رباطا يحجزهم عن الشتات ، تثبيتا لأقدامهم في هذا القيام والإقدام ﴿وَلَيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ (٨ : ١١) مزيدا للإيمان : ﴿إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْ لَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٢٨ : ١٠).

فالربط هو الشد بالرباط كربط الأسير : شده بالحبل والقَدّ ، ف «ربطنا» هنا يعني شددنا على قلوبهم كما تشد الأوعية بالأوعية فتتضمن على مكنونها ، ويؤمن التبدد على ما استودع فيها ، شددنا عليها لكيلا تنحل معاهد اضطبارها وتحفو عزائم جلدتها ، ولماذا ﴿رَبَطْنَا عَلَى﴾ وهي متعدية بنفسها؟ لأن ربط القلوب وهو رفع التمزق والتقلب في معترك الأحوال ، لا يكفي استقامة ناصعة ، فليربط على قلوبهم سكينه من ربحهم بعد ربطها ، ولكي يقوموا في معركتهم الصاخبة ضد الطاغوت ومتطلباته ، لا فحسب ان يظلوا على عقيدة التوحيد قاعدين فيها دون قائمين ..

فكما سألوا الله ﴿آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً﴾ تعني رحمة خاصة بعد رحمتي الهدى وزيادتها ، فالله ربط على قلوبهم بهذه الرحمة اللدنية ولكي يقوموا :

(١) في بعض الروايات ان الفتية كانوا من أولاد الملوك ، وفي أخرى من أولاد الاشراف وفي ثالثة : من أولاد العلماء وفي رابعة انهم كانوا حماميين يعملون في بعض حمامات المدينة وفي خامسة انهم كانوا من وزراء الملك يستشيرهم في أموره وفي سادسة انهم سبعة سابعهم كان راعي غنم لحق بهم هو وكلبه في الطريق.

﴿إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِهَّا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا﴾ (١٤).

أقياماً في قوله جوفاء؟ ولا تحتاج هكذا قوله الى ربط على قلوبهم والى قيام والله منها براء! بل قياماً في العمق في قوله صادقة عن قلب مربوط بالايمن في توحيد الله لحد يحيل الإشارك بالله : ﴿لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِهَّا﴾ ولا في لفظة قول ﴿لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا﴾ : مفرطاً في البعد عن الحق ^(١) أبعد الايمان ومزيده وبعد ان ربط الله على قلوبنا نفرط في ذلك البعد السحيق من اللإيمان؟ كلاً ولن ...

ولأن قول ﴿رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ ...﴾ ومعه قمة الايمان لا يحتاج الى قيام ، فليكن قولاً جاهراً بين جماهير الناكرين ، في ظرف تذوب فيه القلوب وتتفتت فيه الأكباد وترتاع له النفوس وتقشعر الجلود إذا فهو قيام في بعدي الايمان إعلانا بعد إسرار بكل صمود وإصرار ، يحيل الارتجاع الى الشرك : ﴿لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ ..﴾ قاطعين آمال المشركين ، منقطعين عن كل عمل إلا لله وعن كل أمل إلا في الله! وقد تلمح «لن» ان هناك كانت عليهم ضغوط تحملهم على الإشارك برهم!.

ولكن ذلك توحيد قائم متجاهر باهر لا يقصمه اي جابر ولا يفصمه اي مكابر ، وما يروى في إسرار إيمانهم بتقية في ظاهر الشرك مؤول ^(٢) او

(١) في تفسير القمي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر (عليه السلام) في قوله تعالى : ﴿لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا﴾ يعني جوراً على الله ان قلنا له شريك.

(٢) نور الثقلين ٣ : ٢٤٢ ح ١٧ في اصول الكافي علي بن ابراهيم عن أبيه عن ابن أبي عمير عن هشام بن سالم عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال : ان مثل أبي طالب مثل اصحاب الكهف أسروا الايمان وأظهروا الشرك فأتاهم الله أجراً مرتين.

أقول علّه ينظر الى الحالة قبل قيامهم وازهارهم ، وقوله تعالى : ﴿إِذْ قَامُوا ..﴾ يلمح الى .

مطروح إذ لا توافق الكتاب ، ام وتحالفه.

﴿هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً. لَوْ لَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ

افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ ١٥

«هؤلاء» المناكيد الأوغاد «قومنا» الذين نعاشرهم ﴿اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ﴾ دون رب السماوات والأرض «آلهة» : طواغيت وسواهم من ملائكة او جن او انسان ﴿لَوْ لَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ﴾؟ قضية القاعدة العقلية ان كل دعوى بحاجة ضرورية الى برهان عليها وسلطان يقنع العقول غير المدخولة أيا كان ، وكلما ازداد المدعي محتدا ومكانة يزداد السلطان عليه بيانا وبرهانا ، فدعوى الألوهية بحاجة الى «سلطان بين» وليس عندهم اي سلطان على آلهتهم فضلا عن «بين» وكفاهم كذبا وظلما على الحق ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾؟

إن قيامهم في مقالة التشييت للتوحيد والتنديد الشديد بكل جبار عنيد ، كل ذلك كان جهارا وبين الجماهير قبل انعزالهم عنهم ، فقرروا بينهم قرارهم لما بعد انعزالهم :

. حالتهم قبل قيامهم وبعده وهم فيها كانوا موحدين ، وقد يدل عليه ما رواه العياشي عن عبيد الله بن يحيى عن أبي عبد الله (عليه السلام) انه ذكر اصحاب الكهف فقال : لو كلفكم قومكم ما كلفهم قومهم؟ فقليل له : وما كلفهم قومهم؟ فقال : كلفوهم الشرك بالله العظيم فأظهروا لهم الشرك وأسروا الايمان حتى جاءهم الفرج . وقد يعني من فرجهم قيامهم بتوحيدهم جهادا.

وفي بعض الروايات انهم أظهروا المخالفة وعلم بها الملك قبل الخروج ، رغم البعض الآخر انه لم يعلم الا بعد خروجهم ، وفي ثالث انهم تواطؤوا على الخروج فخرجوا وفي رابع انهم خرجوا على غير تعارف وعلى غير ميعاد ثم تعارفوا وأنفقوا خارج البلد ، وفي خامس ان راعي غنم لحق بهم وهو سابعهم وفي بعضها انه لم يتبعهم وتبعهم كلبه وسار معهم.

﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرفَقًا﴾ ١٦.

هنالك اعتزال عنهم وما يعبدون حيث لا تنفع دعوتهم إلا ملاحظتهم والضغط عليهم ، فاعتزال الاختفاء احتفاظا على أنفسهم ثم أويا الى الكهف ﴿يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ رحمته اللدنية التي التمسوها منه ، وهل رحمة مطوية تنشر ومكنونة تظهر ، والرب لا يكنّ ويطوي رحمته عمن يأهل ، وإنما إسباغها ظاهرة منشورة لا مستورة ، إذا فنشرها هو ابتاءها كما تطلبوها ﴿آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً﴾ ثم ﴿وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرفَقًا﴾ : ما يرتفق به ويعتمد عليه فيكون لظهوركم عمادا ولأعضادكم سنادا.

أجل وان الكهف الضيق الخشن المظلم لهؤلاء الفتية هو منتشر الرحمة ومرتفق النعمة ، إذ يأوون اليه ويلجأون بإيمانهم ، ولكنما البلد وهم بين أهليهم في مجبوحة من عيشة الحياة الدنيا ، هو لهم نقمة ومصيبة إذ ليس لهم فيه راحة الروح والرضوان وفسحة الايمان! فإذا الكهف الضيق البعيد عن الحياة لهم فيه فسحة وحيوية تتسع خيوطها وتمتد ظلالها ويشملهم بالرفق واللين والرخاء ، حيث الحدود الضيقة تنزاح والجدران الصلدة ترق والوحشة الموغلة تشف.

ذلك الكهف الحصين أملهم كما يوسف الصديق يفر من البلاط الى السجن : ﴿رَبِّ السِّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾.

هنا في قصة الآوين الى الكهف روايات ، تقول طائفة منها انهم كانوا ثلاثة هم اصحاب الرقيم ، وهي لا تلائم القرآن إلا ان يكونوا هم من اصحاب الكهف وقد رقموا خالصات أعمالهم نجاتا من الحجر المؤصد عليهم من كهفهم ، ثم لحقهم الآخرون بعد ما نجوا ، فكلهم أصحاب

الكهف والأولون يزيدهم انهم اصحاب الرقيم ، وقد يعمهم الرقيم بعد اختصاصه في وجوه مضت إمّا ذا؟^(١).

وفعلا نشر لهم ربحهم في فجوة الكهف من رحمته اللدنيّة وهيّا لهم من أمرهم مرفقا ، حيث آمنهم في كهفهم وضرب على آذانهم بكل تلطف وتعطف ، ثم بعثهم ليعرفوا رحمته ويلمسوا مرفقه ، وليعلم آخرون ﴿أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ رحمة ومرفق يتخطاهم الى اعماق الزمان والمكان ، طيّا لبعديهما ، وهديا بقصتهم في إذاعات كتابات السماء والقرآن العظيم.

لا يهمننا اين كهفهم وأيان؟ وقد نتلمح ما لحنا إياه القرآن :

﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا﴾ ١٧.

تعريفان اثنان بكهفهم ثانيهما ﴿وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ﴾ : فسحة من كهفهم ، وفسحة من طلوع الشمس وغروبها ، دون ان تؤذيهم بنورها وناورها ، فانما تفيدهم بضوئها ، فجوة وفسحة دون تضايق لا بكهفهم ولا شمسهم ، رحمة ومرفقا من أمرهم! واؤلّهما ﴿إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ .. وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ﴾ : وهنا نتلمح

(١) نور الثقلين ٣ : ٢٤٦ ح ٢٨ في كتاب كمال الدين وتمام النعمة باسناده الى محمد بن إسماعيل القرشي عمن حدثه عن إسماعيل بن اعل بن أبيه عن أبي رافع عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) حديث طويل قال فيه بعد ان ذكر عيسى ثم يحيى بن زكريا ثم العزيز ثم دانيال ثم مكيا بن دانيال . وملوك زمانهم فعند ذلك ملك سابور بن هرمز اثنى وسبعين سنة وهو اول من عقد التاج ولبسه وولى امر الله عز وجل يومئذ وهو الشواء بن مكيا وملك بعد أردشير أخو سابور سنتين وفي زمانه بعث الله الفتية اصحاب الكهف والرقيم وولى امر الله في الأرض يومئذ دستجا بن لشوا بن مكيا.

موقعهم من الكهف وموقع الكهف نفسه.

والتزاور أصله الميل من الزور : الصدر . لا الزيارة ، فترى الشمس تميل عن كهفهم كما يميل المتزاور عن الشيء بصدرة ووجهه؟ يبين بذلك عن موضع الكهف المشار اليه من جهات المشرق والمغرب ان الشمس لا يلحقه ثوبها عند شروقها ، ولا ينفض عليه عند غروبها حيث تجوزهم عادلة بمطرح شعاعها عنهم ، او انها تعطيهم القليل من شعاعها عند مرّها بهم ثم تسترجعه عند انصرافها عنهم ، تشبيها بقرض المال الذي يعطيه المعطي ليسترده ، ويقدمه ليرتجعه.

فلم يكن الكهف . إذا . شرقيا ذات اليمين فتشرق في العمق ، ولا غربيا ذات الشمال فتغرب عن العمق ، وانما طلوع تزاور ذات اليمين ميلا عنه ، وغروب قرض لهم ذات الشمال ، إذا فليكن له باب نصف شرقية واخرى نصف غربية ، الشرقي الشمالي ، والغربي الجنوبي ، ولكي ينطبق على الجغرافية المستفادة من الآية . فلا تحرمهم الشمس ولا تحرقهم ، وانما تشرقهم ، دون حدة المقابلة لا شرقية ولا غربية . وهذا ينطبق على الكهف الواقع قرب عمان الأردن^(١).

(١) هو على ما في الميزان ١٥ : ٢٩٧ كهف رحب على مسافة ثمانية كيلو مترات من عمان الأردن قرب قرية رجب ، في جبل محفورا على الصخرة في السفح الجنوبي منه وأطرافه من الجانبين الشرقي والغربي مفتوحة يقع عليه شعاع الشمس منها وباب الكهف يقابل جهة الجنوب وفي داخله صفة صغيرة قرابة ثلاثة امتار في مترين ونصف متر على جانب من سطحه المعادل لثلاثة في ثلاثة تقريبا وفي الغار عدة قبور على هيئة النواويس البيزنطية كأنها ثمانية او سبعة ، وعلى جدرانها نقوش وخطوط باليوناني القديم والشمردى منمحية لا تقرأ وصورة كلب مصبوغة بالحمرة وزخارف وتزيينات اخرى.

وفوق الغار آثار صومعة بيزنطية تدل النقود والآثار الاخرى المكتشفة فيها على كونها مبنية في زمان الملك جوستينوس الاول ٤١٨ . ٤٢٧ وآثار اخرى تدل على ان الصومعة بدلت .

ام كان شرقيا وغربيا حسب البابين ، ولكنه لطوله وهم في فجوة منه تشرق فيه الشمس ذات اليمين ولا تصلهم ، وتغرب عنهم الشمس قرضا وقد مستهم بخفيف ضوءها ولطيفه ، فينطبق على كهف آخر ^(١).

. ثانيا مسجدا بعد استيلاء المسلمين على الأرض ، مشتملا على المحراب والمأذنة والميضأة ، وفي الساحة المقابلة لباب الكهف آثار مسجد آخر بناه المسلمون في صدر الإسلام ثم عمروه وشيدوه مرة بعد أخرى ، وهو مبني على انقاض كنيسة بيزنطية كما ان المسجد الذي فوق الكهف كذلك.

وكان هذا الكهف بالرغم من الاهتمام بشأنه كما تدل آثاره متروكا منسيا متهدما حت اهتمت دائرة الآثار الاردنية أخيرا (سنة ١٩٦٣ م المطابقة (١٣٤٢) والى في ذلك متصدية الاثرى الفاضل «رفيق وفا الدجاني» كتابا سماه اكتشاف كهف اهل الكهف نشره سنة ١٩٦٤ . ١٣٤٣). بحفره وتنقيبه فاكشفته فظهر بعد خفائه قرونا عدة ، وهنالك أمارات وشواهد اثرية على كونه هو كهف اصحاب الكهف :

يقول في اكتشاف الكهف انه الكهف الذي ورد ذكره في الكتاب العزيز ويذكر انطباق الأمارات المذكورة فيه وسائر العلام التي وجدت هناك على هذا الكهف دون كهف افوس والذي في دمشق او البتراء او اسكاندنا فيه واستقرب فيه ان الطاغية الذي هرب منه اصحاب الكهف فدخلوا الكهف هو «طراجان الملك ٩٨ . ١١٧ م لا دقيانوس الملك ٢٤٩ . ٢٥١ الذي ذكره المسيحيون وبعض المسلمين ولا دقيانوس الملك ٢٨٥ . ٣٠٥ الذي ذكره بعض آخر من المسلمين في رواياتهم واستدل عليه بان الملك الصالح الذي بعث الله اصحاب الكهف في زمانه هو «ثئودوسيوس» الملك ٤٠٨ . ٤٥٠ بإجماع مؤرخي المسيحيين والمسلمين وإذا طرحنا زمان الفترة الذي ذكره القرآن لنوم اصحاب الكهف وهي ٣٠٩ سنين من متوسط كلم هذا الملك الصالح وهو ٤٢١ بقي ١١٢ سنة وصادف زمان حكم طراجان الملك وقد اصدر طراجان في هذه السنة مرسوما يقتضي ان كل عيسوي يرفض عبادة الإلهية يحاكم كخائن للدولة ويعرض للموت.

(١) وهنالك كهوف اخرى مثل كهف بجبل قاسيون بالقرب من الصالحية بدمشق الشام ينسب الى اصحاب الكهف وانا زرتة وعله في الدرجة الثانية من محتملات الكهف ، وثالث .

وأيا كان كهفهم فموضوع البحث هم أنفسهم إذ كانوا من آيات الله في قيامهم ولبثهم في كهفهم وتزاور الشمس عن كهفهم إذا طلعت وقرضهم إذا غربت وتقليبهم ذات اليمين وذات الشمال : ﴿ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا﴾.

وترى من ذا تعني «ترى»؟ أهو الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ولم يطلع عليهم عيانا كما تلمح «لو» : في ﴿لَوْ أَطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ﴾! أم غيره؟ فأحرى ألا يطلع فيرى! أم هو بيان الحال إن كان هناك من يرى لرأى الشمس .. أو «ترى» خطاب لمن يرى ، تلميحا ان هناك من سوف يكشف الكهف فيرى ، او ان الرسول رآه ولم يطلع عليهم ولعله أحرى ، اضافة الى من يرى ، مهما لن يروا ﴿أَيَقَاطًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾ بعد ما اعثر عليهم فيما مضى ، فان رؤية الشمس تزاور تكفيها رؤية الكهف ، وهي بسيطة

. بالبتراء من بلاد فلسطين ينسب الى اصحاب الكهف ورابع هو كهف أفسوس مدينة خربة اثرية واقعة في تركيا على مسافة ٧٢ كيلومترا من بلدة ازمير والكهف على مسافة كيلومتر واحد من إفوس قرب قرية «اياصولوك» بسفح جبل «ينايرداغ» وهو كهف واسع فيه . على ما يقال . مئات من القبور مبنية من الطوب وهو في سفح الجبل وبابه متجه نحو الجهة الشمالية الشرقية وليس عنده اثر من مسجد او صومعة او كنيسة ، وهو الأعرف عند النصارى وورد ذكره في عدة روايات إسلامية ، وخامس اكتشف . على ما قيل . في شبه جزيرة اسكاندنا فيه من الاوروبة الشمالية عثروا على سبع جثث غير بالية على هيئة الرومانيين يظن انهم اصحاب الكهف . وربما يذكر كهوف اخرى منسوبة الى اصحاب الكهف كما يذكر ان بالقرب من بلدة نخجوان من بلاد قفقاز كهفا يعتقد اهل تلك النواحي انه كهف اصحاب الكهف وكان الناس يقصدونه ويزورونه ، والكهوف غير الرومانية من هذه الست نقطع انها ليست لأصحاب الكهف لان القصة رومانية ولم تبلغ سلطتهم في ايام مجدهم نواحي اوروبة شمالية وقفقاز .

لِلرَّسُولِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) وَهِيَ غَيْرُ رُؤْيَتِهِمُ الْمُسْتَحَالَةَ بِ «لَوْ» فَإِنَّهُمْ قَضَوْا نَجْبَهُمْ.
﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ
ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُغْبًا﴾ ١٨.

﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا﴾ حيث العيون مفتحة لا غامضة ، مهما كانت حالتهم غامضة ،
﴿وَهُمْ رُقُودٌ﴾ حيث «ضربنا» ﴿عَلَى آذَانِهِمْ﴾ ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ﴾ طول مكوثهم المديد ﴿ذَاتَ
الْيَمِينِ﴾ من شمائلهم ﴿وَذَاتَ الشِّمَالِ﴾ من إيمانهم ، تقلبا دائبا جنبا الى جنبه كيلا تأكلهم
الأرض بطول المكوث ، كيقظة اوتوماتيكية ، و «كلبهم» طول هذه المدة ﴿بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ
بِالْوَصِيدِ﴾ : فناء الكهف وبابه ، أحيا يرصدهم؟ أم راقدا كأمثالهم؟ لا أثر عن رقدته في
آياتها ، فليكن يقظانا يرقبهم وهو آية في هذه الآيات ^(١)!

حالتهم المنقطعة النظير بين موت وحياة ويقظة ورقدة تولى المطلع عليهم فرارا وتملاؤه
رعبا.

وترى ذلك الحسبان مستمر الى زمن الرسول (صلى الله عليه وآله

(١) نور الثقلين ٣ : ٢٥١ ح ٣٦ . القمي حدثني أبي عن الحسين بن خالد عن أبي الحسن الرضا (عليه السلام)
انه قال : لا يدخل الجنة من البهائم الا ثلاثة : حمارة بلعم وكلب اصحاب الكهف والذئب وكان سبب الذئب
انه بعث ملك ظالم رجلا شرطيا ليحشر قوما من المؤمنين ويعذبهم وكان للشرطي ابن يحبه فجاء ذئب فأكل ابنه
فحزن الشرطي عليه فادخل الله ذلك الذئب الجنة لما احزن الشرطي.

وسلم) ولحد الآن حيث ﴿تَحْسَبُهُمْ آيِقَاطاً وَهُمْ رُقُودٌ﴾^(١) فهم حتى الآن وحتى متى! ولا ندري! نائمون؟ ولماذا تلك النومة الطويلة بعد القومة عن الأولى ولا خبر عن هكذا نوم ليستدل بهم علي ﴿أَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾! أم انه حكاية لحال ماضية؟ قد تلمح لها ﴿لَوْ أَطْلَعْتَ عَلَيْهِمْ﴾ حيث تحيل ذلك الاطلاع ، ولو كانوا في حالتهم الى زمنه كان (صلى الله عليه وآله وسلم) أخرى من يطلع عليهم ، وإلا فما هي الحكمة في بقاءهم نائمين ولن يطلع عليهم الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) المطلع على كل مطلع هو مطلع لرسالته كسائر مطالعها! والهدف من هذه الآية الإلهية الاثارة عليها ﴿وَكَذَلِكَ أَغْتَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ ولا عثور عليهم بعدهم لحد الآن ، فلا حكمة في نومتهم حتى الآن ومنذ اعثر عليهم! ^(٢) .. ثم الآية ﴿لَوْ أَطْلَعْتَ ..﴾ تتحدث عن حالتهم قبل بعثهم فتنقطع إذا بيعتهم ، واما انهم ارجعوا الى نفس الحالة ام ماتوا فلا دلالة هنا على اي منهما ، إلا استدلال على موتهم

(١) في رواية القمي عن الامام الصادق (عليه السلام) الماضية : «فأخبرهم صاحبهم انهم كانوا نائمين هذا الزمن الطويل وانهم آية للناس فبكوا وسألوا الله ان يعيدهم الى مضاجعهم نائمين كما كانوا ..

(٢) في الدر المنثور عن ابن عباس قال : غزونا مع معاوية غزوة المضيق نحو الروم فمررنا بالكهف الذي فيه اصحاب الكهف الذي ذكر الله في القرآن فقال معاوية : لو كشف لنا عن هؤلاء فنظرنا إليهم فقال له ابن عباس : ليس ذلك لك قد منع الله ذلك عمن هو خير منك فقال «لَوْ أَطْلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتُ مِنْهُمْ فِرَاراً وَلَمْ لُيْتُ مِنْهُمْ رُغْباً» فقال معاوية : لا انتهي حتى اعلم علمهم فبعث رجلا فقال : اذهبوا فادخلوا الكهف ، فانظروا فذهبوا فلما دخلوا الكهف بعث الله عليهم ريحا فأخرجتهم فبلغ ذلك ابن عباس فانشأ يحدث عنهم ...

أقول : لو كانت الرواية منسوبة الى المعصوم لما كنا نصدقها حيث لا توافق القرآن او تخالفه ، فضلا عن ابن عباس!.

بما استدللنا ، والكهوف المكتشفة لحد الآن دليل واقعي على انهم ليسوا بنائمين ^(١).
وقد يعني ﴿لَوْ اَطْلَعْتَ﴾ غير الرسول (صَلَّى الله عليه وآله وسلم) فانه لا يولي فرارا من
آية إلهية ولا يملأ منها رعبا ^(٢) إم إنها تحيل الاطلاع عليهم لأنهم أموات وليسوا نياما ، ثم
تولي الفرار والرعب على فرض الاطلاع لسواه دونه!
﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا

(١) في كتاب سعد السعود لابن طاووس نقلا عن تفسير أبي إسحاق ابراهيم بن محمد القزويني باسناده الى انس بن مالك قال : اهدي لرسول الله (صَلَّى الله عليه وآله وسلم) بساط من قرية يقال لها يهندف فقعد عليه علي وابو بكر وعمر وعثمان والوزير وعبد الرحمن بن عوف وسعد فقال النبي (صَلَّى الله عليه وآله وسلم) لعلي : يا علي! قل يا ريح احمل بنا فقال علي (عليه السلام) : يا ريح احمل بنا فحمل بهم حتى أتوا اصحاب الكهف فسلم ابو بكر وعمر فلم يردوا السلام ثم قام علي (عليه السلام) فسلم فردوا عليه السلام فقال ابو بكر : يا علي ما بالهم ردوا عليك ولم يردوا علينا؟ فقال لهم علي (عليه السلام) فقالوا : انا لا نرد بعد الموت الا على نبي او وصي نبي ثم قال علي (عليه السلام) : يا ريح احملنا فحملنا ثم قال : ضعينا فوضعنا فركز برجله الأرض فتوضأ علي (عليه السلام) وتوضأنا ثم قال : يا ريح احملينا فحملتنا فوافينا المدينة والنبي (صَلَّى الله عليه وآله وسلم) في صلاة الغداة وهو يقرأ ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ فلما قضى النبي (صَلَّى الله عليه وآله وسلم) الصلاة قال : يا علي اخبروني عن مسيركم ام تحبون ان أخبركم؟ قالوا : بل نخبرنا يا رسول الله (صَلَّى الله عليه وآله وسلم) قال انس بن مالك : فقص القصة كأن كان معنا. (هامش نور الثقلين ٣ : ٢٤٨ - ٢٤٩).
(٢) في تفسير العياشي عن محمد بن سنان البطيخي عن أبي جعفر الباقر (عليه السلام) في الآية قال : إن ذلك لم يعن به النبي (صَلَّى الله عليه وآله وسلم) انما عني به المؤمنون بعضهم لبعض لكن حالهم التي هم عليها.

يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَيْسْتُمْ فَاِذْعَبُوا حَدَّكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ
أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ .

«وكذلك» الذي فعلنا من آيات خوارق للعادات في الضرب على آذانهم سنين عدا وتقليبهم فيها ذات اليمين وذات الشمال ، وتزاور الشمس عنهم ، وقرضها إياهم : ﴿كَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ﴾ آية اخرى ﴿لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ﴾ عن مكثهم وبعثهم كغاية أولى لأنفسهم ، ومن ثم لمن سواهم : ﴿وَكَذَلِكَ أَغْتَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا ..﴾ !
تساءلا بينهم ينبههم بإجابة المقال والحال ان للحق دولة وللباطل جولة ، أنهم يفكرون أعينهم من هذه النوم الطائلة الثقيلة فيسأل سائلهم ﴿كَمْ لَيْسْتُمْ﴾ ؟ ولأنه لا يدري كم لبثوا ، فيأتي الجواب ﴿لَيْسْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ ترددا لهم كلهم ، أو اختلافا بينهم في «يوم او بعض يوم» إجابة دون تعمق وتأثق ، تلوح من ظاهر النوم : ثقيلًا بعض يوم ، ام أثقل فيوم او ان «يومًا» بتخيل انهم استيقظوا في مثل الوقت الذي ناموا فيه صباحا او مساء ف «يومًا» او اخطأوا المثل فظنوا المساء صباحا او الصباح مساء وقد ناموا خلافه ف «بعض يوم» والنوم يقتضي هكذا تردد في امده وحده ، او انهم ناموا غدوة وبعثوا آخر النهار فظنوا انهم لبثوا يوما ، فلما رأوا الشمس باقية قالوا ﴿أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ ولذلك تقدم «يومًا» على ﴿بَعْضَ يَوْمٍ﴾ ام ماذا؟

«قالوا» جماعة آخرون وعلّ السائل منهم فطرفان ، ام ليس منهم فثلاثة ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَيْسْتُمْ﴾ فلسنا نحن له بعالمين ، إذ نتلمّس خارقة في نومتنا لم نلمسها في سائرنا حيث الشعور طويلة كما الأظفار ، والوجوه متغيرة ، ما لا يحصل في أية نومة ، فلا يوم ولا بعض يوم! وليس «اعلم»

هنا فقط تأدبا فإنه ليس قولاً ورأيا ثانيا يجعل قائله حزبا ثانيا ، ولا انه إحصاء ثان ﴿لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى﴾ وإلا لقالوا «ربكم اعلم بما لبثنا» لا ﴿رَبُّكُمْ﴾!

إنما «اعلم» لأن لنا بعض العلم بأمد لبثنا اعتبارا بمظاهرتنا ، ثم لا نعلم أمدنا إحصاء تاما بل ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا...﴾

ومن لطيف الأمر في هذه الحوار انها تلمح انهم لم يكونوا اقل من سبعة : ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ﴾ فواحد ﴿قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ أقلهم ثلاثة فانها اقل الجمع ﴿قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾ كذلك اضافة الى جمعي «كم وتم» حيث يؤكدان جمع الأول كما ان «قالوا» دليل الجمع الثاني!

وإذا حصرت الأقوال في عدتهم في : ثلاثة - خمسة - سبعة ، فالأولان مرفوضان والثالث متعين ، ولا سيما بما يأتي من رجم الغيب لهما دونه ^(١)

وهذا هو شأن المؤمن : «ربنا اعلم» فيما لا يعلم ، ام يعلم ولا يستيقن ، وكيف يعلم ما يعلمه الله من أمره الذي لا يعلم؟ يحاول بما عنده من وسائل ليعلم ومنها هنا : ﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ...﴾ يتبين لكم من نومكم ﴿يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ ام دهرًا طويلا قضي على

(١) هنا احتمالات ست . ١ . «قَالَ قَائِلٌ» واحد «قَالُوا لَبِثْنَا...» ثلاثة «قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ» ثلاثة والمجموع سبعة . ٢ . «قالوا» في كل اثنان ، أحدهما في الثانية هو القائل الأول فالمجموع اربعة ، ام ليس هو هو فخمسة ، او «قالوا» في أحدهما اثنان وفي الآخر ثلاثة ، واحد من الثاني هو الاول فخمسة ام لا فستة ، فالأربعة والستة خلاف الأقوال الثلاثة في الآية (٣٢) والخمسة تخالف ظاهر الجمع انه ثلاثة فما فوق ، فالمتعين هو السبعة حيث الاول «قَائِلٌ مِنْهُمْ» ليس في «قالوا» الثانية وهو لا ينافي في «أَيُّ الْحِزْبَيْنِ» فانه ليس حزبا ولا داخلا في اي الحزبين تأمل.

السلطات الطاغوتية في المدينة ، فان كانت السلطة باقية ف ﴿لَيَتَلَطَّفَ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾ : والظاهر انها باقية باغية! وإن لا ، فلا حائطة ولا تقية!

ترى وماذا يحملهم ان يبعثوا أحدهم بورقهم ليأتهم برزق من المدينة وهم يحذرون ان ينكشف أمرهم؟ فهلا صبروا على جوع حفاظا على أنفسهم جميعا! وهم يعلمون ﴿إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلَحُوا إِذَا أَبَدًا﴾ وإنها للخسارة الكبرى! علّهم وصلوا من الجوع لحد لا تصبر عليه إلا الموت صبرا ، فهم إذا بين موت معمد جماعي قاطع ، وبين تعريض واحد منهم لخطر يمتل ، وهو طبعاً ممن يتستر في أمرهم ويستترهم دون إشارة إليهم مهما بلغ أمره ، حيث التلطف هو التخفي الكامل ، ومن ثم لو عرفوه فلا يتجاوز نفسه إليهم : ﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾.

راى صائب ثاقب حصيلة شورى بين هؤلاء الأكارم القائلين : ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾ فيه كل حائطة على المبعوث بورقهم وعليهم ، تتبين من ﴿فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا﴾ أي المدينة ازكى .. حيث يحمل سيرا رفيقا حثيثا في المدينة يتعرف فيه إليها والى أهلها ليطمئن إليها هل هي كما كانت فحذرا ، ام تغيرت الى الايمان فأمانا ، ومن ثم ليحصل على أزكى طعام فيها إذا ظلت في إشراكها بالله ، فليس لموحد ان يتطعم من مشركين طعاما يخللونه خلاف شرعة الله ، واما عند الضرورة ﴿فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا﴾ تقليلا لرجاسة الطعام الشركية كتقليل الطعام لبلغة الحياة : فالضرورات تبيح المحظورات وتقدر بقدرها! ومن جهة اخرى فالأزكى طعاما من المدينة هو الأزكى أخلاقا فلا يتجسس عن خبايا الناس ، ولا يتحسس لصالح الطاغوت مهما كان مستضعفا في حكم الشرك ، فهذه ابعاد ثلاثة من المصالح في ﴿فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا﴾..!

و ﴿أَزْكَىٰ طَعَامًا﴾ هنا تشمل زكاة الحل وزكاة الطهارة والطيبة قدر الإمكان فما لا يدرك كله لا يترك كله ﴿فَمَنْ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٥) : (٣) ومنه في ﴿فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ﴾ راجع الى الورق والى الطعام ، رزق من الورق دون زيادة عليه وان كان النقص منه ، ورزق من الطعام كبلغة الحياة دون زيادة عليها ولا اقل منها .
ومن ثم تتبين هذه الحائطة من «وليتلطف» تكلفا لإخفاء امره ، ورفقا ولينا في المعاملة تجنباً عن المشاجرة التي هي من اسباب التفتيش عنه فعنهم ووا ويلاه! ﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾ إن شعروا به ام ماذا؟ فليكن صلبا صلدا لا يمد الى احد شعرة واشعارا فشعورا مهما أفرغت عليه الضغوط ولحد الموت ، حفاظا على ايمانه وعلى دماء ونفوس الآخرين :
﴿إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبَدًا﴾ ٢٠ .
الظهور على هو التطلع علما وواقعا ، فليس العلم بهم دون الوصول إليهم ظهورا عليهم ، ولا الوصول إليهم دون علم بهم ظهورا عليهم ، إنما هو الوصول المطلع كما ﴿الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ﴾ تعنيه ، فلا علم الطفل دون بلوغ الحلم بعورات النساء يكفي فرض الحجاب عنهم ، ولا الوصول الى عوراتهن دون علم انهما مواضع الشهوات يكفي ، وانما الظهور على العورات علما بها وامكانية الوقاع!
إن أشعر هذا المبعوث بكم ، تخللوه الى العلم بكم اطلاعا عليكم وهم بعاد ، ثم التطلع عليكم حتى تصبحوا في قبضتهم فيقع المخطور بين أن «يرجموكم» قتلا فضيحا منفورا مطرودا ، ولكي يشتركوا فيه كلهم إذا كانوا كلهم مشركين ، ام وأشد تنكيلا ﴿أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ﴾ حملا على الإشراك وان في ظاهر الحال حيث العقيدة لا تقبل الإكراه.

هنا يتقدم الرجم لأنه ظاهر الحال العاجلة من السلطة المشتركة التي كانت في طلبهم وهم على ما هم من تصلّب العقيدة وتصلّدّها ، ومن ثم لو نجوا عن الرجم فإعادة الى ملتهم وهي أشد من الرجم وأنكى !.

ترى وإذا اتقوهم في ظاهر الحال مسايرة عملية مع الحفاظ على إيمانهم أليسوا إذا مفلحين؟ ولكننا الدخول في جوّ التقية دونما إكراه ضلال ، حيث يقضي على عمل الايمان ، ومن ثم القضاء يتسرب للقضاء على نفس الايمان ، حيث التعوّد المسير على ترك واجبات الايمان وفعل محرماته ، مما يجرف تدريجيا الى ترك الايمان وليسوا هم بطبيعة الحال ممن يكتفي منكم بظاهر ادعاء العودة في ملتهم بعد ما قمتم قومتمكم في رفضها ، إلّا ان يراقبكم رقابة تامة في القيام بطقوس الشرك وترك التوحيد بكل مظاهره.

ف ﴿يَهْتَمُّ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ .. وَلَنْ تُفْلَحُوا إِذَا أَبَدًا﴾ أن ﴿يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ﴾ وكذلك ان «يرجموكم» حيث الظهور عليكم المخلف وراءه رجمكم إلقاء لأنفسكم بأيديكم الى التهلكة! فلو ماتوا جوعا خيرا لهم من ان يذهبوا ضياعا : رجما انتهاريا ام عودا في ملة الشرك اختياريا حيث الامتناع بالاختيار لا ينافي الاختيار!

وليس طلب البلغة والبقية للحياة مما يسمح لاقاء النفس الى التهلكة رجما ام عودا في ملة الشرك ، اللهم الا بحائطة قاطعة ان ﴿لَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾ ، ولو شعروا فلا تتحمل إلّا رجما!

واعادتهم في ملتهم دليل على أنهم كانوا على ملتهم ثم استبصروا وكما نتلمحه من «إذ قاموا فقالوا ربنا الله لن نشرك به أحدا» أو أنهم كانوا لردح من الزمن يسايروهم في ظاهر الشرك تقية نقية اضطرارية ، والعودة الى هذه الحالة اختياريا عود في ملة الشرك وان كان ظاهريا وهذا أظهر من العودة قضية كونها كالبداة ولا عودة اضطراريا الى عقيدة.

فعلى المؤمن الفرار من جو الضلال والتقية ، ثم ليس له الرجوع الى ذلك الجو إلا لمرجح أهم ، او الإقدام على ما يحتمل الرجوع اضطراريا لواجب أهم رعاية للحائطة ، فلا تقية ﴿إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ (١٦ : ١٠٦) وهنا يذهب الايمان ويذوب وليست تقية إكراه حيث التسبب الى الانحصار في مجتمع الكفر والانحسار عن خالص التوحيد كان نتيجة الاختيار ، وأرض الله واسعة تفرض على المؤمن الفرار بإيمانه ، فكيف الرجوع الى جو اللإيمان : ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا. إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا. فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُو عَنْهُمْ ، (٤ : ٩٩).

هكذا نشهد مشهد فتية الايمان إذ يتناجون فيما بينهم حذرين غير عارفين بمرور الأيام ومرور الأعوام ، فقد دارت عجلة الزمان فتعاقبت اجيال واختلفت أميال ، فمدينتهم التي هاجروها تغيرت عوالمها ومعالمها ، ودالت دولات المتسلطين عليها وقصة الفتية تناقلتها الأُخلاف عن الاسلاف على تعارض الأقاويل حولهم.

ومن ثم الآن اهل المدينة مؤمنون ، شديدو الحفاوة بالفتية المؤمنين ، وبعد ما رأوا واحدا منهم بصورة وسيرة اخرى وبورق آخر مرت عليه الزمن :

﴿وكَذَلِكَ أَعْتَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرُهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا﴾ (٢١)

الإعثار هو الاطلاع مضمنا مصادفة الشيء من دون طلب له ولا

إحساس به وأصله ان الساعي في طريقه إذا صك قدمه او نكب إصبعه شيء ففي الأغلب انه يقف عليه متأملاً له فكأنه استفاد علمه دون ان تتقدم معرفته به ، وكذلك أعثرهم الله عليهم.

«وكذلك» الذي حصل من آيات أصحاب الكهف : ﴿ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ تتلوها آية اخرى هي ان «أعثرنا» أهل المدينة «عليهم» لأمرين اثنين للذين عثروا ، بعد امر هام لأصحاب الكهف «ليتساءلوا» امر أول ﴿لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ وثان : ليعلموا ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ..﴾

وهل «ليعلموا» اصحاب الكهف؟ وهم كانوا على علم بحق الوعد لهم وان الساعة آتية! اللهم إلا عين اليقين بما رأوا من وعد الله الحق في أمرهم الرشد والمرفق ، وعين اليقين بما رأوا من بعثهم بعد نومتهم التي هي كانت كموتة!

كذلك و «ليعلموا» من اعثروا عليهم نفس العلم مهما اختلفت الدرجات ، وليعلم من يسمعها ، ف «ليعلموا» يشملها وسائر من يعلم قصتهم على مر الزمن.

ترى انه أعثر عليهم وهم أحياء؟ فلما ذا ﴿يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ﴾ ولهم أن يسألوا أصحاب الكهف أمرهم! وكيف «قالوا» ﴿ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا﴾ وهم بعد أحياء!

ام أعثر عليهم بعد ما ماتوا فقد سدل الستار على مشهدهم لعرض مشهد آخر وبينهما فجوة متروكة فيها موتهم؟ فللتنازع في أمرهم هنا موقع ، ولبناء بنيان عليهم هنا معنى!

أم بين ذلك عنوان ، أعثر على أحدهم المبعوث الى المدينة حيا وهو طبيعة الحال المعلومة من القصة ، ومن ثم أعثر على الباقيين ميّتين و ﴿الَّذِينَ

غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ ﴿﴾ انما غلبوا بمبعوثهم على أمرهم من طول شعوره وأظفاره ومن قديم ملابسه وقديم ورقه ولهجته ومواجته دون ان يشعر هو بشيء من ذلك اللهم إلّا حالته الظاهرة التي لا تخفى على ذي حجبى! ،

ام اعثر عليهم وهم أحياء ، وفور العثور أماتهم الله ، فلم يبق لغلب على أمرهم مجال اللهم إلّا من مبعوثهم لجماعة خصوص اختصوا بالغلب به على أمرهم؟
حقا لا يستفاد من آيات القصة أنهم اعثروا عليهم بعد موتهم! وليس في هكذا إعتار علم ﴿أَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ ﴿﴾ إلا أن يروهم أحياء عن نومتهم ، ثم اماتتهم عن حياتهم في رفدتهم.

ولا نعلم بموتهم فور العثور عليهم دون إمهال إلّا من خلال ﴿إِذْ يَتَنَزَّعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرُهُمْ﴾ و ﴿ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا﴾!

وذلك إعتار مثنى أن يشهدوا مشهد أصحاب الكهف أحياء وأمواتا ، ف «يعلموا ﴿أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ ﴿﴾ فيما حقق لهم وفي إتيان الساعة ، ويعلموا ﴿أَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾.

وأما أن يشهدوهم أمواتا فلا معلمة فيها ، اللهم إلّا إعتارهم على مبعوثهم فقط حيّا ، وهذا لا يلائم تنازع أمرهم بينهم وبناء بنيان عليهم أم هو بعيد! ^(١).

(١) في بعض روايات القصة أنهم لما هربوا واطلع الملك على أمرهم افتقدهم ولم يحصل منهم على اثر ، وفي بعض انه وجدهم نياما في كهفهم فأمر ان يبنى على باب الكهف بنيان ليحتبسوا فيموتوا جوعا عطشى فبقوا على حالهم حتى إذا أراد الله ان ينبههم بعث راعي غنم فخرّب البنيان ليتخذ حظيرة لغنمه وعند ذلك بعثهم الله أيقاظا وكان من أمرهم ما قصه الله ، وفي بعض انه لما ظهر أمرهم أتاهاهم الملك ومعه الناس فدخل عليهم الكهف فكلّمهم فبينما هو يكلمهم ويكلّمونه إذ ودعوه وسلموا عليه وقضوا نحبهم وفي بعض أنهم .

ترى وما هي مادة التنازع في أمر أصحاب الكهف بين هؤلاء الذين أعثروا عليهم؟ هل هي أمر مكوثهم الخارق للعادة؟ فطائفة منهم تغامضوا عن كونها آية للبعث وان الساعة آتية لا ريب فيها فقالوا ﴿ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُيُوتًا رَحْمَةً أَعْلَمَ بِهِمْ﴾ بنيانا يخفي أمرهم ، فنحن لا ندري من أمرهم شيئا فلنجعله في زمرة المجاهيل المغايل ﴿قَالَ الَّذِينَ عَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا﴾ ليكونوا عبرة للزائرين ومعبدًا للساجدين ، دليلا على التوحيد ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ وهم الموحدون الذين عرفوا أمرهم ، لا السلطة الزمنية إذ لا تختص بهذه الغلبة دون الشعب ، والسلطات الزمنية في الأغلبية الساحقة مهدمة المساجد لا معمرتها ، ثم ومن يجرأ على المنازعة مع السلطة مع تقديم الرأي ضد السلطة ، فانما هم الغالبون على أمر اصحاب الكهف قضية قوة الايمان!

ومادة اخرى بين الذين غلبوا على أمرهم ، وتنازعوا فيها رغم الوحدة في آية نومهم ، هي أمد لبثهم أماذا من أمرهم ومن ثم التنازع في عدتهم ، وطبعا لمن لم يغلب على أمرهم ومن أظهره عدتهم :

﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ (٢٢).

فيما مضى عرفنا من حوار اصحاب الكهف في ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ﴾ انهم لم يكونوا باقل من سبعة ، وهنا نتأكد انهم سبعة ، فان ﴿رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾ ترجم القولين دون السبعة ، ثم لا رجم على ﴿وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ﴾ فلو كان مثلهما ،

. ماتوا او ناموا قبل ان يدخل عليهم الملك وسدَّ باب الكهف وغاب عن ابصارهم فلم يهتدوا للدخول فبنوا هناك مسجدا يصلون فيه . أقول ولا نقول إلا ما يوافق القرآن وقد نتحمل ما لا يخالفه.

لردف بهما في ﴿رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾ ام لو كان المرجوم أحد الأولين فقط لاختص هو بالرجم دون الآخر ، وهذه من بلاغة الكلام القمة ولباقته ان يذكر القول الحق بين الأقاويل دونما تصريح به لكي يحث على التفكير ، ويتعد عن التنكير النكير ، حيث الاصطدام بين القائلين والاحتدام بين الأقوال لا يخلي اي مجال لقول صراح ، اللهم إلا تلميحاً هي ابلغ من تصريحاً.

والرجم بالغيب أصله الرمي بالحجارة الى مرمى مجهول لا يدري الرامي أيصيب هدفه ام يخطأ ، وقد لا يكون له هدف ، ثم استعير لكل قذف بالظن والحسبان ، والقول بغير علم ، ومن عادة العرب ان تسمي القائل من دون علم راجماً وقاذفاً ، كما تسمي الساب الشاتم رامياً راجماً ، ويقال : هذا الأمر غيب مرجم ، اي : يرميه الناس بظنونهم ويقدرونه بحسبانهم . فالراجم بالغيب كالراجم الذي لا يعلم مواقع أحجاره المرمية اين وقعت ، فتارة يمنة واخرى يسرة ، وهنا ﴿رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾ يرجم «ثلاثة وخمسة» على ما في القولين من سوء التعبير ﴿رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ .. سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ كأن كلبهم منهم ، فالأربعة او الستة كلهم كلاب ، ام كلهم أو آدم ، دونما عطف لكلبهم عليهم ، يدل على المغايرة ، كما يدل على ردفه بهم ، ولكنما القول الثالث ﴿وَيَقُولُونَ سَبْعَةً وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ فيه رعاية الأدب بواو العطف ، فردف الكلب بهم دون عطف يجعل جملة الكلب صفة لهم او حالاً منهم ف «رابعهم كلبهم وسادسهم» وصفان ل «ثلاثة وخمسة» او حالان ، وفيه إزراء بساحة فتية الايمان ومس من كرامتهم ، والعطف يخرجها عن وصفهم او حالهم حيث يفيد الردف بين متغايرين متوافقين ، تغايراً في الكيان وتوافقاً في المكان ، فكلبهم منهم حيث ردفهم يرصدهم ، وليس منهم فهم فتية آمنوا برهم وهو كلبهم! فحيث وقعت الواو انقطعت العدة وثبت انهم سبعة وثامنهم كلبهم بالقطع

والثبات! حيث العطف يجعل المعطوف عليه مستقلا عنه ، محورا أصيلا للكلام ، وترك العطف يجعلهما في نطاق واحد!

وكأن الأقوال حول عدد أصحاب الكهف منحصرة في هذه الثلاث ام هي أشهرها ، في غابر الزمن وحاضر الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وقد عثر على عدة من الكهوف والغيوان وعلى جدرانها تماثيل رجال ثلاثة او خمسة او سبعة ومعهم كلب.

وصف القولان الأولان ب ﴿رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾ والأخير اضافة الى العطف العطف ب ﴿قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ تدليلا على ان قائله من هذا القليل ، وكيف عرف القليل هذا الغيب إلا بوحيه وها هو وحيه يلح لمحة مليحة بعدتهم . فان ﴿قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ﴾ تجهيل لجماعة وهم القائلون ﴿ثَلَاثَةٌ .. خَمْسَةٌ﴾ وتبجيل لآخرين عالمين ﴿وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ وإهداء لعلمه الى رب العالمين : ﴿رَبِّي أَعْلَمُ﴾.

كما و ﴿مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ تبجيل لهذا القليل ثانيا ، والرسول أفضل هذا القليل كما ويلح اليه ﴿قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ﴾ فلم يقل الله اعلم ، انما «ري» بما علمني ورباني! ومن ثم آخرون يتبعونه ، ونحن من هذا القليل ، وكما بعض الأصحاب الأقدمين يعد نفسه منهم ^(١) ونفي العلم ب «ما» دون «لا» في ما يعلمهم الا قليل. نفي للحال فاستثناء للقليل في الحال : ان القليل يعلمونهم الحال. فضلا عن الاستقبال! فأحرى من يعلمه هذا القليل هو الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) حيث اوحى اليه ﴿وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ﴾

(١) منهم ابن عباس كما اخرج عنه عبد الرزاق والفريابي وابن سعدون ابن جرير وابن المنذر وأبي حاتم من طرق واخرج مثله عن الطبراني في الأوسط بسند صحيح عنه ومنهم ابو مسعود كما اخرج عنه ابن أبي حاتم (الدر المنثور ٤ : ٢١٧).

وَنَامُ عَنْهُمْ كَلْبُهُمْ

ثم وعلم القليل قد يشمل عدتهم وأسماءهم ، كما يروى عن علي (عليه السلام) أسماءهم ^(١) والله أعلم بعدتهم وأسماءهم ، وهذا القليل يعلمهم بما علمهم ربهم ، وكما علمنا هنا عدتهم.

وإذا القائلون عن عدتهم بين راجم بالغيب وبين صادق **﴿فَلَا تُنَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَنُفِتْ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾** .. فلما ذا المراء الباطن وأنت من هذا القليل العالمين بهم بما علمك ربك ، ولماذا تستفتيهم ، والراجم منهم بالغيب لا يستفتي والصادق يستفتيه إذ لا يعلمهم وأنت تعلمهم!

والمراء الظاهر هو الخالي عن العمق والاستبطان ، وأصل المراء من مريت الناقة إذا مسحت ضرعها للحلب ، وتسمى الجدال مراء لما فيها من إصرار المماري بالبحث ليفرغ خصمه كل ما عنده من الكلام فينتهي عنه.

فترك المراء معهم فيهم تجهيل لنفسه ، والمراء الباطن المستبطن استعلام ممن يجهل ، او وممن يعلم وهو (صلى الله عليه وآله وسلم) يعلم فلما ذا يستعلم؟ والمراء الظاهر ممارسة ومدارات احتسابا لما أوحى إليه ربه فحسبه ربه تعليما له ومراء معهم!.

ثم المراء غير ممدوح في باطنه دون ظاهره ، وان كان في حق والرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) زعيم بيوتا في الجنة لمن ترك المراء وان كان محقا ^(٢) ف «إياكم والمراء والخصومة فإنهما يمرضان القلوب على الإخوان

(١) في تفسير روح المعاني ج ١٥ : ٢٤٦ وروي عن علي كرم الله وجهه ان اسمائهم : يملخا ومكشلينيا ومثلينيا وهؤلاء اصحاب يمين الملك ، ومرنوش ودبرنوش وشاذنوش وهؤلاء اصحاب يساره وكان يستشير الستة والسابع الراعي واسم كلبهم قطمير وذكر العلامة السيوطي في حواشي البيضاوي ان الطبراني روى ذلك عن ابن عباس في معجمه الأوسط بإسناد صحيح.

(٢) نور الثقلين ٣ : ٢٥٣ ٤٤٦ في كتاب التوحيد بإسناده الى إسماعيل بن أبي زياد عن .

وينبت عليهما النفاق ^(١) و «لا تمارين حلِيمًا ولا سفيها فان الحلِيم يغلبك والسفيه يؤذيك» ^(٢).

والتماري حول عدد الفتية لا طائل وراءه فسواء أكانوا ثلاثة أو خمسة أو سبعة اما زاد أو نقص ، فما يعلم عدتهم الا الله والقليل الذين حضروا محضر الكهف في زمته ، والذين عرفهم الله ، فلما ذا التماري إذا إلا مرء ظاهرا ، والعبرة في أمرهم حاصلة بالقليل والكثير ، والقرآن يلمح بعدتهم دون تصريح ، تنبيهها بعدم العناية بعددهم وانما المعني به عددهم ، صيانة للطاقة العقلية ان تبدد في ما لا يفيد ، وتوجيهها لها إلى ما يفيد ، وألا يمارى راجم الغيب إلا مرء ظاهرا دون تعميق ولا تعقيب ، فهذا حدث تاريخي طواه الزمن وهو من الغيب المؤكول الى علم الله او من علمه الله ، فلما ذا التماري فيه او الاستفتاء؟!.

فالمرء محذور وان كان في حق ، اللهم إلا مرء ظاهرا يقف على حق

. جعفر بن محمد عن آبائه (عليهم السلام) قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): انا زعيم ببيت في أعلى الجنة وبيت في وسط الجنة وبيت في رياض الجنة لمن ترك المراء وان كان محقا وفيه عن اصول الكافي باسناده قال : قال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ثلاث من لقي الله عز وجل بمن دخل الجنة من اي باب شاء : من حسن خلقه وخشي الله في المغيب والمخضر وترك المراء وان كان محقا وفي كتاب الخصال عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال : من يضمن اربعة باربعة أبيات في الجنة .. وترك المراء وان كان محقا.

(١) المصدر ح ٤١ في اصول الكافي بسند عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال قال امير المؤمنين (عليه السلام) :

...

(٢) اصول الكافي باسناده الى عمار بن مروان قال قال ابو عبد الله (عليه السلام) : ...

وفي كتاب الخصال عن جعفر بن محمد عن أبيه (عليهما السلام) قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): اربع خصال تميم القلب : الذنب على الذنب وكثرة مناقشة النساء يعني محادثتهن وممارسة الأحق تقول ويقول ولا يرجع الى خيرا بدأ الحديث.

ويقطع دابر الباطل بمرونة وليونة ، بمطالبة الدليل ، فإذا لا دليل فلا مدلول ، حيث المدعي لشيء بحاجة الى دليل دون النافي سنادا الى عدم الدليل.

كما الرجم بالغيب محذور في قياس وسواه ، فأية الرجم ترجم القياس في الأحكام وأخرى من القياس كل ظنة في غير الأحكام ، وكما الآيات الحاصرة كل اتباع بعلم او أثارة من علم ، الحاذرة كل اتباع بغير علم إلا إذا كان مسنودا إلى علم.

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لشيءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا﴾ (٢٣) **إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَادْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِي ربي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا** ﴿٢٤﴾.

موضوع النهي هنا **﴿إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا﴾** استقلالا للمشية فيما يعده الإنسان ويريده في مثلث من التأكيد : «اني - فاعل - غدا» تحديدا لزمن الفعل وتأكيذا ذا بعدين في أصله ، ف «إن» توكله و «فاعل» الدالة على الثبات تثبته ، واما ان يقول «سأفعل غدا» ام «سأفعل» او «افعل» على مختلف مراتب التحتم في هذه الثلاث نازلة ، فالنهي لا يشملهم ، اللهم إلا ان «لا تقولن» تنهى مؤكدا عن هذه الصيغة المؤكدة ، فيبقى النهي دون تأكيد في هذه الثلاث متدرج النزول ف «لا تقولن - ام - لا تقل ... إلا ان يشاء الله».

فلا يعمه (صلى الله عليه وآله وسلم) لا تصريحية النهي المؤكد إذ لم يقل **﴿إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا﴾** ولا نهيته دون تأكيد في الثلاث الاخرى إذ لم يقل : سأفعل او افعل ، وانما تلميح في خامسة الأضلاع «تعالوا غدا» وحسنات الأبرار سيئات المقربين!

ف **﴿لَا تَقُولَنَّ...﴾** مهما شملت رسول الهدي ، ليس إلا نهيًا في تصريحته ألا يفعل ، لا انه فعل وهنا ينهى.

﴿لَا تَقُولَنَّ .. إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ..﴾ : ربطا لمشيتك بمشية الله ، وأنت أيا كنت وفي اي موقف لا تملك إنفاذ مشيتك المعلومة عندك إلا بسناد مشيئة من الله الغائبة عنك ف ﴿لَا تَقُولَنَّ لشيءٍ إني فاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾!

في أفعالك الاختيارية لست مفوضا تستقل في ارادتك دونما رادع او مؤيد من الله ، ولا مجبورا يستقل ربك في ارادتك فأنت كصورة الفاعل والله هو الفاعل! ف «لا جبر ولا تفويض بل امر بين أمرين» ف ﴿لَا تَقُولَنَّ لشيءٍ إني فاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا﴾ ام حالا أما ذا ، ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾.

أنت في حاضر مشيتك وقوتك وارادتك غائب عن حول الله وقوته ، لا تدري اهو مؤيدك فيها ام رادعك عنها ف ﴿لَا تَقُولَنَّ لشيءٍ إني فاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا﴾!

أنت لا تستقل بنفسك إغماضا عن ربك ولا تستقل نفسك فيما تريد كأنك لا حول لك ولا قوة اتكالا «فاشلا على ربك كأن الفاعل هو ربك دونك أنت ، وانما أنت في حولك وقدرتك عوان بين ذلك ، تكرر طاقاتك كلها فيما تعنيه وهو مرضي لربك توكل لا اتكالا. فلا تحس بالتبطر والغرور وأنت مفلح ناجح ، ولا تستشعر القنوط وأنت فاشل مخفق ، فإنما عليك تجنيد ما عندك من طاقات وامكانيات فيما يرضي ربك وفي حالك ومقالك وأفعالك ﴿إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ ف ﴿لَا تَقُولَنَّ لشيءٍ إني فاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾!

ليستشعر قلبك معنى ﴿إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ وليلفظ لسانك قول ﴿إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ ولتتسم افعالك بسمه ﴿إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ ف ﴿مَا تَشَاؤُنْ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾!

لا يملك المخلوق أيا كان لنفسه نفعا ولا ضرا باستقلال إلا ما شاء الله

وحتى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ﴾ (٧ : ١٨٨) فضلا عن أن يملك لغيره أو يملك من الله ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لشيءٍ إني فاعلٌ ذَلِكَ غَدًا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾!

﴿إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ هي من كلمات رسل الله كما في يوسف ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبْوِيهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مَصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾ (١٢ : ٩٩) وموسى : ﴿قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ (١٨ : ٦٩) ويعقوب ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (٣٨ : ٢٧) وإسماعيل : ﴿قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ (٣٧ : ١٠٢).

لا فحسب رسل الله وعباده الصالحون بل وكذلك الله تعليمًا لعباده واعلامًا ان يستمروا في قول : إن شاء الله : ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ ..﴾ (٤٨ : ٢٧).

ونحن نسمع كلمة ان شاء الله من الله نفسه فيما هو مقطوع من فعل او ترك من الله : ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا ففِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرٌ مَجْدُودٍ﴾ (١١ : ١٠٨) فرغم أن عطاء الجنة غير مجذوذ عن أهلها يستثني خلودهم بمشيئته تشريفًا لها واعلامًا أنها غير محصورة بشيء ولا محسورة عن شيء . كما وان الآلهة من دون الله لا يخاف منها قطعًا ومع الوصف : ﴿وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا﴾ (٦ : ٨٠) ولا يشاء الرب ولن ان يخاف من دونه شيء! وكما العود في ملة الشرك لمن لا يشاءها ولا سيما نبي الله ، انه من المستحيل ان يشاء الله ولكن : ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا ..﴾ (٧ : ٨٩).

ترى . بعد ذلك كله . كيف يترك أول العابدين قولة ﴿إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ وهو يعد السائلين جواهم عن الله ، وليس جواهم إلا وحيًا من الله

والرسول لا يملك وحي الله كما لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله؟!
انها لا تعني الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) فيمن تعنيه نصا ، وانما هي تأنيب
على التاركين لها ، وتأديب لهم ألا يتركوها ^(١) فهي لهم نصيحة وللرسول (صلى الله عليه وآله
وسلم) تلميحة.

ام وإذا تعنيه فيمن تعنيه فهناك بون بينه (صلى الله عليه وآله وسلم) وبين من سواه في
وعد الفعل وان جمع بينهم في «لا تقولن» نهيًا على الأبدال ، حيث الرسول (صلى الله عليه
وآله وسلم) وهو أول العابدين لا يشاء إلا أن يشاء الله ، وكما يخاطب اهل بيت الرسالة
المحمدية وهم انسان الدهر في «الإنسان . الدهر» : ﴿وَمَا تَشَاؤُنَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ
عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (٧٦ : ٣٠) إذا فهو هو نفسه مشيئة الله ، لا تجد فيه إلا ﴿أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾
في عقله وصدرة وقلبه وسره وخفيه وأخفاه ، في حلة وترحاله ، في فعله وأقواله.

فمهما يترك لفظة ﴿إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ فيما يعد السائلين دون اي تأكيد خلاف ﴿إِنِّي
فَاعِلٌ﴾ اجابة بوحى الله ، فلا يعدهم إلا بمشيئة الله ﴿إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا﴾ كرسول من الله
، لا كمن يعرف الجواب دون وحي الله ، او يملك وحي الله ، وانما رسول من الله ، ما يشاء
إلا ان يشاء الله.

فقد شاء فوعدهم أن يأتيه تلميحا لوعده الاجابة ، ولكنه عليه كسنة رسالية وتعلima
لهذه السنة قوله ﴿إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ وان في لمحة ودون

(١) نور الثقلين ٣ : ٢٥٥ ح ٥٥ في تفسير العياشي عن أبي جعفر (عليه السلام) ذكر ان آدم لما اسكنه الله
الجنة فقال له : يا آدم لا تقرب هذه الشجرة فقال : نعم ولم يستثن فامر الله نبيّه فقال ﴿وَلَا تَقُولَنَّ .. إِلَّا﴾ ولو
بعد سنة أقول فلم يكن ترك الاستثناء إذا من الرسول نفسه وهو وجه كما وفي تركه ايضا وجه ذكرناه.

تأكيد ولم يتركها إلا هذه المرة طول حياته المنيرة ، فليحتبس عنه الوحي أربعين يوما لماذا ترك ﴿إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ ولكي يعرف السائلون من خلال ذلك الاحتباس انه حتما رسول الله (١).

انه لم يكن تاركا لواجب رسالي يستوجب باحتباس وحيه ودعا او قلى : ﴿وَالضُّحَى وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى . مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى .﴾ بل هو من الطاف ربه الخفية مهما كان في ظاهرة ودع او قلى ، اللهم إلا ان يتركه متناسيا ومؤكدا في وعده ولم يؤكد ولن!

إذا فاحتباس وحيه كان رمية ربانية الى هدفين ، اهمهما تثبيت وحيه ورسالته ، أن لو كان من عنده لما احتبس عن الجواب ، ثم وعلى هامشه ﴿وَلَا تَقُولَنَّ..﴾ فقط للقبولة المتروكة لا سواها من حول وقوة وإيمان وعقيدة فانه (صلى الله عليه وآله وسلم) كله ﴿إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ مهما يترك لمرة واحدة قولها الذي يخلف تثبتا. لوحيه باحتباسه ردحا من الزمن!.

ذلك الاحتباس في ظاهره ليل إذا سجي وفي باطنه ضحى ، فكما الضحى رحمة كذلك الليل إذا سجي ، فليل احتباس الوحي كضحى الوحي فرقد ان متتابعان يتناصران في هامة الرسالة المحمدية السامية.

ثم ﴿وَلَا تَقُولَنَّ﴾ تشمل ما مضى من الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وما يقبل ، كما ويشمل غير الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) فقلوه (صلى الله عليه وآله وسلم) حين سألوه عن أمر اصحاب الكهف

(١) نور الثقلين ٣ : ٢٥٤ ح ٥٣ في من لا يحضره الفقيه روى حماد بن عيسى عن عبد الله بن ميمون عن أبي عبد الله (عليه السلام) .. ان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أتاه أناس من اليهود فسألوه عن أشياء فقال لهم : تعالوا غدا أحدثكم ولم يستثن فاحتبس جبرئيل (عليه السلام) عنه أربعين يوما ثم أتاه فقال : ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لشيءٍ إني فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله﴾ «وَأَذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ».

وذي القرنين والروح : تعالوا غدا أحدثكم ولم يستثن ، فنص النهي في الآية في مثلث التأكيد لا يشملها إذ لم يقل اني فاعل ، وانما «تعالوا غدا» تلميحاً كأنه يجيبهم غدا دونما تصريح ولا تأكيد الا زمناً : «غدا» :

ثم قول إن شاء الله لا يردد القائل فيما يشاء ولا يفصم ارادته وانما تردد في مشيئة الله على حتمه في مشيئته.

فمن حلف وقال ان شاء الله ليس له الرجوع ^(١) إلا ان يقول إن

(١) خلاف ما أخرجه البيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عمر قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): من حلف فقال ان شاء الله فان شاء مضى وان شاء رجع غير حاث (الدر المنثور ٤ : ٢١٨) أقول : ليس غير حاث الا إذا تردد في مشيئة نفسه كان يقول : ان شئت ، فللمحلوف عليه حتمية نسبية له ولا يفصمه الا ارادة الله ان أراد خلافه! فالرواية مختلفة عليه (صلى الله عليه وآله وسلم) والصحيح ما أخرجه البخاري ومسلم والنسائي والبيهقي في الأسماء والصفات عن أبي هريرة قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): قال سليمان بن داود (عليهما السلام) لأطوفن الليلة على تسعين امرأة تلد كل امرأة منهن غلاماً يقاتل في سبيل الله فقال له الملك قل ان شاء الله فلم يقل فطاف فلم تلد منهن الا امرأة واحدة نصف انسان قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم) والذي نفسي بيده لو قال ان شاء الله لم يحنث وكان درج / لحاجته.

أقول وهو صحيح الا «فقال له الملك .. فل يقل» حيث ينافي الايمان فضلاً عن العصمة ، ثم لم يحنث لأنه حلف على فعله وهو الطواف على تسعين امرأة لا على فعل الله «تلد كل امرأة» فلا حنث فيما ليس من فعله ولا حلف عليه!

ومثله ما في نور الثقلين ٣ : ٢٥٤ ح ٥٢ عن اصول الكافي احمد بن محمد عن علي بن الحسين عن علي بن أسباط عن الحسن بن زرارة قال : سألت أبا عبد الله (عليه السلام) عن قول الله عز وجل ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ فقال : إذا حلفت على يمين ونسيت ان تستثني فاستثن إذا ذكرت.

شئت ، ولا فرق بين موصوله ومفصوله ^(١).

و ﴿إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ يعم باطن العقيدة والایمان والنية وظاهر القول والكتابة أماذا ، فالكتابة قول كتبي يكتب فيها ان شاء الله ^(٢) كما النية قول منوي ينوي معها ﴿إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾!

﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ استثناء عن نفي القول لشيء ﴿إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا﴾ فتقول لشيء إني فاعل ذلك غدا أم اي وقت كان إن شاء الله والشيء المفعول يعم المقال والفعال وتبديل الحال ، ولتكن لائقا لمشيئة الله تشريعا حتى يربط بمشيئته تكوينا ، و ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ يخص التكوين ، حيث المشيئة التشريعية واجبة الإحراز قبل الإرادة والفعل ، فلا تقبل اي تردد ، وإنما التردد في التكوينية.

فالقول لمحرّم ام ومشتبه إني فاعل ذلك إن شاء الله مس من كرامة الله ، وان كانت المحرمات غير خارجة عن مشيئة الله كما تناسب ساحته دونما إجبار ، وانما تلحق مشيئته تعالى مشيئته المختار! فان ﴿إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾

(١) خلاف ما أخرجه سعيد بن منصور عن ابن عمر قال : كل استثناء موصول فلا حث على صاحبه وإذا كان غير موصول فهو حائث (الدر المنثور ٤ : ٢١٨).

(٢) نور الثقلين ٣ : ٢٥٣ ح ٤٧ في اصول الكافي علي بن ابراهيم عن أبيه عن ابن أبي عمير عن مرازم بن حكيم قال : أمره ابو عبد الله (عليه السلام) بكتاب في حاجة فكتب ثم عرض عليه ولم يكن فيه استثناء فقال (عليه السلام) : كيف رجوت ان يتم هذا وليس فيه استثناء انظروا كل موضع لا يكون فيه استثناء فاستثنوا فيه. وفي تهذيب الأحكام باسناده الى علي بن حديد عن مرازم قال دخل ابو عبد الله (عليه السلام) يوما الى منزل معتب وهو يريد العمرة فتناول لوحا فيه تسمية أرزاق العيال وما يخرج لهم فإذا فيه لفلان وفلان وفلان وليس فيه استثناء فقال : من كتب هذا الكتاب ولم يستثن فيه كيف ظن انه يتم؟ ثم دعى بالدواة فقال : الحق فيه إنشاء الله فالحق في كل اسم إنشاء الله.

ترج لمشيئة التأييد من الله وليس إلا فيما يرضاه الله.

وإذا نسيت الاستثناء بمشيئة الله فاذكره إذا ذكرت مهما طال الزمن ولما تفعل :

﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ وان كان بينك وبينه ايام او أشهر او سنون ^(١)!

وهل القول ﴿إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ يطم عامة الأقوال لاي فعل يعزمه فيتم فيها أيا كان؟ فان قيل لك أتاكل وأنت جوعان وعلى خوان الطعام : تقول إنشاء الله؟ ولا شيء غائبا عنك خارجا عن حورك وقوتك هنا تحوله الى حول الله وقوته؟ .. اجل فانك لا تضمن حياتك حتى الأكل ، ولا صحتك وفقدان اي رادع يردعك! ف ﴿إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ آت في كل ما لم يحصل بعد او لم يتم وأنت فاعله ، إن قولاً فقولا وان فعلاً فعقدا في الضمير ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾!

ليس هنا حذف كما أطالوا طائلات ، وانما باء الملايسة على «إن ..» فتأويلا للمصدر : «إلا بمشيئة الله ، ف «لا تقولن لشيء أيا كان وأيان اني فاعل ذلك غدا الا مصاحبا بمشيئة الله ان افعله او لا افعله فالفعل والترك لمن يعزم على فعل او ترك بحاجة الى إذن تكويني وتوفيق من الله» ^(٢).

(١) نور الثقلين ٣ : ٢٥٥ ح ٥٥ في تفسير العياشي عن أبي حمزة عن أبي جعفر (عليه السلام) ذكر ان آدم لما اسكنه الله الجنة فقال له يا آدم لا تقرب هذه الشجرة فقال : نعم ولم يستثن فامر الله بنبيه فقال : ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لشيءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ ولو بعد سنة.

(٢) المصدر ٢٥٤ ح ٤٩ عن الكافي عن أبي جعفر (عليه السلام) في قول الله عز وجل ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ قال : فقال : ان الله عز وجل لما قال لآدم : ادخل الجنة قال له : يا آدم لا تقرب هذه الشجرة. قال : واره إياها فقال آدم لربه : كيف أقربها وقد نحتني عنها انا وزوجتي؟ قال : فقال لهما : لا تقرباها يعني لا تأكلا .

ثم وملابسة القول هذا ليست بواقع المشيئة فانها مجهولة للفاعل وإنما بقول «إن شاء الله» ف «لا تقولن .. إلا بقول مشيئة الله ترجيا : «إن شاء الله»!

وقد يعني ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ منقطع الاستثناء : أن القول ﴿إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا﴾ ممنوع على أية حال فإن فيه تأكيد الاستقلال ، ولا يجبره الاستثناء ، أترجيا وترددا بعد تحتم! إذا فقل ما شئت غير متحتم ، واقرنه ب ﴿إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ تأييدا انه غير محتوم وترجيا لمشيئة الله.

وقد يحتمل اتصال الاستثناء بوجه آخر أن القول ﴿إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا﴾ ممنوع كمنع الدخول في ملة الشرك إلا ان يشاء الله ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ (٧) : (٨٩) حيث العودة هذه ولا سيما لنبي مستحيلة الإذن من الله!.

وقد يعني الاستثناء كل ذلك حيث يلائمها اللفظ والمعنى وهو أجمل وأكمل!

وترى ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ يخص فقط تركه نسيانا ، فان كان ذاكرا ربه وترك الاستثناء فلا جيران بعدئذ؟ بلى حيث الأمر السماح كتوبة خاص ف ﴿إِذَا نَسِيتَ﴾! وكلا حيث النسيان يعم النسيان المعتمد وسواه ، تناسيا ونسيان ، بل ولا عصيان إلا تعمد (عن) نسيان وإذا لا عمد فلا عصيان : ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ (٢٠ : ١١٥) ﴿وَعَصَى آدَمُ﴾

. منها فقال آدم وزوجته : نعم يا ربنا لم نقر بها ولم نأكل منها ولم يستثنيا في قولهما نعم فوكلهما الله في ذلك الى أنفسهما والى ذكرهما ، قال وقد قال الله عز وجل لنبيه (صلى الله عليه وآله وسلم) في الكتاب ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لشيءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ ان لا افعله فتسبق مشيئة الله في ان لا افعله ، فلا اقدر على ان افعله ، فلذلك قال الله عز وجل ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ اي استثنى مشيئة الله في فعلك.

رَبُّهُ فَعَوَى ﴿﴾ (١٢٠ : ١٢١)! ثم وباب التوبة مفتوحة بمصراعيهما في كل عصيان فضلا عن ترك الاستثناء فانه أيا كان ليس محرما فيه عصيان!

﴿وَأَذْكُرْ .. وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنَّ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا﴾.

وكما أن **﴿إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾** ترج للرحمة من الله ، ف **﴿عَسَى .. لِأَقْرَبَ﴾** ترج ثان التماسا للارتفاع على هذا المرتقى ، وضرورة المحاولة للاستواء عليه في كافة الأحوال.

انه ليس يهمني . فقط . رجاء الاجابة عن اسئلتكم هذه وان كان فيها رشد ، بل و **﴿عَسَى أَنْ يَهْدِيَنَّ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا﴾** اجل **﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾** (٢٠ : ١١٤) فليس حاضر علم الوحي واقفا على حده ليوقفني على حدّه ، فاني التماسا من ربي وترجيا لزائد رحمته غائص في خضم عنايته ، رحمت بعضها فوق بعض!.

ومها تحت **﴿لَا تَقُولَنَّ .. وَأَذْكُرْ .. وَقُلْ عَسَى﴾** ان المخاطب فيها هو الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم) ولكن **﴿إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا﴾** لم يكن من قوله بل هو «آتوني غدا» فان تشمله «لا تقولن» فهو على البذل ، وبالنسبة للمستقبل.

ثم و **﴿إِذَا نَسِيتَ﴾** نسيان لذكر الرب وليس إلا بسلطان الشيطان و **﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾** (١٥ : ٤٢) وهو أوّل العابدين والمخلصين **﴿فَعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ. إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾** (٣٨ : ٨٣) اللهم إلا ان يكون نسيانا لاستثناء غير لازم كما في قوله «آتوني غدا» فراجع هنا قول **﴿إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾** والله يعلمه لكي يتأدب به فإنه ربه ومؤدبه ، فلم يك ناسيا لربه إن تركه ، ام إن نسيه فنسيانه من الله لكي يعرفه موقفه أنه في معرض النسيان لو لا تثبيت من الله.

ثم ترى انما نص على عدد لبثهم هو ثلاثمائة وتسع سنين؟ وصيغته الصحيحة هي هذه دون المذكورة في الآية!

او تعني لهم مجموعا من الثنين فالأصل ثلاثمائة والتسع الزائد عليها يلحقها حيث ازدادوها تطلبها من الله بعد بعثهم عن نومتهم الأولى؟ ولا طائل تحت هذه الزيادة المزعومة حيث القصد من بعثهم الأولى عن نومتهم الأول حاصل ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ .. وَكَذَلِكَ أَغْتَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا ..﴾ وقد حصلت هذه الثلاث فما ذا بعد! ولماذا بعد «تسعا»؟!.

أو أن التسع المزداد انما تعني توفيق حساب الاعداد ، أن الثلاثمائة هي الشمسية فتتحول إلى اضافة التسع حسب القمرية ^(١)؟ وهذا لا يصح في اي حساب! فان كانت الثلاثمائة شمسية فاضافة التسع القمرية لا تحولها الى (٣٠٩) قمرية ، وان كانت قمرية فاضافة التسع قمرية وشمسية لا تحولها الى (٣٠٩) شمسية ولا قمرية ^(٢) وان كانت مجملة فاضافة أحدهما لا تزيدها إلا اجماعا! ثم من ذا الذي ازداد الثلاثمائة تسعا إلا الله في هذا الحساب

(١) نور الثقلين ٣ : ٢٥٦ ح ٦٢ عن مجمع البيان وروي ان يهوديا سئل علي بن أبي طالب (عليه السلام) عن مدة لبثهم فأخبر بما في القرآن فقال : انا نجد في كتابنا ثلاثمائة فقال (عليه السلام) ذاك بسني الشمس وهذا بسني القمر.

أقول وهذا حديث مختلف كما بيناه في المتن وفي احتجاج الطبرسي عن أبي عبد الله (عليه السلام) وقد رجع الى الدنيا ممن مات خلق كثير منهم اصحاب الكهف أماتم الله ثلاثمائة عام وتسعة وبعثهم في زمان قوم أنكروا البعث ليقطع حجتهم ويريه قدرته وليعلموا ان البعث حق أقول : بين الروايتين تناقض في تسعا ثم هنا الموت وفي القرآن النوم فهما مختلفان مطروحان!.

(٢) وهي حسب الشمسية ٢٩١ سنة إلا (١٥) يوما وبزيادة التسع (٣٠٠) سنة إلا (٩٥) يوما!.

التحويل ، ومن ثم فليس القرآن كتاب يحول عددا الى آخر ، ولو كان لكان التعبير هنا ، «ثلاثمائة سنين هي بالقمرية (٣٠٩) دون ﴿وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ ثم القرآن لا يذكر السنين إلا قمرية كما هي الأصل في احكامه الشرعية ، فأيا كانت تلك السنين تتحول في مستعمل القرآن الى القمرية! ثم هذه الثلاث قد تنافي ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا...﴾ أفبعد التصريح هكذا بعددهم تجهل غير الله وتخص علمه بالله؟!.

او ان الثلاثمائة وتسعا هما من مقالات المتنازعين أمرهم بينهم؟! ولا شيء منهما مما يقوله الله ^(١)؟ وذلك عطف بعيد أن تعطف ﴿وَلَبِثُوا...﴾ بـ ﴿سَيَقُولُونَ...﴾ وبينهما الفصل بجملات في الآية وآيتين بعدها وهو خلاف الفصيح! ولكنه ليس فصلا بينهما بأجنبي حتى يخالف الفصيح ، و ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ...﴾ تكفي قرينة على ذلك العطف مهما كان بعيدا بفصله عن أصله!

أو أن الثلاثمائة هي قول الله ﴿وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ نقل الزيادة عليه تأنيبا يؤيده ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا...﴾ فكما أن عدتهم ذكرت في تلميح ،

(١) الدر المنثور ٤ : ٢١٨ . اخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس قال : ان الرجل ليفسر الآية يرى انها كذلك فيهيى ابعدها ما بين السماء والأرض ثم تلا ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ﴾ الآية ثم قال : كم لبث لقوم؟ قالوا : ثلاثمائة وتسع سنين ، قال : لو كانوا لبثوا كذلك لم يقل الله : قال الله اعلم بما لبثوا ولكنه حكى مقالة القوم فقال سيقولون ثلاثة الى قوله رجما بالغيب واخير انهم لا يعلمون قال سيقولون ولبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعا.

واخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة قال : في حرف ابن مسعود : ﴿وَقَالُوا لَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ﴾ الآية يعني انما قاله الناس ألا ترى انه قال : قل الله اعلم بما لبثوا . أقول «وقالوا» تفسير بيان العطف وليست من الآية واخرج ابن أبي حاتم عن قتادة في الآية قال : هذا قول اهل الكتاب فرد الله عليهم : قل ار اعلم بما لبثوا.

كذلك سنيهم العدة؟ وهذا أوفق أدبيا ومعنويا! ثم إنهما من أقوال المتنازعين بلمحة أن الأول مصدق دون الثاني ، ولو لا صدقه دونه لكان التعبير «ويقولون ثلاثمائة ويقولون بزيادة تسع ..!»

﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا﴾ ممن ازدادوا تسعا ، ام وقالوا ثلاثمائة فان ﴿لَهُ الْغَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وعدة لبثهم من الغيب لا يعلمها إلا هو ، «أبصر به» في عجاب «وأسمع» فلا يبصر أحد ما يبصره ولا يسمع ما يسمعه ﴿مَا هُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَبِّ﴾ يلي أمرهم تعليما لغيب ، تكويننا او تشريعا فله الولاية المطلقة لا سواه ، وله الحكم مطلقا لا سواه ﴿وَلَا يُشْرِكْ فِي حُكْمِهِ أَحَدٌ﴾ اللهم إلا حكما شرعيا وليس باشارك وإنما برسالة وسواها من تبليغ رسالة اماهية.

﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ (٢٧) **وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا** (٢٨) **وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا**

وَإِنْ يَسْتَعِثُّوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا (٢٩) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا (٣٠) أُولَئِكَ هُمُ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَكَيِّنِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾

صرف للرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) عن القيل والقال والإصغاء الى أصحاب المقال في آرائهم واقتراحاتهم الناكبة عن الصراط ، والاتحاد إلى الرب وكلماته ، وأن يصبر نفسه مع الذين يدعونه ، ماشيا على صراط الحق ، متمسكا بصراح الحق فتعم الثواب ونعم المرتفق!

﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ (٢٧).

اصل التلاوة هي المتابعة ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا. وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا﴾ فلا شأن لك ولا واجب عليك إلا متابعة كتاب ربك قراءة وتفهما وتفهيما

وإبلاغاً وتطبيقاً ، ﴿وَأَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ ..﴾ لا ما أوحاه عقلك آمن سواك ، وإنما ﴿مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ﴾ القرآن العظيم ، دون ان تبخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً ، أو أن تستعجل وحي ربك فتعدهم الجواب ناسياً ﴿إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ ودون الالتحاد الى اي وحي او استفتاء او استيحاء ، وإنما ﴿مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ﴾ فحسبك ربك وكتاب ربك إذ ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ : ربك ولا كتابه ﴿وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ﴾ : ربك ولا كتابة «ملتحداً»

فهما وصفان متلاحمان «لربك» و ﴿كِتَابِ رَبِّكَ﴾ : ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ والقرآن أفضل كلماته ، ﴿وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحِداً﴾ وملتحدته الموحى إليك هو قرآنه كما هو تعالى ملتحدك في كلما تحتاجه ، ملتحد تكويننا وملتحد تشريعنا لا مبدل لهما!

فكلماته التشريعية التدوينية ككل لا مبدل لها من غيره تعالى نسخاً إلا تحريفاً في غير القرآن : ﴿يَخُودُوا اللَّهَ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ وكلماته الأخيرة القرآن ، لا مبدل لها إطلاقاً إذ تمت ﴿وَمَتَّ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدلاً لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (٦ : ١١٥) لا مبدلاً من غير الله تحريفاً وتجيديفاً ، مهما كان لغير القرآن تحريف وتجديف ، ولا مبدلاً إلهياً نسخاً وتبديلاً كشرعة تنسخ وتبديل ، فالقرآن كما كان وكما هو الآن قائم مر الدهور والأعوام الى يوم القيام لا نسخ فيه ولا تحريف يعتريه دون سواه من كلمات الله وكتاباتة.

و «ملتحداً» : متمايلاً يجير إليه ، أولاً هو الله لا ي ملتحد وعلى أية حال إجارة وجواراً : ﴿قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحِداً ، إِلَّا بَلَاغاً مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ ..﴾ (٧٢ : ٢٢) ومن ثم لن أجد ملتحداً

من وحيه إلا كلماته الأخيرة القرآن المبين ، فهناك الله وهنا كتاب الله ثم لا سواء ولا سواء.

هنا ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ في استغراق نفي التبديل يجعل من القرآن كتابا لا نسخ له ولا تحريف ، إذا فهو كتاب الزمن وخاتمة الوحي لا كتاب بعده ما طلعت شمس وغربت!

ومن ثم ﴿وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ تحيل ملتحدا من دون القرآن كما تحيله من دون الله ، ضربا الى أعماق الزمن ما بقي الدهر ، فمهما غاب شخص الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) لا تغب رسالته القرآنية وإذا الرسول وهو أوّل العابدين «لن تجد ..» فغيره أخرى ان «لن يجد» ف «لن تجد» وإن كان خطابا لشخص الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ولكنه بإحالة «لن» وأوّل العابدين في «تجد» يطوي كل زمان ومكان وكل إنس وجان حتى القيامة الكبرى. فتحيل أي ملتحد طول الزمان وعرض المكان سوى القرآن كما آله القرآن!.

﴿وَلْيُتُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ (٣٥).

ولماذا «ثلاثمائة» دون اضافة وبتميز جمع «سنين» خلاف القاعدة المطردة من اضافتهما الى مفرد؟

الآن «سنين» نزلت بعد «ثلاثمائة» حين سئل الرسول : أياما او شهورا او سنين؟^(١)

ونزولها دون سنين إهمالها في إجمال تبعد عنه ساحة القرآن البيان!

(١) الدر المنثور ٤ : ٢١٨ اخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن الضحاك قال : نزلت هذه الآية ﴿وَلْيُتُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ ..﴾ قيل يا رسول الله (صلى .

أم إنها بدل عنها فلا إضافة الى مفرد خلاف التميز ، فثلاثمائة هي سنين مضمّنة معنى التمييز؟ وهذا خلاف المألوف مما يلحق العدد فانه . دوما . التمييز!

أم إنها قاعدة راجحة او مخيرة فيما إذا كان مضاف العدد المركب جمعا ، فالتمييز أيضا لجمعه ، أو مفرد للمضاف اليه «مائة» والقرآن أفضل أصل لاقتباس القواعد فلا يقاس بسائر القياس المستفاد من سائر الأدب العربي شعرا او نثرا؟ فليؤخذ أدب القرآن لفظيا كما هو معنويا نبراسا لكل قاعدة وفائدة.

﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرْطًا﴾ (٣٨).

نفس مطمئنة يروضها ربها بالتقوى إيناسا برها ووحيه ، وصبرا مع الذين يدعونه يريدون وجهه ، ويرفضها عن الطغوى بطاعة من أغفل قلبه عن ذكره واتبع هواه وكان أمره فرطا.

هنا أمر بصبر نفسه المقدسة معهم ونهي ان يعدو عيناه عنهم ونهي ثان ان يطيع غفلان القلوب ، يتبنى صرح هذه الرسالة السامية على بساط الفقراء الى الله ، دون الاثرياء الأغنياء الأغنياء في حساباتهم عن الله ، مهما طالوت وعودهم وأبرق وقودهم : «لو جلست في صدر المجلس وتغييت عن هؤلاء وأرواح جبابهم حادثناك وأخذنا عنك»^(١) وكما كان يقول اضربهم للأنبياء قبله من نوح مفتتح الرسالات : ﴿قَالُوا أَنْزِلْ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْدَلُونَ﴾.

قَالَ وَمَا

. الله عليه وآله وسلم) أياما أم شهورا أم سنين؟ فانزل الله : سنين وازدادوا تسعا.

(١) الدر المنثور ٤ : ٢١٩ . اخرج ابن مردويه وابو نعيم في الحلية والبيهقي في شعب

عَلَيْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ. إِنَّ حِسَابَهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ. وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٦﴾
: (١١٤) وإلى غيره من رسل الله!

يطلب من الرسول هكذا فيرفض كما أمر الله قائلا : «الحمد لله الذي لم يمتني حتى أمرني أن أصبر نفسي مع رجال من أمتي معكم المحيا والممات» ^(١) ولقد كان يجامل فقراء المؤمنين ويكرمهم طول حياته المنيرة على ميزانية تقواهم.

وهل ان الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) حدثته نفسه فيما طلبوا إليه رغبة في إيمانهم كما يدعون؟ هذا بعيد عن ساحته وغريب عن أخلاقه

. الإيمان عن سلمان الفارسي قال : جاءت المؤلفة قلوبهم الى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ، وعنده عبيدة بن بدر والأقرع بن حابس فقالوا يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : وجلست في صدر المجلس وتغيبت عن هؤلاء وأرواح جبابهم . يعنون سلمان وأبا ذر وفقراء المسلمين وكانت عليهم جباب الصوف . جالسناك او حادثناك وأخذنا عنك فأنزل الله : ورتل ما أوحى .. الى قوله : اعتدنا للظالمين نارا أحاط بهم سرادقها.

(١) المصدر اخرج ابو الشيخ عن سلمان قال قام رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يلتمسهم حتى أصابهم في مؤخر المسجد يذكرون الله فقال : .. واخرج عبد بن حميد عن سلمان قال : نزلت هذه الآية في رجل دخل على النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ومعني شن خوص فوضع مرفقه في صدري فقال : تنح حتى القاني على البساط ثم قال : يا محمد! انّا ليمنعنا كثير من أمرك هذا واضرباه ان ترى لي قدما وسوادا فلو نخيتهم إذا دخلنا عليك فإذا خرجنا أذنت لهم إذا شئت ، فلما خرج أنزل الله ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ﴾ الى . ﴿فُرْطًا﴾ واخرج ابن أبي حاتم وابن عساكر من طريق عمر بن ذر عن أبيه ان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) انتهى الى نفر من أصحابه منهم عبد الله بن رواحة يذكروهم بالله فلما رآه عبد الله سكت فقال له رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : ذكر أصحابك ، فقال : يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)! أنت أحق! فقال (صلى الله عليه وآله وسلم) : اما انكم الملأ الذين امرني الله ان اصبر نفسي معهم ثم تلا ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ﴾ ..

وسماحته ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (٦٨ : ٤) وكيف يطرد المؤمنين رغبة في إيمان المستكبرين ، ثم وأين إيمان من إيمان لو صدقوا وآمنوا! سبحانك اللهم هذا بهتان عظيم! إنما يأمره ربه بما يأمر وينهاه عما ينهى تثبिता للمؤمنين وتنديدا بالمستكبرين ، وتبعيدا لهم عن اقتراحهم عليه من طرد المؤمنين ، لا أنه طرد ثم نهي! ف ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٨ : ٦٤) .. ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٥ : ٨٨) .. ﴿لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٢٦ : ١٥) وهو ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ ..﴾ (٩ : ٦١)! ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (٩ : ١٢٨)! .

فانه لا تقوم الدعوات الرسالية إلا على من يعتنقونها إيقانا وإيمانا مهما كانوا فقراء دون من يعتوروها متاجرين بما يمشون معها ما تمشيهم في شهواتهم فإذا محصوا بالبلاء قل الديانون! .

﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ﴾ وكيف «نفسك» مفعولا والصبر لازم حيث يتعدي بواسطة؟ ان الصبر وهو الحبس متعد الى مفعول محبوس به ، مهما يتعود تعديته بمحبوس فيه او عليه او معه أم ماذا؟ فاصبر نفسك في الحياة الدنيا على مشاقها وحرماناتها ﴿مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ صبرا في الله والله والى الله! .

كل إمساك واحتباس في ضيق صبر ، منه ممدوح ومنه غير ممدوح ، والصبر مع المؤمنين احتباس للنفس عن الشهوات وتحرير لكافة الطاقات النفسية في التقدم معهم إلى قمة الايمان بمواصلة المجاهدات وتحمل الحرمانات! .

وما هي النفس الحمديدية المأمورة بالصبر معهم؟ إنها كله (صلى الله عليه وآله وسلم) من روحه وجسمه ، بعقله وصدوره وقلبه ، في حله

وترحاله ، وعلى كل حاله ، فكما يصبر في الله في أوامره ونواهيه وفي قوله الثقيل كذلك مع الذين يدعونه بالغداوة والعشي يريدون وجهه ، يحملهم ويتحملهم يهديهم ويذود عنهم ، يجاريهم ويداريهم ولا يفضّل عليهم ولا يسوي بهم!

اجل ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (٦ : ٥٢).

ولماذا تطردهم وهم مؤمنون؟ أرغبة في إيمان من يتأفون عنهم ، والإنذار لا يفيدهم ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُخْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ (٦ : ٥١)!

ترى وماذا تعني ﴿بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ حيث يدعون بهما ربهما؟ لأنهما وقت الصلاة بداية الفرض في العهد المكي طرقي النهار كما في مكيات أخرى ﴿وَأَسْتَغْفِرُ لَذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ (٤٠ : ٥٥) ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ ..﴾ (٦ : ٥٢)؟ ولا بد في سمة الايمان دوامتها والفرض في المدينة خمس وعلى طول الخط ، فليقل : مع المصلين لتشمل الفرض مكيًا ومدنيًا! وآية العشي والإبكار لا تخص المكي ، بل والمدني أيضا ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ (٣ : ٤١) وكما الكهف علّها مدنية او البعض من آيها وعلها منها!

ام لأن الغداة هي الوقت الذي ينتقل فيه الإنسان من نومه الى يقظته ، والعشي تنقلا من يقظته الى نومه ، وهما يذكّران الحياة بعد الموت ثم الموت بعد الحياة ، وهما ركنا اوقات الليل والنهار. فذكرهما أهم الذكر!

إذا فهما يعنيان أهم الأوقات من الليل والنهار ، فالغداة صباح والعشي عصر الى ليل ، وكما هما في الجنة والنار ركنان في رحمة وعذاب : ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ

فِيهَا بُكْرَةٌ وَعَشِيَّةٌ ﴿١٩ : ٦٢﴾ ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ ﴿٤٠ : ٤٦﴾ فهما أهم أوقات الذكر وسواه وفيما مضى كما هنا : ﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ ﴿١٩ : ١١﴾ لا فحسب الإنسان فالجبال أيضا : ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ ﴿٣٨ : ١٨﴾.

ثم وفي ردف العشي بالإشراق والغدو بالعشي . على كونهما ركني الأوقات . عطف الى ما بينهما من أوقات الليل والنهار ، إلا فيما يخصهما بقرينة كرزق البرزخ وعذابه ، فالغداة والعشي في ذكر الرب ودعوته تعني الغداة الى العشي والعشي الى الغداة كما يقال «انا دارس صباح مساء» او «ضارب اعداء الله ظهر بطن».

فدعوة الرب هي حالهم ومقالمهم ، حلهم وترحالهم ، غداهم وعشيهم بما فيها الفرائض الخمس ^(١) كأركان الدعوات وتلحقها سائرهما ، كما الغداة والعشي من أركان الأوقات وتلحقها سائرهما.

﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ ... يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ..﴾ وماذا يعني «وجهه»؟ هنا وجه الرب كما في عديد سواه ^(٢) وهناك وجه الله كما في عديد سواه ^(٣) وبينهما فرق

(١) الدر المنثور ٤ : ٢٢٠ . اخرج البيهقي في شعب الإيمان عن ابراهيم ومجاهد في الآية قالوا : الصلوات الخمس وفي نور الثقلين ٣ : ٢٥٨ عن تفسير العياشي عن زرارة وجران وعن أبي جعفر وأبي عبد الله (عليهما السلام) في قوله ﴿وَاصْبِرْ .. بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ قال : انما عنى بها الصلاة».

(٢) كما في ١٣ : ٢٢ والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقامهم الصلاة . و ٥٥ : ٢٧ : ويقيم وجه ربك ذو الجلال والإكرام . و ٩٢ : ٢٠ : الا ابتغاء وجه ربه الأعلى . و ٦ : ٥٢ : يريدون وجهه . فالجُمُوع خمسة موارد .

(٣) كما في ٢ : ١١٥ : فأينما تولوا فثم وجه الله . و ٢ : ٢٧٢ : وما تنفقون الا ابتغاء وجه الله . و ٣٠ : ٣٨ : ذلك خير للذين يريدون وجه الله و ٢٨ : ٨٨ : الله لا اله الا هو كل شيء هالك الا وجهه .

كما بين وجه الله وسواه.

والوجه من كل شيء ما يواجه شيئا او يواجه بشيء ، فيختلف حسب اختلاف الأشياء والمواجهات ، فلا يقاس وجه الرب الإله بسائر الوجه ، كما لا تقاس اقامة الوجه إليه وتسليمة لديه بسائر الوجه.

فوجه الرب هو الوجهة التربوية التي يواجه الله بها خليقته يوم الدنيا والآخرة ، ويواجهونه بها في الدنيا والآخرة ، فوجه الله من الوجهة التشريعية يدعون ربهم بالغداة والعشي ، وبهذه الدعوة يريدون الوجهة التربوية ليوم الدنيا تقربا إليه وتكرما لديه ، وحظوة مما عنده من حياة إيمانية ، فالمؤمن دنياه آخرة! وليوم الآخرة الوجهة التربوية ثوبا عند الرب وزلفى ، واجهات خمس هي كلها وجه الرب ^(١) حيث يريدونه بدعوتهم ربهم بالغداة والعشي! كما ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ (٨٩ : ٢٢) يعني الوجهة التربوية الاخرية التي تخصها دون الدنيا ، والدينية تخصها دون الاخرى! فليس وجه الرب وجهها عضويا لذاته المقدسة ، فلا أحد يقول به ، ولا من المشبهة المجسمة ، الذين يثبتون لله سبحانه أبعاضا مؤلفة وأعضاء مصرفة ، ومن ثم لوجه الله معنى غير ما يعنيه وجه الرب على اشتراكهما في وجهه.

فلانك كأول العابين وكرسول لا تعني من الحياة جاها ولا متاعا ولا عرضا من الحياة الدنيا ، وانما وجه ربك ، فاصبر نفسك مع الذين يريدون وجهه ، تناسبا فتناسقا وتنصرا في هذه السبيل.

﴿وَلَا تَعُدُّ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾

العينان لهما عدو ومد ، وعينا أهل الله لا تمدان الى غير الله واهله ، وما

(١) فللرب وجه يوم الدنيا : شرعته . التقرب اليه بها . الخطوة بهما يوم الدنيا . ووجه يوم الآخرة . قرباه الخطوة الثواب.

سوى الله كله الحياة الدنيا : ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ
وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٥ : ٨٨) ﴿... مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ
رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ (٢٠ : ١٣١).

وانما هما ناضرتان ناظرتان الى الرب والذين يدعونه يريدون وجهه ، منحصرتان بهم
منحسرتان عمن سواهم.

وهل «عينك» هما الظاهرتان الباصرتان؟ ومدهما إليهم دون رعاية ورقابة ومرحمة ليس
مد الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)؟ ام هما عينا عقله وقلبه ، فبعقل الوحي يعقلهم عما
لا يحمد ، وبعين القلب يحبهم ام ماذا؟ ولا يكفيان مدا ، والباصرتان الظاهرتان تعدوانهم الى
سواهم! ام هما عينا القلب بما معه ، والقلب بما معه ، ان يكرس نفسه بطاقتها وامكانياتها
نظرة ناضرة إليهم ، مراقبة عليهم؟ وهو جمع جميل والله على ما نقول وكيل!.

﴿... وَلَا تَطْغُ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ دِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ (٢٨).

وهل ان اغفاله سبحانه قلبا يعني وجدانه غافلا فهو في الحق غافل عاطل ، كما يقال
«لله دركم يا بني سليم! والله لقد قاتلناكم فما أجبناكم وهاجيناكم فما افحمناكم وسألناكم
فما ابخلناكم» اي : لم نجدكم جبانين عند النزال ولا اعياء عند المقال ولا ابخال عند
السؤال^(١).

وذلك احتشاما عن ان يغفل الله قلبا وهو مذكر لا مغفل؟ ولكنما الصحيح والفصيح
للتدليل على هذا المعنى لفظه الخاص ك (وجدنا قلبه غافلا)

(١) مجازات القرآن وتلخيص البيان للسيد الشريف الرضي ينقله عن عمرو بن معد يكرب لبني سليم ص ٢١٢.

ك ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعَمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ (٣٨ : ٤٨) دون أصبرناه.

ثم الإغفال لا يختص المسير ، ان يغفل الله قلبا دونما اختيار منه وتقصير ، بل انه غفلة معمّدة ثم إقفال ومن ثم إغفال فامتناعا للذكر بتعمد واختيار : ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ ... وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ. ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ. أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعَتْهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ (١٠٨ : ١٦).

فالمغفلون الغافلون الدائبون في غفلتهم وغفوتهم ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مَّعْرُضُونَ﴾ (٢١ : ١) أولئك هم الغافلون الذين غفلوا عامدين فأغفل الله قلوبهم عن ذكره طبعاً عليها وختمها. ثم ترى إن اغفاله لقلوبهم هو تركه لها أن ﴿يَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (٧ : ١٨٦) وفي غيهم ووعيهم يترددون ، ف ﴿أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ﴾ : تركناه غفلاً من السمات والكتابات الايمانية ، ﴿أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ﴾ وهم خلو القلوب منها ، وكما يقال : اغفل البعير : تركه بلا سمة يعرف بها على عادة العرب في إقامة السمات مقام العلامات ، اللهم إلا الطبع والختم ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ﴾؟ ومجرد الترك وإن كان ينتج بقاء الغفلة ولكنه ليس إغفالاً ، فانه إيجاد للغفلة بعد الذكر ، ام غفلة على غفلة! .

ام إنه مزيد في غفلة معمّدة معاندة أن تستمر فتزيد جزاء وفاقاً في الدنيا وفي الآخرة عذاب اليم : ان الله اقلل قلوبهم عن الذكرى فأغفلها استمراراً فيها فمزبدا عليها ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ بعد الإغفال كما قبله وأكثر دونما تفكير في هداة ﴿وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ قبل الإقفال والإغفال ، حيث الغفلة المعمّدة دركات بعضها فوق بعض ، فأغفلها على حسبها دركات بعضها فوق بعض ، آخذة من ترك التوفيق ، فختم وطبع فدفن الى مزيد من الغفلة وهو الدرك الأسفل

من الإغفال.

وقد يعني «أغفلنا» هنا كل هذه مترتبة : ان وجدنا قلبه غافلا عن عمدته فلما استمر في غفلته تركناه على غفلته وحتى شرح بالكفر صدرا فطبعنا على قلبه حتى لا يسطع الرجوع عن غفلته ، إذ كان له قبل طبعه الرجوع الى ربه ثم يمدهم في طغيانهم يعمهون ﴿وَكَانَ أَمْرُهُ فُرْطًا﴾ قبل أن أغفلنا قلبه واتبع هواه من قبل ومن بعد في تزايد دركاته ، وما أجمله جمعا بين معان مترتبة يقتضيها أدب اللفظ وواقع المعنى!.

اتباع الهوى على غفلة معمدة وامر فرط مضيع يتبعه جزاء له إقفال القلب بإغفاله فاتباع مفراط للهوى وامر فرط في اتباع الهوى! ﴿اسْتَحْذَرُوا الشَّيْطَانَ فَأَنَاسَهُمْ ذِكْرُ اللَّهِ﴾ (٥٨ : ١٩) ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنَسَهُمْ أَنْفُسَهُمْ﴾ (٥٩ : ١٩)!

لا تطع . وان كانت رجاء لاهتدائهم . من غفلوا عن أنهم عبيد وهو ربهم فأغفلنا قلبه عن ذكرنا فلم يطامنوا من نخوتهم ولا خففوا من غلوائهم ، ولم يستشعروا جلال الله الذي تتساوى في ظله العباد إلا من التقى أو هو اتقى!.

ذلك القلب المقلوب ، المليء من الشهوات والطنطنات ، في أمر إمر من فرطات ، انه ليس قلب إنسان ، بل هو مريض الحيوان ومزبل الشيطان! «لا تطع ...»

﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهَا سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَعِيْثُوا يُعَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ (٢٩).

آية محكمة تحكم عرى الاختيار وتبحث جذور الإجبار «فمن شاء ..»

ومن شاء» فمشية الايمان والهدى تجلب زيادة الهدى من الله واستمراريتها : ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾ كما مشية اللاإيمان والردى تجلب غفلة دائبة او زيادتها باغفال من الله.

﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ حيث يريكم دلالة فتوفيقا للهدى فمن شاء وتقبل الحق يثبت عليه ويزيد ، ومن لم يشاء وأعرض عن الحق يختم على قلبه ويغفله ، فانه ظالم في نكران الحق ، يظلم نفسه ويظلم الحق وأهله

ليس الحق ملكا لأحد ولا مخلولا فيه لأحد حتى يجامل فيه فيماري ويداري ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾! فالحق . إذا . لا يعتز ولا ينتصر بمن لا ييغونه إلا عوجا ، وانما يعز وينصر من ييغونه خالصا بلا تجويز ولا تحوير ، والذي يترفع عن الذين ييغونه ناصحا ناصعا لا يرجي منه اي خير ولا لنفسه فضلا عن قبيل الايمان!.

انه لا حق لا ثقا غير زائع ولا خليطا بغير حق إلا من ربكم ، والخطأ جائر كائن لغيره أيا كان إلا من عصمه ربه بوحيه ، فلا تطلبوا مني دخلا في حقه ولا بخلا وانحصارا في مواجهة حقه . وهذا ختام الكلام ومن ثم.

﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ..﴾.

السرادق هو الفسطاط وسرادق النار هو زبانيته المحيطة والمشتمة على أهلها. فلا ينجو منها ناج ولا يطلق منها عان حيث ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ (١٧ : ٨) حبسا يحصرهم وطولا يقصرهم ف ﴿إِنَّمَا عَلَيْهِمْ مُؤَصَّدَةٌ. فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ﴾ (١٠٤ : ٩) فسطاط من نار هي حصر مؤصدة : مغلقة مطبقة.

هذا وكما أحاطت بهم سرادقات نيران الشهوات وحصرتهم في دنيا الحياة فهي هي تتمثل سرادق في الحياة الاخرى.

﴿وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا﴾ على إياسهم من مغيث ، ولكنما الحالة تلك المزرية المضطربة قد تدعوهم أن يستغيثوا ﴿يُعَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ﴾ : دردي الزيت المغلي ﴿يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾ بمواجهته قبل شربه ، وهل يشربونه. وهو كالمهل؟ اجل ^(١)! لأن الإغاثة ليست فقط عرضا للماء وان لم يشربوا بل هي إشراب لهم ، ولان سراق النار يضطرهم لشرب أيا كان ﴿إِنَّ شَجَرَةَ الزُّقُومِ طَعَامُ الْأَثِيمِ. كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ كَغَلِي الْحَمِيمِ﴾ (٤٤ : ٤٦) ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءُهُمْ﴾ (٤٧ : ١٥) ﴿وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ﴾ (١٤ : ١٦)!.
 ﴿بِئْسَ الشَّرَابُ﴾ ماءه كالمهل ﴿وَسَاءَتْ﴾ النار ﴿مُرْتَفَقًا﴾ متكئا يعتمد عليه بالمرفق ، كما المرفقة هي المخدة ، وكما ﴿مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ هذا مرتفق النار ثم أهل الجنة ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعَمَ الثَّوَابِ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ وأين مرتفق من مرتفق؟!
 شراب كالمهل «كعكر الزيت فإذا قرب إليه سقطت فروة

(١) نور الثقلين ٣ : ٢٦٠ ح ٧٩ في تفسير العياشي عن عبد الله بن سنان عن أبي عبد الله (عليه السلام) في قول الله ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ﴾ قال : تبدل خبزة نقية يأكل الناس منها حتى يفرغ من الحساب فقال له قائل : انهم يومئذ في شغل عن الاكل والشرب؟ فقال (عليه السلام) له : ان ابن آدم خلق أجوف لا بد له من الطعام والشراب ، أهم أشد شغلا ام هم في النار فقد استغاثوا ﴿وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُعَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ﴾.
 وفيه عن مسعدة بن صدقة عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده (عليه السلام) قال قال امير المؤمنين (عليه السلام) ان اهل النار لما غلى الزقوم والضريع في بطونهم كغلي الحميم سألوا الشراب فأتوا بشراب غساق وصديد يتجرعه ولا يكاد يسيغه ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت ومن ورائه عذاب غليظ وحميم يغلى به جهنم منذ خلقت كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقا.

وجهه ^(١) مشويًا ، حرقا من حرارته وحرقا من ثخونته ، او فضة مذابة وهي أحر وأحرى ان تشوي الوجوه ^(٢)!.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ (٣٠) **أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعَمَ الثَّوَابِ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ (٣١).**

﴿أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ لا فقط ايماننا ، وإنما عمل الايمان ، حيث ينبثق العمل من الإيمان ، لا ايماننا دون عمل ، ولا عملا دون إيمان ، وإحسان العمل هو أن يعمل الصالحات : التي تصلح انبثاقا من الايمان ، وتصلح لساحة الربوبية قولاً بعمل ، وقولاً وعملاً بنية ، وقولاً وعملاً ونيته بإصابة السنة!

لا ضياع هناك في حساب الله لا ايماننا : ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (٣ : ١٤٣) ولا عملاً ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ ولا إحساناً أيا كان في عمل ام إيمان ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (١٢ : ٩٠).

(١) الدر المنثور ٤ : ٢٢٠ . اخرج احمد وعبد بن حميد والترمذي وابو يعلى وابن جرير وابن أبي حاتم وابن حبان والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في الشعب عن أبي سعيد الخدري عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في قوله ﴿إِمَاءٌ كَالْمُهْلِ﴾ قال : كعكر الزيت وفي تفسير القمي قال ابو عبد الله (عليه السلام) المهل الذي يبقى في اصل الزيت المغلي.

(٢) فلعل التشبيه بعكر الزيت لأنه المشهود لهم دون الفضة المذابة ، ووجه التشبيه هو الثخونة بجمرة وان كانت أكثر من الدردى بكثير ، بل ومن الفضة المذابة ايضاً. وفي الدر المنثور ٤ : ٢٢١ اخرج جماعة عن ابن مسعود انه سئل عن المهل فدعا بذهب وفضة فإذا به فلما ذاب قال : هذا أشبه شيء بالمهل الذي هو شراب اهل النار.

لا تجد في سائر القرآن إيماناً صالحاً إلا قرناً بعمل صالح ، كلما ازداد الإيمان زاد عملاً صالحاً ، وكلما ازداد صالح العمل ازداد إيماناً ، جناحان متناصران في تحليق الإنسان أجواء صافية ضافية تصلح لطائره كدحا الى ربه فملاقية!

﴿أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ﴾ بساتين تجنّ أشجارها أرضها ، تجري من تحتهم الأنهار» تحت الأرضية ام سطح الأرضية ، فهما تحت الأشجار التي جنتهما بأرضها ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا﴾ حلية الرجولة للرجال ، وحلية الأنوثة للنساء «من أساور» ^(١) جمع سوار : حلية المعصم ، ام : دستواره الفارسية «من ذهب» فمهما كانت هي محرمة يوم الدنيا للرجال ولكنها حلية محللة يوم الأخرى ، إلا المحرمات الذاتية التي تخرج العبد عن طور العبودية وتمس من كرامة الربوبية ﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ﴾ : مارق من ديباج و «إستبرق» : ما غلظ منه وقد حلت لهم بعد ما حرمت ^(٢) ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ﴾ : السرائر الاريغة ^(٣) ﴿نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ خلاف ما

(١) الدر المنثور ٤ : ١١) . اخرج ابن مردويه عن سعد عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : لو ان رجلاً من اهل الجنة اطلع فبدت أساوره لطمس ضوءه الشمس كما يطمس ضوء النجوم أقول يعني شمس الآخرة ونجومها فلا يرد عليه انها مكورة او مطموسة وفيه اخرج الطبراني في الأوسط والبيهقي في البعث عن أبي هريرة ان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : لو ان ادنى اهل الجنة حلية عدلت حليته بحلية اهل الدنيا جميعا لكان ما يحليه الله به في الآخرة أفضل من حلية اهل الدنيا جميعا.

(٢) المصدر اخرج النسائي والحاكم عن عقبة بن عامر ان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) كان يمنع اهل الحلية والحرير ويقول : ان كنتم تحبون حلية الجنة وحريرها فلا تلبسوها في الدنيا وفيه اخرج الطيالسي والبخاري في تاريخه والنسائي والبخاري وابن مردويه والبيهقي في البعث عن ابن عمر وقال قال رجل يا رسول الله أخبرنا عن ثياب اهل الجنة اخلقا تخلق ام نسجا تنسج؟ قال : بل يشقق عنها ثمر الجنة.

(٣) المصدر اخرج البيهقي في البعث عن ابن عباس قال : لا تكون اريكة حتى يكون .

للظالمين في النار ﴿يُسْـَٔلُ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ واين مرتفق من مرتفق!
 في مرتفق الجنة تنعم حلو قير ، وفي مرتفق النار تهكم مرير : لأولاء نار معتدة
 مؤصدة في عمد ممددة ، وهؤلاء حلية من أساور وثياب خضر من سندس وإستبرق ، أولاء
 يستغيثون من ظمأ النار وحريقه فيغاثون بما يزيدهم ظمأ وحريقا ﴿بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي
 الْوُجُوهَ﴾ فكيف بالحلوق والبطون ، وهؤلاء لهم بهجة المنظر واعتدال النسيم ولهم فيها ما
 يشتهون نزلا من غفور رحيم!

. السرير في الحجلة فان كان سرير بغير حجلة لم يكن اريكة وان كانت حجلة بغير سرير لم تكن اريكة فإذا اجتمعا
 كانت اريكة وفيه عن الحسن قال : لم نكن ندري ما الأرائك حتى لقينا رجلا من اهل اليمن ، فأخبر ان الاربكة
 عندهم الحجلة إذا كان فيها سرير وأخرجه مثله عن قتادة وعكرمة.

﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا (٣٢) كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا (٣٣) وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا (٣٤) وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا (٣٥) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُودْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا (٣٦) قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا (٣٧) لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا (٣٨) وَلَوْ لَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنَّ تَرَنَّا أَنَا أَقَلُّ مِنْكَ

مَالاً وَوَلَدًا (٣٩) فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُوْتِيَنِي خَيْرًا مِّنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ
فَتُصْبِحُ صَعِيدًا زَلَقًا (٤٠) أَوْ يُصْبِحَ مَأْوَاهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا (٤١) وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ
فَأَصْبَحَ يُغْلِبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي
أَحَدًا (٤٢) وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِتْنَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا (٤٣) هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ
الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا (٤٤) وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ
فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَّاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا (٤٥)
الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾

﴿وَأَضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا (٣٢) كَلِمَاتُ الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمِ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا﴾ (٣٣):

﴿وَأَضْرِبْ لَهُمْ﴾ لقبيل الايمان والكفر ، أهل الجنة والنار «مثلا» يمثل حالتهم وحوارهم وجوارهم ، مبدأهم ومنتهاهم ، كنموذجين في مسرح الحياة لطغوى النفس وتقواها ، نفس فقيرة مفتقرة الى الله ، ونفس ثرية مستغنية عن الله ، هذه تذهله الثروة وتبطره النعمة فينسى نفسه وينسى الله ، وتلك مؤمنة معتزة بإيمانه ذاكرة لربه راضية بقضائه ، ماضية في قضاءه ، حيث يذكر الله ويذكر نفسه انه عبد مفتقر الى الله!

والقرآن يقص القصص الحق من حاق التأريخ وحقه قصا صالحا عما سبق ، وتذكيرا بها صالحا فيما يلحق ، دونما اختلاف لقصص لا أثر عنها في التأريخ ، ام تاريخية لا تأثير لها تربويا في إبناء التأريخ.

وها هي قصة الجنتين ، لهما ميزات اربع تجعل لهما جمالا راقيا وثمرا رايبا :

﴿جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ﴾ كأنها جمع يلمح بمختلف الأعناب ، فلو لا هذه

اللمحة لكانت «من عنب» جنسا ، لا جمعا : «أعناب»

﴿وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ﴾ حفاظا على الأعناب ، وتحميلا للجنتين ، وردفا لما يثمر كثمرها

، غذاء وإداما وشرابا ، وعلّ النخل كأعناب تعني مختلف النخل حيث تأتي مفردة : ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ﴾ وجمعا : ﴿وَالنَّخْلُ﴾

بِاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ﴿٣﴾ إذا ففيهما ألوان النخل والأعنان ، حافة ومحفوفاً بها .

٣ . **﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾** يزيدها ثمرا وجمالا فوق جمال وثمر ، وعله مختلف الثمر

كمختلف النخل والأعنان ، فان يكن واحدا جيء بصيغته ، حنظة او شعير أماذا؟.

٤ . **﴿وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا﴾** خلالا بينهما يفصلهما عن بعض ، وخلالا في كل

منهما سواقي تجري من تحتها ، كما تجري من تحت الجنة أنهار!

جنتان مثمرتان من مختلف الكروم ، محفوفتان بسياج من مختلف النخيل ، بينهما

زروع ، ونهر متفجر ، ويا له من منظر بهيج وحيوية دافقة وجمال رائع ومال جامع!

﴿كَلْنَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهُمَا﴾ من أعنان ونخل وزرع عدلا.

﴿وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا﴾ لم تنقص من أكله شيئا ، حيث الظلم هو الانتقاص أيا كان

ومن أي كان ، جمادا او نباتا أو حيوانا أو إنسانا ، مهما اختلفت إرادة وشعورا ام دونهما ،

اختيارا او اضطرارا ، ام بينهما كما النحل حيث تنحل بيتا وعسلا غريزيا دون اختيار تام او

اضطرارا!

ولكنما الجنة دون النحل اثمرا وتركها ، والظلم في الأصل من الأفعال الاختيارية

القبیحة ، ولا تقبح الجنة في انتقاص الثمر أم تركه ، وانما حسن التعبير عن هذا المعنى

الاختياري ولا القبيح بالظلم حيث كان ثمر الجنة البستان كالمستحق لمالكها ، الساعي لها ،

المتعب فيها ، فإذا أخذ حقه منها على كماله وقامه حسن القول : أنها **﴿لَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا﴾**

حيث لم تمنع منه مستحقه ، فتكون كالظالم إذا انتقصت من ثمرها ، ولأن الظلم أصله

الانتقاص اختياري ام دونه قبيحا ام سواه حسب اختلاف الفواعل شعورا وسواه في درجاته ،

تكليفا وسواه في درجاته ، فهو إذا حقيقة ام استعارة لطيفة جميلة!

﴿وَفَجَّرْنَا خِلَافَهُمَا نَهْرًا﴾ ما يزدادها بهاء وثمرًا وارتياحًا!.

ومما يزيده جمالا مقابلة اللا ظلم من الجنة بالظلم من صاحب الجنة حيث ازدهى ولم يشكر وبطر فاستكبر ، وقد امتلى نفسه بالجنيتين وازدهى النظر إليهما ، إحساسا بالزهو ، وتنفسا كالديك ، واختيالا كالطاووس ، تعاليا على صاحبه وهو يجاوره ويحاوره : ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ أماذا من كلام فاض أجوف أخوف.

﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ (٣٤).

﴿وَكَانَ لَهُ﴾ : لما جعلناه له من جنتين . لصاحب الجنتين . لا كل الجنتين . او للنهر «ثمر» وكلها معنية . وعلّ تنوين التنكير هنا تلويح لكثرة الثمر عدة وعدة ومدة أماذا من ثمر . وقد تلمح «كان» بسابق الثمر زمنا متداوما ، ام وعلى أقل تقدير بوجود الثمر حينه كما ﴿آتَتْ أَكْلَهَا ..﴾.

﴿فَقَالَ لِصَاحِبِهِ﴾ الذي يصاحبه ملكا او شغلا أما ذا من صحبة وتعارف ﴿وَهُوَ يُحَاوِرُهُ﴾ حول شؤون الحياة ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا﴾ حيث «له ثمر» ﴿وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ من ولد وخدم وأعوان مناصرين لان لي مالا وثمرًا! وفي الحق لقد ألهاه التكاثر في حوار هذه ، وتفخيما لجانبه وتذليلا لصاحبه ، وتغافلا عن ربه ، ظلما مثلثا يرجع الى نفسه فنكرانا للنشأة الاخرى! :

﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا﴾ (٣٥) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ

قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ (٣٦).

﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ﴾ وكيف دخل؟ وكيف هي جنته وهي جنة الله حيث أعطاه إياه :

﴿جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ﴾؟

انه دخل على رعونة وكبرياء ، وطنطنة وخيلاء ، متحسبا أنها منه وله دون الله ، وكما قاله أخوه قارون : ﴿ **إِنَّمَا أُوتِيْنُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي** ﴾ (٢٨ : ٧٨) وتلك الجنة أم أي مال ومنال لأي كان وأيان هي من الله ابتلاء ، امتحانا او امتهانا ، فكم من كادح كثيرا لا يفيدته إلا قليلا ، وكم من كادح قليلا او مرتاح يستفيد كثيرا! .
فهي . إذا . جنته إذ جعله الله مستخلفا له فيها ردحا باختيار ، وهي جنة الله لأنها من الله فلا قوة إلا بالله .

﴿ **دَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ** ﴾ انتقاصا لها تناسيا عن فطرته وفكرته وعقليته تجاه ربه وهو معترف به : ﴿ **لَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي** ﴾ تأييدا لجنته وهي بائدة فانية بعد ربح قل أو كثر ﴿ **قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا** ﴾ وماذا يعني هذا الأحمق النكد البطر من أبد جنته؟ هل البقاء دون فناء! بقوته ام قوة الله؟ والدنيا بحذافيرها دار فناء! ام البقاء ما هو باق ، وماذا الذي يضمن له ذلك البقاء ، وكم من ثراء أثرى أصبحت فناء! ام ماذا ، مما يشهد على أية حال أنه ﴿ **ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ** ﴾ في قوله الخواء البتراء! .

ومن خلفيات هذا الأبد نكران الساعة : ﴿ **وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً** ﴾ ترى وما هي الرباط بين الأبد لهذه الجنة ونكران دار الأبد ، ان هي إلا جنة الثراء من ثمره وجنته ، ف ﴿ **هُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ** ﴾ في جنونه المعمد المختار ، تسامحا عن عقله .

وجنة ثالثة من جنته ﴿ **وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي** ﴾ كاحتمال أخير على بعده فما يضري إذا حيث ﴿ **لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا** ﴾ تخيلا بخيلائه وكبريائه أنه يملك جنة الساعة باحرى من جنة هذه الساعة! وما هي الرباط بين الجنتين حيث يجعلهما في ظنه لزام بعض؟
هذه ظنة الجاهلين من أثرياء وفقراء ان من اوتي الحياة الدنيا فهو في

الآخرة أخرى ممن لم يؤثما ، ويكأن الله يجازي ذوي الأنفة والكبرياء والشراء بما طغوا وبغوا ، يجازيهم في الأخرى ثوابا بدل العقاب ، فما أظلمه إذا من إله ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾! .
يظنها الأثرياء بجنة الغرور والكبرياء ، والفقراء لظنهم أن الشراء ثواب من الله وعطاء ، إذا فلتكن الطغوى بدليل التقوى يستحق بها ثواب الآخرة بعد الأولى! .

﴿لَا جِدْنَ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ وكيف وبماذا؟ ألا إنكم تملكون الأخرى كما ملكتم الأولى ﴿فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى﴾ ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ (٢٨ : ٦٠)

أم لأن الله يخافكم فيفضلكم فيها كما فضلكم . بحسبانكم . في الدنيا . وهو يخاف منه ولا يخاف!

أم لأنه يخلف وعده جهلا أم ظلما أو عجزا أم ماذا؟ وما ذلك إلا جهالة وجنة ممن أترفته الحياة الدنيا ، تنفخا منها وتنفجا فيها! .

هذه مقالة وحالة صاحب الجنة هنا ، وأما صاحبه الفقير الذي لا مال له ولا نفر ولا جنة عنده ولا ثمر ، ولكنه غني بالله ، فقير المال غني الحال ، إنه يواجه صاحبه الفقير الحال ، غني المال ، كواعظ منبه ، تنديدا به في حوار ، وتهديدا له في بداره :

﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ﴾^(١) ﴿وَهُوَ يُجَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ

(١). قوله تعالى «قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ» . ومن قبل . فقال لصاحبه ، حيث يعبر عن كل من الموحد والمشارك انه صاحب للآخر يدلنا على ان لفظة الصحبة والصحابة ليست لتدل على الصحبة الالمانية او الشريكية ، والا لأصبح هنا المؤمن مشركا والمشارك مؤمنا ، فاستدلال إخواننا بآية الغار «إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ» ان أبا بكر لكونه صاحب الرسول في الغار وليس غيره في نص القرآن فهو الصحابي المؤمن الوحيد لرسول الله .

مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا (٣٧) لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٣٨﴾.

هل أنت كافر بمثلث : ﴿خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا﴾؟ وأنت مقرّ انه ربك ﴿وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي﴾!.

الصاحب المؤمن الفقير لا يهاب في حوارهِ صاحبه الكافر النكير ، فلا يبالي مالا ولا نفرا ، ولا يداري ثراء ولا بطرا ، ولا يماري إلا مرء ظاهرا وجدالا بالتي هي أحسن بصامد الايمان وخالص اليقين والاطمئنان ، بتنديد شديد وتبديد حديد هدم صرح كفره ، تزييفا لموقفه الكافر وتثبيتا لموقفه المؤمن : ﴿لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي﴾ لا سواه من آلهة مختلفة مختلفة ، هو ربي في حلي وترحالي ، في كافة احوالي ، تتمثل ربوبيته الوحيدة فيّ على أية حال ، دون أن اوحدّه في لفظة القول ﴿وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي﴾ ثم أشرك ، به في الفعل : ﴿مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا. وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ فَاثِمَةً. وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا﴾ كأنه رب لربه يملكه ، دون ان يملكه ربه .. لكننا ..

﴿لَكِنَّا ... لَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ في اي مقال او حال ، في ماض او مستقبل او

حال!

أترى «لكننا» هي لكننا مخففة يعني بها قبيلة الايمان؟ وقد يصح لفظيا ومعنويا ثم يبعده «ربي»! ام هي مدغمة «لكن انا» وهو أقرب ، إعراضا عن الإنية والأنانية المشتركة لمحاورة الكافر وتعريفا بكيانه كمؤمن ، ف ﴿هُوَ

. إنه مخدوش بأيّ الكهف ، فالثابت من الصحبة ليس إلا صحبته في الغار وأما الصحبة الايمانية فلا تثبتها كما قد لا تنفيها اللهم إلا قوله تعالى : «فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ» حيث اختص سكينته بالرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) دونه وهو بحاجة حين يحزن الى السكينة وقد «أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ» (٩ : ٢٦) و (٤٨ : ٢٦)! راجع تفسير سورة الفتح من الفرقان ج : ٢٦.

اللَّهُ رَبِّي ﴿﴾ بيان واف لكيانه «أنا» واين «أنا» من كافر و «أنا» من مؤمن؟!
 الكافر يجعل «أنا» هـ محورا رئيسيا وحتى لربه وكما قال ﴿لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾
 كأنه يملك ربه ، والمؤمن يجعل «أنا» هـ لا شيء إلا ما رباه ربه «لكن أنا» : ﴿هُوَ اللَّهُ رَبِّي
 وَلَا أَشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾!

هنالك ثالث من «أنا» انحسه دعوى الألوهية من غير الله ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ ثم
 دعوى الوحدة الحقيقة مع الله «أنا هو وهو أنا» ثم أنا المحور والله الحائر حول هذا المحور ،
 ثالث الانحراف والانجرف الى الإنية والأناية.

وصالحه «أنا هو الله ربي» حيث ﴿لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ هو الأصل الأصيل ولا خبر عني
 «أنا» إلا ما هباني ربي ، فانا صفر الوجود وهو صرف الوجود ، أنا مبتدء هو مبدئه وخبره
 ومبتدئه ومنتهاه ﴿لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي﴾ وما أحلاه توحيدا ^(١).

أترى أن صاحبه كان مشركا ناكرا للمعاد لمكان الظنّة الكافرة ذات أبعاد . ١ . ﴿مَا
 أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا﴾ تأييدا للحياة الدنيا . ٢ . ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ ترديدا في الحياة
 الآخرة . ٣ . وتنديدا بوعد الله للمؤمنين ووعيده لغير المؤمنين : ﴿وَلَكِنْ رُدُّدْتُ إِلَى رَبِّي ..﴾!
 أم إنه لم يكن مشركا وثنيا يعبد أصناما ، حيث المشركون ينكرون المعاد

(١) الدر المنثور ٤ : ٢٢٢ . اخرج ابن أبي حاتم عن اسماء بنت عميس قال علمني رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) كلمات أقولهن عند الكرب «الله الله ربي لا أشرك به شيئا» .

وهو متردد ﴿مَا أَظُنُّ .. وَلَكِنْ رُدِدْتُ﴾ ولهم ارباب متعددون وهو يقول : «ربي» .. وهم بعاد عن ﴿مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ إلّا ان يؤمنوا ، وقد رجاه صاحبه ان يقوله!

فهو إذا أشرك بربه بزهوة الثراء والخيلاء كما هو للأغنياء الأغنياء ذوي الانفة والكبرياء ، ﴿وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ في تمنيه بعد الحساب تنديد بنفسه ان حسب قوته وجنته تكفيان بقاء بادرار واستمرار لثمره من دون الله ، وهذه حالة شركية تتمثل لكل من جنته الثراء وإن كان من الموحدين في قوله الخواء. ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾

﴿وَلَوْ لَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ..﴾ (٣٩)

«لو لا .. قلت : ما شاء الله كائن لا ما شئته أنا ﴿لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ دوني أنا ، فانا أنما أمشي وأمضي على هامش مشيئة الله ، دونما استقلال في نفسي ولا استغلال لمشيئة الله ، و ﴿مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ تعم المشيئة التشريعية والتكوينية سواء ، لا شريك له فيهما سواء ، فلا شرعة صالحة إلا من الله ، ولا تكوين أيّا كان إلا من الله ، من خير ف «الخير كله بيديه» ومن شر ف «الشر ليس اليه» لان تكوينه . أيّا كان ينتهي الى اذنه ، فلو لا اذنه أخيرا بعد اختيار المختار لم يحصل إذ «لا مؤثر في الوجود إلا الله» :

فانه «لا جبر ولا تفويض بل امر بين أمرين».

ليست الاختيارية في فعل إلّا بمقدمة او مقدمات اختيارية ، لا أنه بمقدماته كلها اختيارية ، مهما اختلفت الأفعال الاختيارية ثوابا وعقابا بقلة او كثرة في مقدماتها الاختيارية والاضطرابية ، فما يشاءه الله من شر أنت تفعله باختيارك لا يصبح اضطراريا لأنه شاءه ، إذ ما شاءه إلّا بعد ما شئته ولكي لا تجبر على ترك الشر كما ولا تجبر على فعله وفعل الخير او تركه ، مهما يمتاز

الخير بتوفيق من الله ، وليس الله بموفق شريرا في شره :

ف ﴿مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ كلمة جامعة تجمع عالمي التكوين والتشريع ، إذ ﴿لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ فان كل قواتك من الله ، وهي لا تكفي حولا عن معصية الله وقوة في طاعة الله إلا بالله ، فهما بعد ان متناصران في قوة بالله ، ثم ولا تكفي فعلا لمعصية الله وتركها في طاعة الله إلا وأخيرا بقوة الله ، فبقوته أعطاك امتحانا ما تشاء التخلف عنه ، ثم بقوة منه اخرى يشاء ما تشاء مما لا يرضاه تشريعا ، فهو تكوين في امتحان يخالف تشريعا ، ليس لأنه مغلوب في عصيانه ، بل تحقيقا لواقع الاختيار الامتحان.

وقد يعني ﴿لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ معنى «لا حول ولا قوة إلا بالله» ^(١) حيث القوة في ترك المعصية حول عن معصية الله ، والقوة على الطاعة قوة بالله ، ف «لا حول عن معصية الله إلا بقوة الله ولا قوة على طاعة الله إلا بعون الله» ^(٢).

وانها باب من أبواب الجنة ^(٣) وكنز من كنوز الجنة ^(٤) ودافعة كل آفة حتى

- (١) المصدر . اخرج ابن أبي شيبة واحمد والنسائي عن معاذ بن جبل ان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : ألا ادلك على باب من أبواب الجنة؟ قال : ما هو؟ قال (صلى الله عليه وآله وسلم): «لا حول ولا قوة الا بالله» :
- (٢ ، ٢) المصدر . اخرج ابن مردويه والخطيب والديلمي من طرق عن ابن مسعود عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : أخبرني جبرئيل ان تفسير لا حول ولا قوة الا بالله انه ... وفي معناه ما رواه في كتاب التوحيد عن أبي جعفر محمد بن علي الباقر (عليه السلام) قال : سألته عن معنى «لا حول ولا قوة الا بالله» فقال : معناه : لا حول لنا عن معصية الله الا بعون الله ولا قوة لنا على طاعة الله إلا بتوفيق الله عز وجل.
- (٣) المصدر . اخرج ابن مردويه والخطيب والديلمي من طرق عن ابن مسعود عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) .

تأتي المنية ^(١) ومبقية لكل عطية إلهية ^(٢) وتزجر الشياطين بها الملائكة ^(٣) ودواء من كل بلية ^(٤) مهما كانت حرقا او غرقا ^(٥) ام أية بلية! ف ﴿لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ و ﴿أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ (٢ : ١٦٥) :

فليقل الموحد ﴿مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ وليفعل ﴿مَا شَاءَ اللَّهُ...﴾ وليعتقد ﴿مَا شَاءَ اللَّهُ...﴾! فيصبح بكيانه ككل ﴿مَا شَاءَ اللَّهُ...﴾ لا في

. وآله وسلم) قال : أخبرني جبرئيل ان تفسير لا حول ولا قوة الا بالله انه ... واخرج نصه او ما في معناه جماعة آخرون.

(١) المصدر اخرج ابو يعلى وابن مردويه والبيهقي في الشعب عن انس قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): ما أنعم الله على عبد نعمة في اهل او مال او ولد فيقول ﴿مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ الا دفع الله عنه كل آفة حتى تأتيه منيته وقرأ ﴿وَلَوْ لَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾.

(٢) المصدر اخرج ابن مردويه عن عقبة بن عامر قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) «من أنعم الله عليه نعمة فأراد بقاءها فليكثر من «لا حول ولا قوة الا بالله» ثم قرأ رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ﴿وَلَوْ لَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ أقول وقد فسر الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) باضافة الحول كما قدمناه وهنا وقبله يستدل لها بالآية وليس فيها «حول».

(٣) نور الثقلين ٣ : ٢٦١ ج ٨٥ في محاسن البرقي عن أبي الحسن الرضا (عليه السلام) قال قال لي : إذا خرجت من منزلك في سفر او حضر فقل : بسم الله آمنت بالله توكلت على الله ، ما شاء الله لا حول ولا قوة الا بالله ، فتلقاه الشياطين فتضرب الملائكة وجوهها وتقول : ما سبيلكم عليه وقد سمى الله وآمن به وتوكل على الله وقال «ما شاء الله ولا قوة الا بالله»؟!.

(٤) الدر المنثور اخرج ابن مردويه عن أبي هريرة قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) «ولا حول ولا قوة بالله» دواء من تسعة وتسعين داء أيسرها الهم.

(٥) نور الثقلين ٣ : ٢٦٠ ج ٨٤ في تهذيب الأحكام عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال : اربع لأربع . الى قوله : والثالثة للحرق والغرق : ما شاء الله ولا قوة الا بالله وذلك انه يقول ﴿وَلَوْ لَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ . أقول . وقد أحرقت جنته بحصبان من السماء فأصبحت صعيدا زلقا.

لفظة القول دون فعل واعتقاد ام وفي اي منهما ام فيهما دون لفظة القول.
 أنت وكل فاعل مختار انما تعمل بقوة الله ، منك المشية والإختيار وتقديم ما عندك من
 طاقات وامكانيات ، ومن الله التوفيق بإزالة الموانع وتهيئة ما لا تسطع من الأسباب ف «لا
 جبر ولا تفويض بل امر بين أمرين»!.

﴿.. إِنَّ تَرَنَّا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾ (٣٩) **فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّنْ جَنَّتِكَ
 وَيُرْسِلَ عَلَيَّهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾ (٤٠) **أَوْ يُصْبِحَ مَأْوَاهَا غَوْرًا فَلَن
 تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا﴾ (٤١)****

لك جنة قد يرسل عليها ربي حسانا ^(١) من السماء خلاف حسانك فيها : ﴿ما
 أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا﴾! ولي جنة خير من جنتك هي لا تبيد أبدا ولا يرسل ربي عليها
 حسانا من السماء إلا رحمة متواصلة ورضوانا ، فأين جنة من جنة ، واين عقلية ايمان
 وجنة؟:

و «عسى» هنا ترجح دون تردد تادبا أمام وعد الله الحق ، علّه يؤهل له! أنا هنا اقل
 منك مالا وولدا وهنالك في يوم الله أكثر بل ليس لك هنالك إلا حسان بدل الجنة
 والرضوان ، وأنت هنا أكثر مني مالا وولدا قد يرسل عليها حسان كما لك هنالك حسان ،
 واين حسان من رضوان.

جنتك قد تصبح بكفرانك صعيدا زلقا : لا ماء فيها ولا كلاء ﴿أَوْ يُصْبِحَ مَأْوَاهَا غَوْرًا
 فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا﴾!

(١). الحسان هو الحساب وهو هنا ما يحاسب عليه فيجازي وهو الظن ، فالحسان الاول في المتن هو الثاني
 والثاني ، هو الثالث ، فقد يكون عذابا بحسان او رحمة بحسان فليس الحسان إذا . فقط . حسان العذاب .

فقد تصطدم الجنة ببرودة ام حرارة زائدة فتبيس ثم تجبر حيث تعمّر ، ولكنما الحسبان من السماء يجعلها غير قابلة الزرع والإنباء . إذ «تصبح ﴿صَعِيداً زَلْقاً﴾ : دحضا لا نبات فيه .

ام قد يقل الماء المتفجر ام يسد بسدات تحت الأرضية فيرجع بالتنقية ، ولكنما الغور إبعاد له أو إفاء ﴿فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلْباً﴾ !.

﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفِّهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً﴾ (٤٢).

لقد حصل فعلا ما أنذره صاحبه حيث ﴿أُحِيطَ بِثَمَرِهِ﴾ بما أحاط الله ثمره بحسبان من السماء إمّا ذا ، فاستأصل ثمره ﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ﴾ وقد تكون هذه الاحاطة السماوية من كل الجوانب كالبحرية : ﴿جَاءَهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ..﴾ (١٠ : ٢٢) والإصابة المحيطة هي التي لا منفذ عنها ولا مخلص منها : ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفِّهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا﴾ : صمر مدمر من كل جانب وكأنه لم يكن له ثمر ، حيث لم يبق له أثر إلا ﴿صَعِيداً زَلْقاً﴾ و ﴿يُقَلِّبُ كَفِّهِ﴾ كناية عن الإنفاق النادم حيث تهدّر دون اي ثمر «وهي» الجنة ﴿خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾ مهشمة محطمة تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدرا «وهو يقلب كفيه» أسفا على ماله الضائع بحاله الضائعه ﴿وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً﴾ ولات حين مناص وفرار عما قدّمه ، ومن ورائه جهنم وبئس القرار! ترى ولماذا أصبحت الجنتان في سرد القصة كأنهما جنة واحدة : آتت . أكلها . لم تظلم . جنته . هذه . منها . جنتك . من جنتك . عليها . فتصبح . ماءها . فيها . عروشها ؟.

عليهما لأنهما أصبحتا كجنة واحدة لمكان زرع بينهما كما فيهما مهما فصل بينهما جدار من نخل ، فدخوله في قسم منها دخول فيهما ، أو أنه دخلهما.

﴿وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾ (٤٣) هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ (٤٤) :

ورغم نفره من ولد وسواهم ﴿لَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ حيث أحاط الله وقد كان يعتز بـمال ونفر ﴿وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾ وبمن ينتصر؟ بمن لا ينصرونه او ينصرونه؟ أمن الله؟ ولا قوة إلا بالله! او من حسابان السماء؟ وليس إلا امر الله! ف ﴿هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ﴾ لا لسواه إلا باطلا.

وماذا تعني «هنالك» حيث تخص بها الولاية لله؟ وكيف بوصف الله بالحق ولا اله إلا الله الحق؟ ثم ثوابه وعقبه خير من أي كان ولا خير إلا منه؟

فهل «هنالك» تشير الى مكانة الحيلة الإلهية بعذاب ألا ناصر فيها إلا الله حيث تعني الولاية النصره ، فمهما كانت الإصابة من غير الله تدفع بغير الله ، فالإصابة الخاصة من الله لا دافع عنها إلا الله الحق ، دون الآلهة الباطلة التي يتخذونها آلهة دونه ، فحين تنقطع الأسباب وتحرار دون الحيلة الغيبية الأبواب ، تصرخ الفطرة أن لا إله الا الله ، و ﴿الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ﴾ دون سواه!

ولكنه على صحته في نفسه لا يناسب ﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ حيث الموقف هنالك هو العقاب وليس الثواب!

ام إن «هنالك» البعيد هي الحياة البعيدة الأخرى ، فالولاية النصره والمالكية للتدبير هي ﴿لِلَّهِ الْحَقِّ﴾ دون الآلهة الباطلة ﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا﴾ من سواه لو كان لهم ثواب ولا ثواب لسواه ﴿وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ عاقبة من سواه لو كان لهم عقب ولا عقب لسواه ، أو ان «خير» مقابل الشر فليس هنا تفضيلا ، فليس الخير ثوابا وعقبا إلا له ، ولمن سواه الشر ثوابا وعقبا!

وهذا على حقه في نفسه ، وبالنسبة لثوابه وعقبه قد لا يناسب الحيلة المدمرة الإلهية ،
اللهم إلّا وهو أشد تنكيلا وعقابا!

ام إن «هنالك» يجمع بين الموقف يوم الجمع ويوم الدنيا حين يحاط بالإنسان فيجمع
بين المناسبتين ، فإذا كانت ولاية النصر والتدبير لله الحق دون آلهة الباطل ، ففروا . إذا . الى
الله الحق ، فهل تريدون من الآلهة إلّا ثوابا وعقبا فهو ﴿خَيْرُ ثَوَابٍ وَخَيْرُ عُقْبَاءٍ﴾!

إن الولايات الهامشية الاختيارية لمن سوى الله ليست إلّا من قبل الله كما وليّ
استخلافا دون تخويل ، فلا تركنوا إليها اللهم إلّا الى حقها ^(١) دون باطلها ، تذرعا إلى تحقيق
أمر الله ، والزلفى إلى ولاية الله ، ولتكونوا على نبهة دائبة ألا ولي إلّا الله ، ولا ثواب ولا
عقب إلّا من الله ، ففي ظل ولاية الله تتوارى الولايات كلها ، و ﴿لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾!

﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ
فَأَصْبَحَ حَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَّاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا﴾ (٤٥)

هنا مثل للحياة الدنيا يأتي في يونس أكثر تفصيلا : ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا
أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ
زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ

(١) ومن حق الولايات الهامشية ولاية الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وفي ظلها ولاية علي (عليه السلام)
والائمة المعصومين من ولده ، وقد تبرز ولاية علي (عليه السلام) تأويلا ل «الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ» كمصدق مختلف
فيها في الولايات تحت ظل الولاية المحمدية كما رواه في الكافي بإسناده عن علي بن حسان عن أبي عبد الله (عليه
السلام) قال : سألته عن قوله عز وجل ﴿هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ﴾ قال : ولاية امير المؤمنين (عليه السلام) ورواه
مثله عن عبد الله الرحمن بن كثير عنه (عليه السلام)

عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنِ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾.

ألا إن الدنيا «كروضة اعتَمَ مرعاها وأعجبت من يراها ، عذب شربها ، تمج عروقها الشرى وينظف فروعها الندى ، حتى إذا بلغ العشب أبانه واستوى بنانه ، هاجب ريح تحت العروق ، وتفرق ما اتسق ، فأصبحت كما قال الله ﴿هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَّاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾^(١) فهي إذا «لا تعدوا إذ تناهت إلى أمنية اهل الرغبة فيها والرضا بها أن تكون كما قال الله ﴿كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ ..^(٢).

أترى ﴿الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ هنا هي الرديئة الدنيئة؟ و ﴿كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ﴾؟ قد لا يناسبها ، فانه رحمة من سماء الرحمة اختلط بها نبات الأرض! أم هي أدنى الحياة العقلية إلينا وأقربها ، من وراءها الحياة البرزخية والآخرى وهما العليا؟ ويناسبها ﴿كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ ولكنما العاقبة ﴿فَأَصْبَحَ هَشِيمًا ..﴾ قد لا تناسبها! . ام هي الدنيا بمعنيها حيث يناسبان موضعها «ماء وهشيماء»؟ وهذا أنسب وأحرى! فكما الماء النازل من السماء طاهر في نفسه ، عال في مكانه ومكانته ، وحين ينزل يختلط به نبات الأرض لينبت ، فلو لا الماء فلا نبات ولا كلاء ، كما لو لا بذور النبات لم يفد الماء ، ومن ثم نبات الأرض الظاهر الزاهر

(١) نور الثقلين ٣ : ٣٦٢ ح ٩٢ في روضة الكافي بإسناده عن علي بن الحسين (عليه السلام) حديث طويل في

الزهد في الدنيا وفيه يقول (عليه السلام) «فهي كروضة ..»

(٢) عن نهج البلاغة عن الامام امير المؤمنين (عليه السلام).

بزخرفاته يصبح هشيمًا تذرّوه الرياح ، حيث تنتهي شريط الحياة للنبات .

كذلك الروح الإنساني الطاهر ينزل من سماء المشيئة الإلهية إلى أرض البدن ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ﴾ (٣٢ : ٩) وأرض الأرض : ﴿قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ (٧ : ٢٤) فاختلط به نبات الأرضين زينة وزخرفة ، ثم يصبح البدن ومن ثم أرض البدن بنباته هشيمًا تذرّوه الرياح ! والهشيم : الكسير الرخو ، والذرو : التفريق ، فالرياح تفرّق كسير النبات ورخوها كأن لم تكن شيئًا!

مشهد للحياة الدنيا ، خاطف قصير يلقي في النفس لها ظل الفناء في مثلث نزول ماء السماء وخلطه وهشيمه ، فلا بقاء إذا لدنياها ، والباقي هو ماء السماء ، روح الإنسان بعد تهشم البدن بدنياه ، فليتزود نازل السماء من منزل الأرض زادا لأخراه .

ألهذه الخليطة الهشيمة ، الحطيمة اليتيمة الزهيدة ، القصيرة الوهيدة ، لهذه تتنافس ، فتتقاعس عن واجب الحياة ، عن أخراها الى أولها ، لحد تظن ألا تبيد هذه أبدًا؟!

حتى متى الغفلة والغفوة عن حق الحياة وحاقها ، الى باطلها وزائلها ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ (٣٠ : ٧) ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ (٤٦) .

أترى أن زينة الحياة الدنيا محرّمة على أهلها؟ ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ .. قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رِيَّ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ..﴾ (٧ : ٣٣) !.

فمن هذه الزينة باقيات صالحات هي خير عند ربك ثوابا وخير أملا ، ومنها زائلات طالحات لا خير فيها ولا ثواب إلا شر وتباب!

الأعمال كلها باقيات أقوالا وافعالا ونيات ، من صالحات وطالحات باقيات ، فالصالحات خير عند ربك ثوابا كما الطالحات شر لا تخلف إلا عقابا ، والصالحات خير أملا يأملها فاعلها في الدارين ، والطالحات شر املا في الدارين : ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا﴾ (١٩ : ٧٦) وإذا كان الإنسان يتعلق بالمال والأولاد ثوابا وأملا ومردا ، فالباقيات الصالحات منهما وسواها خير ثوابا وخير أملا وخير مردا!

وزينة المال والأولاد قد تكون باقية صالحة لحد توخذ في كل مسجد ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ (٧ : ٣١) حيث تشمل المال إنفاقا له في كل مسجد والأولاد تعبدا كأمثالكم في كل مسجد ، فيصبحان على زينتتهما من الباقيات الصالحات ، فزينة المال والأولاد كسائر الزينة في الحياة الدنيا هي زينة الله حيث زينها الله وجعلها وسيلة للحياة الأخرى ، ولكنما الشيطان يزينا زينة أخرى أنها دائبة ترغب في نفسها فتزل فيها قدم بعد ثبوتها ، او تضل حين ورودها لمن أبصر إليها فأعمته ولم يبصر بها فبصرته : ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا...﴾ (٢ : ٢١٢) ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْخَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ (٣ : ١٤).

فللزينة قيمة ما تزيد في قيمة الإنسان وهي الباقية الصالحة ، وليست لها قيمة ما تنقص من قيمة الإنسان وتجعله كحيوان ، وهي الباقية الطالحة ، وما أهونها واحونها زينة تسلب قيمة الإنسان بدل أن تجلب قيمة للإنسان!

﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا (٤٧) وَعَرَضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا (٤٨) وَوَضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا (٤٩) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا (٥٠) مَا أَشْهَدُكُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقِ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَصَدًا (٥١) وَيَوْمَ

يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا (٥٢) وَرَأَى
 الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا (٥٣) وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ
 لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا (٥٤) وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمْ
 الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةٌ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا (٥٥) وَمَا نُرْسِلُ
 الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مَبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي
 وَمَا أَنْذَرُوا هُزُوعًا (٥٦) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا
 جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا
 (٥٧) وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ

لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْثِقًا (٥٨) وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا (٥٩)

﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ (٤٧) :

وترى أين وأنى يبرز خير الباقيات الصالحات ثوابا وأملا ومردا؟ :

﴿يَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ ..﴾ وهنا يجمع ردفا بين يومي القيامة إماتة : ﴿نُسَيِّرُ الْجِبَالَ ..﴾

واحياء : ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ ..﴾ جمعا للموتى في الحياة فحسابا وجزاء وفاقا!

وبماذا يعطف «ويوم» في بروز الباقيات الصالحات والطلحات؟ علّه قبله يوم البرزخ فانه دار جزاء برزخ ، وقبله الدنيا حيث يرى فيها الباقيات الصالحات والطلحات بشيء من آثارها ، مثلث من الحياة في كلّ حسبها يرى آثار الصالحات والطلحات ، وكما آية السعي تسعى : ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ كضابطة عامة تبتدء من الدنيا ﴿وَأَنْ سَعْيُهُ سَوْفَ يُرَى﴾ انتقالا إلى البرزخ ﴿ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءُ الْأَوْفَى﴾ الى الحياة الاخرى ، فليست المساعي والصالحات موقوفة في ثوابها وأملها ومردّها في الحياة الاخرى ، بل تبرز بدرجات او دركات في مثلث الحياة.

و ﴿نُسَيِّرُ الْجِبَالَ﴾ هي قيامة الأرض بما فيها وعليها ، باقتلاع الجبال عن أصولها

وتسييرها سريعة لحد ﴿تَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ ببرز قواعد الجبال والاتلال ، وسرابا : ﴿وَسَيَّرَ

الْجِبَالَ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ (٧٨ : ٢٠) حيث

«تذل الشم الشوامخ والصم الرواسخ فيصير صلدها سرايا رفرقا ومعهدا قاعا سملقا»
«ويسألونك عن الجبال قل ينسفها ربي نسفا فيذرها قاعا صفصفا. لا ترى فيها عوجا ولا أمتا» (٢٠ : ١٠٧) أرضا مستوية ملساء دون انخفاض فيها ولا ارتفاع .

﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ في قيامة التعمير بعد قيامة التدمير ، ولكل رجفة تناسبه ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ، تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ﴾ (٧٩ : ٧) ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ . وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (٣٩ : ٦٩) ولعل من بروز الأرض إشراقها بنور ربها حيث تطوى ظلمتها وظلاماتها طيا ، كما وأنها تبرز أثقالها المخبوءة فيها ﴿وَأُخْرِجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ .

وإنه الحشر العام والتام دون إبقاء : ﴿فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ من الأولين والآخرين : ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾ (١٨ : ٩٩) ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنَّ قَدِ اسْتَكْبَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ﴾ (٦ : ١٢٨) .

حشر تبدى فيه الأرض بارزة عارية من أتلال وأشجار وجبال وعن بنايات إمّا ذا من حواجز وفواصل بروزها صافية مستوية ، فالقوة التي تسير الجبال وتصيرها كالعهن المنفوش ، ماذا ترى تفعل بما دونها من أتلال أم ما ذا؟ : فللأرض بروز أول رفعا لحواجزها ، وبروز ثان إخراجا لأثقالها ، وبروز ثالث إشراقا بنور ربها ، ومن ثم جمع على ظاهرها الساهرة ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾^(١) والمغادرة هي المشاركة والإخلال

(١) نور الثقلين ٣ : ٢٦٥ ج ١٠٦ في كتاب جعفر بن محمد الدرويستي بإسناده الى ابن .

بالشيء ، فلا متاركة مع أحد ولا إخلال بأحد!
تتكشف الأرض وتتكشف خبايا من يحشر على الأرض فلا تخفى منها ولا منه خافية

:

﴿وَعَرِّضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لِّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا﴾ (٤٨).

أترى انهم لم يكونوا بمعرض «ربك» حتى «عرضوا» بعد حشرهم ، ﴿لَا تَخْفَىٰ مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾ في الدنيا والآخرة ، ثم ومن هذا المطلع عليهم قبل «ربك» حتى يعرضهم على ربك؟ ان الكون كله بمعرض الله أيا كان وأيان ، ولكنما العرض على «ربك» عرض على ربوبية ، فهنا عرض أول طول الحياة الدنيا على ربوبية التكليف وهو أمانة الرب على العواتق ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ (٣٣ : ٧٢) وهناك عرض على ربوبيته الجزاء ﴿وَعَرِّضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا﴾ ولا يعرضهم إلا ربك او من يعرضهم من عماله باذنه الموقف التساءل والحساب فالجزاء ، دون ان تخفى منهم خافية : ﴿يَوْمَئِذٍ تُعَرِّضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾ (٦٩ : ١٨) فليس العرض كما الأشهاد لأنه خاف عليه خافية ﴿أُولَٰئِكَ يُعَرِّضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ

. عباس قال : لما نزلت هذه الآية على رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ غشي عليه وحمل الى حجرة ام سلمة فانتظره أصحابه وقت الصلاة فلم يخرج فاجتمع المسلمون فقالوا : ما لنبي الله قالت ام سلمة : أن نبي الله عنكم مشغول ، ثم خرج بعد ذلك فرقى المنبر فقال : ايها الناس انكم تحشرون يوم القيامة كما خلقتكم حفاة عراة ، ثم قرأ على أصحابه ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ ثم قرأ ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ :

هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١١﴾ (١٨).

ولأن العرض فيه الهول المطلع ، وآياته تخص عرض الظالمين ، فهو - إذا - خاص بغير المؤمنين ، وأما هم فوافدون إلى ربهم وفد الكرام إلى الكريم .

﴿عَرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا﴾ فهم بصفهم في عرضهم يزدادون هولاً ، فهنا صف هائل لأهله ، حيث لا حكمة فيه إلا هوله ، وفي القتال صف هائل للعدو ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ﴾ (٦١ : ٤) وأين صف من صف! ثم الخطاب الهائل لذلك الصف والعرض الهائل : ﴿لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ...﴾ وي كأنه خطاب حاضر ، لا مستقبل ، تجسيماً وتحضيراً لموقف الخطاب العتاب!

وترى كيف المجيء بمعرض الرب ﴿كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾؟ لقد خلقنا فرادى دون ما خولنا ولا شفعاء وكذلك نجئيه كما خلقنا : ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفْعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءَ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ (٦ : ٩٤) هذا مجيء ﴿كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ ومجيء آخر معه ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾ (٢١ : ١٠٤) ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ (٧ : ٢٩) فكما خلقناكم فرادى جئتمونا فرادى ، وكما خلقناكم من تراب جئتمونا عائدین كبديكم من تراب ، كما خلقناكم أول مرة جئتمونا ثاني مرة :

﴿بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا﴾ : ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ (٢٣ : ١١٥) زعمتهم إحالة موعد العرض والحساب ، وحسبتهم عبث الخلق وعدم الرجوع والإياب ، ولذلك اثاقتهم إلى الأرض ورضيتهم بالحياة الدنيا من الآخرة :

﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رُبُّكَ أَحَدًا﴾ (٤٩).

ذلك الكتاب هو كتاب الأعمال الصوتية والصورية إمّا ذا كما استنسخه الله ﴿هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٤٥ : ٢٩) استنساخا لنفس العمل كأعمال ف ﴿وَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾ «كأنه فعله تلك الساعة» ^(١) فلو لم تكن نفس الأعمال وكانت حكاية أخرى غيرها لم يجدوا ما عملوا حاضرا! ﴿وَلَا يَظْلِمُ رُبُّكَ أَحَدًا﴾ أن يكتب ما لم يعمل من سوء ، او يكتب العامل أزيد من استحقاق جزاء غير وفاق ، أم لا يكتب سوء او ينقص من سوء ظلما على تاركي سوء إمّا ذا؟.

﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ﴾ بمعرض المحشر حيث يراه ويسمعه ويفهمه صاحبه وسواه ، ووا ويلاه من هذا العرض وذلك الوضع ، ﴿فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ﴾ وهم يتأملونه ويتملّونه فإذا هو جامع لما أجزموا دون إبقاء ﴿مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾ خائفين على حبه ، حبّا لأنه منهم ، وخوفا من عقابه الحاضرة ، فالإشفاق «من» يزيد خوفه على حبه ، والإشفاق «في» يزيد حبه على خوفه ، فلان إشفاقهم خال عن رجاء فخوفه زائد على حبه ، بل ولا حب بعد هنيئة يرون جزاء ما فيه ويتمنون فراقه : ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا﴾

(١) نور الثقلين ٣ : ٢٦٦ في تفسير العياشي عن خالد بن نجيح عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال : إذا كان يوم القيامة رفع الإنسان كتابه ثم قيل له : اقرئه . قلت : فيعرف ما فيه؟ فقال : انه يذكره ، فما من لحظة ولا كلمة ولا نقل قدم إلّا يذكره كأنه فعله تلك الساعة فلذلك قالوا : ﴿يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ وفي نقل آخر وقال (عليه السلام) : يذكر العبد جميع ما عمل وما كتب عليه كأنه فعله تلك الساعة . ثم استدلل (عليه السلام) بالآية :

وَمَا عَمِلْتَ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَؤُفٌ بِالْعِبَادِ ﴿٣٠ : ٣﴾ «ويقولون» والهين حائرين آسفين ﴿يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ﴾ ما له من قوة ضابطة حافظة ، لهذا الشريط والمسجلة «لا يغادر» معصية ﴿صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾^(١) إحصاء لنفس الصغيرة والكبيرة ورسمها لا اسمها ، وكل مسجلة ام شاشة تلفزيونية إنما تحضر ما تلقته إذا سلمت وبقيت على حالتها الاولى حين سجلت ، وهذا الكتاب ، المسجلة الأرضية بفضائها ، والبدنية بأعضائها اما ذا ، نراها تودى أمانتها بعد ما تمرقت : ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ .. يَوْمَئِذٍ تُخَدِّثُ أَخْبَارَهَا. بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ..﴾ ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾ بما سجله الله وأحضره ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ ..﴾! وليس حضور العمل حضورا لما يحكي عنه من قولة حاكيه ام كتابة ، اللهم إلا حضوره نفسه وقد انقضى ام تجسّمه وهو تجشّم! إذ ليس انقلاب العمل . وهو صورة . الى جسم . على فرض امكانيته ليس هو هو او صورته ، ثم لا مبرر لهكذا قلب للعمل ولا يجدي نفعا!

إن العمل أيا كان يستبقى دون عامله بزمانه ومكانه ، ويستنسخ منه صور اخرى : ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ : ف ﴿وَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾ يعني أصل العمل المستمر وزيادة هي ما استنسخ منه في كتب صوتية وصورية اخرى من أرض بفضائها ، ولا حضور للعمل معقولا هو

(١) الدر المنثور ٤ : ٢٢٩ . اخرج الطبراني عن سعد بن جنادة قال : لما فرغ رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) من غزوة حنين نزلنا فقرا من الأرض ليس فيه شيء فقال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) اجمعوا من وجد عودا فليأت به ومن وجد عظما او شيئا فليأت به ، قال : فما كان الا ساعة حتى جعلناه ركاما فقال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أترون هذا فكذلك تجتمع الذنوب على الرجل منكم كما جمعت هذا فليترك الله رجل لا يذنب صغيرة ولا كبيرة فانها محصاة عليه.

حجة على العامل إلا نفسه ، وتزيده ما معه من صور مستنسخة أخرى ، إذا فتجسّمه تجسّم وليس به ، واللفظ أو الكتاب الحاكيان ليسا نفس العمل ، فلا معنى صحيحا ممكنا هو حجة على العامل إلا حضور العمل ، ام حضور صورته التي استنسخها الله ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ سواء أكان عمل القلب أو القلب ، في مثلث من الصور المعنوية والصوتية والصورية ، كذلك الله يفعل ما يشاء ، حجة عينية حاضرة ، وصورة حاذرة ، وحصبا في سيرته ، ف ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ مثلث من الأهداف العادلة الكافلة لما يرام من العمل يوم القيامة! ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾!

في ذلك الكتاب مربع من الشهادات ، عينية سجلتها الأرض . ١ . والأعضاء . ٢ . ، وقوليه . ٣ . يشهد بها الشهداء من الأنبياء ، إمّا ذا . ٤ . كتبها الكرام الكاتبون ، يعلمون ما تفعلون ، علّه قوله ام كتابة التعبير ، ام تسجيلية لصور الأعمال وأصوات الأقوال في سجلات الأرض والأعضاء إمّا ذا؟

وعلّ هنالك كتباً ودواوين منها ديوان السيآت كما الحسنات والنعيمات على حدّ المروي عن الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم) ^(١) فالكتاب الموضوع جنسه الشامل لها ، يشمل كل كتاب يحصي الأعمال كما يشمل كتاب كلّ من العمّال!

وترى هذه الكبيرة تحصى في كتاب الأعمال فما بال الصغيرة تحصى وهي مكفّرة؟
ان الصغيرة مكفّرة إذا تركت للذين آمنوا : ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلَكُمْ مُدْخَلَ كَرِيمًا﴾ ولكنما الصغيرة التي تعمل

(١) الدر المنثور ٤ : ٢٢٩ . اخرج البزاز عن انس عن النبي (صلّى الله عليه وآله وسلم) قال : يخرج لابن آدم يوم القيامة ثلاثة دواوين ، ديوان فيه العمل الصالح وديوان فيه ذنوبه وديوان فيه النعم من الله عليه.

مع الكبيرة ، او لغير المؤمنين لا تكفر! ويكفي الكفر كبيرة تحصى معه كل صغيرة وان لم يأت بكبيرة اخرى!

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ (٥٠)

لقد كرمكم ربكم إذا امر الملائكة بالسجود لآدم ، وأهانكم إبليس إذ فسق عن أمر ربه ، ثم أنتم هؤلاء تتخذونه وذريته أولياء وهم لكم عدو ، وترفضون ولاية ربكم ، فاذكروا فيما تذكرون ...» وإذ قلنا ...».

وترى أن إبليس ﴿كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾ فلم يكن من الملائكة ، كيف . إذا . يشمله ضمن الملائكة الأمر بالسجود لآدم؟

اجل انه لم يكن من الملائكة . قطعاً . فإنهم ﴿عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾ لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ (٢١ . ٢٧ . «ان الملائكة معصومون محفوظون من الكفر والقبائح بالطاف الله تعالى»^(١) .

انه ﴿كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾ وكان مع الملائكة وكانت الملائكة تراه أنه منها ، وكان الله يعلم أنه ليس منها فلما امر بالسجود كان منه ما كان»^(٢) «فاستخرج ما في نفسه بالحمية والغضب»^(١) .

(١) نور الثقلين ٣ : ٢٦٧ ج ١١٧ في عيون الاخبار في باب ما جاء عن الرضا (عليه السلام) في هاروت وماروت وفيه بعدان مدح (عليه السلام) الملائكة وقال : معاذ الله من ذلك ان الملائكة .. بالطاف الله تعالى . قالنا له (عليه السلام) : فعلى هذا لم يكن إبليس ايضاً ملكاً : فقال : لا . كان من الجن اما تسمعان الله تعالى يقول : «... كَانَ مِنَ الْجِنِّ» فأخبر عز وجل انه كان من الجن وهو الذي قال الله تعالى ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ﴾ .

(٢) نور الثقلين ٣ : ٢٦٧ ج ١١٩ في تفسير العياشي عن جميل بن دراج عن أبي عبد .

نتلمح كتصريحه من عدم اعتراضه على الله : «لم يشملني الأمر إذ لم أكن من الملائكة» وان الله امره بخصوصه ام في الملائكة ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ (٧ : ١٢) انه شمله الأمر ﴿كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾ فهو أعقل من ان يتحول الى قياس باطل بدل البرهان! فقد ﴿كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾ كونا ، ومن الملائكة كيانا ومحتدا في ظاهره حتى تبين أمره حين تخلف عن أمر ربه!

وقد فرع فسوقه عن أمر ربه بكونه من الجن ، ولو كان من الملائكة لم يفسق. ام ويعني معنى ثانيا : كان ممن يجن ويستتر عن الملائكة كونه من الجن وكونه كافرا ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ فتبين لهم أنه كان من الجن وانه كافر ، وعلى المعنيين معنيان وما أجملهما جمعا ومما يلمح لثانيهما «كان» حيث الاول كائن ما كان دون حاجة الى صيغة الماضي ، ولكن إخفاؤه عنهم كونا او كينونة هو الذي «كان» ثم «فسق» تفرع للأول ، وعطف ترتيب للثاني! فسق عن أمر ربه لأنه لم يكن من الملائكة وهم معصومون بل كان من الجن الوارد منهم الفسق ، وكان ممن يجن حالته الكافرة ، ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ ففسق عن امر ربه بالسجود إذ لم يتمالك نفسه العاتية المستكبرة امام آدم! ثم و ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ علّله استثناء منقطع إذ كان من الجن ، وأمره بالسجود يخصه كما أمرهم يخصهم ، أم متصل عني من الملائكة الكيان الملائكي في واجهة الأعمال الايمانية الملائكية ، إذ كان معهم يعبد الله

. الله (عليه السلام) : قال : سألته عن إبليس كان من الملائكة وهل كان يلي من امر السماء شيئا؟ قال : لم يكن من الملائكة ولم يكن يلي من امر السماء شيئا كان من الجن ...
(١) المصدر ج ١١٨ في اصول الكافي عنه عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال : ان الملائكة كانوا يتحسبون ان إبليس منهم وكان في علم الله انه ليس منهم فاستخرج :

بضعة آلاف من السنين لحد اعتبروه منهم ولأقل تقدير كيانا ، ام أمر بأمرين يخصه ﴿إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ ويعمه مع الملائكة ﴿إِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ﴾ وعله أجمل حيث التمرد بحاجة الى تأكيد من الأمر ، فليؤمر بأمرين!

﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ حيث لم يسجد لآدم ، وعدو لله حيث عصاه . تتركوني وأنا ربكم وتتولونه وهو عدو لكم ولربكم ﴿بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ يستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير!

وماذا تعني ولاية الشيطان وذريته؟ قد تعني الولايات الإلهية كلها حسب مختلف دركات العقائد في اتخاذ الشيطان وذريته اولياء.

من ولاية العبادة ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ (٣٩ : ٣) ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ﴾ (٦ : ١٠٠) ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ﴾ (٣٤ : ٤١) فمن الناس من يعبد الشيطان خوفا منه وتقية لكيلا يضره ، وعبادته أضر الأضرار ، فرارا أخبث من الحفرة بدخول البثرة.

ومن ولاية الطاعة ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُوهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾.

ومن ولاية التكوين والتدبير والتشريع والتقدير ، بمختلف العقائد الشاردة الماردة عن صراط الحق في ذلك البديل البعيد السحيق و ﴿بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾! ﴿وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا﴾ (٤ : ١١٩) :

وترى كيف انتشاء الذرية وانتسال الانسال من إبليس؟ أمن زواج الزوجين؟ ولم يأت ذكر ولا إشارة في الذكر الحكيم عن شيطانة ، وقد ذكرت إنسانة : ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾!

ولكن التعبير ب ﴿بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنَّ﴾ يلمح أن فيهم ايضاً نساء حيث الرجولة والأنوثة من المضايقات ، كل تطلب الأخرى ، فلتكن الذرية منهم بين رجال ونساء ، دون أن تباض بيضات كما في بعض الروايات!

و ﴿بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنَّ﴾ هنا هم من القدة غير الصالحة ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنَّ فَرَادُوهُمْ رَهَقًا ، وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَن لَّنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا﴾ (٧٢ : ٧) فلا موقع للقول : لعل التناسل هو بين صالحى الجن دون من دون ذلك! مع أن الصلاحية هنا لا تعني صلوح التناسل ، وانما العقيدة والعمل ، ووحدة الجنس بين الصالحين ودون ذلك الشامل للشياطين ، إنها تحكم بوحدة الكيفية في انتسال الأنسال!

﴿مَا أَشْهَدُكُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَصُدًا﴾ (٥١) :

أترى من «هم» في ﴿مَا أَشْهَدُكُمْ﴾ و «أنفسهم»؟ أهم فيهما إبليس وذريته كما هما محور البحث في آية السجود من عصيانه النكير وولايته بذريته! فسلب الاشهاد في الخلقين لزامه سلب ولايتهم الإلهية كيفما كانت؟ حيث الولاية التامة لزامها الإحاطة العلمية وفي القدرة ، أن يحيط فيهما بخلق السماوات والأرض ، أم . وعلى اقل تقدير . بخلق أنفسهم ، فيصبحوا إذا من أعضاء الربوبية ، بعدان بعيدان عمن سوى الله أيا كان!

فلو كان الإشهاد بإحضارهم على علم ، فليكونوا كائنين قبل كونهم ، وقد خلقوا بعد خلق السماوات والأرض فكيف يشهدون خلقهما ، وقد خلقوا ولم يكونوا شيئاً مذكوراً فكيف يشهدون خلق أنفسهم؟

وإن كان إشهاداً دون إحضارهم ، بان عرّفهم حقيقة خلقهما وخلقهم أنفسهم بعد خلقهما وخلقهم ، كأنهم كانوا حضوراً حين الخلقين ،

فأحاطوا بهما علما وقدره ، فلهم الولاية إذا بما اشهدوا؟ ولكن الله ما أشهدهم! ولو أشهدهم لكانوا يعلمون غيب السماوات والأرض كما الله ، ام وغيب أنفسهم كما الله ، فكانوا قادرين عليهما وعلى أنفسهم كما الله ، حيث العلم التام هو القدرة التامة! وهي الولاية الإلهية على سواء.

ثم لو أمكن اعتضاده تعالى بعضد مستحيل في بعدين كالأول ، ام في بعد واحد كالثاني ، لكان يعتضد بعدول هادين دون المضلين ﴿وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَصَدًا﴾! ان الله تعالى يحيط بعض الشيء كإشهاد ثان بعض عباده شيئا من كونه او كله ، اراءة للملكوت ، وولاية جزئية دونما اعتضاد لنفسه ولا تحويل لهم ، ولكنهم هداة وفي قمة العبودية والعدالة ، وأما أن يتخذ المضلين عضدا ﴿وَمَا كُنْتُ﴾ منذ بدء التكوين ﴿مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَصَدًا﴾ ولماذا عضد لمن هو على كل شيء قدير ﴿وَلَا يُوَدُّهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾؟ ولماذا المضلين وشأنه الرحمة والهداية؟!

إذا فأية ولاية إلهية بعيدة عن الشيطان وذريته في أبعاد عدة ، بعد الاستحالة في نفسه كما الإشهاد الأول ام في ساحة الربوبية كما الثاني!.

ثم ﴿وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ كما هم أعداء الله ، فكيف يتخذهم عضدا ، اللهم إلا لمزيد إضلال فيما الله يعجز عنه فيعتضد بالشيطان وذريته! فسبحانه سبحانه وتعالى عما يشركون! فهل يتخذ الله من غير المضلين عضدا حتى يتخذهم وهم مضلون عضدا صيغة صائغة مجاراتا لأوهام المشركين لاستئصالها ببرهان مكين متين!

انه لا عضد لله يعتضد به ، وإنما له أولياء في شرعته بما أشهدهم إياها : ولاية شرعية ، دون ولاية تشريعية ، أن لم يشهدهم جذور مصالح

التشريع حتى يشرعوا بل هو الذي ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ (٤٢ : ١٣) دون ان يخوّلهم تشريعا اللهم إلّا حكما بشرعته جماعيا وفرديا وفي كافة الحاجيات المختلف فيها بين الأهواء والعقول وفي مختلف الحقول!

واما ولاية التكوين ، فهي منحصرة في الله في أصلها : التكوين لا من شيء ، وقد يمنحها الله في فرعها : التكوين من شيء كآيات النبوات بقلّة في إراءة الملكوت كإحياء الموتى فيما تطلّبه ابراهيم ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾ (٣ : ٣٦٠) وبكثرة فيما هم فيها مظاهر لفعله كخلق الطير للمسيح فانه في جسمه باذنه ، وفي روحه باذنه ، دون تكوين للمسيح إلّا خلق الطين كهيئة الطير في صورة ، واما هيئته في حقيقته ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي﴾ فضلا عن روحه ﴿فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي﴾ (٥ : ١١٠) فانما هما من تكوينه تعالى لا تكوينه!

فلا ولاية إلهية هي من خلفيات العلم المحيط بالكون ، لأحد من خلقه ، اللهم إلّا شرعية بما أوحى ، او تكوينية كاداة صورية لا حقيقية!

ثم ل «هم» في «أشهدتهم» و «أنفسهم» وجوه ثلاثة أخرى وما قدمناه أصح وأحرى.

١ . انهما راجعان الى من يتولون الشيطان وذريته في كل ما مضى من إشهداد وهو في نفسه صحيح ، لا لهم فحسب ، بل ولمن سوى الله ككل ، حيث ما أشهدهم خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم . ولكنه لا يناسب ﴿وَمَا كُنْتُمْ تُتَّخَذُ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ حيث المتولون هؤلاء لم يدعوا كونهم أنفسهم أعضاء الله ، وانما الشيطان وذريته حيث يتولونهم كأئهم أعضاء الله!

٢ . ان الاول راجع الى الشياطين والثاني من يتولونهم ، أن الشياطين ما أشهدوا خلق الكون ليتخذوا أولياء ، وهم ما أشهدوا خلق أنفسهم ، أنها في الكيان بحيث يتخذونهم أولياء؟ ولكنما التولي هكذا لا يحتاج هكذا إشهدا لخلق أنفسهم ، وإنما وحي أو كتاب أو اشارة من علم إما ذا؟ ثم يكفي سلبا لهذا التولي ﴿وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَصُدًا﴾ .

٣ . عكس الثاني ان المتولين الشياطين ما اشهدوا خلق السماوات والأرض ، والشياطين ما أشهدوا خلق أنفسهم ، فإذا لا يحيطون علما بالسماوات والأرض فكيف يتخذون الشياطين أولياء من دون الله ، أحرصا على الغيب أن الله اتخذهم لهم أولياء وأذن لهم؟ ام علما بالغيب ﴿مَا أَشْهَدُهُمْ﴾ وما أشهدت الشياطين خلق أنفسهم انهم خلقوا أولياء؟ ولكنما الولاية الإلهية يكفيها الإعلام ، دون إشهدا لخلق أنفسهم!

او يقال : إذا لم يشهدوا خلق أنفسهم فأولى ألا يشهدوا خلق السماوات والأرض ، فأنتي لهم الولاية الإلهية ولزامها العلم التام والقدرة؟ وهذا في نفسه صحيح ، ولكنه بنفسه غير فصيح ، ولا تتحملة لفظ الآية ، حيث ﴿وَلَا خَلَقَ أَنْفُسَهُمْ﴾ عطف على ﴿مَا أَشْهَدُهُمْ﴾ ف «هم» فيهما . إذا . جماعة واحدة ، حيث اللفظة الصحيحة الفصيحة لاختلافهما «ولا أشهدتهم خلق أنفسهم» بل «ولا أشهدت هؤلاء ..»! ٤ . وقد تعنيهما الآية جمعا بين المحتجين .

ووجه خامس ﴿وَلَا خَلَقَ أَنْفُسَهُمْ﴾ اي ما أشهدت إبليس وذريته خلق السماوات والأرض سنادا لولايتهم ، ولا أشهدت المتولين لهم خلق انفس إبليس وذريته ليحيطوا علما بتأهلهم لذلك الولاية!

ووجه سادس يجمع بين الوجوه الصحيحة في نفسها .

واولى الوجوه هو الاول ، ثم هي بين غلط وصحيح ما ضمن الاول ،

والجمع بين الصحيحة هو أصح الوجوه! :

انه تعالى ما أشهد الشياطين ولا المتولين لهم ولا المؤمنين ولا أوليائه المكرمين ، خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم ، لا إشهد الحضور حيث لم يكونوا حضورا ، ولا إشهد الإحاطة علما وقدرة ، فانه ولاية إلهية لا تنفى ولا إشهد الاطلاع للمتولين الشياطين أن لهم ذلك التولي! او لشياطينهم تلك الولاية . ولا انه يعتضد بمن سواه ، ولو كان معتضدا لم يكن بالمضلين ﴿وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ .

فالرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وهو أول العابدين وآخر المرسلين ليس عضدا ولا وكيلا ولا وليا تكوينيا ولا تشريعيا عن رب العالمين : ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ : (٧ : ١٨٨) ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ...﴾ (٦ : ٥٠).

واشهد خلق السماوات والأرض وإشهد نفس المشهود له لنفسه ككل فيه علم الغيب كله ، والقدرة على الغيب كله ، فياذ لا ولاية عامة الأول العابدين الهادين فكيف إذا حال أول المضلين؟ ﴿وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾!

وكما ان للعضد الخير الهدى درجات كلها منفية لله ، كذلك للعضد الشر الضلال دركات وأحرى ان تكون منفية عن الله ، من عضد الولاية الإلهية ، او الرسالة وما دونهما من دعوة إلهية بمراتبها ، ثم وغير العضد المستحيل لله أيا كان ، من أنصار لله فيما صح وأمكن ، ليس إلا لمن هو على هدى ويهدي الى الحق ﴿أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ مَنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ (١٠ : ٣٥) ذلك اعتضاد مستحيل

لله على أية حال ولندرس منه حرمة اعتضاد المضلين فيما أمكن على اية حال كما لم يتخذ الإمام علي معاوية عضدا^(١).

إن المضل وإن في جهة من الجهات او وجه من الجهات . ما صدق عليه مضل . لا يعتضد ، كما لم يعتضد الإمام الحسين (عليه السلام) من

(١) نور الثقلين ٣ : ٢٦٨ ج ١٢٢ في امالي شيخ الطائفة باسناده الى جبلة بن سحيم عن أبيه قال : لما بوع امير المؤمنين علي بن أبي طالب بلغه ان معاوية قد توقف عن اظهار البيعة له وقال : ان اقربي على الشام او الأعمال التي ولانيها عثمان بايعته ، فجاء المغيرة الى امير المؤمنين (عليه السلام) فقال له : يا امير المؤمنين! ان معاوية من قد عرفت وقد ولاه الشام من كان قبلك ، فولّه أنت كيما يتسق عرى الأمور ثم اعزله إن بدا لك ، فقال امير المؤمنين (عليه السلام) : أتضمن لي عمري يا مغيرة فيما بين توليته الى خلعه؟ قال : لا! قال : لا يسألني الله عز وجل عن توليته على رجلين من المسلمين ليلة سوداء ابدا ﴿وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾

وفيه ١٢٤ في كتاب الخصال عن جابر الجعفي عن أبي جعفر (عليه السلام) عن امير المؤمنين (عليه السلام) حديث طويل يقول فيه (عليه السلام) وقد ذكر معاوية بن حرب : واعجب العجب انه لما رأى ربي تبارك وتعالى قد رد الي حقي في معدنه وانقطع طمعه في ان يصير في دين الله رابعا وفي امانة حملناها حاكما كر على العاص بن العاص فاستماله فمال اليه ثم اقبل به بعد ان أطمعه مصر وحرام عليه ان يأخذ من الفبيء دون قسمته درهما ، وحرام على الراعي إيصال درهم اليه فوق حقه ، فاقبل يحيط البلاد بالظلم ويطأهم بالغشم ، فمن تابعه أرضاه ومن خالفه ناواه ، ثم توجه الي ناكثنا علينا مغيرا في البلاد شرقا وغربا ويمينا وشمالا ، والأنباء تأتيني ، والاخبار ترد علي بذلك فأتاني اعور ثقيف فأشار عليّ ان اوليه البلاد التي هو بها ، لأداريه بما اوليه منها ، وفي الذي أشار به الرأي في امر الدنيا لو وجدت عند الله عز وجل في توليه لي مخرجا ، او أصبت لنفسي في ذلك عذرا ، فأعملت الرأي في ذلك ، وشاورت من أثق بنصيحته الله عز وجل ولرسوله (عليه السلام) ولي وللمؤمنين ، فكان رأيي في ابن آكلة الأكباد رأيي ينهاني عن توليته ، ويحذرنى ان ادخل في امر المسلمين يده ، ولم يكن الله ليراني ان اتخذ المضلين عضدا!

تأبى عن نصرته بنفسه ، وعرض عليه فرسه وسيفه ^(١).

﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا﴾ (٥٢).

هنا يوم يتجاهلون أن شركاءهم لا يجيبونهم إذ يدعون ، وهناك يوم لا يستطيعون تجاهلهم ... ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ ..﴾ موقف بائس كارث لا تحدي فيه دعوى بلا برهان حيث الديان يطالبهم قائلًا : ﴿نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ وهل يقدرّون أو يجسرون ألا ينادوهم لأنهم يعلمون أنهم لا يستجيبون؟ كلاً! «فدعوهم» أصناما لا يعقلون ﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ أو طواغيت يعقلون ﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ نداء من زعموهم بدعائهم شركاء حيث تبلى السرائر ولا تحبأ الجرائر ، أم صلحاء من ملائكة وأنبياء ، آمن ذا وحاشاهم ان يستجيبوا نداء المشركين ﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ إذ يعلم هؤلاء وهؤلاء أنهم ما كانوا إياهم يعبدون فقد كانوا يعبدون أهواءهم ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائِكُمْ فَرَزَلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَائُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾ (١٠ : ٢٨) ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا﴾ : مهلكا يهلك رباطا بينهم كانوا يزعمون ويهلكهم بما كانوا يزعمون ، ويهلك غير المؤمنين من شركائهم أوثانا وطواغيت : ﴿وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَصَلٌّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ (٦ : ٩٤) :

(١) نور الثقلين ٣ : ٢٦٨ ج ١٢٣ في كتاب مقتل الحسين (عليه السلام) لابي مخنف ان الحسين (عليه السلام) قام يتمشى الى عبد الله بن الحر الجعفي وهو في فسطاطه حتى دخل عليه وسلم عليه ، فقام اليه ابن الحر واخلى له المجلس فجلس ودعاه الى نصرته فقال عبيد الله بن الحر : والله ما خرجت من الكوفة الا مخافة ان تدخلها ، ولا أقاتل معك ، ولو قاتلت لكنت أول مقتول ، ولكن هذا سيفي وفرسي فخذهما فاعرض عنه بوجهه فقال : إذا بخلت علينا بنفسك فلا حاجة لنا في مالك ﴿وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَصَدًا﴾ :

﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ (٥٣).

ترى وإذا ﴿لَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ وهم عارفون أنهم أهل النار وهم يرونها ، فكيف «ظنوا» ﴿أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا﴾ ولم يستيقنوا؟

ان واقعة النار وهي الوقوع من جانبي النار واهل النار ، هي دخولهم في النار واشتغال النار بهم ﴿وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾ .. هذه الواقعة رغم أنها واقعة لهم دون شك ، ولكنهم حيث يترجون مهلة لهم بين رؤية النار ومواقعتها من ناحية ، ويرونهم قريبين إليها من أخرى ﴿فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا﴾ أو أنهم على احتمال النجاة من النار ان يجدوا عنها مصرفا كما يرجوا كل مجرم ﴿فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا﴾ حال أنهم ﴿وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ : صرفا أو مكانا أو زمانا للمصرف عنها ، خلاف ما ظنوه من مصرف أيا كان وأيان.

فليس الظن هنا ولا في غيرها علما كما العلم أيا كان ليس ظنا ، فاي منهما ليس بفصيح ولا صحيح حتى إذا قرن بقرينة وليست في أي منها! والحديث الوارد في ظن اليقين مطروح او مؤول^(١).

(١) نور الثقلين ٣ : ٢٦٩ ج ١٢٥ في كتاب التوحيد حديث طويل عن علي (عليه السلام) يقول فيه وقد سأله رجل عما اشتبه عليه من الآيات واما قوله ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا﴾ يعني أيقنوا أنهم داخلوها ورواه في الاحتجاج مثله عنه (عليه السلام) وقد يكون بعض ظن الكافرين يقينا وذلك قوله «ورأى...» أقول : قد يعني كون ظنهم يقينا انما يظنونه متيقن الوقوع وان كانوا يظنونه دون تيقن كما نرى الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) يرى ظنهم ففي الدر المنثور عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : ينصب الكافر يوم القيامة مقدار خمسين الف سنة ما لم يعمل في الدنيا وان الكافر ليرى جهنم ويظن انها مواقعه من مسيرة أربعين سنة والله اعلم» .

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ (٥٤).

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا

. أقول : فظن الواقعة من هذه المسيرة كما قلناه أهم يرونها قريبين إليها من جهة وبعيدون من أخرى فظنوا قريبا ﴿أَتَمُّ مُوَاقِفُهَا﴾ فاسم الفاعل دليل الوقوع حالا رغم استقبال الوقوع مسيرة أربعين سنة في مرآهم! ففي ٦٢ موضعا من القرآن ذكر فيها الظن بمختلف صبغة لا نجد ظنا بمعنى اليقين كما العلم واليقين لا نجدهما في سائر القرآن بمعنى الظن ، ولماذا يستعمل كل في الآخر أحقيقة وليس بها ام مجازا ولا مجوز محسنا له ودون اية قرينة ، وحتى لو كانت ما كانت محسنة لمجازه!.

ولو تأملوا فيها تأولوه بالعلم واليقين لرجعوا الى معنى الظن دون تأويل وإليك موارد من ٦٢ موضعا : (١) ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ ٢١ : ٨٧ . ظن بربه خيرا أن لن يضيق عليه بذهابه عن قومه مغاضبا ، فلا موضع هنا لليقين ، حيث المقام محتمل الضيق جزاء ذهابه عن قومه ، ولكنه ظن لحسن ظنه بربه ، ف ﴿الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنُّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ (٤٨ : ٦)!

(١) ﴿إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسَابِيهِ﴾ ٦٩ : ٢٠ وهو ظن من اوتي كتابه بيمينه وملاقاته حسابه هو لقاء ثوابه ، وظنه تواضع منه وحسن ظن بربه ، فاليقين منه كان مطالبة حق ثابت.

(٢) ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ، تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ ٧٥ : ٢٥ . فانها ترجو رجاء كاذبا ألا يفقرهم العذاب تنحيا عن فقاره ام عن اصل العذاب.

(٣) ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ﴾ : (٢ : ٤٦) في وصف الخاشعين وهو ظن القلب حيث الخشوع فعل القلب ، وظن القلب يوازي يقين العقل ثم وفي ثالث اليقين ﴿حَقُّ الْيَقِينِ﴾ يصبح يقينا في القلب كما في العقل وقد يعنيه :

(٤) ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللَّهِ كَمْ مِنْ فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِتْنَةُ كَثِيرَةٍ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ ٢ : ٢٤٩ ، أفهل يكون صحيحا او فصيحيا حمل الظن في هذه الخمس على اليقين دون قرينة إلا عدم التأمل ضمن ٦٢ موضعا من القرآن العظيم؟

﴿كُفُورًا﴾ (١٧ : ٨٩) ^(١).

ومهما كان الإنسان أكثر شيء جدلاً ف ﴿لَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ﴾ لكل جدل مثلاً يواصف المقصود بما يمثله ويقرّبه الى الأفهام تحقيقاً للحق المرام.

فأية صورة من جدل الإنسان لا تقوى دحضا لمثل القرآن حيث يضرب إلى إعماق البرهان ، فطرة وعقلا وحسا حيث لا تبقى باقية ، مهما بغت جدال الإنسان باغية ، فأين مثل من جدل ، وهطل من وحل!

هنا نعرف مدى جدل الإنسان في حق او باطل ، فهو ﴿أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ من شيء الملائكة في حق ومن شيء الجن في حق او باطل ، ومن شيء كائن يوازي الإنسان أياً كان!

إنسان الحق يجادل في التفتيش عن الحق وتحقيقه بكل مثل ، وإنسان الباطل يجادل في تهديم صرح الحق وتحقيق الباطل ، وأمثال القرآن تحلق في أجواء الباطل لإبطاله ، وفي أجواء الحق لإحقاقه ، دحضا لحجج الباطل دون إبقاء ، وقفزا لتحقيق الحق دون إبقاء.

ان مثل الحق صيغة سائغة للتصريف بمختلف الصيغ ، والله يصرف مثل الحق إلى كافة الصيغ السائغة لتنظيم جدل الإنسان فتقوم حقه وتحطيم باطله!

﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةٌ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا﴾ (٥٥).

موانع مخيرة لا مسيرة تصدّ عن الايمان والاستغفار ، من أمنعها الترف والاستكبار :

﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا

(١) مضى تفسيرها في الاسراء فلا يفصله هنا .

أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ﴿١٧ : ٩٤﴾ سنة بئيسة تعيسة للأولين منهم والآخرين ، طيلة الرسالات الإلهية حتى الاخيرة ، في جدال بالتي هي أسوء : ﴿أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾ ﴿لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ﴾ ﴿لَوْ لَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ وأضرابها من الأعدار اللامعقولة حيث تمنعهم أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى ويستغفروا ربهم.

ومن هذه السنة مطالبة العذاب إن كانت الهدى حقا : ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (٨ : ٣٢)

ولكن هذه السنة او تلك كائنة للمستكبرين ككل وهنا ﴿إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ﴾ ومن اين تأتيتهم وكيف وهي لزام لهم عندهم؟

قد تدخل في هذه السنة أو هي الأصل هنا ، سنة الأولين في عذاب الاستئصال : ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأُولِينَ﴾ (٣٥ : ٤٣) فعدم إتيان عذاب الاستئصال ، او عدم إتيانه قبلا كان من موانع الايمان في زعمهم الى سائر موانعه! وعند تحقق سنة الأولين عذابا واقعا لا يبقى مدعي الايمان حينه حتى يؤمن! وعند رؤية العذاب قبلا لا يفيد الايمان فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا ... فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ ﴿٤٠ : ٨٥﴾ حيث خيل لهم أن مانعهم عن ايمانهم عدم ايقاعهم ، فبرؤية البأس يوقنون فيؤمنون.

فإتيان سنة العذاب المستأصل او العذاب قبلا . ولما يأت . هو في عداد موانع الايمان والاستغفار ، موانع حمقاء ، ليست إلا اعدارا أسوء من حماقات الطغيان .
وليس إتيان سنة العذاب قبلا او استئصالا لإثبات الحق من سنة الرسل وإنما هم يبشرون وينذرون حجاجا وجدالا بالتي هي أحسن دونما

حاجة إلى عذاب إِمَّا ذَا؟ ثم العذاب او الثواب من الله :

﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا﴾ (٥٦).

هذه الآية وكثيرة أمثالها تحصر رسالة المرسلين في التبشير والإنذار وتحسرهما عما سواها مما يتعنته الكفار من الإتيان بما يتطلبون من آيات وما يتكلمون خلاف الرسالة الإلهية من أصحاب الرسالات ، أما يتمناه الرسل فيتحسرون إذ لا ينالون من هدي من لا يهتدي ، فتتواتر الآيات قارعة متطلبات المتقّي ، متصدية لتسلية خواطر المرسلين ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ...﴾ ولكن :

﴿وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ..﴾ فقد يكون الجدل بالحق ، وبالتي هي أحسن تفتيشا عن الحق وتثبتا للحق فواجب على أهل الحق ودعائه ، وقد يكون لتزييف الحق او تضعيفه ، بالباطل كان ام بالحق ^(١) ، وكلاهما جدال بالباطل لدحض الحق ، فحرام مطلق! وأصل الدحض الزلق ، فهم أولاء يجادلون بالباطل ليزلقوا الحق بعد ثباته ، ويزيلوه عن مستقراته ، فيكون كالكسير بعد قوته والمائل بعد استقامته ﴿وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا﴾: آيات الرسل وآيات الرسالات ، وما أنذروا من مخلفات التكذيب بتلكم الآيات ، اتخذوها هزوا ، يجادلون بالباطل : طريقة باطلة لا تعني حقا ، وإنما هزء ولعبة لتوهين الحق وتوهينه أمام العالمين وهم اظلم الظالمين.

(١) كأن يجادل ويستدل بقرآن ام سنة لينا لابطال القرآن والسنة وهو من انحس الجدل ، وهو جدال بالباطل حيث الاستدلال لابطال الحق بمادة الحق وصورته ، بتحريف في كيفية الجدل هي من أضل المزال للاقدام.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ (٥٧) :
 هنالك قلوب مفتحة لاستقبال الحق ، تفتحها أصحابها فزادهم الله تفتحا ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾ وهنا قلوب مقلوبة مغلقة عن تقبل الحق بإعراض أصحابها عما ذكروا بآيات الرب وتناسي ما قدمت أيديهم فزادهم الله إغلاقا جزاء وفاقا ﴿وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾!

فكّن القلوب عن استقبال الحق ووقر الآذان عن استماعه ووعيه هما بما اعرضوا وقدمت أيديهم وأن الله ليس بظلام للعبيد.

هنالك تذكير بآيات الرب ﴿ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ﴾ لكي يهتدوا ﴿وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى﴾ ولكنهم بدل أن يتذكروا ويهتدوا ويشكروا نعمة ربهم بالذكرى والهدى ﴿فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾ : عنادا وتعمدا ﴿وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ : نسيان التناسي المتعمد ما قدمت يده من إعراض عن آيات الرب وخلفياته ، لحد قد يحسبه يحسن صنعا : ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾.

فهناك . إذا . الطامة الكبرى : ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾ أكنة بما قدموها ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ بما وقروها فما وقروها ، اثنان باثنين في وفاق عددا وعددا ، ثم النتيجة العاجلة ﴿وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ ثم الآجلة هي أشد وأنكى !
 ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْثِقًا﴾ (٥٨) وتلك القرى أهلكناها لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعداً ﴿مَوْعِدًا﴾ (٥٩)

«الغفور» هو معدن الغفر والستر ومنبعه ، فهو إذا «ذو الرحمة» الواسعة ما وجد لها سبيل ، لا الرحمة الفوضى التي هي زحمة على الصالحين وراحة للطالحين! «لو» أنه «يؤاخذهم» هؤلاء البغاة الطغاة ﴿بِمَا كَسَبُوا﴾ اخذة عاجلة ﴿لَعَجَلَهُمْ الْعَذَابُ﴾ في الاولى قبل الأخرى «بل» كضابطة عامة لا تستثنى ﴿لَهُمْ مَوْعِدٌ﴾ لمؤاخذتهم بما كسبوا منذ الموت الى يوم يقوم الحساب ﴿لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلًا﴾ : مخلصا.

ثم وموعدهم آخر لمن تمادى في الطغيان يوم الدنيا ومن أمثاله ﴿تِلْكَ الْقُرَى﴾ الغارية في عمق التأريخ ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾ حيث الظلم ليس ليصبر عليه مهما كانت الدنيا دار عمل والآخرة دار جزاء ، ﴿وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا﴾ بالسنة رسلهم ، فلا يغرنكم إمهال الله لهم فانه إملال ، وان موعدهم آت في مستقبل أم حال ، وسنة الله لا تتخلف على أية حال.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقْبًا﴾ (٦٠) فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا (٦١) فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا (٦٢) قَالَ

أَرَأَيْتَ إِذْ أَوْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنَسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا (٦٣) قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا (٦٤) فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا (٦٥) قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عَلَّمْتَ رَسُولًا (٦٦) قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٦٧) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا (٦٨) قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا (٦٩) قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا (٧٠) فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتُهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا (٧١) قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٧٢) قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا (٧٣) فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقْتَلْتَنِي بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا (٧٤) قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ

إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٧٥) قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ
مِنَ الدُّنْيِ عُذْرًا (٧٦) فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلُهَا فَأَبَوْا أَنْ يُصَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا
فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا (٧٧) قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي
وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا (٧٨) أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي
الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا (٧٩)

وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا (٨٠) فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا (٨١) وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾

حلقة منقطعة النظير في القرآن كله عن مسيرة موسى (عليه السلام) مع من تعلم هو منه شيئا مما كان يجهره ، تقص مقاطع هامة من قصته تهم السالكين سبيل الهدى ، المتعلمين على سبيل نجاة من الردى.

إنها ليست اسطورة مختلفة كما يهرفها الخارفون ، بل هي حقيقة تقص من عمق التاريخ كسائر القصص القرآنية ، تحمل أمثالا حقة من التربية الإلهية ، وذلك لمن ألقى السمع وهو شهيد.

وترى إن موسى القصة هو ابن عمران ثالث اولى العزم من الرسل الذين دارت عليهم الرحي؟ وأولوا العزم هم المفضلون على من سواهم

من رسل وأنبياء آمن ذا في زمنهم وحتى ولاية عزم أخرى علما وعملا لدنيا من عند ربنا ، فكيف يحمل موسى هذا نصبا في سفره حتى يلقي لنفسه معلما بأمر الله : ﴿عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا ، قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ، قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْمَعُ!﴾! ومعلمه هذا أيا كان هو من أمته ومتعلمه في شرعته خضرا أمّن ذا؟!!

فهل هو . إذا . موسى غير ابن عمران ، نبيا أو أيا كان ، بتعلم من معلّم له هو فوّه علما وخبرا؟ وقد ذكر موسى فيما ذكر (١٣٤) مرة يعني به ابن عمران ، أفي هاتين المرتين اليتيمتين هنا يعني به غيره دونما أية قرينة ولا إشارة؟ سبحانك اللهم إن هذا إلا خرافة جارفة جازفة لا صحيحة في ادب التعبير ولا فصيحة! ^(١).

(١) الدر المنثور ٤ : ٢٩! اخرج البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات من طريق سعيد بن جبير قال قلت لابن عباس : ان نوحا البكالي يزعم ان موسى صاحب الخضر ليس موسى صاحب بني إسرائيل؟ قال ابن عباس كذب عدو الله حدثنا أبي بن كعب انه سمع رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول : ان موسى قام خطيبا في بني إسرائيل فسئل اي الناس اعلم؟ فقال : انا! فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم اليه فأوحى الله اليه ان لي عبدا بمجمع البحرين هو اعلم منك قال موسى : يا رب كيف لي به؟ قال : تأخذ معك حوتا تجعله في مكمل فحيثما فقدت الحوت فهو ثم فأخذ حوتا فجعله في مكمل ثم انطلق وانطلق معه فتاه يوشع بن نون حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رؤوسهما فناما واضطرب الحوت في المكمل فخرج فسقط في البحر فاتخذ سبيله في البحر سربا . الى آخر القصة وقد نذكر مواضع منها حسب المناسبات . إنشاء الله تعالى.

وفي نقل آخر بنفس السند عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) ان موسى بنى إسرائيل سأل ربه فقال اي رب ان كان في عبادك احد اعلم مني فدلني عليه قال : نعم في عبادي من هو اعلم منك فنعت له مكانه ، فان له في لقية فخرج موسى ومعه فتاه ومعه حوت .

إنه هنا موسى بن عمران كما في سائر القرآن ، وقد ابتلى بسفوره النصب بسبب منه حيث خيّل إليه أنه أعلم ممن سواه في علمي الظاهر والباطن ، فقد وكلّ موسى بعلم لا يطيقه خضر كما وكلّ خضر بعلم لا يطيقه موسى فليتعلم كلّ ما عند الآخر ليكتمل بما عند الآخر كما وعلّ آصف بن برخيا وزير سليمان كان أعلم منه حيث آتاه عرش بلقيس قبل ان يرتد إليه طرفه ، وكان آصف من أمتة في الشرعة الظاهرة.

فعلم الشرعة الظاهرة وعلم الباطن قد يفترقان كما في موسى وخضر وسليمان وآصف وقد يجتمعان كما في أهل بيت الرسالة المحمدية (صلّى الله عليه وآله وسلم) وكما قد ينتفيان كمن يجهلها وحيا أمّاذا؟.

وخضر هذا نبيا كان ام غير نبي هو كلقمان ^(١) كان أعلم من موسى بن

. ملبح قد قيل إذا حيي هذا الحوت في مكان فصاحبك هنالك وقد أدركت حاجتك ..

وفي نور الثقلين ٣ : ٢٧ ج ١٢٨ في تفسير القمي وفي العياشي عن أبي عبد الله (عليه السلام) وكان سبب ذلك انه كلم الله موسى تكليما وانزل عليه الألواح وفيها كما قال الله عز وجل ﴿وَكُتِبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ رجع موسى (عليه السلام) الى بني إسرائيل فصعد المنبر فأخبرهم ان الله عز وجل قد انزل عليه التوراة وكلمه وقال في نفسه : ما خلق الله خلقا اعلم مني فأوحى الله عز وجل الى جبرئيل (عليه السلام) أدرك موسى قد هلك واعلمه ان عند ملتقى البحرين عند الصخرة رجل اعلم منك فصر اليه وتعلم منه فنزل جبرئيل (عليه السلام) على موسى (عليه السلام) وأخبره فذل موسى في نفسه وعلم انه اخطأ ودخله الرعب وقال لوصيه يوشع : ان الله عز وجل قد امرني ان اتبع رجلا عند ملتقى البحرين وأتعلم منه فزود يوشع حوتا مملوحا فلما خرجا وبلغا ذلك المكان وجدا رجلا مستلقيا على قفاه فلم يعرفاه ، فاخرج موسى الحوت وغسله الماء ووضعه على الصخرة ومضيا ونسيا الحوت وكان ذلك الماء ماء الحيوان فحي الحوت ودخل الماء : (١) تتضارب الروايات هنا في ان خضر كان نبيا او لم يكن نبيا ، ولا دلالة في هذه الآيات على نبوته ، ولا اثر عنه في سائر القرآن.

عمران في التأويل : ﴿آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا ۖ﴾ . ﴿قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَنِي وَبَنِيكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ ! ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ اللهم إني علام الغيوب ، أو من علّمه من علم ما كان وما يكون وما هو كائن كالرسول محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وأهل بيته المعصومين!

ولأن القرآن لا يذكر زمن هذه القصة ، أكانت في نبوءة موسى قبل رسالته؟ أم كانت في بداية رسالته ولما تنضج النضجة الكاملة بعلم التأويل ، أم في نبوته بولاية عزمة وفي قمتهما ، إذا فكل محتمل ، مع العلم أنه كان يوحى إليه ، وإلا فكيف عرف ذلك الموقف لمجمع البحرين و ﴿قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ﴾ ولا يأتي مثل هذا الغيب إلا بوحي ، اللهم إني وحيا دون نبوءة كما ﴿أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ فقد تكون هذه المصاحبة قبل نبوته أم فيها قبل رسالته ، أم فيها قبل ولاية عزمه ، أم وفي ولاية عزمه ، فعلى أية حال لا يبقى أشكال في كيف يتعلم موسى من خضر؟ فان ولاية العزم في الشرعة الظاهرة لا تلزمها الولاية الباطنة مهما تجتمعان في البعض من أولياء العزم كالرسول محمد (صلى الله عليه وآله وسلم).

ولكن الرقابة على تكاليف الشرعية تنتج نورانية في الباطن ف ﴿مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ و ﴿إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ﴾ فكيف إذا كانت رقابة العصمة في ولي العزم ، فليعلم موسى من علم الباطن ما يعلمه خضر وسواه بل وأكثر وأحرى ، فكيف يتطلب منه ان ﴿تُعَلِّمَنِ مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا﴾؟

علّه لأنه كما علم الشريعة قد يحصل بتحصيل ، وقد لا يحصل إلا بوحي ، فما كل متعلّم محاول للحصول عليه يوحى إليه ، كذلك علم الباطن منه ما يحصل بتلك الرقابة ، ورقابة العصمة أخرى وأجري

للحصول عليه ولكن منه ما لا يحصل برقابة كالعلم الباطن اللدني ، فعلم الوحي الشريعة لا يستلزم ذلك العلم اللدني مهما يستلزم علما دون ذلك ، فقد أوتي خضرا رحمة من عند الله وعلم علما من لدن الله ليس من مخلفات وحي الشريعة والرقابة التامة عليه!.

ولان ولاية العزم لزامها الحفاظ على حقوق الامة ومصالحها في الباطن كما الظاهر ، فليعلم موسى الرسول في ولايته العظيمة العزيمة ، تأويل قضايا كمثل السفينة والغلام والجدار ، فقد يحتمل أن القصة كانت في بداية أمره ولما يعظم ويعزم امر رسالته القمة . والله اعلم حيث يجعل رسالته!.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ (٦٠)

مجمع البحرين هو عنوان ملتقاه مع خضر كما أوحى إليه ولكن موسى لا يعرفه بتفصيل ، فلو كان عارفه فلما ذا ﴿أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ سنة الى ثمانين وكما جاوزه إذ نسيا حوتهما ، فقد يعرف ان فيه ملتقاه وأنه في سفرته هذه يمرّ عليه ، كما تلمح له ﴿مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ﴾ لا «مجمعا لبحرين» حتى تكون له مصاديق عدة ، وإنما قال كغير عارف بالملتقى ﴿أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ لأن مجمع بينهما كان متسعا شاسعا قد يحتاج الوصول الى منتهاه الى ان يمضي حقا واقله التأكيد على ذلك التصميم وإن لم يحتج وصوله الى مضي حقب ، فحق لموسى وفناه لما بلغا مجتمع بينهما أن ينسيا حوتهما حيث بهرهما بلوغ الجمع نظرة الملتقى ، وأما فناه فزاد نسيانا على نسيان لما أويا الى الصخرة.

موسى الرسول ما كان يعرفه بعينه ، ولا أن القرآن عزّفه لنا ، فما لنا من سبيل الى معرفته القطعية إلا حدسيات : أنه منطقة كانت مسرح

تاريخ بني إسرائيل بعد خروجهم من مصر كملتقى بحري الروم والقلزم أي الأبيض والأحمر ، ومجمعهما في منطقة البحيرات المرة وبحيرة التسماح ، او مجمع خليجي العقبة والسويس الأحمر ، او ما ينتهي اليه بحر الروم من الجانب الشرقي وبحر الفرس من الجانب الغربي أمّاذا؟ إلا ان مسرح تاريخ بني إسرائيل المعلوم لدى الجميع يختلف عن مسرح موسى الرسول (صلوات الله عليه) الخاص به ، وهو لا يعرفه بتفصيل ، والا فلما ذا ﴿أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾؟ فلنترك ما تركه القرآن ونسكت عما سكت الله عنه ، وقصارى ما يعرفه موسى من ذلك الملتقى أنه مجمع البحرين وفيه حياة الموتى كما اتخذ غذائه الحوت فيه ﴿سَبِيلُهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا .. عَجَبًا﴾ ﴿قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَأَرْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا ، فَوَجَدَا ...﴾

وفتى موسى هو صاحبه الخاص فعله وصيه يوشع بن نون بفتوة صحبة الايمان ^(١) وقد يكون «وإذ قال ...» معطوفا على محذوف يناسبه ام على قصة اصحاب الكهف ان يذكره الرسول ومن معه ذكرى ثانية للرحمة الخاصة الإلهية الخانية على عباده الأخصاء وهو من أخصهم ، فلتتواتر عليه رحمة من لدنه وعلم من لدنه ، ربوة على كل عالم ومرحوم! و ﴿لَا أُنَبِّئُكُمْ بِمَلَاحِقَةِ الْأَمْرِ فِي هَذِهِ السَّيْرِ﴾ إذ يقصد من ورائها امر بالحصول عليه إعلانا لفتاه في البداية استعدادا لوعشاء السفر ونصبه ، مهما طال الزمن : ﴿أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ تعبيرا حاسما عن

(١) الدر المنثور في الحديث السابق عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) «ثم انطلق وانطلق معه فتاه يوشع بن نون .. وفي نور الثقلين ٣ : ٢٧٢ ج ١٣٠ عن أبي حمزة عن أبي جعفر (عليه السلام) قال : كان وصي موسى بن عمران يوشع بن نون وهو فتاه الذي ذكره الله في كتابه.

تصميمه القاطع ، عارفا صارما بوصوله عاجلا او آجلا الى ملتقاه في مجمع البحرين.
وهذه من السنن الحسنة مع رفقة السفر التابعين لك ان تعلن دون إسرار كالشمس في
رايعة النهار مسيرك ومصيرك في سفرتك دون تحميل عليهم كما ﴿قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ
حَتَّىٰ أَبْلُغَ﴾ دون «لا نبرح حتى نبلغ ...» وليجعل صاحبه في سعة من أمره إن شاء لزمه
عارفا بالسفرة وان شاء تركه.

و «لا أبرح» يعني لا أزال سائرا مسافرا دونما انقطاع ، مما يوحي باهمية بالغة للهدف
المرام ، اعدادا لفتاه إن شاء استعد على علم بهامة السفر ونصبه.
وليبلغه مدى تصميمه مقصدا وزمنا لأقصى حدّه كما أبلغه ﴿أَوْ أَمَضِي حُقْبًا﴾! و
﴿مَجْمَعُ الْبَحْرَيْنِ﴾ هنا هو الغاية القصوى من السفر النصب وليجمع فيه بين بحري العلم
الظاهر من موسى والباطن من خضر ، او بحري الرسالة الظاهرة والولاية الباطنة ، وكما قال
له خضر في ملتقاه «إني وكلت بأمر لا تطيقه ووكلت بأمر لا أطيعه».
فيما لمجمع البحرين من نبضات الحياة ومضاتهما حيث الحوت المطبوخ الغذاء فيه يحيى
﴿فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا﴾ «وعجبا» وموسى الرسول يزداد حياة من علم الباطن إلى
علمه الظاهر وكما الخضر يزداد علم الظاهر الى علمه الباطن.

﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا﴾ (٦١) فَلَمَّا جَاوَزَا
قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا (٦٢) قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ

(١) في الدر المنثور في حديثه (صلى الله عليه وآله وسلم) عن القصة : فلما نزلا ومس الحوت الماء حيي فاتخذ
سبيله في البحر سربا. وكما في أحاديث عدة ولا نجد في اي حديث أنه كان حيا.

أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا (٦٣) قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾.

الحوت هو السمك العظيم ، والسرب هو المنحدر المسبّل ذهابا مخيرا ، لا سقوطا أو انقفازا مسيرا ، أترى أن حوتهما الغذاء أخذه من مجمع بينهما؟ و ﴿نَسِيا حُوتَهُمَا﴾ عند بلوغ المجمع! فقد كان معهما قبل بلوغه! أو أنه كان حيا معهما في سفرهما ليطبخاه إذا جاعا؟ ولزامه ان يأخذا معهما ماء بقدر يكفيه بقية الحياة ، وهذا غريب في سفرة كهذه النصب ، حملا لكثير الماء ليعيش فيه الحوت : السمك العظيم ولماذا هذا التعب الشعب نصبا على نصب؟!

وتهما هذا كان غداءهما فليكن مطبوخا جاهزا لغذائهما حيث السفرة لا تسمح للطبخة ولا سيما تلك الساذجة الناصبة ، فقد كان ميتا مطبوخا وكما في حديث رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ^(١)

ثم ﴿وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾ تصريحه بحياته ، فلتكن بعد موته ، إذ لا عجب الحيوان البحر أن يتخذ سبيله في البحر سربا منحدرًا إليه ، بل وتركه عجب ^(٢).

(١ ، ٢). اتفقت الأحاديث التي تنقل القصة ان الحوت حيي عند الصخرة واتخذ سبيله في البحر سربا وعجبا ، ولكنه تختلف في انه كان مشويا او مملوحا وفي مرسله القمي وروايات الشيخين والنسائي والترمذي وغيرهم انه كانت عند الصخرة عين الحياة وفي رواية مسلم ان الماء كان ماء الحياة من شرب منه خلّد ولا يقاربه شيء ميت الا حي فلما نزلا ومس الحوت الماء حيي ، وفي بعضها ان فتى موسى توضأ من الماء فقطرت منه قطرة على الحوت فحيي ، وفي ثالث انه شرب منه الفتى ولم يكن له ذلك فأخذه الخضر وطابقه في سفينة وتركها في البحر فهو بين أمواجه حتى تقوم الساعة ، وفي رابع انه كانت عند الصخرة عين الحياة التي كان يشرب منها الخضر ثم الباقية خالية من ذكرها .

ثم في رواية الاحتجاج وغيرها ان الحوت سقط في البحر فاتخذ سبيله في البحر سربا .

تري وماذا كان يدري موسى من الملتقى وماذا لا يدري؟ ﴿حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ﴾ دليل أنه كان يدري ان مكانا من المجمع هو الملتقى ، ولكنه اين هو الذي يحى فيه ميت وما هو؟ لا يدري أنه حوته وإلا لم ينسه! ولم يطلبه بعد ذكره غداءه!

فقد ﴿قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ﴾ فما كان يدري ان الملتقى هو المجمع الذي بلغاه ، وإلا لما تجاوزه! ولا أن الذي فيه يحى هو حوتهما ، وإلا لماذا اتخذه غداءهما ، ولماذا نسيه؟ معلومان ومجهولان لموسى ، وفتاه يجهل ثالثا هو أن حياة ميت فيه آية انه الملتقى المبتغى وإلا لما نسيه إذ رأى الحوت ﴿اتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾!

﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا﴾ : بين البحرين وبين موسى وخضر ، وما درى موسى منه ملتقاه وإلا لما تجاوزه ﴿نَسِياَ حُوتَهُمَا﴾ موسى وفتاه ، نسيان موسى كان بطبيعة الحال حيث السالك يركّز على الغاية الملتقى فينسى الغداء أماذا من وسائل اللقاء ، ولكنما الفتى لماذا ينسى وقد حمل حمله والحفاظ عليه؟ علّه لأنه ينابيع مسيرة موسى فعلى هامشه ينسى أمام الغاية غيرها! وهذا النسيان المشترك كان عند بلوغهما المجمع.

ثم هنالك نسيان ثان يخص فتاه لما أويا الصخرة ﴿فَإِنِّي نَسِيتُ

. فامسك الله عن الحوت جرية الماء فصار عليه مثل الطاق ، وفي بعض ان موسى لما رجع ابصر اثر الحوت فأخذا اثر الحوت يمشيان على الماء حتى انتهيا الى جزيرة من جزائر العرب ، وفي حديث الطبري عن ابن عباس فرجع موسى حتى أتى الصخرة فوجد الحوت فجعل الحوت يضرب في البحر ويتبعه موسى يقدم عصاه يفرج بها عنه الماء ويتبع الحوت وجعل الحوت لا يمس شيئا من البحر الا ييس حتى يكون صخرة ، وفي أكثرها ان موسى لقي الخضر عند الصخرة ، وفي بعضها انه ذهب من سرب الحوت أو على الماء حتى وجده في جزيرة من جزائر البحر ، وفي بعضها انه وجده على سطح الماء جالسا او متكئا.

الْحُوتَ :: ﴿﴾ أنسيانا مع موسى فهناك نسيا ونسيت؟ فهو إذا نسيان ثان تدخل فيه الشيطان يخص فتاه : ﴿فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾ .. هنا ﴿وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ ..﴾ عطفًا على نسيانه ، وهناك ﴿فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ ...﴾ تفريعا على نسيانهما ، فبينهما فرق قد لا يكون إلّا أن النسيان الأول أغفلهما عن كونه معهما ﴿فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ ..﴾ والنسيان الثاني هو بعد ذكر ﴿وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾ فالواو إذا للحال ، أنني نسيت حال أنه اتخذ سبيله في البحر عجبا ، نسيت أن اذكره بعد ذلك وأذكرك ، وعَلَّه لأنه ما اهتمه غدائهما رغم ذلك العجب أمام غايتهما القصوى ، فقد ينسى الطريق والرفيق فضلا عن الغداء إمّا ذا :

﴿فَلَمَّا .. نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾ استغفلا عنه إذ لم يكن محورا في تلك السفرة ﴿فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا﴾ لم يدره موسى ودراه فتاه وكما اخبر ﴿وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾ وترى ما هي سبيله السرب؟ ﴿قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ﴾ فمن الصخرة العالية منحدر يتخذ إليه سبيل سرب فالسبيل هو الطريق المنحدر ، والسرب هنا انحدار ثان يزيد السبيل سبلة وانحدارا.

أو هي عين الحياة المنحدرة من الصخرة الى البحر ^(١) وقد حيي بها

(١) في عديد من الروايات انه عين الحياة كما في نور الثقلين ٣ : ٢٧٢ ح ١٣١ في عيون الاخبار عن الرضا (عليه السلام) قال قال علي (عليه السلام) وقد سأله بعض اليهود عن مسائل . وأنتم تقولون ان أول عين نبعت على وجه الأرض العين التي ببيت المقدس وكذبتم ، هي عين الحياة التي غسل يوشع بن نون السمكة وهي العين التي شرب منها الخضر (عليه السلام) ، وليس يشرب منها احد الا حيي؟ قال : صدقت والله انه لبخط هارون وإملاء موسى ورواه مثله في كمال الدين وتمام النعمة باسناده الى أبي الطفيل عامر بن واثلة عن علي (عليه السلام) وفيه ايضا باسناده الى ابراهيم بن يحيى المدائني عن أبي عبد الله (عليه السلام) حديث طويل يقول فيه (عليه السلام) ان علما وفيه ايضا باسناده الى الحكم بن مسكين عن صالح عن .

الحوت فاتخذها سبيلا؟ ام ساقية اخرى وقد حيي بغيرها؟ ام قفزة من منحدره ام لزقة فانزلافا الى البحر وبينه وبينه بر إمّا ذا؟ على أية حال ﴿اتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾!

فاتخاذ سبيل سرب عجب ذو دلالات على أن حوتهما الغداء الشواء أصبح حيا على الصخرة على غفلة لموسى وذكر لفتاه ، ومن ثم تناساه فنسي ان يخبر موسى بأمره :

﴿فَلَمَّا جَاوَزَا﴾ بداية الجمع والسرب العجب «قال» موسى ﴿لَفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا﴾ الحوت «لقد» تأكيدا ذا بعدين ﴿لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾ فلتغذّ لكي نستجدّ طاقة بدنيّة نواصل بها سفرنا ، مما يدل أنه كان متغافلا جوعهما مع نسيان حوتهما ، ثم النصب ذكره غداءهما الحوت فطلبه من فتاه ، فانه التعب المنسوب تأتيا في مداه :

والغداء هي غذاء الغداة ، فلعلهما جاوزا مجمع بينهما ليلا ، ولم يعتبره موسى ملتقاها إذ لم ير ما يريه انه هو ملتقاها حتى أخبره به فتاه :

﴿قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ﴾ المطلّة على البحر ، فأنت رأيت إذ أويّنا إليها تخفيفا عن وعناء السفر ، او وانتظارا علّه هو الملتقى ﴿فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ﴾ ما ذا حصل له وماذا فعل ، بعد ما نسيناه مع بعض ﴿وَمَا أَنْسَانِيَهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ﴾ واتخذ : حال انه ﴿اتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾ نسيان عجب بعد ما رأيته اتخذ سبيله في البحر عجبا حيث الحوت الميت المطبوخ يمشي في سبيله السرب إلى البحر! ولم يكن نسيانا مني تغافلا عن أمره العجب وانما ذلك الشيطان انسانيه ان اذكره فاذكرك بسربه العجب.

. جعفر بن محمد (عليه السلام) عن علي (عليه السلام) أقول : على اختلاف في بعض الألفاظ واتفاق في عين الحياة :

أفترى الشيطان له سبيل إلى الأنبياء ، وكان فتاه يوشع منهم؟ علّه لم يكن حينذاك نبيا ، فقد كان وصيا ثم بعد موت موسى أصبح نبيا وصيا! ام بقي وصيا دون نبوة؟^(١)

أم إن هكذا نسيان ليس في عداد نسيان ذكر الرب حتى ينحى عنه الشيطان ، فانما هو حسب الظاهر نسيان الغداء أولا ومن ثم نسيان السرب العجب ، وقد يبرران امام الهدف الإمام وهو التحري عن ملتقى البحرين ، ولم يكن يدري فتاه أن من آيات ملتقاه حياة ميت او علّها هي منها حتى يتذاكر الحوت ، رغم أن سره العجب هو آية الملتقى :

﴿قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ (٦٤) : ذلك البعيد المدى العظيم المحتوى ، الملتقى المدلول عليه بآية السرب العجب «ما كنا» طول سفرنا «نبغ» هـ . فلنرجع الى مجمع بينهما من نفس الطريق الذي جئنا «فارتدا» رجوعا إليه ﴿عَلَى آثَارِهِمَا﴾ آثار الأقدام في مشيتهما «قصصا» : تتبعا لتلك الآثار كيلا يخطأها.

﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾ (٦٥).

فيا لوجد الوجدان من شعف وشغف ، ما ينسي نصب السفر ووعثاءه ، وكيف عرف موسى خضره؟ طبعا كما عرف بوحى الله مكانه ، كذلك عرف مكانته والمؤمن ينظر بنور الله!

تعريف إلهي لطيف بخضر في زوايا ثلاث ١ . ﴿عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا﴾ ٢ . ﴿آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا﴾ ٣ . ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾!

هنالك عبودية في كمالها دون أكملها . فانه لا أول العابدين . فرحة على

(١) لا دلالة في القرآن ولا في السنة واضحة ان فتى موسى كان حينذاك نبيا :

صاحبها : «من عندنا» خاصة ، ثم ﴿مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾ دون تعلم خلقي ، إنما علما لدنياً بوحى او الهام ليس في نطاق وحي النبوة لزما ، إلا الأنبياء الأولياء الذين جمعوا علمي الوحي ظاهرا وباطنا كالرسول محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وأضرابه في الوحي القمة أو إلهامه^(١).

وتلك الرحمة ليست هي العلم لقرنها به ، فهي من مدارج الرحمة المعرفية والمعارج العملية ، فلقد كانت عبودية ذات جناحين ، لا علما دون معرفة ولا معرفة دون علم ، مهما كان علم ظاهر الشريعة تقليديا عن رسول كما كان هو يقلد موسى الرسول (عليه السلام) ، رغم أنه معلمه من علم الباطن وكما قال : «إني وكلت بعلم لا تطبيقه ووكلت بعلم لا أطيعه»^(٢) وقال «إني على علم من علم الله علمنيه لا تعلمه أنت وأنت على علم من علم الله لا أعلمه»^(٣).

وقد يكون تنكير «عبدا» هنا للتفخيم كما الإضافة «من عبادنا» للإفاضة والتعظيم.

(١) نور الثقلين ٣ : ٢٧٥ ج ١٤٢ في اصول الكافي بإسناده الى سيف التمار قال : كنا مع أبي عبد الله (عليه السلام) جماعة من الشيعة في الحجر فقال (عليه السلام) علينا عين ، فالتفتنا يمنة ويسرة فلم نر أحدا فقلنا : ليس علينا عين فقال : ورب الكعبة ثلاث مرات لو كنت بين موسى وخضر لأخبرتهما اني اعلم منهما وانبأتهما بما ليس في أيديهما لان موسى والخضر (عليهما السلام) أعطيا علم ما كان ولم يعطيا علم ما يكون وما هو كائن حتى تقوم الساعة وقد ورثناه من رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وراثته.

(٢) نور الثقلين ٣ : ٢٨١ ج ١٥٤ في كتاب علل الشرايع عن جعفر بن محمد (عليهما السلام) قال له الخضر ﴿إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ لاني وكلت .. وفي البحار ١٣ : ٢٧٩ بدل بعلم «بأمر».

(٣) المصدر.

وخضر هذا تتواتر في شأنه الروايات الإسلامية وسواها ^(١) وانه باق الى قيام المهدي (صلوات الله عليه) ولا تنافي حياته لهذا الحد اصل من الأصول الإسلامية ، اللهم إلا إذا كان نبيا ، إلا بانقطاع الوحي عنه يوم نبي الرسول محمد (صلّى الله عليه وآله وسلم) حيث لا نبوة بعد نبوته ولا وحي بعد وحيه الى يوم القيامة ، وكما في المسيح (عليه السلام) وهو في السماء حيث ينزل زمن المهدي (صلوات الله عليه) ، فالخضر والمسيح وسائر المكلفين أيا كانوا وأيان ، إنهم منذ بزوغ الرسالة المحمدية أصبحوا من أمتة وتحت لوائه ، وهل عزل المسيح عن رسالته بعد نصبه؟ إنه انعزال عن أمتة وليس عزلا! ثم لا بأس بعزل ليس فيه مهانه!

﴿قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ (٦٦) ﴿

عند اللقاء الحبيب سلم عليه موسى (عليه السلام) فقال الخضر : وأنى بأرضك السلام؟ قال : أنا موسى! قال : موسى بني إسرائيل؟ قال : نعم . أتيتك لتعلمني مما علمت رشدا ، قال : إنك لن تستطيع معي صبرا ، يا موسى! اني على علم من علم الله علمنيه لا تعلمه أنت وأنت على علم من علم الله علمك الله لا أعلمه» ^(٢) «إني وكلت بأمر لا تطيقه»

(١) هنالك في مختلف النقل والتاريخ قيات ومقالات حول خضر لا يهمنا ذكرها الا ما نبه عليه القرآن في مثلث التعريف ب «عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا»!

وقد رويت القصة عن النبي (صلّى الله عليه وآله وسلم) كما في الدر المنثور بعدة طرق من ارباب الجوامع كالبخاري ومسلم والنسائي والترمذي وغيرهم عن ابن عباس عن أبي بن كعب عن النبي (صلّى الله عليه وآله وسلم) :

(٢) من حديث رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) وقد ذكرنا شطرات منها».

ووكلت بأمر لا أطيقه»^(١)

موسى الرسول (عليه السلام) بعد ما يتحمل أعباء السفر ووعثاءه ليلقى الخضر ، تراه كيف يحترمه ويتأدب عنده ، وهو رسول إليه في الشرعة الإلهية ، وولي عليه ، وان كان الخضر علم من علم التأويل ما لم يعلمه موسى فليكونا . لأقل تقدير . على سواء!

ولكنه يعلمنا أن المتعلم أيا كان عليه في سبيل التعلم من أي كان ان يحترمه ويتأدب لديه : ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ ..﴾؟ دون ان تأخذه طنطنة الأعلمية الرسالية فيقول : «اتبعني آخذ عنك مما عندك ،» او يتنزل شيئا : «أتبعك ..» ولكنه قال : «هل اتبعك .. استيئذانا منه في اتباعه تعلمنا ، حال أنه رسول الله ، وقد أمره الله ان يتعلم مما عنده!

«اتبعك» اتباعا لأمرك في سبيل التعلم ، ومتابعة لك أينما تذهب ، دونما استقلال أمامك فاستغلالك لصالح التعلم ، وانما «أتبعك» إن تسمح لي ، تواضعا مضاعفا أمام المعلم مهما كان المتعلم إمامه في شرعته وهو يقتضي كونه متبوعا او مساويا ومستقلا بجنبه لا تابعا ، ولكنه في مقام التعلم يتأدب هكذا!

(١) نور الثقلين ٣ : ٢٧ ح ١٢٨ . القمي حدثني محمد بن علي بن هلال عن يونس قال : اختلف يونس وهشام ابن ابراهيم في العالم الذي أتاه موسى (عليه السلام) أيهما كا اعلم وهل يجوز ان يكون على موسى حجة في وقته وهو حجة الله عز وجل على خلقه؟ فقال قاسم الصيقل : فكتبوا الى أبي الحسن الرضا (عليه السلام) يسألونه عن ذلك فكتب في الجواب أتى موسى العالم فأصابه في جزيرة من جزائر البحر فاما جالسا واما متكئا فسلم عليه موسى فأنكر السلام إذا كان بأرض ليس فيها سلام قال : من أنت؟ قال : انا موسى بن عمران . قال : أنت موسى بن عمران الذي كلمه الله تكليما؟ قال : نعم . قال : فما حاجتك؟ قال : جئت لتعلمني مما علمت رشدا ، قال : اني وكتلت بأمر لا تطيقه ووكلت بأمر لا أطيقه .

و ﴿مَّا عَلَّمْتَ﴾ دون «ما علمت» تواضع آخر أنني لا أعني من هذه المتابعة ان أصبح مثلك وإنما ﴿مَّا عَلَّمْتَ﴾ أن تعلمني بعض ما علّمت!

ثم وليس ذلك الإتياع تقليدا أعمى وإنما ﴿عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِي مَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا﴾ :

رشدا في اتباعك ورشدا فيما تعلمني ورشدا مما علمت ، فاتباع المعلم وتعليم الرشدا في أسلوب غير رشيدة ، غير سديد ، كتعليم الضلال في أسلوب رشيدة ، فانه ضلال بعيد حيث يخيل الى المتعلم أنه رشيد.

فعلى المتعلم أن يكون على بصيرة للحصول على رشدي التعلم بعد رشد الإتياع : ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ : اي الى علمه الذي يأخذه عمن يأخذه وكيف يأخذه؟

وهذا الأدب اللائق بنبي يستفهم دون جزم ويطلب العلم الراشد من المعلم الراشد ، باتباع راشد فانه ليس ليستسلم أمام ذلك التعليم ما لم توافق مواده موازين العقل والشرعة الإلهية! لذلك ينبهه العبد الصالح بما يؤول أمره ، لاختلاف ميزاني الظاهر عند المتعلم ، والباطن عند المعلم.

﴿قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ (٦٧) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾ (٦٨).

إحالة في تأكيدني : «إن . لن» ان يصبر معه صبرا ، ولا في مادة واحدة ، حيث النكرة في نطاق النفي المؤكد ولا سيما المحيل ، إنها تفيد الاستغراق الحاسم الجاسم.

ولكي لا تكون هذه البداية مزعجة غير مترقبة من صالح الى نبي ، وبعد هذه الآداب ، والحرمان المسبقة ، يعذره المعلم في ﴿لَنْ تَسْتَطِيعَ﴾ ب ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ﴾ على ما ترى من خلاف الشرعة وهو خلاف العدالة

والعصمة أن يسكت صاحب الرسالة عن التنديد بأمر إمر ، أو نكر ، أو خلاف العقل ، حيث التقرير زاوية من مثلث السنة! يعذره عن أن يصبر ﴿عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾ وحيطة الخبر لزام عقلي وشرعي فيما يخالف ظاهره الشرع أو العقل ، لكي يتغلب باطنه الأمين على ظاهره غير الأمين فيصبر على إمر الظاهر لأمر الباطن ، والصبر ما أوله مرّ وآخره حلو فمن دخله من أواخره فقد دخل ومن دخله من أوائله فقد خرج ومن عرف قدر الصبر لا يصبر عما منه الصبر ..» ^(١) وموسى يعرف قدر الصبر وموقعه فلا يصبر عما منه الصبر وهو عصيان في ظاهر الشرعة وحتى في احتمال أن آخره حلو!

فالشرعة الإلهية أعلى محتدا وواجب رعاية وحرمة من حرمة المعلم أيّا كان ، إذا تناحرتا ، فلا طاعة لمخلوق . ولا رعاية . في معصية الخالق ، وكما لا معصية لمخلوق في طاعة الخالق ، وانما هي طاعة الله لا سواه ، واحاطة الخبر فريضة عادلة في كل فعل أو ترك ان يعرف وجهه في شرعة الله فيؤتى به أو يترك ، بوحى أو اجتهاد أو تقليد صالح ، وليس موسى ممن يقلد خضرا فانما يمشي ويمضي بوحى ، ثم التقليد الصالح قد يجابه بما يحير العقل فسؤالا وجوابا مقنعا ام تركا واعتراضا محتاطا!

ومهما يكفى خبر ما في فعل أو ترك لا يرفضه العقل ، ويفرضه ظاهر الشرع ، فلا يكفى فيما يرفضه حكم العقل وظاهر الشرع إلا احاطة الخبر لحدّ يحوله الى مسموح او مفروض!

نرى موسى حينما يواجه ويجابه ب ﴿لَنْ تَسْتَطِيعَ﴾ حيث تحيل أهليته

(١) مصباح الشريعة عن الامام الصادق (عليه السلام) واستدل في ختامه بالآية قال الله تعالى في قصة موسى والخضر (عليهما السلام) ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾!

لذلك التعلم ، لا يتبرّم وينزعج فيترك تعلما فيه مهانة ، بل يجيبه بما يؤهله ﴿إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ ويعذره ﴿إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ فيمضي في هذه الرحلة الدراسية على ضوء ﴿إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ تعليم صعب وتعلّم صعب على عبيدين من الرعيل الأعلى في علم الظاهر والباطن.

﴿قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ (٦٩).

يقولها موسى ولا يدري أنه يواجه امرا امرا او نكرا او خلاف العقل! وحيث الصبر . وبمشية الله في هكذا أمر . لا يترجّاه مؤمن فضلا عن موسى الرسول (عليه السلام).

و ﴿إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ هنا هي مشية الله تشريعا فتكونا ف ﴿سَتَجِدُنِي ... صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ مهما أبهم أمره ، ما وافق شرعة الله ثم شاءه الله توفيقا لما أشاءه.

وهذه تكفل حتمية الصبر من موسى (ع) شرط ﴿إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ في بعديها ، فلا خلف في وعده ولا تخلف عن مشيئة الله إذ لم يصبر على أمر إمر أو نكر ، إذ لا يشاءه الله في شرعة ظاهرة ، ولا تكونا بعد ان لا يصبر موسى حسب تكليفه الظاهر.

اجل ﴿وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ إلا ان يكون أمرك عصيانا لله وإمرا ، فقد تمت

شروط وآداب التعلم من موسى (عليه السلام) وثم ماذا من الخضر؟

﴿قَالَ فَإِنْ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ (٧٠)

ينبّه أن أمره يثير السؤال العاجل وقد لا يصبر عنه إلى أجل ، فلذلك يشترط عليه الآخر المطاف ترك العجال في السؤال ويربطه بمتابعته التي هي أول المطاف في هذا المجال! ﴿فَإِنْ اتَّبَعْتَنِي﴾ دون ان يفرض عليه عدم السؤال إلا بشرط اتباعه المطلق في رحلته المدرسية

، الذي لزامه التسليم

أمام المعلم كما يراه لصالح التعليم ، تأدبا أمام موسى الرسول (عليه السلام) كما تأدب هو أمامه مع أنه إمامه في الشريعة الإلهية!

إذا فلا سؤال فيما يأتي من امره كيفما كان ﴿حَتَّىٰ أُحْدِثَ﴾ دون سؤال ﴿لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ هو اجابة عن كل سؤال على أية حال في هذه الرحلة العلمية إحداثا منه وابتداء دون سؤال! ويا لها من صعوبة ان موسى الرسول المحيط خبرا بكل ما يفعل او يقول ، او يؤتى أمامه عن اي فاعل او قائل ، أن يسكت طول هذه الرحلة عن مجاهيل الأمر ، على احتمال ان فيه نكرا او إمرا!

لكنه مأمور لمواصلة هذه الرحلة ، وهكذا مأمور معذور إلا فيما لا يعذر ، فعليه التحمل ما لم يكن حملا لا يحمله الشرع والعقل ، فيرضى موسى محتاطا في صبره وعدم عصيانه وسؤاله ب ﴿إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ رقابة تامة على ظاهر الشريعة ، وعلى ضوءها ما يحدث في رحلته مواصلة لها ، وقد يتناسى لرعاية الشريعة لزوم صبره وإن كان على أمر إمر ، وخضر يستأجله في تأويل ما لم يحط به خبرا ، ولكنما التعود على الالتزام بظاهر الشرع ولرسول معصوم لا يمهله ان يصبر حيث يراه إهمالا للشرع! ..

﴿فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ (٧١)

«فانطلقا» هنا دون «انطلقوا» دليل ان موسى ترك فتاه في الملتقى ، ولأن الانطلاق هو التخلي عن وثاق كما الطلاق تخلية عن وثاق ، فقد كان وثاق حتى الملتقى فمن هناك الانطلاق ، وثاق موسى بفتاه ، ووثاقه بعلم الظاهر ، ثم وثاق خضر بوحدته وبعلم الباطن ، «فانطلقا» يعني لكل انطالقين والى مجمع بحري الظاهر والباطن :

﴿... حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ﴾ .. «السفينة» معرفة تلمح أنها

بخصوصها كانت مقصودة للخضر كأول المطاف في هذه الرحلة ، فلم يقل «سفينة» كما وأن «إذا» تؤيد هذه المعرفة المستبقة عن السفينة ، فهما إذا في هذه الرحلة المدرسية «في السفينة» يتابعان واجب التعليم والتعلم! .

«خرقها»! مسافر باجرة ام دون اجرة ^(١) ولا يملك السفينة وحتى لو ملكها «خرقها»؟ أمر امر : داهية عظيمة ، تستقبل موسى بداية الأمر! لن يستطيع موسى امامه صبرا فيبتدر في اعتراض : ﴿قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾ كغاية يخلفها خرقها وان لم يقصد به غرقها ولكنه حسب العادة يعرف غرقها بخرقها! ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ حكم على أمره بإمره في تأكيدين : «لقد» حيث الإمر وهو الداهية العظيمة هناك ، كان إمرًا من جهات عدة أعظمها الذي ذكره كغاية كأنها المقصودة فقط : ﴿لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾ وفيه ضمن أهلها غرقهما ، وفيه . لأقل تقدير . تصرف ضار في مال الغير ، فلان تعريض الغير ولا سيما جماعة الى الخطر أنكر من تعريض النفس كما هو أنكر من إتلاف المال ، لا يأتي هنا من إمر أمره إلا ﴿لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾ حيث الخرق كان لحد الغرق.

(١) الدر المنثور في حديث رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) عن القصة «فانطلقا بمشيان على ساحل البحر فمرت بهم سفينة فكلموهم فعرفوا. الخضر فحملوه بغير نول فلما ركبوا السفينة فلم يفجأه الا والخضر وقد قلع لوحا من ألواح السفينة بالقدوم فقال له موسى قوم حملونا بغير نول عهدت الى سفينتهم فخرقتها لتغرق أهلها لقد شئنا امرا ... قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) كانت الاولى من موسى نسيانا قال وجاء عصفور فوقع على حرف السفينة فنقر في البحر نقرة فقال له الخضر ما علمي وعلمك من علم الله الأمثل نقص هذا العصفور من هذا البحر.

وفي نور الثقلين ٣ : ٢٧ ح ١٥١ في تفسير العياشي عن عبد الرحمن بن سيابة عن أبي عبد الله (عليه السلام) وساق القصة الى قوله (عليه السلام) فانطلقا حتى انتهيا الى معبر (سفينة) فلما نظر إليهم اهل المعبر قالوا : والله لا نأخذ من هؤلاء اجرا اليوم فحمل عليهم فلما ذهب السفينة وكثرت الماء خرقها ...

لقد كان موسى (عليه السلام) هنا معذورا في اعتراضه بلفظة قاسية ، ويعذره موقفه الرسالي من ناحية ، وعلمه لم يدر ان خرق السفينة هو من موارد تعليمه ومواده من اخرى ، حيث تعود التعلم بوحى الشرعة قولاً ، وأما ان عملاً ما كهذا داخل في التعليم فلم يتعوده رسالياً ، ففوجأ هنا بالخرق الغرق فانبرى غضبانا أسفا ﴿أَخْرَفْتَهَا ... إِمْرًا؟!﴾

سفينة تحملهما بركاب لها وهم وسط اللجة تلعب بها في جزرها ومدها ، ثم يأتي عبد الصالح في رحلة تعليمية لموسى الرسول (عليه السلام) فيخرقها ليغرقها وأهلها ، انها طامة كبرى وداهية عظيمة تغطي على موقف المعلم وما وعده موسى ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا﴾ ولكن كيف يشاء الله صبرا في مثل هذه الداهية ، فحق له أن ينسى ما وعده وإن لم يستثن وقد استثنى! ثم العبد الصالح لا يزيد على ما بدء.

﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ (٧٢) : وهذه أوّل خطوة في رحلتنا ما صبرت معها ، وكما قلت لك بداية الرحلة ، وما هي الفائدة في تعليم لا تتوفر شروطه ولن :؟! إذا فاتركني وشأنك وشأني ، ام حاول لإحالة ظاهر الحال الأمر إلى باطن الأمر بصبر هو مفتاح الفرج!

﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾ (٧٣) فانما نسيت وعدك دون تقصير ، بل نسيان او تناس واجب بظاهر الشرع فترك ذلك النسيان عصياناً ، فلا تؤاخذني! ﴿وَلَا تُرْهِقْنِي﴾ : لا تغشني بقهر في تكليف التكلف ألا أنسى ومن حقي أن أنسى أو أتناسى ﴿لَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي﴾ تعلمنا في هذه الرحلة العسيرة «عسرا» على عسرها ، فان لم اصبر أنا ولن .. فاصبر أنت إذا ، ولكي ننهي أمرنا على إمره ، فلا تزد إمرنا على إمر وعسرا على عسر! والتكليف في عسر مرفوض في ظاهر الشرع ﴿لَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾!

و «أمري» يشمل أمري النسيان والرحلة المدرسية ، فلا تندد بي إذ نسيت ولا تترك تعليمي بعد ما نسيت.

نرى هنالك اجتمعت المشيئتان التكوينية والتشريعية التي تبنيتها أن لم يصبر على امره الإمر ، وينهاه موسى عن مؤاخذته بما نسي وإرهاقه من أمره النسيان والتعليم عسرا ، ولو كان نسيانه محظورا لكانت المؤاخذة عليه حقا في ظاهر الشرع ، فلما ذا ينهاه موسى عن مؤاخذة وإرهاق وليس لينهى إلا حسب الشرع ، كما لم يصبر حسب الشرع!

وترى ﴿أَخْرَفْتَهَا لِثُغْرَقَ ..﴾ لم تكن فرية على الخضر وحكما على أمره بإمره ، ومجال الاحتمال لحلية أمره واقع حيث التنبيه المسبق ﴿إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا .. فَلَا تَسْأَلْنِي ..﴾؟

الجواب انه سؤال استفهام وليس حكما ، ولم تكن المؤاخذة ﴿أَلَمْ أَقُلْ ..﴾ إلا على سؤاله لا فريته ، و ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ حكم على فرض عدم الجواب المقنع ، او حكم بظاهر الشرع دون باطنه فلا محذور فيه ، وقد أعذره الخضر! ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقْتَلْتَنِي بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾ (٧٤).

«فانطلقا» انطلاقة ثانية في مواصلة الرحلة المدرسية ، انطلق موسى تخليا وتخلصا عن وثاق الوعد : النسيان الاعتراض في سؤال التنديد ، وانطلق الخضر عن المؤاخذة بما نسي موسى (عليه السلام) إرهاقه العسر «حتى إذا» وقعا في وثاق ثان ﴿لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ﴾ : قتله فور لقاءه دون حوار ، وحسب الظاهر دون معرفة مسبقة عن حاله ، وهذا أمر وأدهى من خرق السفينة ^(١) فانه يخلف الغرق وقد يمنعه مانع من سدّ

(١) الدر المنثور في حديث رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) عن القصة ثم خرجا .

الخرق كما فعل ، ولكنما القتل واقع لا يجبر بشيء ، فانبرى موسى نبرة أشد من الأولى ناسيا وعده هنا وكان أخرى إذ يرى نكرا بعد ما رأى إمرا ﴿قَالَ أَقْتَلْتُ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾.

ترى وكيف عرف ان الغلام نفس زكية ، أو أن قتله كان بغير نفس؟ أكانت زكية حيث الغلام لائح في غير البالغ ، وهو نفس زكية على أية حال حيث كونه مرفوع القلم حتى وان قتل نفسا فالدية إذا على العاقلة دونه.

ولكن فرض الدية على العاقلة لا يجعل القاتل غير البالغ زكيا وغير قاتل ، وان لم يجز قتله حيث القلم عنه مرفوع!

أو أنه كان بالغا والغلام من بلغ حد الغلومة والشبق بالغا وسواه ، وقد نتبلّغ بلوغه هنا من ﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ اللائح في تجويز قتله بنفس ، ومن ثم الجواب في تجوز قتله بكفره المرهق ﴿فَخَشِينَا أَنْ يُرْهَقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ والكفر المرهق الطاغي مما يفرض القتل فانه فتنة وفساد كبير ﴿وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ فالحا قتل لنفوس مؤمنة لا بماخا!

وكيف عرف موسى انه نفس زكية دون معرفة عنه مسابقة ، وانه لم يقتل نفسا او لم يأت بما يهدر دمه؟ علّه لأنها كانت لقيه الاولى ، والأصل في كل نفس كونها زكية غير كافرة ، وانها لم تقتل نفسا ، أو انها زكية عن قتل الغير ان كانت اللقيا في ارض كافرة ، ف ﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ تأكيد لكونها زكية ، وأصل البراءة حكم من ظاهر الشرع يحكم بهذه وتلك ، إلا ما خرج بدليل ، ولا دليل على خلافه حاضرا في هذه اللقيا ، وموسى (عليه السلام) رسول وامام يحكم بظاهر الشرع : ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾ : يستنكره كل عارف بموقفه!

. من السفينة فيبينما هما يمشيان على الساحل إذا ابصر الخضر غلاما يلعب مع الغلمان فأخذ الخضر رأسه بيده فاقتلعه بيده فقتله فقال له موسى ... وهذه أشد من الاولى ..

او ان حكمه لم يكن بتا حيث احتمال البراءة قائم ، فانما حكم شرط كونها ﴿نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ وإذا ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾.

ولماذا يذكر موسى مسوغا واحدا للقتل ﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ ان قتل النفس إنما يجوز بنفس؟ علّه لأنه المسوغ الأصل لقتل النفس قصاصا ثم يلحقه غيره من فساد في الأرض ام ماذا ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ (٥ : ٣٢) نقلا قرآنا عن ذلك الحكم في التوراة!

او ان «زكية» تلمح الى سبب عام في هدر الدم ، انها كافرة بارتداد إمّا ذا ، ام مفسدة في الأرض؟ وقد أجمل عن أسباب اخرى كهذه حيث الغلام بعيد عنه إفساد على غلمته!

فإذا كانت المرحلة الاولى من هذه الرحلة خرق السفينة واحتمال غرق من فيها ، ففي الثانية «قتل نفس زكية بغير نفس» امر نكر لا يستطيع موسى أن يصبر عليه ، فقد يستنكر هنا دونما نسيان ، وكما لم يعتذر كالأولى ﴿بِمَا نَسِيتُ﴾ وانما ﴿إِنْ سَأَلْتَكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي ..﴾ دونما تأول سبب يعتذره .

هنا . وبعد هذا السؤال العضال . يردد المعلم تنديده الأديب .

﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ (٧٥).

كما مضى دون زيادة إلّا «لك» اقل لك موسى الرسول كليم الله متابعي في هذه الرحلة ، لك لا سواك ، لك مرتين : قبل الرحلة وعند الخطوة الاولى ﴿إِنَّكَ لَنْ ..﴾ كمستحيل عليك ان تستطيع معي صبرا ، حيث «وكلت بأمر لا تطيقه ووكلت بأمر لا أطيقه» فكما لا تطيق أنت معي صبرا بحكم الشرعة الظاهرة ، كذلك أنا لا أطيق على سؤالك صبرا بحكم الشرعة الباطنة!

ولو كانت لهذا المعلم ولاية مطلقة إلهية على ذلك المتعلم كان عليه التسليم المطلق ، ولكنما الولاية المطلقة هناك انما كانت لموسى (عليه السلام) على خضر (عليه السلام) وهو من أمته ، فكيف يستلم له في رحلته وان كان وعده متابعتة واتباعه ، ولكنه استثنائها بمشيئة الله في بعديها ، وهذه تختلف في بعد المشيئة التشريعية عن المتابعة المطلقة لمن له الولاية المطلقة كأنبيااء الله وأضرابهم ، والبعد التكويني في استثناء المشيئة كائن أيا كان ولأي كان وكما الرسول ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِّشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾.

لذلك لا يستسلم موسى أمام الخضر إلا على ضوء ظاهر الشرعة الإلهية مهما بلغ في رحلته من رهق الصعوبة او الحرمان.

﴿قَالَ إِنْ سَأَلْتَكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا﴾ (٧٦).

إن المرة الثالثة بعد الأولى والثانية هي آخر المرات وليست آخر الخطوات ، ولكنك لا تحملي وأنا لا أحملك لاختلاف المعيارين ، ف ﴿إِنْ سَأَلْتَكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا﴾ وأحاول ألا أسأل ﴿إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ . ﴿فَلَا تُصَاحِبْنِي﴾ استمرارا في هذه الرحلة ف «قد بلغت» إذا ﴿مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا﴾ حيث أعذرَكَ في ترك الصحبة إذ لا تتحمل سؤالي قبل ان تحدث لي جوابا ، ولكنني اتحملك في تأجيل الجواب مهما لا اتحملك عن تعجيل السؤال ، والفرق لائح من ﴿قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي﴾ دون «قد بلغت عذرا من لدني ولدنك»! فحيّاه إلى المشهد الثالث والأخير.

﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلُهَا فَأَبَوْا أَنْ يُصَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ (٧٧).

خطوة ثالثة وهي الاخيرة من تلك الرحلة المدرسية هي أخف وطأة من

سابقتيها فانها في ظاهر الحال خلاف العقل وليس محرما شرعيا ام يخف!

«فانطلقا» كل من وثاقه ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَبَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا﴾ الأهل الثاني علّهم الأهل من أهلها : من فيه الأهلية ان يستطيع ، أترى كيف يجوز عليهما الاستطعام؟ أسؤالا وهو حرام إلا عند الضرورة المدقعة بقية على حياة ولم تكن حيث أقام الجدار! ام استضيافا كما ﴿فَأَبَوْا أَنْ يُضَيَّفُوهُمَا﴾؟ فكذلك الأمر وان كان أهين.

علّه كان جوعا لحد الحرج حيث لا يستطيعان مواصلة الرحلة الواجبة ، والاستضياف عنده ، ومن يؤهل للإضافة هو في حدّ الوجوب ، ام لأقل تقدير يجوز ، ثم وليظهر لهم لؤمهم ، فتظهر اقامة الجدار دون طلب لأجر أكثر واطهر عجابا لموسى فتكتمل الرحلة بذلك الأمر الأمر العجيب ، وليخرجلوا لما رأوا إقامة الجدار دون بغية الأجر ، إمّا ذا من حكم مجوزة او موجبة لاستضيافهما.

وما الأمهم حيث «أبوا» ﴿أَنْ يُضَيَّفُوهُمَا﴾ وقد يروى أنهم لما سمعوا نزول هذه الآية استحيوا وجاءوا الى رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) بحمل من الذهب وقالوا يا رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم): نشترى بهذا الذهب ان تجعل الباء في «أبوا» تاء : «أتوا» ليندفع عنا هذا اللؤم؟ فامتنع رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) .. (١).

أترى بعد هذه اللئامة اللعينة والإهانة المهينة يستحق أهل هذه القرية كرامة متعبة مجانة وعلى رهق الجوعة المهلكة؟ ولكن ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا

(١) التفسير الكبير للفخر الرازي ج ٢١ ص ١٥٧ : رأيت في كتب الحكايات ...

وفي رواية ابن بابويه والقمي ان هذه القرية هي الناصرة التي تنسب الى النصارى ، وفي بعضها أن الأرض كانت آذربيجان والقرية باجر وكان أهلها لثاما وعن القرظي أنها طنجة.

يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ فَأَقَامَهُ ﴿﴾ على وعشاء السفر وشقوة الجوع ولثامة أهلها «فأقامه» الخضر ، وطبعاً لا يساعده موسى حيث السؤال الفادح : **﴿قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾** و «لو» هنا تلمح الى حالة من الجوع والنصب يرثى لها وتحيل اي عمل فضلاً عن إقامة الجدار ، ف «لو شئت» عملاً كمستحيل تحميلاً على نفسك لاتخذت قبله عليه أجراً.

جدار يريد أن ينقض ، وكيف يريد الجدار ولا إرادة للجماد ، إلا تصويراً لمقارفة الانتقاض ، حيث ظهرت فيه أماراته من ميل بعد ثبات واضطراب بعد انتصاب!

وترى ان الخضر استأذن صاحب الجدار فأقامه؟ و «كان **﴿لِفَلَامِينَ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ﴾** إنه اقامه بولاية شرعية ، ولكنه مجهول لدى موسى فيعترض «لو شئت ..». وترى **﴿لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾** بعد ما أقامه؟ وليس لغير الأجير أجر ، بل وعله عليه وزر تصرفاً في مال الغير بدون إذنه! طبعاً قبل ما أقامه عليه أن يستأذن أهله على اجر ، حيث الضرورة قائمة هناك على أخذ الأجر ، مما يفرض عرض الإنسان نفسه لعمل بأجر بقية على حياة وتداوما في تلك الرحلة الواجبة.

فحسب الظاهر ليس هذا الموقف موقف الترحم على هؤلاء اللثام ، فليرحم نفسه وصاحبه بأخذ الأجر ، فتركه خلاف العقل ولا يسمح الشرع!.

﴿قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ (٧٨).

فراق حسب الشرط **﴿فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا﴾** وقد تعلم منه مما علمه

رشدًا ، وقد تبين الرشد في كليهما معلماً ومتعلماً بكل احترام دون اخترام.

في الخطوة الاولى والثانية اعتذرت فأعذرتك وللثالثة أعذرت دون اعتذار ف «هذا»
السؤال دون إعدار ﴿فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ كما اتفقنا «سأنبئك» كما وعدتك : ﴿حَقِّي
أُحْدِثَ ..﴾ بتأويل مأخذ ومرجع ﴿مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾!

فراق حنون بعد وفاق حنون وكلّ خطى خطواته كما علّم ، وقد حصل ما قصد كأن
يعلم موسى أن في أمته من هو أعلم منه في علم الباطن ، مهما كان هو أعلم منه في علم
الظاهر ، ف ﴿فَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ اللهم إلّا علام الغيوب ، فلا يزعم أحد أنه أعلم
الخلق أجمعين وإن كان كموسى الرسول ، فضلا عن سواه ، حيث العطيات موزّعات بعلم
العليم الحكيم حسب القابليات!

﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ
يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ (٧٩).

أراد الله أن تبقى السفينة لمساكينها ، ولو شاء لحقق ما يشاء بصرف إمّا ذا من
خارقة. ولكنه شاءه بفعل من غيره غير خارق : ﴿فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ أردته تحقيقا لمشيئة
تشريعية ، واخرى تأييدة تكوينية إلهية كما في كافة الواجبات.

لم يقل أردنا حيث لم يشاركه موسى ، ولا أراد الله حيث لم يرد الله الإعاية بفعله خارقة
، وإنما أراد تعالى إصلاحها بما أعابها الخضر ، فالإعاية فعله بسماع شرعي ، والإصلاح فعل
الله بسماع تكويني.

﴿وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ﴾ : ملك وراء المساكين يلاحقهم أيا كانوا ﴿يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ
غَصْبًا﴾ فليست الورا هنا وراء الخلف ، ^(١) وإنما وراء التخلف

(١) الدر المنثور ٤ : ٢٣٧ . اخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن أبي حاتم والحاكم .

والملاحقة من أية جهة كانت و ﴿كُلَّ سَفِينَةٍ﴾ تعني من مساكين وسواهم حيث هي صالحة للاستثمار ، فلتكن صالحة غير معيبة ، ﴿فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ في الظاهر لأصلح أصلها لكيلا تغتصب.

على الملوك أن يكونوا وراء الشعوب ولا سيما المساكين خدمة لهم وإصلاحا ، وهذا الملك كان وراءهم خيانة وإفسادا ﴿يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ فلأنني أحطت بذلك خيرا أعبتها للحفاظ على أصلها ، ثم الحفاظ على أهلها عن غرقها حاصل بما سددنا ثغرتها. بهذا العيب الصغير نجت السفينة عن الضرر الكبير الذي يكنه الغيب إن لم يكن لها عيب ، ولتكن هذه سنة للحفاظ على الأصلح وكما عاب الإمام الصادق (عليه السلام) زرارة في ظهر الغيب حفاظا على نفسه ، وبهذا المعنى الغاية تبرر الوسيلة ، فإعابة السفينة محرمة لو لا هذه الغاية ، دون أن تتبرر كل وسيلة بكل غاية ، وإنما الغاية الأهم بوسيلة دون الأهم ، فغاية توطيد اركان الخلافة بواسطة تثبيت معاوية ردحا من الزمن لا تتبرر ، حيث الخلافة العادلة لا ترتضي ظلما يتبناها او يوطدها ، وإبقاء معاوية إبقاء للظلم ريثما يثبت العدل ثم يزيل معاوية الظلم ، ومن ذا الذي يضمن بقاء الإمام في هذه الفترة حتى يعزل معاوية ، ومن ذا يضمن إمكانية عزله إن

. وصححه وابن مردويه عن ابن عباس ان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) كان يقرأ «وكان امامهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة غصبا».

أقول : اما «صالحة» فهي تفسير بيان للسفينة ، واما «امامهم» فقد يعني «بين أيديهم» دون ان يكون «امامهم» بدل «وراءهم» و «صالحة» محذوفة عن القرآن ، حيث تطارده أحاديث العرض ولا نصدق الا كتب القرآن المتواتر والمجمع عليه طوال القرون الاسلامية!

ويشهد لذلك ما رواه العياشي عن حريز عن أبي عبد الله (عليه السلام) انه كان يقرأ ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ﴾ يعني امامهم «يأخذ كل سفينة صالحة غصبا».

بقي الإمام وهو يقوى كما الإمام يقوى ، حيث هما في سبيلهما إلى الاستبقاء!
 فهنا نرى ان في امهال معاوية الطاغية رعاية لاستحكام حكم علوي مجهول ، وإبقاء
 لاستمرار واستحكام ظلم الطاغية وهو معلوم ، بيد ان غاية العدل لا يبررها اي ظلم!
 فليست «الغاية تبرر الوسيلة» ضابطة صالحة لا تستثنى ، ولا حابطة طالحة لا تصلح
 ، وانما الضوابط الشرعية الاخرى هي التي قد تبرر وقد لا تبرر ، كما بررت في خرق السفينة
 ، دون إمهال معاوية!.

إذا فكل ما دون قتل النفس من المحرمات تتبرر كمقدمات للحفاظ على النفس ، كأن
 تغتاب أخاك او تفتري عليه او تهتكه وتضربه أمّاذا حفاظا على نفسه ، وكلما هو فوق القتل
 كضياع الشرع أمّاذا لا تبرر للحفاظ على النفس ، وهذه الفوقية والتحتية مستفادة من
 الشرع ، فإذا كانا على سواء فعلى سواء ، ضابطة عامة في تقديم الأهم على المهم!
 هنالك شروط عدة في تبرير الغاية الوسيلة ، من كونها أهم من الوسيلة كما في زارة
 والسفينة ، وكون الغاية الأهم قطعية كالوسيلة ، فان كانت هي محتملة والوسيلة قطعية فلا
 تبرر ، إلّا فيما المحتملة ايضا أهم من تلك الوسيلة ، كمظنة حفظ النفس او احتمالها حيث
 تبرر وسيلة خفيفة كضرب او شتم او اغتياب إمّاذا؟

وان تتوارد الغاية والوسيلة على فرد او جماعة ، كأن تظلم فردا او جماعة بظلم لئلا
 يظلم بأكثر منه كما في السفينة ، فأما ان تظلم فلانا ليسلم غيره من ظلم وان اكثر منه فلا
 كما في إبقاء معاوية تظلم الجماعة المؤمنة في فترة بقاء معاوية لسدّ ظلم اكثر منه . ولا اكثر
 منه! . في مستقبل مجهول وعن جماعة غير معلومة ، علّ فيها من هؤلاء . لا كلهم . وعلّهم
 ليسوا فيها!.

لا نستطيع في هذا المجال الخاصر الخاصر ان نستعرض كل المعارضات بين الوسائل والغايات من الفقه كله ، فنحشر الفقه لنحشركم على حافة من المسرح العام ، فليتبّع وفي كلّ ضابطته علما بان الغاية ليست لتبرر الوسيلة كضابطة عامة ، فقد تبرر بضابطة وقد لا تبرر بضابطة ، فليست هي إذا ضابطة وانما السلب والإيجاب لتبريرها حسب الضوابط المقررة في مجالاتها.

ومن أهم السياسات الحفاظية على الصالحين كسرهم عند من يريد كسحهم حتى لا يبيدهم وكما فعل الامام الصادق (عليه السلام) بزرارة معتذرا إليه في تعيينه إياه موضحا له موقفه قائلا له «يرحمك الله فانك والله أحب الناس إلي وأحب أصحاب أبي حيا وميتا فإنك أفضل سفن ذلك البحر القمقام وإن من ورائك للملكا ظلوما غصوبا يرقب عبور كل سفينة صالحة ترد من بحر الهدى ليغضبها وأهلها فرحة الله عليك حيا وميتا ورحمته ورضوانه عليك ميتا^(١).

وفي دوران الأمر بين المهم والأهم لا بد من تشخيص ذلك من اجتهاد او تقليد كما يصح : دون الهوسات والتصورات السطحية الخاطئة ، حيث

(١) نور الثقلين ٣ : ٢٨٥ ح ١٦٣ في كتاب تلخيص الأقوال في تحقيق احوال الرجال في ترجمة زرارته ابن أعين روى في الصحيح ان أبا عبد الله (عليه السلام) أرسل اليه انما أعيبك دفاعا مني عنك! فان الناس والعدو يسارعون الى كل من قربناه وحمدنا مكانه لادخال الأذى فيمن نخبه ونقربه ويذمونه لمحبتنا له وقربه ودنوه منا ويرون إدخال الأذى عليه وقتله ويحمدون كل من عبناه فانما أعيبك لأنك رجل اشتهرت بنا ويميلك إلينا وأنت في ذلك مذموم عند الناس فيكون ذلك دافع شرهم عنك لقول الله عز وجل ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَزَدَتْ أَنْ أَعْيِبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ هذا الرسل من عند الله صالحة ، والله ما عابها الا لكي تسلم من الملك ، فإنهم المثل يرحمك الله فانك والله أحب الناس إلي واصحاب أبي حيا وميتا فانك أفضل سفن ذلك البحر القمقام وان من ورائك للملكا ظلوما غصوبا يرقب عبور كل سفينة.

تورّط الى طامة كبرى لا علاج لها ام يصعب.

ف «الغاية تبرر الوسيلة» ليست ضابطة فقهية عامة ، حتى تلعب بها العامة كما تستعملها الخاصة ، وحتى إذا كانت ضابطة فلا تنضبط في التحقيق والتطبيق إلا عند أهلها الخاصة ، ولكنها كما نبهنا ليست آية من كتاب أم رواية من سنة ، بل هي حسب المظاهر المواتية للواقع ، ضابطة سياسية يبرر بها الساسة دسائسهم الجهنمية ، وكما نجدتها في الأصل عند الصهيونية العالمية ، حيث أوصلوها الى حدّ إقحام آيات في التورات وتحريف آيات أخرى إمّا ذا من اقتحامات ضالة مضلة.

ثم على ضوء الفقه الاسلامي السامي نصلح هذه الضابطة غير الضابطة بحيث تصلح في العناوين الثانوية حسب الضوابط الاسلامية القاطعة.

﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهَقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا (٨٠) فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاءً وَأَقْرَبَ رَحْمًا﴾ (٨١).

هنا يبرر الخضر قتل الغلام بفساده وكفرا وإفساده أن يرهق أبويه المؤمنين طغيانا وكفرا ، ﴿وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ والإفساد في الأرض من مبررات القتل ﴿كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ (٥ : ٣٢). ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ...﴾ (٥ : ٣٣) وإرهاق الأبوين المؤمنين طغيانا وكفرا . وهما يستحقان رحمة أكثر ممن سواهما . انه من أبرز الإفساد والسعي فيه.

فكون الغلام حينذاك كافرا دليل كونه مكلفا! ^(١) وكون أبويه مؤمنين

(١) الدر المنثور ٤ : ٢٣٦ . اخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن عبد العزيز في قوله : .

يجعله مرتدا فطريا يستحق القتل ولا يستتاب وإن تاب لم تقبل! فخشية ارهاقه إياها طغيانا وكفرا يهدّر دمه ثانيا بعد تهدره بارتداده! وإرادة ابداهما ربحا خيرا منه زكاة واقرب رحما ، زاوية ثالثة تفرض قتله! فحتى لو كان غير بالغ لكان يحق القتل دفعا للإفساد المحتوم.

فهذا الغلام الذي لا يبدو في ظاهره وحاضره انه مستحق القتل ، إذا هو في متن الغيب كافر طاغ يخشى ان يرهق أبويه طغيانا وكفرا.

وترى لماذا هنا ﴿فَخَشِينَا .. فَأَرَدْنَا﴾ وهنالك ﴿فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ لان إرادة الاعابة لم تكن إلّا منه دون موسى حيث ندّد بها! وحتى إذا عرف موسى جوازها فلا حاجة في الإعابة إلا إرادة واعابة واحدة ، واما الخشية من الإرهاق ، فهي كائنة للخضر ومقدرة لموسى وعلى كل مؤمن بالله أن يخشى الارهاق ، مهما كان دفع الخشية بالقتل يكفيه واحد ، وبعد العلم والخشية

. لقيّا غلاما قال كان غلاما ابن عشرين سنة فيه . اخرج مسلم وابو داود والترمذي وعبد الله بن احمد في زوائد المسند وابن مردويه عن أبي بن كعب عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : الغلام الذي قتله الخضر طبع يوم طبع كافرا ولو أدرك لأرهق أبويه طغيانا وكفرا وروى مثله عن ابن عباس عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) إلّا ذيله ، أقول : قد يعني «طبع كافرا» انه منذ ان بلغ طبع نفسه كافرا فان الله لا يطبع أحدا على الكفر فكل مولود يولد على الفطرة ، ثم «ولو أدرك» يؤول الى إدراكه أبويه على كفره ارهاقا لهما كفرا.

وفي نور الثقلين ٣ : ٢٨٥ ح ١٦٤ في مجمع البيان روى عن أبي عبد الله (عليه السلام) «اما الغلام فكان كافرا وأبواه مؤمنين . أقول : وهذا تفسير وليس نقلا لاصل الآية.

وفيه (١٦٧) عن إسحاق بن عمار عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال : سمعته يقول : بينما العالم يمشي مع موسى إذ هم بغلام يلعب قال : فوكزه العالم فقتله قال له موسى «اقتلت ...» قال : فدخل العالم يده فاقتلع كتفه فإذا عليه مكتوب «كافر مطبوع».

تأتي الإرادة ﴿أَنْ يُبَدِّلَهُمَا رَحْمَةً خَيْرًا...﴾.

يا موسى لست أنا الوحيد في هذا الميدان ، فأنت معي وكل مؤمن بالله أن نخشى ما أخشاه ونريد ما أريده بعد العلم بموقف الغلام وأبويه المؤمنين ، وأما إرادة الإعاقة فيكفيها واحد ثم لا يريد سائر من يعرف الواقع إلا الحفاظ على سفينة المساكين بآية طريقة ممكنة ، دون ضرورة إيمانية في إرادة جماهيرية للإعاقة!

وترى إن خشية الإرهاق طغيانا وكفرا وهي دون العلم كيف تبرر القتل ولا علم ولا إرهاق حينذاك؟

هنالك المبرر لقتل الغلام يكفي كونه مرتدا فطريا وفي حالة الإفساد ولما يرهق أبويه ، ثم الخشية لا تنافي العلم الحاضر الظاهر ، حيث الواقع قد يتخلف عما تعلم ، فالصيغة الأدبية عن العلم الظاهر فيما لا يجوز هي الخشية ، خوفا ان يستقبل خلاف ما يعلمه حاضرا ، فلم يكن . إذا . قتل الغلام قصاصا قبل الجنابة ، حيث الارتداد الفطري هو جنايته الحاضرة ، اضافة الى خشية الإرهاق حيث تلمح الى حاضر السعي في الإفساد ، ولكي يبدلها ربهما خيرا منه زكاة واقرب رحما.

أترى ان الغلام كان خيرا وقريب الرحم حتى يبدلها ربهما خيرا منه زكاة وأقرب رحما؟ كآلا فلا خير في هذا الكافر ولا رحم لأبويه ، وإنما الافضلية في «خيرا واقرب» مجازة ظاهرة في خير الغلام ورحمه.

وهل إن ﴿طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ مفعولان ل «يرهقهما» ان يغشيهما بقهر طغيانا وكفرا ، ليطنيا ويكفرا؟ ام حالان ل «يرهقها» ارهاقا لهما حالة الكفر والطغيان؟
قد يعنيهما المنصوبان حالين حال كونهما مفعولين حيث يتحملهما أدب اللفظ وجمال المعنى ، فالمرهق حالة الطغيان والكفر يرهق الى حالة الطغيان

والكفر دون زكاة منه ولأرحم أكثر مما في غير حالته.

ولقد سلبت «خشينا» بقتله وتحققت «أردنا» حيث أبدلهما بهما خيرا منه زكاة :
طهارة وإيمانا في نفسه ، واقرب رحما : رحمة لأبويه ^(١).

مثلث من موجبات القتل يسبب قتل هذا الغلام الكافر وزاوية منه كافية ومثلث آخر
هي من موجبات الرحمة يفرض إقامة الجدار دون اجر :

﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا
فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ
مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ (٨٢).

.. جدار هو ليتيمين في المدينة يريد أن ينقض ، تحب إقامته مجانا على ولي اليتيم
والخضر من أفضل الأولياء ﴿وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا﴾ يجب الحفاظ عليه باقامة الجدار مجانا ،
﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ ويكرم الرجل في ولده ، فتجب اقامة الجدار إكراما لوالديه المؤمنين
مجانا ، زوايا ثلاث من فرض إقامة الجدار لا أجر فيها ماديا وكما قال الله ﴿وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا
فَلْيَسْتَغْفِرْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ (٤ : ٦) ولم يكن موسى والخضر فقيرين
رغم حاجتهما الحاضرة المفقرة ، ولو كانا فقيرين فكيف يأكلان هنا بالمعروف ولا مال
لليتيمين إلا الكنز ^(٢) الواجب حفظه حتى ﴿يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا

(١) في تفسير القمي عن عثمان عن رجل عن أبي عبد الله (عليه السلام) في الآية إنه ولد له جارية فولدت
غلاما فكان نبيا وفي أكثر الروايات انها ولد منه سبعون نبيا.

(٢) في بعض الروايات ان الكنز كان لوحا من ذهب مكتوبا فيه مواعظ ، وفي الأب الصالح انه أبوهما الأقرب او
السابع او العاشر او بينهما سبعون أبا او سبعمئة سنة.

وفي الدر المنثور ٤ : ٢٣٥ . اخرج ابن مردويه عن علي عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في قوله :
وكان تحته كنز لهما . قال : لوح من ذهب مكتوب فيه : شهدت ان لا اله الا الله شهدت ان محمد (صلى الله
عليه وآله وسلم) رسول الله عجبت لمن أيقن بالقدر كيف يحزن عجبت لمن يؤمن بالموت كيف يفرح عجبت لمن
تفكر في تقلب الليل .

كَنَزَهُمَا ﴿﴾ وحتى إذا كان لهما مال سوى كنزهما فالفقر المجوز لأكل الولي هو الناتج عن ولايته عمليا ، ولولاها لما افتقر ثم ولو لا إقامة الجدار لم يكن هنا شغل له أجر! والرحمة الربانية تقتضي ألا يؤخذ من مال اليتيم ، وليس **﴿فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾** للولي الفقير إلا سماحا حالة الضرورة لا فرضا ، فترك الأكل **﴿رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾** كما إقامة الجدار حفاظا عليه وعلى الكنز رحمة من ربك ، والاطلاع على واقع الأمر رحمة من ربك «وما فعلته من أمري» فكل ذلك كان بأمر من ربك ، يرى موسى في الخطوة الاولى إمرا وفي الثانية نكرا ، هما في الظاهر من أشد القساوة ، ثم يرى في الثالثة رحمة زائدة لحد لا يبررها موسى الرسول وهو رسول الرحمة ، كتضاد في خلق الخضر يشبه طرقي النقيض ، فكان لموسى موقفا حرجا لن يستطيع معه صبرا!

ولماذا «فأراد ربك ورحمة من ربك» ولم يقيم الجدار إلا الخضر ، لا موسى ولا ربه؟ اما الارادة فلم تكن إلا من ربك فان بلوغهما الأشد من إرادة ربك ، وكذلك الرحمة هنا في كل زواياها ليست إلا من ربك.

. والنهار ويأمن فجأتهما حالا فحالا!

وفي تفسير العياشي عن إسحاق بن عمار قال سمعت أبا عبد الله (عليه السلام) يقول : ان الله ليصلح بصلاح الرجل المؤمن ولده وولد ولده ويحفظه في دويرته ودويرات حوله فلا يزالون في حفظ الله لكرامته على الله ثم ذكر الغلامين فقال **﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾** ألم تر ان الله شكر صلاح أبويهما لهما.

وفيه عن مسعدة بن صدقة عن جعفر بن محمد عن آبائه (عليهما السلام) ان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : ان الله ليخلف العبد الصالح بعد موته في اهله وماله وان كان اهله اهل سوء ثم قرء هذه الآية **﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾**.

وفي الدر المنثور اخرج ابن مردويه عن جابر قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): ان الله يصلح بصلاح الرجل الصالح ولده وولد ولده واهل دويرات حوله فما يزالون في حفظ الله ما دام فيهم.

اعلاما له أن تحته كنز لهما ، وامرا بإقامته حفظا لكنزهما ، وترك الأجر وجوبا في شرعة الله كأجر ، وأكلا دون اجر رحمة وفضلا!

ثم و «ربك» تعني التربية التشريعية وليس رسولها المبلغ لها إلا موسى ، والتربية التكوينية وموسى هو امام الخضر فيما أخذ منها ، فهذه حرمة وحسن ادب من الخضر الى موسى ان قال ﴿فَارَادَ رَبُّكَ .. رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ فانما انا الخضر ماش على ضوء التربية الإلهية المتمثلة فيك كإمام ، المتحققة عمليا بيدي كمأموم ، وان كنت لم تدره حيث الشرعة ظاهرة وتلك من الغيب ، كما لم أكن ادريه لو لا رسالتك بالشرعة الظاهرة ﴿ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾!

وقد نرى الأفعال المنسوبة الى فاعليها كلها في محالها ، فيإرادة الاعابة بفعلها هي من الخضر ، لا وموسى ولا ان الله أرادها تكوينا إلا كما يريد فعل كل مختار ، وخشية الإرهاق هي شريطة الايمان لكل مطلع على ضمير الغيب ولكنما الله لا يخشى ، واردة إبداهما خيرا تتبع قتله وخشيتهما ، وما أراد الله الأبدال الا في ظرف هذه الإرادة ، والإبدال فعل من الله دون سواه ، كما واردة بلوغهما أشدهما ليست إلا من الله ..

﴿وَمَا فَعَلْتُهُ﴾ كل ذلك ﴿عَنْ أَمْرِي﴾ وإنما عن أمر ربك ، فمهما غاب عنك الموضوع فالحكم نازل عليك رسولا إلي واماما علي فاننا على ضوء شرعتك ، فبأمر من ربك فعلت ما فعلت : ﴿ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾!

في هذه المسارح الثلاثة كانت معارضة بين الحكم الظاهر والباطن باختلاف ظاهر الموضوع وباطنه ، وقد طبق كل من موسى وخضر واجبه ، وترجى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فيما يروى عنه «يرحم الله

موسى وددنا انه لو صبر حتى يقص علينا من حديثهما» يضرب الى عمق الغيب دون تنديد بموسى (عليه السلام) كما وهو (صلى الله عليه وآله وسلم) يحيله ب «لو» وكما ان «علينا» قد تعني غيره (صلى الله عليه وآله وسلم) حيث جمع ، وقد اوتي (صلى الله عليه وآله وسلم) ما اوتي كل من يعلم ظاهرا او باطنا في الطول التاريخي والعرض الجغرافي وكل خليفة أيا كان وأيان!

وقد أعذر الإمام الحسن نفسه في صلحه مع معاوية في قوله (عليه السلام): «إذا كنت إماما من قبل الله تعالى ذكره لم يجب ان يسفه رأيي فيما أتيت من مهادنة او محاربة ، وإن كان وجه الحكمة فيما أتيت ملتبسا ، ألا ترى إلى الخضر (عليه السلام) لما خرق السفينة وقتل الغلام واقام الجدار سخط موسى (عليه السلام) فعله لاشتباه وجه الحكمة عليه حتى أخبره فرضي ، هكذا أنا سخطتم علي بجهلكم بوجه الحكمة فيه ولو لا ما أتيت لما ترك من شيعتنا على وجه الأرض أحد إلا قتل»^(١).

وأنتم أدنى من موسى وكان يحق له السؤال لولايته على خضر ، وانا أعلى من خضر وموسى ، ولي الولاية عليكم فما كان يحق لكم سؤالي سخطا وتنديدا! ..

(١) نور الثقلين ٣ : ٢٩ ج ١٩٢ في كتاب علل الشرايع باسناده الى أبي سعيد عقيصا قال قلت للحسن ابن علي بن أبي طالب (عليه السلام) يا بن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)! لم هادنت معاوية وصالحته وقد علمت ان الحق لك دونه وان معاوية ضال باغ؟ فقال : يا أبا سعيد! الست حجة الله تعالى ذكره على خلقه واماما عليهم بعد أبي (عليه السلام) قلت : بلى . قال : الست الذي قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لي ولاخي الحسين : امامان قاما او قعدا؟ قلت : بلى . قال : انا فإذا امام لو قممت وانا امام إذا قعدت ، يا أبا سعيد علة مصالحتي لمعاوية علة مصالحة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لبني ضمرة ، وبني أشجع ولأهل مكة حين انصرف من الحديبية ، أولئك كفار بالتنزيل ومعاوية وأصحابه كفار بالتأويل ، يا أبا سعيد إذا كانت اماما من قبل الله تعالى ذكره لم يجب ان يسفه رأيي فيما أتيت ..».

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا (٨٣) إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ
وَأَتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا (٨٤) فَاتَّبَعَ سَبَبًا (٨٥) حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا
تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّمَا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ
حُسْنًا (٨٦) قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكَرًا (٨٧) وَأَمَّا مَنْ
آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا (٨٨) ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (٨٩) حَتَّىٰ
إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَمْ يَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا (٩٠) كَذَلِكَ وَقَدْ
أَحْطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا (٩١) ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (٩٢) حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ

السَّادِّينَ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا (٩٣) قَالُوا يَا ذَا الْقُرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا (٩٤) قَالَ مَا مَكِّيٌّ فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا (٩٥) آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغَ عَلَيْهِ قِطْرًا (٩٦) فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا (٩٧) قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا (٩٨) وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا (٩٩) وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا (١٠٠) الَّذِينَ

كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا (١٠١) أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُوْنِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾
﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقُرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ (٨٣).

﴿ذِي الْقُرْنَيْنِ﴾ لم يذكر في سائر القرآن إلا هنا جوابا عن سؤال ، فهل كان نبيا؟
لخصوص ﴿قُلْنَا يَا ذَا الْقُرْنَيْنِ﴾ خطابا يلح أنه وحي ، وعموم ﴿وَأَتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ ومنه سبب الوحي؟ ولكنما القول من الله لا يخص وحي النبوة وحتى قول الوحي كما ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ﴾ فضلا عن «قلنا» وفي هذه اليتيمة فقط! ويشاركه فيه غيره ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ ولم يكونوا أنبياء! ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ وما كان نبيا حينذاك او ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ﴾ ولن يكون نبيا! فقد يعنى ﴿قُلْنَا يَا ذَا الْقُرْنَيْنِ﴾ إلهاما دون وسيط كما في هؤلاء ، ام وحيًا بوسيط كما في سائر الوحي إلى الناس أجمعين! وظاهر القول الخطاب هو الإلهام كما في أم موسى ، وليس في قوله تعالى هنا ما يحمل مادة الوحي النبوة!

والسبب هو ما يتوصل به الى المقصود لا يشمل سبب الوحي والنبوة ، فلا يؤتى النبي سبب النبوة بل نفسها ، فانما سببها عند الله ويبد الله ، ومن ثم لو كان نبيا لكان من أبرز التعريف به تصريح النبوة ، دون اختصاصه بالقدرات الأرضية ، فلم يك نبيا وكما في أحاديثنا^(١).

وهل كان ملكا؟ قد يعنيه ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾! ولا يؤتى ملك من كل شيء سببا! فقد يكون دون النبي وفوق الملك عبدا صالحا^(٢) قويا بما آتاه الله ، مؤيدا من عند الله! كمثل طالوت الملك على ضوء نبوة منفصلة!

ونعرف من الإجابات التالية حول ذي القرنين أن السؤال كان حول أفعاله الخارقة ، دون نبوته او ملكه او نسبه وبلده ، أم وإذا كان يعم ذلك كله او يخص الثاني كما هو دأب القصيصين فلم يأت الجواب حسب الحكمة إلا المفيد المفيد الذي فيه دعوة إلهية وذكرى إيمانية!

(١) كما في الدر المنثور ٤ : ٢٤١ اخرج ابن مردويه عن سالم بن أبي الجعد قال سئل علي (عليه السلام) عن ذي القرنين أنبي هو؟ فقال : سمعت نبيكم (عليه السلام) يقول : هو عبد ناصح الله فنصحه.

(٢) الدر المنثور ٤ : ٢٤١ . اخرج ابن عبد الحكم في فتوح مصر وابن المنذر وابن أبي حاتم وابو الشيخ في العظمة عن خالد بن معد ان الكلاعى ان رسول الله لا (صلى الله عليه وآله وسلم) سئل عن ذي القرنين فقال ملك مسح الأرض من تحتها بالأسباب وفيه أخرجه مثله الشيرازي في الألقاب عن جبير بن نفير ان أحبارا من اليهود قالوا للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) حدثنا عن ذي القرنين ان كنت نبيا فقال : ...

وقد تضارب الحديث عن علي (عليه السلام) انه كان نبيا ام لا وقد نفى كونه ملكا وعله بفتح اللام ردا على من زعمه ملكا ، وهناك روايات متضاربة اخرى في نفى نبوته وإثباتها.

ثم «ويسألونك» يشمل زمن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وإلى اعماق المستقبل ، فلا جواب صالحا عن ذي القرنين إلا ما أجاب ، ومهما كان السؤال عنه في العهد الرسولي من اليهود ^(١) ولكنما العهد الرسالي وهو منذ الرسول الى يوم الدين تشمله «ويسألونك»!

و «ذكرنا» هنا يدلنا أنه لا يقص قصص ذي القرنين إلا طرفا منها هاما يذكرنا موقفه في تمكنه في الأرض ، حيث لم يستخدمه إلا خدمة للناس وطردها للنسناح الخناس .. و «ذكرنا» يعني قرآنا يذكر قدر الواجب الصالح تذكرا.

ولا يستثني هنا بمشيئة الله حيث القائل هو الله ، وإنما الناقل هو رسول الله والله لا يستثني ما يريده بمشيئته اللهم إلا تعليما ﴿لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِينَ﴾!

(١) المصدر ٢٤٠ . اخرج ابن أبي حاتم عن السدي قال قالت اليهود للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) : يا محمد! انما تذكر ابراهيم وموسى وعيسى والنبيين ، انك سمعت ذكرهم منا فأخبرنا عن نبي لم يذكره الله في التوراة الا في مكان واحد ، قال (صلى الله عليه وآله وسلم) : ومن هو؟ قالوا : ذو القرنين ، قال : ما بلغني عنه شيء فخرجوا فرحين وقد غلبوا في أنفسهم فلم يبلغوا باب البيت حتى نزل جبرئيل (عليه السلام) بهؤلاء الآيات ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْقَرْنَيْنِ﴾.

وفيه واخرج ابن أبي حاتم عن عمر مولى غفر قال : دخل بعض اهل الكتاب على رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فسألوه فقالوا : يا أبا القاسم كيف تقول في رجل كان يسيح في الأرض؟ قال : لا علم لي به! فبينما هم على ذلك إذ سمعوا نقيضا في السقف ووجد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) غمة الوحي ثم سرى عنه فتلا ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْقَرْنَيْنِ﴾ الآية فلما ذكر السد قالوا : أذاك خبره يا أبا القاسم حسبك.

ولقد تضاربت الآراء والروايات حول «من هو ذو القرنين هذا؟» ولا يهمننا شخصه كما سكت عنه القرآن وإنما شخصيته بذكره أيا كان وأيان!
 قصارى ما يستفاد من اسمه أنه عربي ، وليس من دأب القرآن مسخ الأسماء الأعجمية ، وإنما تغيير ما قدر ما يجعله وفق الأدب العربي كإبراهيم معرب أبراهام وموسى معرب موشه ، و «ذو القرنين» لا يلمح بسمة غير عربية ، و «ذو» تلمح كأنه من الأذواء اليمنيين وأنه اسمه الخاص أم أشهر أسمائه قضية للغة الفصحى في ﴿بَيَانٌ لِلنَّاسِ﴾!
 فاسمه يدلنا على أنه أحد التبابعة الأذواء اليمنيين من ملوك حمير باليمن وقد تردد ذكره في عديد من أشعار الحميريين وبعض شعراء الجاهلية ^(١).

. وفي نور الثقلين : ٢٩٣ ج ١٩٩ في قرب الاسناد للحميري بإسناده الى موسى بن جعفر (عليه السلام) حديث طويل يذكر فيه آيات النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وفيه : ومن ذلك ان نفرا من اليهود أتوه فقالوا لابي الحسن جدي استأذن لنا على ابن عمك نسأله قال : فدخل عليّ فاعلمه فقال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) : وما يريدون مني؟ فاني عبد الله لا اعلم الا ما علمني ربي ثم قال : اذن لهم فدخلوا فقال : اسألوني عما جئتم له ام أنبئكم؟ قالوا : نبئنا . قال : جئتم تسألوني عن ذي القرنين؟ قالوا : نعم . قال : كان غلاما من اهل الروم ثم ملك وأتى مطلع الشمس ومغربها ثم بنى السد فيها قالوا : نشهد ان هذا كذا وكذا :

(١) ذكر جمع من المؤرخين ان ذا القرنين احد التبابعة الأذواء اليمنيين من ملوك حمير باليمن كالاصمعي في تاريخ العرب قبل الإسلام وابن هشام في السيرة والتيجان وأبي ربحان البيروني في الآثار الباقية ونشوان بن سعيد الحميري في شمس العلوم . واختلفوا في اسمه انه مصعب بن عبد الله او صعب بن ذي المرائد وهو أول التبابعة وهو الذي حكم لإبراهيم في بئر السبع او تبع الأقرن واسمه حسان او اسعد الكامل الرابع من .

. التبابعة بن حسان الأقرن ملكي كرب تبع الثاني ابن الملك تبع الاول او اسمه «شمر يعرش» :
وقد ورد ذكر ذي القرنين والافتخار به في عدة من اشعار الحميريين وبعض شعراء الجاهلية ففي البداية والنهاية
انشد ابن هشام للأعشى :

والصعب ذو القرنين أصبح ثاويا بالجنو في جـدث أشـم مقيـما
وانشد عثمان بن أبي الحاضر لابن عباس قول بعض الحميريين.

قد كان ذو القرنين جدي مسلما ملكا تدين له الملوك وتحشد
بلغ المشارق والمغارب بيتغي اسباب امر من حكيم مرشد
فرأى مغيب الشمس عند غروبها في عين ذي خلب وثأط حرمد
وفيه يقول النعمان بن بشير :

فمن ذا يعاودنا من الناس معشرا كراما فذو القرنين منا وحاتم
ويقول فيه الحارثي :

سموا لنا واحدا منكم فنعرفه في الجاهلية لاسم الملك محتملا
كالتبعين وذو القرنين يقبله اهل الحجى فأحق القول ما قبله
ويقول ابن أبي ذئب الخزاعي :

ومنا الذي بالخفافين تغربا واصعد في كل البلاد وصوبا
فقد نال قرن الشمس شرقا ومغربا وفي ردم يأجوج بني ثم نصبا
وذلك ذو القرنين تفخر حمير بعسكر فيل ليس يحصى فيحسب

ولقد حفظت اسماء الأذواء كالملوك الماثمة وهم ثمانية أذواء حيث ناهضوا حمير ايام دولتهم كما يقول شاعرهم :

ابن الماثمة الملوك وملكهم ذلوا لصرف الدهر بعد جماح
ذو ثعلبان وذو خليل ثم ذو شجر وذو جـدن وذو صـرواح
او ذو مغـار بعد او ذو جـوفز ولقد محـا ذا عـثـكلان ما حي
ثم سائر الأذواء أكبرهم مرثد وهو جد الناظم قال فيه :

او ذو مراثـد جـدنا القـيل بـن ذي شـجر ابـو الأذـواء رحـب السـاح

ثم يذكر في اشعاره التسعة عشر ٥٣ آخرين من الأذواء ك : ذونين . ذو سفر . ذو .

ولأن هذا الاسم وصفي وليس الاسم الخاص فقد يجوز كونه ترجمة عربية عن حالته الخاصة التي تميزه عن غيره بميزة وحيدة ، إضافة الى سائر أفعاله المذكورة في هذه الآيات ، فقد يجوز عدم كونه عربيا كاسكندر الثاني المقدوني المعروف لدى الخاص والعام بذى القرنين ، المنسوب إليه السد لحد صار مثالا يقال : كسد الإسكندر؟ وكما ورد في بعض الروايات ^(١) وقد سيطر على الشرق والغرب بما لا مزيد عليه ^(٢).

ولأن هذه السيطرة لا تخصه ، وأنه كان وثنيا من الصابئين وقد ذبح ذبيحته للمشتري ، والقرآن يصف ذا القرنين بالعدل وصالح العبودية لله ،

. عمران . ذو بيان . ذو . الرحيم . ذو يرحم . ذو بحر . ذو يزن . ذو نوش ذو نوح . ذو الانواح . ذو تيقان . ذو أصبح . ذو الشعبين . ذو حوال . ذو مناح . ذو غمدان . ذو فائش . ذو رعين و ...
(١) كرواية عقبة بن عامر عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ورواية قرب الاسناد عن موسى بن جعفر (عليه السلام) وذهب اليه جماعة من قدماء المفسرين من الصحابة والتابعين كمعاذ بن جبل وقتادة ومن المتأخرين الامام الرازي في تفسيره.

(٢) يؤكد عليه الرازي في تفسيره قائلا : ان إسكندر المقدوني جمع ملوك الروم والمغرب وقهرهم وانتهى الى البحر الأخضر ثم الى مصر وبنى الاسكندرية ثم دخل الشام وقصد بني إسرائيل وورد بيت المقدس وذبح في مذبحه ثم انعطف الى ارمينيا وباب الأبواب ودان له العراقيون والقبط والبربر واستولى على ايران وقصد الهند والصين وغزا الأمم البعيدة ورجع الى خراسان وبنى المدن الكثيرة ثم رجع الى العراق ومات في شهر رز او رومية المدائن وحمل الى اسكندرية ودفن بها وعاش ثلاثا وثلاثين سنة ومدة ملكه اثنتا عشرة سنة ، فلما ثبت بالقرآن ان ذا القرنين ملك اكثر المعمورة وثبت بالتواريخ أنه الإسكندر فليكن ذو القرنين هو الإسكندر.

إذا فليس هو المقدوني ، وقد يجوز أنه الإسكندر الأول ، وبينهما أزيد من ألفي سنة (٢٣٠٠) ق م فقد كان عبدا مؤمنا صالحا وملكا عادلا ^(١) وكان وزيره الخضر؟

ولان التأريخ لا يسجل لنا ملكا قبل المسيح بأكثر من ألفين وثلاثمائة ملك الأرض من أقصاها إلى أقصاها وبنى السد و .. فقد لا ينطبق ذو القرنين على واحد منهما!
وان كان المحتمل هو الاول قويا ، مهما لا يوجد «ذو» في الاغريقين اليونان حيث الوصفية في التسمية تحل هذه المشكلة!.

وعله هو «كورش» أحد ملوك الفرس الهخامنشيين (٥٣٩ . ٥٦٠ ق م) فقد جمع بين مملكتي الفارس وما دو سخر بابل وأذن في رجوع اليهود من بابل إلى اورشليم وساعد في بناء الهيكل وسخر مصر ثم اجتاز إلى يونان فغلبهم وبلغ المغرب ثم سار إلى اقاصي المعمورة شرقا ^(٢) وتشهد كتب

(١) الدر المنثور ٤ : ٢٤١ . اخرج ابن عبد الحكم في فتوح مصر وابن أبي حاتم وابو الشيخ والبيهقي في الدلائل عن عقبة بن عامر الجهني قال كنت اخدم رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) . وساق حديث سؤال جماعة من اهل الكتاب عنه في ذي القرنين الى ان قال : ان أول امره انه كان غلاما من الروم اعطي ملكا فصار حتى أتى ساحل ارض مصر فابتنى مدينة يقال لها اسكندرية فلما فرغ من شأنها بعث الله عز وجل اليه ملكا فعرج به فاستعصى بين السماء ثم قال له : انظر ما تحتك فقال ارى مدينتي وارى مدائن معها ثم عرج به فقال انظر فقال قد اختلطت مع المدائن فلا اعرفها ثم زاد فقال انظر قال ارى مدينتي وحدها ولا ارى غيرها قال له الملك انها تلك الأرض كلها والذي ترى يحيط بها هو البحر وانما أراد ربك ان يريك الأرض وقد جعل لك سلطان فيها فسر فيها فعلم الجاهل وثبتت العالم فصار حتى بلغ مغرب الشمس ...

(٢) سار نحو المغرب لدفع طاغية «ليديا» الطاغية عليه ظلما دون عذر فحاربه وعاصره في عاصمته ففتحها واسره ثم عفى عنه واحسن اليه «حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ ..» .

العهد العتيق على إيمانه وصلاحه ^(١) كما النقوش والكتابات المخطوطة بالخط المسماري الماثورة عنه ناطقة بكونه موحدًا ، وقد سار نحو المغرب فاستولى على ليديا وحواليها ثم نَحَى نحو المشرق حتى بلغ مطلع الشمس ووجد عندها قوما بدويين همجا ثم بنى السد المعروف بمضيق داريال بين جبال قفقاز قرب مدينة تفليس.

ولماذا يعبر عنه القرآن بذي القرنين . أيا كان من المذكورين ؟! علّه لأنه أدرك قرني الشمس شرقا وغربا ^(٢) وعاش قرنين وضرب على قرنيه وكان لتاجه قرنان وسخر له القرنان الليل والنهار ^(٣) وأيد في قرنيه بكشف من

. ثم سار نحو الصحراء الكبير بالمشرق حوالي بكتريا لإخماد نائرة قبائل بدوية همجية انتهضوا هناك للافساد «حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ ::» وبنى السدّ الموجود في مضيق جبال قفقاز الممتدة من بحر الخزر الى البحر الأسود ويسمى «داريال» وهذا السد واقع بين جبلين شاهقين يمتدان من جانبيه وهو وحده الفتحة الرابطة بين جانبي الجبال الجنوبي والشمالي ، وكان يهجم في تلك الاعصار أقوام شريرة من قاطني الشمال الشرقي من آسيا من مضيق جبال قفقاز الى ما يواليها من الجنوب وهجموا في حوالي المائة السابعة قبل الميلاد فعمموا البلاد قتلا وسبيا ونهباً حتى بلغوا نينوى عاصمة الآشور وكان ذلك في القرن السابق على عهد كورش تقريبا :

(١) كما في كتاب عزرا (الاصحاح ١ : ٤ - ١ : ٤) ودانيال (الاصحاح ٦ : ٢٨) وكتاب اشعيا (الاصحاح ٤٤ : ٢٨ و ٤٥ : ١ - ٢٧) وقد سمي في اشعيا راعي الرب وفي (٤٥) منه «هكذا يقول الرب لمسيحه لكورش الذي أمسكت يمينه لأدوس امامه اما وأحقاد ملوك أحل لا فتح امامه المصراعين والأبواب لا تغلق : انا أسير قدامك والهضاب امهد اكسر مصراعي النحاس ومغاليق الحديد اقصف : وأعطيكَ ذخائر الظلمة وكنوز المخايي : لكي تعرف اني انا الرب الذي يدعوك باسمك : لقبك وأنت لست تعرفني» :

(٢) نور الثقلين عن الامام العسكري (عليه السلام) انه رأى في المنام انه أخذ بقرني الشمس فعبّر له بملك الشرق والغرب وسمي بذي القرنين.

(٣) نور الثقلين ٣ : ٢٩٦ ج ٢١٢ في كتاب كمال الدين وتمام النعمة سأل رجل عليا (عليه السلام) أرايت ذي القرنين كيف استطاع ان بلغ الشرق والغرب؟ قال : سخر .

السما في ظلمات ورعد وبرق^(١) وقد اكتشف تمثال «كورش» الحجري أخيرا في مشهد مرغاب جنوبي ايران ، مثل فيه ذا قرنين^(٢) نابتين من أم رأسه من منبت واحد أحدهما مايل إلى قدامه وثانيهما إلى خلفه ، وكما في كتاب دانيال في رؤياه كورش على صورة كبش ذي قرنين^(٣).

. له السحاب ومدّ له في الأسباب وبسط له النور فكان الليل والنهار عليه سواء وفي نقل آخر عنه (عليه السلام) فسر بسط النور ب «كان يضيء بالليل كما يضيء بالنهار»

(١) نور الثقلين ٣ : ٢٩٣ ح ٢١٥ عن الأصمغ بن نباتة عن امير المؤمنين (عليه السلام) في حديث اقتسمناه حسب مختلف مواضعه وكما في الرقم (٢) :

(٢) المصدر ٢١٥ عن الأصمغ بن نباتة عن امير المؤمنين (عليه السلام) قال سئل عن ذي القرنين قال : كان عبدا صالحا واسمه عياش اختاره الله تعالى وابتعثه الى قرن من القرون الاولى في ناحية المغرب وذلك بعد طوفان نوح (عليه السلام) فضربوه على قرن رأسه الأيمن فمات منها ثم أحياه الله بعد مائة عام بعثه الله الى قرن من القرون الاولى في ناحية المشرق فكذبوه وضربوه ضربة على قرنه الأيسر فمات منها ثم أحياه الله بعد مائة عام وعوضه من الضربتين اللتين على رأسه قرنين في موضع الضربتين أجوفين .. أقول وأخرجه مثله في معنى قرنيه في الدر المنثور ابو الشيخ في العظمة عن أبي الوراق عن علي (عليه السلام) (٤ : ٢٤١) ورواه مثله في الاسم القمي عن أبي بصير عن الصادق (عليه السلام):

(٣) في الاصحاح ٨ : ١٠ . ٩ من دانيال «في السنة الثالثة من ملك «بيلشاصر» الملك ظهرت لي انا دانيال رؤيا بعد التي ظهرت لي في الابتداء فرأيت في الرؤيا وكأن في رؤياي وانا في «شوشن» القصر الذي في ولاية . عيلام : ورأيت في الرؤيا وانا عند نحر «اولاي» فرفعت يميني وإذا بكيش واقف عند النهر وله قرنان والقرنان عاليان والواحد أعلى من الآخر والأعلى طالع أخيرا : رأيت الكبش ينطح غربا وشمالا وجنوبا فلم يقف حيوان قدامه ولا منفذ من يده وفعل كمرضاته وعظم .. ثم يذكر بعد تمام الرؤيا أن جبرئيل تراءى له وعبر رؤياه بما ينطبق فيه الكبش ذو القرنين على كورش وقرناه مملكتنا الفارس وماد ، والتيس ذو القرن الواحد على الإسكندر المقدوني.

وفي «قاموس كتاب المقدس» ترجمة مستر هاكس الامريكي باللغة الفارسية ص ٧٤٣ تحت عنوان «كورس» يقول يعني : الشمس ، مؤسس الملك الفارسي وفتاح الممالك .

وأيا كان ذو القرنين فانما يهمنا شخصية قوية روحية منه عن التاريخ لا شخصه ، ولا مفخرة في كونه عربيا أم روميا ام ايرانيا آمن ذا ، ولذلك أهمل القرآن إلّا عن شخصيته ولكيلا يجعل مثار التفاخرات! فالتسجيل التاريخي ليس هو المقصود في قصص القرآن وإنما هو العبرة المستفادة من القصة وهي حاصلة منها دون ان تزيدنا معرفة الشخص دلالة اللهم إلّا دلالة قومية عنصرية والقرآن يطاردها!

ثم التأريخ أيا كان ومن اي كان ليس إلّا ركاما من خليط الحق والباطل ، وبعضه باطل كله ، ولا نجد الحق كله إلّا في قصص القرآن ، فهي القصص الحق الجارفة تخيلات باطلة معتمدة او ساهية تسربت ودخلت في التاريخ!

ولئن استفتينا التاريخ حول ذي القرنين أم أي شخص مجهول ، فانما

. الاخرى ، ثم ينقل عن كتاب دانيال (٦ : ٢٨) ان دانيال كان حينذاك في ديوان كورش وقد توفي كورش عن الجراحة التي اصابته في حربه (٥٢٥ ق : م) : فلكورش دور في الكتب المقدسة مجيد يهمه اهل الكتاب ولذلك سألوا الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) عن ذي القرنين ، ولا اثر في الكتب المقدسة عن شخصية هذه سيرته الاكورش :

ومما يبعد كونه كورش إلّا اثر عن هذا الاسم في الروايات الاسلامية إطلاقا ، ففي بعضها انه عياش (١) وثان : اسكندر (٢) وثالث : مرزيا بن مرزبة اليوناني من ولد يونن بن يافث بن نوح (٣) ورابع : مصعب بن عبد الله من قحطان (٤) وخامس : عبد الله بن ضحاك بن معد (٥) والى غير ذلك :

(١) (كما في تفسير العياشي عن الأصبغ بن نباتة عن علي (عليه السلام) وفي البرهان عن الثمالي عن الباقر (عليه السلام):

(٢) كما يظهر من رواية قرب الاسناد للحميري عن الكاظم (عليه السلام) ورواية الدر المنثور عن عدة عن عقبة بن عامر عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) :

(٣) كما في الدر المنثور عن بعض من اسلم من اهل الكتاب.

(٤) كما في البداية والنهاية (٥) البداية والنهاية عن ابن هشام في التيجان.

نصدق منه ما يصدقه القرآن ، ونكذب ما يكذبه ونتردد فيما يسكت عنه! دون أن نستفتيه كأصل نرفع عليه القرآن فانه منكر من القول وزور!

ثم هؤلاء الأذواء الثلاثة المؤمنون لكل منهم رجاحة متقابلة ، فاليميني يترجح بان اليمين بلد الأذواء قرابة مائة ، واليوناني يترجح لشهرته العالمية بذوي القرنين وذكره في بعض أحاديثنا ورغم وفرة الأذواء في اليمين فلا قرنن فيه! والایراني يترجح لذكره في التوراة ولكن ليس فيه ذو ولا قرنن اللهم الا وصغبا ولكل وجه.

﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ (٨٤) :

دعامتان إلهيتان لهذه السلطة العالمية المنقطعة النظير ، اللهم إلا في داوود وسليمان (عليهما السلام) سلفا ، وفي المهدي القائم من آل محمد (صلّى الله عليه وآله وسلم) خلفا :
١ . تمكين إلهي في الأرض كلها . ٢ . وسبب إلهي من كل شيء على ضوء هذا التمكين وفي سبيله!

هنالك تمكين للمترفين الأثرياء ذوي السلطة والكبرياء يعني امتحانا وامتهانا وهو من مخلفات التخاذل من أهل الدين المستضعفين : ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ (٦ : ٦) ومن ثم تمكين لبسط الخير إكراما لمن يعرفون نعمة الله ويشكرونها : ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ (٢٢ : ٤١).

وذلك التمكين قد يكون جانبيا كما في يوسف ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ (١٢ : ٢١) حيث يخص أرض مصر ، وآخر عالمي في درجات أعلاها لبقية الله وحجته الكبرى وآيته العظمى محمد بن الحسن المهدي صلوات الله عليه وعلى آباءه الكرام ، تمكين له ولصحبه الخصوص ولمن تابعه على وجه العموم : ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾

لَيْسَتْ خَلْفَتُهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٢٤ : ٥٥﴾

ثم وأدنى منها ما كان لداود وسليمان بين النبيين ولذي القرنين بين الملوك الصالحين ،
وأدنى منه ما كان لطالوت آمن ذا؟

﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ﴾ في تأكيدات ثلاثة ترفع من شأن هذه السلطة المباركة و «في الأرض»
تعممها في كافة أرجاء المعمورة ، فقد ذلت له الصعاب واستسلمت له البلاد!
والسبب أيا كان هو الذي يتوصل به الى غاية لا تحصل إلا به ، من عقلي او علمي
او عملي .

ثم الأسباب لبسط الملك إما ذا؟ قد تكون حاضرة ظاهرة ، وأخرى حاضرة غير ظاهرة
، ام ظاهرة غير حاضرة تحصل بمحاولة بشرية مهما طالت ام قصرت ، صعبت ام يسّرت ،
فهي في نطاق العلم والقدرة البشرية ممكنة! وثالثة لا من هذه ولا تلك ، بل هي خفية عن
العلم بعيدة عن القدرة ، فلا يؤتيها إلا الله لمن يشاء ويرضى! ﴿وَأَتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾
يعني ثالثتها وهي الأسباب الخارقة الإلهية التي تقصر دون التوصل بها العقول والعلوم وسائر
القدرات غير الإلهية!

و «كل شيء» هنا لا يعني الاستغراق الشامل لسبب الوحي والنبوة واضرابها! وإنما
«كل شيء» في سبيل تمكينه في الأرض ، ثم ولا يعني كلا من هذا الكل ، وإنما البعض من
كلّ قدر ما يحتاجه كما تلمح له «من»!

فقد آتاه الله بعضا من الأسباب اللائقة من كل شيء في سبيل تمكينه

في الأرض ، من اسباب معرفة الحق الناصع الصراح عن الباطل ^(١) ومن اسباب السفر كالسحاب الذلول إمّا ذا؟ ^(٢) ومن اسباب الضوء حيث تضيء له ليلا كما تضيء الشمس نهارا فهو ذو قرني الليل والنهار حيث هما عليه سواء؟

ومن اسباب الشيع والريّ منّا او سلوى أمّاذا؟ ثم ومن أسباب التفتح في مشارق الأرض ومغاربها كسبب تفهّم مختلف اللغات ^(٣) وأضرابه كالطرق

(١) المصدر ج ٢١٦ ص ٣٠٤ عن تفسير العياشي جبرئيل بن احمد عن موسى بن جعفر رفعه الى أبي عبد الله (عليه السلام) قال : ان ذا القرنين عمل صندوقا من قوارير ثم حمل في مسيره ما شاء الله ثم ركب البحر ..

و ٢١٥ العياشي عن الأصبع بن نباتة عن امير المؤمنين (عليه السلام) قال : سألت عن ذي القرنين . ثم سار في جوابه (عليه السلام) الى قوله : ثم رفعه الى السماء الدنيا فكشط له عن الأرض كلها جبالها وسهولها وفجاجها حتى ابصر ما بين المشرق والمغرب وآتاه الله من كل شيء يعرف به الحق والباطل وأيده في قرنيه بكشف من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق ثم اهبط الى الأرض واوحى اليه ان سر في ناحية غربي الأرض وشرقها فقد طويت لك البلاد وذلك لك العباد فأرهبتهم منك ، فسار ذو القرنين الى ناحية المغرب ... فلم يبلغ مغرب الشمس حتى دان له اهل المشرق والمغرب وذلك قول الله ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا...﴾ .
(٢) في الدر المنثور ٤ : ٢٤٢ . اخرج ابن أبي حاتم عن قتادة .. فخبر بين ذلال السحاب وصعابها فاختر ذلالها فكان يركب عليها.

وفي تفسير البرهان ٢ : ٤٨١ ج ١١ عن الباقر (عليه السلام) اما ان ذا القرنين قد خير بين السحابتين فاختر الذلول وذخر لصاحبكم الصعب فقلت : وما الصعب؟ فقال : ما كان من سحاب فيه رعد وصاعقة وبرق فصاحبكم يركبه اما انه يركب السحاب ويرقى في الأسباب اسباب السماوات السبع والأرضين السبع خمس عوامر وثنتان خراب.

(٣) الدر المنثور ٤ : ٢٤٧ . اخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد في قوله : ﴿وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ قال : علما من ذلك تعليم الالسنه كان لا يعرف قوما الا كلمهم بلسانهم.

وكلها خارقة إلهية.

تذكر له في تالية الآيات ثلاثة أسباب لثلاثة أسفار بعيدة المدى ، قد تكون هي من أهم الأسباب التي أوتيتها في سفراته ، وقد أطبقت أحاديثنا أنها السحاب الذلول وان الصعب منها تختص بالإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف! ^(١).
ولان «سببا» تأتي بنفس الصيغة ثلاث مرات ، دون أن تأتي ثانية وثالثة «السبب» إشارة الى الاول ، فقد تعني ثلاث مركبات فضائية مهما كانت كلها من صعبة السحاب أما إذا؟

هنالك أسباب غيبية أرضية أم فوق الارضية ام السماوية تستخدم في مثلث الأسفار بما آتاه الله ، قد يشار الى وجودها وإمكانية التسبب بها : ﴿أَمْ هُمْ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ﴾ (٣٨ : ١٠) ولو لا أن هناك أسبابا ترقى الى السماوات لم يكن لهذا التحدي مجال على أية حال ، ومنها المركبة المعراجية المحمدية (صلى الله عليه وآله وسلم) ، وقد يشار الى إمكانية الارتقاء الى السماء بأسباب مصطنعة إمّا إذا؟ : ﴿مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ﴾ (٢٢ : ١٥).

ولقد خيل الى فرعون إمكانية البلوغ إلى أسباب السماوات ، وطبعا لم

(١) نور الثقلين ٣ : ٢٩٦ ج ٢١٢ في كتاب كمال الدين وتمام النعمة سأل رجل عليا (عليه السلام) أرايت ذا القرنين كيف استطاع ان بلغ الشرق والغرب؟ قال : سخر له السحاب ومد له في الأسباب وبسط له النور فكان الليل والنهار عليه سواء و ٢١٣ في تفسير العياشي عن أبي بصير (عليه السلام) قال : ان ذا القرنين خير بين السحاب الصعب والسحاب الذلول فاختر الذلول فكان إذا انتهى الى قوم كان رسول نفسه إليهم لكي لا يكذب الرسل.

يك يعرف واقعها إلا بمعرفة الوحي من موسى ام سواه : ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ. أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِبًا﴾ (٤٠ : ٣٧)^(١).

المركبة الفضائية الاولى لذي القرنين

﴿فَاتَّبَعَ سَبَبًا (٨٥) حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقُرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا (٨٦) قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكَرًا (٨٧) وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءٌ الْحُسْنَى وَسنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ (٨٨)

هل الإلتباع هو الإلحاق يتبعه مفعولان؟ كما ﴿وَأَتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ (٢٨ : ٤٢) إذا فما هو المفعول الثاني ل «اتبع سببا؟! ام هو اللحق ولا يتبع إلا مفعولا واحدا : ﴿فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ﴾؟ (٧ : ١٧٥) أو أنه كما نراه يستعمل متعديا الى مفعول واحد أحيانا والى مفعولين اخرى؟ إذا أليس من الأفصح «فتبع» نصا في اللحق؟ ولكنه قد يعني في مفعول واحد سرعة اللحق وكما نراها في موارده^(٢)

وهذه طبيعة الحال في المركبة الفضائية السحابية ام ماذا؟ وهي دائبة السير ، فليحققها ذو القرنين سريعا كما لحقها! ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ﴾ وهو المغرب الأقصى ، وبينه وبينه شاسعة المسافة بين المشرق الأوسط او الأدنى الى المغرب الأقصى ، ولا تحتاز تلك البعيدة المدى مشيا

(١) راجع تفسير الآية في المؤمن تجد فيه تفصيلا عن اسباب السماوات.

(٢) «فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ» (١٠ : ٩٠) «فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ» (٢٠ : ٧٨) «فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ» (٢٦ : ٦٠) «فَاتَّبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ» (١٥ : ١٨) شِهَابٌ ثاقِبٌ» (٣٧ : ١٠).

او ركوبا بالوسائل القديمة إلا في سنين بمعدلات قد تستحيل مهما طال الزمن ، وهي اولى السفرات الثلاث الطائلة لذي القرنين ، فلو لا أنه ﴿اتَّبَعَ سَبِيلاً﴾ سماويا آتاه الله لما قطع واحدة منها إلا انقطع ولما!

مغرب الشمس وقتذاك هو آخر المعمورة اليابسة من الجانب الغربي ، وإلا فلا مغرب للشمس كنقطة خاصة من المعمورة ، ولكل أفق من الشمس مشرق ومغرب عدد أيام السنة!.

فلأن ذا القرنين كان من الشرقيين أيا كان ، فمغرب الشمس بالنسبة الى مبدئه في سفرته هو المغرب الأقصى إلى جانب البحر حيث الأفق البحري لغروبها مد البصر في البحر ، هو بحر الظلمات المسمى بالمحيط الأطلانطيقي.

﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ أترى الشمس تغرب في عين حمئة أم غير حمته ، ولا غروب حقيقيا للشمس ، فلها مشارق ومغارب منذ خلقت حتى يوم تكويرها ، دون شروق مطلق ، ام غروب مطلق بالنسبة لارضنا وأضرابها ، ام هي شارقة دون غروب بالنسبة لنفسها .. ثم وهي في مشارقها ومغاربها ، وفي مشرقها ومغربها ، وفي مشرقها ومغربها ، لا تشرق او تغرب إلا في ملتقى أفقي الأرض بریا او بحريا وأفق السماء ^(١) دون عين حمئة إمّا ذا؟

(١) نور الثقلين ٣ : ٣٠٦ ج ٢٢١ في كتاب التوحيد حديث طويل عن أبي ذر عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : كنت آخذا بيد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ونحن نتماشى جميعا فما زلنا ننظر الى الشمس حتى غابت فقلت : يا رسول الله! (صلى الله عليه وآله وسلم) أئنّ تغيب الشمس؟ قال : في السماء ثم ترفع من سماء الى سماء حتى ترفع الى السماء السابعة .. أقول قوله «في السماء» ظاهر لا مريّة فيه انها تغرب في ملتقى الأفقين الارضي والسمائي ، واما «ترفع في سماء الى سماء .. حتى ترفع الى السماء السابعة» انه اما مؤول او مختلق مردود ، وتأويله انه .

نجد الجواب في الآية نفسها : ﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ ..﴾ لا أنها «غربت» فهي ينظر الى منظرها في غروبها دون واقعه «وجدتها ..» بيانا لمنتهى المعمورة الغربية بالمحيط البحري الأطلانطيقي.

فكما أننا نجد الشمس تغرب في الآفاق الصحراوية ، في قلل الجبال او الأتلال او مستوية الأرض إمّا ذا ، كذلك سكان الجزائر لا يجدون غروب الشمس او وطلوعها إلا في الآفاق البحرية.

وكأن ذا القرنين وصل الى نقطة على شاطئ المحيط الاطلسي (بحر الظلمات) حيث يخيل ان اليابسة منتهية عنده ، وكان عند مصب أحد الأنهار حيث تكثر فيه الأعشاب وتتجمع حولها طين حمى : لزج ، فرأى

. (صلى الله عليه وآله وسلم) اقتسم ملتقى الآفاق الارضية السمائية الى سبعة ولماذا؟ لا ندري! ان الشمس تحول حول الأرض ويتراى لها مغارب سبعة وعلّها في الأقاليم السبعة امّ ماذا.

ثم أقول : وما روي ان الشمس تغرب وتطلع بين قرني الشيطان اختلاق ممن يكرهون الصلاة عند طلوع الشمس وعند غروبها ، ولم ترد في بعض رواياتنا الا تقية فقي الكافي عن محمد بن مسلم عن أبي جعفر (عليه السلام) قال : يصلّي على الجنّاة في كل ساعة ، انها ليست بصلاة ركوع ولا سجود وانما تكره الصلاة عند طلوع الشمس وعند غروبها التي فيها الخشوع والركوع والسجود لأنها تغرب بين قرني الشيطان وتطلع بين قرني الشيطان» وتقية الفرار هنا لائحة ، حيث النص الذي يروون ان كان بلفظة الصلاة فيشمل كل صلاة ، وان كان نصا فيما فيها الركوع والسجود لم تك حاجة الى الاستدلال ، ثم الخشوع يعم كل صلاة دون اختصاص بما فيها الركوع والسجود ، ثم نرى نقضا صارما يبحث هذه الحكمة المختلقة او انها تقية ، فيما أخرجه إكمال الدين وتمام النعمة باسناده الى محمد بن جعفر الاسدي قال كان فيما يورد عليّ من الشيخ أبي جعفر محمد بن عثمان العمري في جواب مسائلي الى صاحب الزمان : واماما سالت عنه من الصلاة عند طلوع الشمس وعند غروبها ولئن كان كما يقولون ان الشمس تطلع بين قرني الشيطان وتغيب بين قرني الشيطان فلا شيء أفضل من الصلاة وأرغم أنف الشيطان!.

الشمس تغرب هناك كأنها ﴿عَيْنِ حَمِيَّةٍ﴾ : المحيط الغربي الذي فيه الجزائر «الخالدات» حيث كانت مبدء الطول الجغرافي مسبقا ثم غرقت.

والعين الحمئة قد تعني إضافة الى السوداء حيث الحمأة هي الطين الأسود ، قد تعني الحارة حيث الحمأ هي الحرار المتولدة من الجواهر الحميَّة والمغرب الأقصى في افريقيا الحارة من أحرَّ ما فيها ، فبحره حار كما برّه ، فهي ﴿عَيْنِ حَمِيَّةٍ﴾ في حمأتين! حرارة في سواد وحمرة ، كما الشمس ترى عند غروبها محمّرة.

لا نعرف بالضبط المحدّد ذلك المكان إلّا ما عرّفنا الله ﴿تَغْرُبُ فِي عَيْنِ حَمِيَّةٍ﴾ وكفانا! وإنما القصد القوم الذين عند المغرب الأقصى حيث ظلموا وأتاهم ذو القرنين تأديبا وتقويما : ﴿وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا﴾ (٨٦)؟ وجد عند الشمس في مغربها قوما ، في منتهى اليابسة الغربية ، لا عند الشمس ذاتها! ام عند العين الحمئة فيفيد نفس المعنى.

يجد هناك قوما حمئا عند عين حمأة. أترأه تغاضيا عن أقوام ظالمين بينه وبين مغرب الشمس والأقرب يمنع الأبعد؟ طبيعة رسالة عادلة كملكية كهذه تقتضي وتقضي بعدم التغاضي ، ولكنه كيف؟ لا ندري!

﴿.. فُلْنَا يَا ذَا الْقُرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ (٨٦).

هل القول الخطاب هنا دليل على نبوة للمخاطب؟ كلا! حيث الخطاب أعم من وحي النبوة والإلهام كما في مريم وأم موسى وآدم قبل توبته وقد يجوز انه كان معه نبي يوحى اليه بواسطته كما كان لطالوت بنّي معه!

وترى التزديد التخيير بين التعذيب واتخاذ الحسن ليس تحييرا بين الحسن والقبيح ، لقرن التعذيب باتخاذ الحسن؟

اتخاذ الحسن فيهم هو السماح عما يستحقونه من النكال رجاء الرجوع والتوبة ،
والتعذيب تحقيق النكال ، وكل يتبع ظرفه الصالح ، إذا فالتخير هنالك صالح! تخويلا قياديا
صالحا لسلطة صالحة حسب المصطلحات العادلة الفاضلة.

وترى كلهم كانوا ظالمين يستحقون العذاب؟ وتقسيمهم في الجواب ﴿وَأَمَّا مَنْ ظَلَمَ ..
وَأَمَّا مَنْ آمَنَ ..﴾ يطارده! أم جلّهم والباقون لا يستحقون العذاب؟ فلكل حكمه ولا تخيير!
إنهم جلّهم وليس التخير إلّا فيهم ، فلم يقل «إما أن تعذبهم» وإنما «تعذب» يعني
من يستحق العذاب منهم ﴿وَأَمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ﴾ هم أنفسهم «حسنا».

﴿قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ..﴾ (٨٧) يعني استمرارية الظلم من قبل وحتى لقاء
ذي القرنين دون ان يفارق فيؤمن^(١) فلا مجال له إلّا عذابه ﴿وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ
جَزَاءُ الْحُسْنَى ..﴾ آمن بعد كفره توبة عما سلف فحسن ، ام آمن من قبل واستمر في ايمانه
فأحسن ، ولكل حسب ايمانه وعمله الصالح عدّة وعدة ومدة ﴿جَزَاءُ الْحُسْنَى﴾ : أحسن مما
آمن وعمل صالحا فضلا من ربك عطاء حسابا!.

والتخير بين التعذيب واتخاذ الحسن ليس إلّا في فيمن آمن بعد ظلمه ، وقد يشمل
المستمر على كفره في فرض بعيد ، اللهم إلّا في غير الواجب قتله جوازا في قتله والسماح عنه
، تخيرا عاقلا عادلا دون فوضى وكما في المحاربين والمفسدين في الأرض : ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ
يُحَارِبُونَ اللَّهَ

(١) نور الثقلين ٣ : ٢٩٨ ج ٢١٥ عن امير المؤمنين (عليه السلام) «اما من ظلم ولم يؤمن أقول : يعني لم يؤمن
عند ذي القرنين بعد كفره قبله ، ولم يقل واما الظالم لكيلا يشمل الذي ظلم سابقا ثم تاب عن ظلمه فأمن.

وَرَسُولُهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ..» فالتخير هناك كالتخير هنا راجع الى ما يختاره الحاكم الشرعي وفق مختلف الموازين في مختلف المجرمين دون ان يكون أعمى وفوضى ان يجزى اقل الساعين في الأرض فسادا قتلا ، ثم ينفي أشد المحاربين حبسا!

المعذب هنا يعذب حسب مرسوم الشرعة الإلهية بينا وعرفا : ﴿فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ﴾ ومن ثم نكرا : غير معروف ولا منتظر هنا ﴿ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكَرًا﴾ حيث ظلم دون إفاقة بعد الذكرى ورؤية البأس ، واما التائب عند رؤية البأس فقد لا يعذب هنا إذا كانت توبة صادقة او تحتل ، ثم أمره الى ربه!

فالظرف هنا للظالمين الجلل بمختلف ظلمهم ، وتوبتهم وعدم توبتهم ، هو يقتضي تخيير الحاكم فيهم كما اختار ذو القرنين وما أحسنه ، وحسب مرسوم الشرعة العادلة والفاضلة الإلهية : إعلانا في هذه الإذاعة القرآنية أن للظالمين المعتدين عذابهم عاجلا ، وآجلا يزيد نكرا ، ولغير المعتدين منهم إمهال دون إعجال رجاء الرجوع الى عدلهم ، وللتائبين الآئبين قول يسردون عسر ﴿وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ دون تعذيب ولا تأنيب في قوله لاذعة ، فالإسلام يجب ما قبله! وانما قول يسر حيث تاب عما سلف : ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ﴾ (٨ : ٣٨) ثم قول يسر فيما يتوجب عليه تداركا لما قد سلف ، والأمر في «من إمرنا» شرعي للحاكم المتمكن ، إشارة الى أنني لست ممن يتذرع الحكم للقول العسر والتكليف العسر ، وإنما يسر في يسر.

ثم مقابلة «من ظلم» ب ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ يوسع نطاق الظلم الى كفر عقائدي وعملي لازما او متعديا ، والى فسق عملي لمن آمن على مراتبهما بأحكامهما الجزائية.

وما هو ﴿جَزَاءُ الْحَسَنَى﴾ للذين آمنوا وعملوا الصالحات؟ انه جزاء أحسن مما عمل وما يجزى في الحياة الدنيا ، فهناك تصرّيحة بعذاب الدنيا لمن ظلم «فنعذبه» لأنه ثابت حكما على أية حال وعملا لمن مكن في الأرض ، وهنا تلميح للجزاء الحسن وتصرّيح بالأحسن حيث الثواب يوم الدنيا غير ثابت ولا موعود إلّا أحيانا!.

ولماذا «جزاء» منصوبا «لان الحسنى مبتدء ل «له» وقدم الخبر للحصر «له لا لسواه» : فله الحسنى جزاء ، والنصب على التمييز ، دون حاجة الى تكلفات أدبية اخرى لا يرضاها أدب القرآن! : فله . فقط . من حيث الجزاء المثوبة الحسنى أحسن مما قدم ويستحقه في الحياة الدنيا ^(١).

وهذه طريقة مثلي ومعاملة حسنة مع فريقى الظلم والايمان ، تخيرا للحاكم المبسوط اليد بالتي هي أحسن في «إما .. وإما» دون تخير فوضى وأعمى ، وإنما عدل صارم عقابا لزاما ، وفضل كارم ثوابا كراما!

إنه ليس الحكم والسلطة الإلهية ظلما وزورا وغرورا ما وجدت لها سبيلا ، وإنما هي رحمة على المجموعة وقضيتها القضاء على المعتدين ، فإمها لهم اعتداء على المظلومين ، فهي رحمة ما وجدت لها سبيلا وحتى للذين ظلموا إذا كان السماح عنهم لا يضر بالمجموعة وان لم تنفعهم توبة ، فضلا عن يفيق ويتوب ، دستور إصلاحى بكل معانيه ، يتبنى الصلاح بكل مبادئه!

نرى القمة الرفيعة من هذا الدستور في الشريعة الإسلامية ، وتدلنا سيرة الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم) والأئمة من آل الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم) على مدى هذه الأخلاق الفاضلة ومن نماذجها ﴿ادْفَعْ

(١) فالحسنى وصف لمقدر المثوبة وجزاء تمييز عن سائر ما له في الأخرى ، وتقديم جزاء لافادة تبيين أكثر من العادة ، وما أحسنه لفظا ومعنى! ..

بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ ﴿٢٣ : ٩٦﴾ فقد يدفع السيء بالسماح ، أم إذا لزم الأمر لدفع ظلمه بتأديب وتأنيب كما يصلحه او يحجز عن ظلمه ، وأخيرا كآخر الدواء الكي ، القتل ، إذا كانت حياته على أية حال ظلما على المجموعة ، فكل ذلك الدفع ليس إلا بالتي هي أحسن ، وكصورة اولى ﴿.. فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (٤١ : ٤)!

ان التعذيب في ﴿إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ﴾ يشمل مراتب النكال هنا اعتداء بالمثل او دون ذلك ، من ضرب الى قتل وبينهما متوسطات ، وكما أن حسن الجزاء وحسنه في الاولى والاخرى له درجات حسب الدرجات ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾.

وبصيغة اخرى إن تحقيق ذلك التخير في مراتب التعذيب وحسن الجزاء هو يمثل ﴿وَأِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ فان تعذيب الظالمين إحسان بالمجموعة وحتى بالنسبة للظالمين رجاء رجوعهم ام . لأقل تقدير . تقليلاً لظلمهم. فلو ظلوا طويلا لأضلوا وظلموا كثيرا! كما ومن اتخاذ الحسن فيهم إرشادهم عن غيهم ومساعدتهم عن عيهم ولكي يجيدوا الايمان وعمل الصالحات ويجيدوا عن الطالحات.

﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (٨٩) حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ يَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سَبِيلًا كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾ (٩١).

خطوة ثانية في مثلث الرحلة كأنها أطولها فانها من أقصى المغرب الى أقصى المشرق طوال اليابسة الأرضية مهما كانت بينهما بحار وأتجار! و «ثم» هنا تلمح للتراخي بين وصوله الى أقصى المغرب ومغادرته عنها ، وهذه طبيعة الحال في سفرة اصلاحية كهذه ، وفي قوم لم تسبق لهم سابقة إصلاح كهذه السابعة اللائقة ، هذا وإن كنا لا ندري زمن ذلك المكوث اللهم إلا لمحة ثمة من «ثم».

﴿ثُمَّ اتَّبَعَ سَبَبًا﴾ وتنكير «سببا» يدلنا انه غير السبب الاول شخصا ، مهما كان من جنسه إمّا ذا؟ فلا يهمننا شخص السبب ولا جنسه ونوعه ، وإنما «سببا» إليها لم يحصل إلا بما آتاه الله.

اتبعه لحوقا سريعا ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ﴾ مطلعها من أقصى الآفاق الشرقية في عين الرائي ، وكما في مغربها لاقصاه ، في يابسة المعمورة بجانب البحر المحيط ، فما قيل عن مغرب الشمس يقال عن مطلعها دون اختلاف بينهما إلا فارق المغرب عن المشرق وعين حمئة.

﴿.. وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ يَجْعَلْ لَهُم مِّنْ دُونِهَا سِتْرًا﴾ لا ستر خلقيا من مرتفعات غابات وجبال وأشجار واتلال ، ولا ستر مصطنعا من بيوت ^(١) او خيام إمّا ذا فتتكبر «سترا» يستغرق نفى الستر أيا كان وحتى الملابس ^(٢) فانها ستر عن الحر والقر! ومهما كان جعله إلهيا دون وسيط من سكان الشرق الأقصى حينذاك ، كالأول ، ام بوسيط كالثاني ، فهما على أية حال راجعان إلى الله!

إذا فهم قوم بدائيون ومن أبداهم ، كانوا يسكنون في أرض مستوية

(١) نور الثقلين ٣ : ٣٠٧ ج ٢٢٢ في تفسير العياشي عن أبي بصير عن أبي جعفر عليه السلام) في قول الله عز وجل ﴿لَمْ يَجْعَلْ لَهُم مِّنْ دُونِهَا سِتْرًا كَذَلِكَ..﴾ قال : لم يعلموا صنعة البيوت

وفي الدر المنثور ٤ : ٢٤٩ . اخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وابو الشيخ في العظمة عن ابن جريح في قوله : ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ﴾ الآية قال : حدثت عن الحسن عن سمرة بن جندب قال قال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ﴿لَمْ يَجْعَلْ لَهُم مِّنْ دُونِهَا سِتْرًا﴾ انها لم يبن فيها بناء قط كانوا إذا طلعت الشمس دخلوا أسرابا لهم حتى نزول الشمس أقول : وقد لا يلائم هذا الحديث استغراق النفي في «سترا» حيث الأسراب ستر كما البيوت.

(٢) المصدر في تفسير القمي في الآية قال «لم يعلموا صنعة الثياب» أقول : تشمل الخيام.

مكشوفة لا تظلمهم إلا شمسهم ولا تقلهم إلا أرضهم ، دون اي ظلّ او قلّ سواهما! ف «قد أحرقتهم الشمس وغيّرت أجسادهم وألوانهم حتى صيرتهم كالظلمة» ^(١).

فهل كانوا كلهم مؤمنين؟ وهو في العادة مستحيل وهذه البدائة القاحلة البعيدة عن الدعوات الإلهية ام وسواها! ثم ولماذا لم يحدث لنا بحديثهم البارع او حديثه لهم! ام كانوا كلهم فاسقين؟ فأحرى بهذا المصلح إصلاحا لهم او تعذيبا ولم يلمح هنا بشيء في هذا البين!

ام كالقوم الاول : منهم مؤمنون ومنهم دون ذلك؟ فلما ذا لم يكرر لهم ما حصل لهؤلاء ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى﴾!

وإذا هم خارجون عن هذا المثلث من المكلفين فمن هم إذا؟ ولماذا يتحمل هذا المصلح العالمي الكبير هذه السفرة البعيدة المدى ، وهي ابعد من الاولى والاخرى ، دون انتاج له ولهم؟!

يبدو كما تلمّحناه أنهم من أبدى البدائيين ، كانوا ضالّالا غير عارفين ، لا مؤمنين ولا فاسقين ، ومهما كانوا هم من المكلفين ، فهم ممن لا يهتدون سبيلا ، منقطعين عن وحي الرسالات أم بلهاء لا يعرفونها ، إذا فهم مرجون لأمر الله في مختلف الدرجات تكليفا وجزاء :

١ . ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ (١٠٠) . ٢ . ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُّوا عَلَى النَّفَاقِ ..﴾ (١٠١) .

٣ . ﴿وَأَخْرُوزَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ ..﴾ (١٠٢) ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ..﴾

فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (١٠٥) فهؤلاء الثلاث من قمة الايمان ودرك الكفر والمتوسط بينهما ، له ما أصلح وعليه ما أطلع ، ومن ثم رابع

(١) من حديث الأصبع بن نباتة عن امير المؤمنين (عليه السلام).

﴿وَأَخْرُونَ مُرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (٩ : ١٠٦).

وقد يكون القوم في أقصى المشرق حينذاك من أبدى البدائيين من «آخرين» فليس
لذي القرنين كثير شغل معهم مهما أرشدهم كما يسطعون ، كما قد يلوح له ﴿وَقَدْ
أَحْطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾ وكما يلوح لغاية أخرى من هذه السفارة أن يحيط خبرا بأدنى المكلفين
في المعمورة.

«أحطنا» هنا تضرب إلى أعماق الماضي لحد الحال والاستقبال في ذي القرنين على
أية حال ، ولكن الخبر المحاط لرنا قد يخبرنا به وقد يسكت عنه دون ضنة ، وانما بحكمة كما
هنا ، وعلنا نستعمل نحن ما لدينا من طاقات واستنباطات كالذي قلنا.

﴿ثُمَّ اتَّبَعَ سَبَبًا﴾ (٩٢) **حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ
يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ (٩٣) قَالُوا يَا ذَا الْقُرْنَيْنِ.﴾ (٩٤)**

خطوة الثالثة هي الأخيرة من هذه الرحلة العالمية ، يتبع فيها سببا ثالثا نقول فيه مثل
الذي قلناه في الثانية ، فهي غير الاولى والثانية ، وعلله من نوعه لمكان التنكير «سببا» :
﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ﴾ سفره بسببه من أقصى المشرق الى ﴿بَيْنَ السَّدَّيْنِ﴾ فأين
هو؟ لحد الآن لا ندره! وأما من هم ﴿قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾؟ وإذا لا يفقهون
كيف ﴿قَالُوا يَا ذَا الْقُرْنَيْنِ ..؟﴾!

نحن لا نعرفهم ولا مكانهم إلا ما عرّفه القرآن أنه ﴿بَيْنَ السَّدَّيْنِ﴾ وهو طبعاً بين
أقصى الشرق والغرب شمالاً او جنوباً إِمَّا ذَا؟ فانه قطعاً. ليس مشرق الشمس او مغربها
حيث بلغهما قبل هذه.

ثم «السدين» هما ما يسدان ويحجزان ، أهما صناعيان؟ وانما

الصناعي لغرض صد الماء دفعا لضره او انتفاعا من جمعه! والفتحة ناقضة لهذا القصد ، او صد الهجمات عمن وراء السدين؟ وهذان السدان لم يكونا صدين لأيّ هاجم ، حيث الفتحة بينهما ممر لكل مارّ ، وقد طلبوا إليه أن يجعل بينهم وبين المفسدين سدا! ثم وهم على سذاجتهم لحد لا يكادون يفقهون قولاً لم يكونوا ليفقهوا صناعة سدّ وقد فقهها المهندسون في دور التقدم والرقي ، ثم ولم يكملوا الصد في السدين طمّا للفتحة بينهما؟!

إذا فهما حاجزان طبيعيان لا يظهر عليهما ولا ينقبان ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾ وان كان يختص هنا بالردم ، ولكن السدين ان لم يكونا في هذا الاختصاص كالردم ، كان جعل الردم دون فائدة!

إذا فهما جبلان ^(١) صلبان شاهقان ، لا ينقصهما حجزا عن الهاجمين إلّا ردم بينهما وقد طلبوه إليه! وقد يلمح لذلك ﴿حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ﴾ : الجانبين الصلبين. و ﴿لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ (٩٣) لا يعني إلّا النفي المعمق لفقه القول ، لا نفي القول ، فرب قائل لا يفقه ما يقال له ولكنه يفقه ما يقول! او يكاد يفقه قولاً.

ثم «قولا» قد يعني معنى صالحا من قوله ، لا لغة ، فإنهم . لأقل تقدير . يفقهون لغتهم وقد تكلموا بها ﴿قَالُوا يَا ذَا الْقُرْنَيْنِ ..﴾ ولا يرجى من أهل كلّ لغة إلّا تفهم لغته دون اللغات الاخرى.

فعلّهم كانوا في بساطتهم وسذاجتهم لحدّ لا يفقهون قول اي قائل سواهم اللهم إلّا من هو في مستواهم ، وذو القرنين كان يتحدث مع أهل

(١) في حديث الأصبع عن امير المؤمنين (عليه السلام) ﴿قَالُوا يَا ذَا الْقُرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ﴾ خلف هذين الجبلين وهم يفسدون في الأرض.

كل لغة بلغتهم بسبب إلهي آتاه الله من كل شيء ومنه شيء اللغة ، ولكنهم ﴿لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ فقد لا يفقه الإنسان قولاً ولكنه يفقه لاستعداده ان يفقه بمحاولة ، وقد لا يستعد التفقه ولكنه يكاد أن يستعد يفقه ، ولكن هؤلاء كانوا في البساطة وخفة الفهم لحد ﴿لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ أيّا كان هذا القول إلّا ممن هو في مستواهم ، ويردد عليهم مفاهيمهم دون ان يخطوها الى سواها ، وذو القرنين يريد ليحدثهم بلغتهم وبكل بساطة ، إلّا أنهم «لا يكادون» حيث الفقه هو التوصل بعلم حاضر الى علم غائب ، وهم غيّب عن تفهم اي غائب ف «قولا» يعني قولاً يحتاج الى تأمل وتفقه.

هنا ييأس هذا المصلح العالمي ان يفيدهم فقها ويزيدهم علماً ، فهل يذرهم بعد ووعثاء السفر دونما افادة؟ كلاً . إنه أصغى إليهم ما هي متطلبتهم ف ﴿قَالُوا يَا ذَا الْقُرْنَيْنِ ..﴾! فهم مهما لا يفقهون قولاً فقد يفقهون الخطر الحادق عليهم ليل نهار من ﴿يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ﴾ فلما رأوه صالحاً قويا مصلحاً تطلّبوا إليه صد المفسدين أن يجعل سداً.

﴿قَالُوا يَا ذَا الْقُرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ (٩٤) :

إنهم على بساطتهم يرون فيه فاتحاً عدلاً قويا صارماً يتوسمون فيه الصلاح والإصلاح وهم مستضعفون تحت وطأة الإفساد الدائب من وراء السدين من ﴿يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ﴾ حيث كانوا يهاجمونهم من وراء السدين فيعيشون في أرضهم فساداً وهم ضعاف عن مقابلتهم ، إفساداً في النسل والزرع ^(١) أما ذا؟

(١) في حديث الأصبغ عن امير المؤمنين (عليه السلام) .. إذا كان ابا ن زروعنا وثمارنا خرجوا علينا من هذين السدين فرعوا من ثمارنا وزروعنا حتى لا يبقون منها شيئاً ...».

﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا﴾؟ ذات دلالتين على التماسهم منه ١. ﴿أَنْ نَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ ٢. هل نجعل سدا. وإذا فهل نجعل لك خرجا : اجرا نخرجه عما نخرجه من مال او قوة؟ دون زيادة عنهما ، والأجر أعم من الخرج ، فقد يتأجر أكثر مما يخرج اعتبارا بلباقة الرأي ولباقة صاحب الرأي ، وهو عدل ما لم يححف ، او يسوي بين خرجه وأجره وهو فضل إذ لم يأخذ على تخصصه شيئا ، ام لا يأخذ خرجا وإنما يساعد طالب العمل العاجز بنفسه فيه ، يساعده في طلبه ، وهو فضل حيث اشتغل دون عوض ، وتفضل على صاحب العمل حيث استعمله كما يستطع دون بطالة ، وهكذا يفعل ذو القرنين ، كأفضل ما يمكن ان يقدمه مصلح قوي حكيم لمستضعفين مظلومين ، يتعاون معهم في صالحهم ، دون أن يأخذ أجرا أو خرجا إلا ان يستعملهم ، لما يطلبون إعانة بقوة ومال هما خرج للردم ودون أن يكون له شيء إلا أجر من ربه.

فذو القرنين يبلغ بين السدين ، ويطلب منه ان يجعل بينهم وبين يأجوج ومأجوج سدا ، ان يصد بين السدين تخلصا لهم عن افسادهم في أرضهم ، مما يبين كونهم مستضعفين وغير ظالمين ، وإلا تطلبوا إليه صد الإفساد فيما بينهم كما بينهم وبين المفسدين وراء السدين ، وبطبيعة الحال هؤلاء البله الذين لا يكادون يفقهون قولاً لا يسطعون الإفساد ، أم إذا استطاعوه لم يكونوا ليفسدوا فيما بينهم ، يدل على كل ذلك تطلبهم إلى هذا المصلح العظيم ان يجعل سدا هو صدّ عن الإفساد في أرضهم!

من هذه الدعوة على بساطتها ومن تلکم الاجابة الخارقة في ذلك التعاون الصارم ندرس مدى وجوب صد الإفساد من اي كان وأيا كان وأيان! تكريسا لكافة الطاقات البشرية مع التوصل بامدادات إلهية ، خروجا عن الاستضعاف وغيث الفساد ، دون اي مبرر لأية جماعة مستضعفة في تصابريهم على الفساد وتخاذلهم أمام المفسدين ، فصدا صدا أو

سدا سدا! بعد ما كلت كل المحاولات للقضاء على المفسدين او على فسادهم ام الهجرة عنهم إمّا ذّا؟ فلا يتبرر المستضعف تحت نير الإفساد من المستكبرين قوله ﴿كُنَّا مُسْتَضْعِفِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ حيث يقال لهم : ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾ .. اللهم ﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعِفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ (٤ : ٩٨) فما دام هنا سبيل الى التخلص اي سبيل ، كائنا او متمكنا ، فلا يعذر المستضعف ، وحتى إذا لم يستطع حيلة ولا يهتدي سبيلا ﴿فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَغْفُو عَنْهُمْ﴾ .. ترجيا دون تحتم!

إذ فيهم من كانت له الهجرة او أية مقاطعة فتصابر على تركها بنير الذل حتى زالت استطاعته وحيلته ..! إلا من انتشأ وظل بين المستكبرين قصورا دون تقصير وقليل ما هم؟
فيا له تكليفا لزاما ما أشمله : مجانية عوامل الفساد قدر المستطاع ، دون سماح لأي همول او خمول ، سلبا لكل فساد ، ومن ثم محاولة دوافع الصلاح والإصلاح فرضا لزاما قدر المستطاع دون سماح لاي همول او خمول!

ولنكن ثالث ثلاثة من المستضعفين في حياة الجهاد الدموي الدائب .. والى رابع أضلاع الحياة : «ورثة الأرض» لا مستكبرين ولا مستضعفين ، وانما مؤمنين أقوياء في دولة مباركة عالمية زمن المهدي من آل محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين!

«ونقول لا قوام يظهرون الزهد ويدعون الناس أن يكونوا معهم على مثل الذي هم عليه من التقشف : اخبروني أين أنتم من سليمان بن داود ثم ذو القرنين (عليهما السلام) ، عبد أحب الله فأحبه الله ، طوى له الأسباب ، وملّكه مشارق الأرض ومغاربها ، وكان يقول الحق ويعمل به ثم

لم نجد أحدا عاب عليه! ^(١).

﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ (٩٥) **آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغَ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ (٩٦) :**

﴿مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي﴾ أن مكّني في الأرض وآتاني من كل شيء سبباً . إنه «خير» من خرجكم .. فأنا أستعين بسبب من ربي علماً وقوة ، ثم ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾ بشرية ، فليست القوة الخارقة الإلهية لتبطل أو تعطل قوة بشرية ، فمهما كان بالإمكان جعل الردم بسبب الهي صارم دون تسبب الى قوة بشرية ، ولكنه عطالة عارمة لهذه القوة ، فانما الخارقة . للعادة فيما تقصر عنه العادة قدره ، ام تثبتنا لنبوة إلهية ليست لذي القرنين ، ام لحجة إلهية آية باهرة على رحمته .

وهذه سنة الله الدائمة ، عدم التغاضي عن الحول والقوة الخلقية ، فانه بطالة ، وأحيانا فعل خارقة إلهية يساند الفعل الخلقية ، وكما في جعل ذلك الردم .

﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾ قدر المستطاع من مال أو حال ، ألا جعل لكم سدا كيفما كان؟ لا! بل «ردما» يسد الثلمة ، فأيسر طريقة وأقواها هي ردم الممر بين السدين ، ليردم الماردين المفسدين ، فلا يستطيعوا ان يظهره لارتفاعه ، ولا ان ينقبوه لحدّته ، فكّم من سد يظهر عليه وهو حديد ، وكّم من سدّ رفيع ينقب لأنه وهيد غير حديد ، ولكنه ردم يسد الثلمة نقبا وارتفاعا! .

(١) نور الثقلين ٣ : ٣٠٨ ج ٢٣٤ في الكافي علي بن ابراهيم عن أبيه عن هارون بن مسلم عن مسعدة بن صدقة عن أبي عبد الله (عليه السلام) حديث يقول فيه (عليه السلام) لا قوام

لم يكن هنالك طريقة أخرى لصدهم عن الإفساد إلا بسدهم ردما ، فهل يقتل او يعذب المفسدين ثم يتركهم؟ فمن ذا يضمن عدم عودة الباقيين إلى افسادهم؟ وما ذا يضمن من لا يسطع منهم الإفساد او هو تاركه الآن ألا يفسد بعد الآن؟ او يبيدهم كلهم؟ فقصاصا قبل الجناية لبعضهم! وعلّ في أنسال مفسديهم صالحين او مصلحين : فلا طريقة إذا أمثل من صدهم بسدهم! ﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ (٩٨).

﴿آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ﴾ والزبرة واحدتها وهي القطعة العظيمة ، فقد طلب إليهم ان يأتوه قطعاً من الحديد دون تحديد ﴿حَتَّىٰ إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ﴾ حيث ملأ بينهما من زبر الحديد لحد ساوى بين الصدفين : الجانبين الصليبين من السدين ، وهي ركامة حديدية بين الحاجزين فأصبحا كأنهما صدفتان تغلقان ذلك الكوم الممر حيث الركام سامت القمتين ، ومن لطيف الصدف تساوي الصدفين كما تدل عليه «ساوى».

وكيف يلحم بين زبر الحديد حتى تصبح كأنها زبرة واحدة كجبل حديدي بين الجبلين؟ هنالك نفخ وقطر يلحمان زبر الحديد كأقوى تلحيم! ﴿قَالَ انْفُخُوا﴾ بمنافخ فنفخوا ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ﴾ المنفوخ «نارا» فضمير المفرد رغم جمعية زبر الحديد يلمح الى حدة الالتحام بينهما لحد الوحدة أو كأنها زبرة واحدة ، ومن ثم «نارا» لا نيران ، لمحة مليحة الى وحدة نارية بعد وحدة الالتحام وحدته ، نار واحدة في شدة الحرارة والالتحام.

وهل يكتفي بذلك ، وعلّ بين هذه الوحدة النارية فرجا؟ كلاً ، إنه القطر : النحاس المذاب ، يفرغ على هذه النار الزبرة الحديدية فيكتمل أمر السد الردم!

﴿قَالَ أَتُونِي أَفْرَغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ نحاسا مذابا يتخلل الحديد النار ويقويه أقوى من خالص الحديد ، قطر على حديد ونار على نار.

وهذا الخلط كان من الأسباب القوية لتحكيم الردم ، وقد استخدمت هذه الطريقة حديثا في تقوية كل من النحاس والحديد فكل بمفرده أضعف من هكذا خلط يجعلهما كالفلاذ!

كما وان ذلك النفخ وزبر الحديد ومذاب النحاس بعيد عن قوم ﴿لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ حيث البداءة والسذاجة في أبسط مراحلها جعلت منهم بلها لا يعرفون شيئا ، فكيف لهم بإتيان زبر الحديد ، والنفخ فيه لحد جعله نارا والنحاس المذاب ، فلم يكن لهم شغل في هذه الثلاث إلا إتيان زبر الحديد «أتوني...» دون استخراجها من معدنها ، او نفخ فيها دون المنفخ ﴿قَالَ انْفُخُوا﴾ ثم إيتاء ﴿أَتُونِي أَفْرَغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ حيث إفراغ القطر من فعله دونهم ، وإنما هم عمال في هذه الثلاث : إيتاء ونفخ وإيتاء ، وأما تحصيل زبر الحديد والمنفخ والنحاس وإذا بته فكل ذلك مما آتاه الله من كل شيء سببا!

فهناك معدن للحديد دهم ذو القرنين على استخراجه ، ومنفخ دل على اصطناعه إقما ذا ، ومعدن للقطر ثم مذيب ، كل ذلك بأسباب خارقة إلهية وهم عمال يؤمرون لا مصطنعون ومخترعون!

﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾ (٩٧) فقد صدهم هذا السد ، إذ حاولوا أن يظهره فما استطاعوا ، وحاولوا له نقبا لينفذوه فما استطاعوا ، فاستراح هؤلاء المستضعفون عن إفسادهم وكأنهم سألوه من اين هذه الكرامات الخارقة ف :

﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ (٩٨)

ذلك الملك العدل الرؤف يحتاج الأرض مشارقها ومغاربها ممكنا متمكنا ميسرا له من كل الأسباب ، ولا تأخذه العزة بالإثم والكبرياء بالخيلاء ، ولا يطغى تبطرا ، ولا يبغى من القدرة مغنما ، ولا يستغل السلطة استعبادا ، وإنما ينشر عدلا ورحمة ، ويأتي بخارقة تلو الأخرى ، وعند انتهاء هذه الحلقة ﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي﴾ يسند كل ما أتى به الى رحمة ربه دون سناد إلى نفسه إلا كواسطة في هذه وتلك الخارقة.

ولكيلا يخلد الى خلد خلود ردمه الفولاذي يدكه بوعد ربه : ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي﴾ تدميرا بعد تعميره ﴿جَعَلَهُ دَكَّاءَ﴾ : لينة سهلة ، بعد ما كانت فولاذية مرتفعة صلبة ﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ في دكها.

ترى وما هو ذلك الوعد؟ هل هو الوعد العام بدكداك الأرض وما عليها وبضمنها ذلك الردم : ﴿إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا﴾ ، ﴿وُئِسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا﴾؟ ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾ (٩٩) وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿ (١٠٠)

تدلنا على تماوج الأحياء بعد دكداك الردم ، ثم بعدها نفخ الصور وجمع الجمع! ثم وآية الأنبياء قد تناصرها أن وعد الدكداك هذا قبل القيامة الكبرى : ﴿وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ، حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ. وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ (٢١ : ٩٧).

ففتح يأجوج ومأجوج بدك الردم ، والدك الفتح هما في الآيتين قبل جمع الجمع ، فهناك ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾ وهنا أدل منها واقرب ﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ﴾ فجمع الجمع والوعد الحق هما بعد وعد الرب ودك الردم.

وعد أوّل خاص يشمل دك الردم ، ففتح يأجوج ومأجوج كشرط من أشرط الساعة الوعد العام.

ثم الوعد الحق في قيامتي التدمير والتعمير هو مقترب . لا واقع . عند وعد الرب بهدم الردم وفتحهم وتركهم يومئذ يموج بعضهم في بعض وهم من كل حذب ينسلون ، ف ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾ الرامي إلى نفخة الإحياء ليس إلّا بعد نفخة الإماتة ، وهي بعد اقتراب الساعة بأشرطها التي منها : ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ ۖ﴾ !

وترى من «هم» في ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ ۖ﴾ ؟ أهم يأجوج ومأجوج؟ وهم كان بعضهم مائجا في بعض قبل دكّاء الردم!

ام هم المجموعة منهم والقوم الذين كانوا لا يكادون يفقهون قولا ، مستضعفين ومستكبرين ، إذ انفتح الردم ففتحوا كما كانوا قبل سد الردم ، فأصبحوا كأمواج البحر الملتطم يتلاطمون في تماوج عارم وتহারج صارم ، وهو الصحيح!

او هم مجموعة المكلفين من الجنة والناس أجمعين ، يتركهم يومئذ يموج بعضهم في بعض ، في هرج ومرج وفساد دائم وظلم عارم ، وعله الأصح!

ان يأجوج ومأجوج . أيا كانوا . إنهم بعد ذلك الفتح من كل حذب ينسلون ، ولأن «حذب» هو المرتفع ، فكلّ حذب يعم كل مرتفع يمكن أن يرتفع : من مرتفعات بحرية وبرية او جوية ، محلّقين على كل محلق ، دون اختصاص بحذب الردم ولا حذب له بعد دكّه!.

وان «ينسلون» هو : ينفصلون مسرعين ، ويلدون ، ف ﴿هُمْ مِنْ كُلِّ حَذَبٍ يَنْسِلُونَ﴾ قد يعني الهرج والمرج العالمي من قبيل يأجوج ومأجوج ، مسيطرين على كل مرتفع ، مسرعين في الانفصال عنه الى الناس

المستضعفين ، ناسلين ولدا به يكثرون ، وعند ذلك الطامة الوسطى : ان تملأ الأرض ظلما وجورا نظرة ان يملأها الله بعده قسطا وعدلا بالقائم المهدي عجل الله تعالى فرجه وسهل مخرجه.

ولان «الموجان» من صفات الماء الكثير ، ف «موج بعضهم في بعض» توحى بشدة اختلافهم ، ودخول بعضهم في بعض لكثرة اضدادهم ، تشبيها بموج البحر المتلاطم ، والتفاف الدبا المتعاضل ، تماوج مختلف المياه عذبا ومالحا ومرا أجاجا. وهكذا تكون الفتنة العالمية حيث تملأ الأرض ظلما وجورا ، فلا يبقى موضع قدم إلا وفيه هرج ومرج!

اين ردم ذي القرنين؟

لان ذلك الردم بدكه وفتح يأجوج ومأجوج هما شرط من أشرار الساعة : ﴿افْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ...﴾ فلنحاول في الحصول على معرفة عنها قدر المستطاع على ضوء القرآن ، وما يلائمه او يثبت من السنة والتأريخ الجغرافي وسواه.

فهل إن ذلك الردم هو جدار الصين؟ وليس سدّا ولا ردما! وليس حديديا وذلك الردم حديد بقطر! وليس بين جبلين ، بل بين سهول وجبال عدة والردم بين جبلين! وقد بناه ذو القرنين وجدار الصين بناه «شين هوانك تي» في طول ألف كيلو مترا وعرض تسعة امتار وارتفاع خمسة عشر مترا بالأحجار ، وهو قاطن الصين دون سفر إليه لبناء جداره وذلك بنى ردمه في سفرة بعيدة.

ثم وبناء سد في حجم ١٣٥٠٠٠٠٠٠٠ مترا بحاجة الى ملايين الأطنان من خليط القطر والحديد ، فأين سد من جدار وبان من بان؟

فهل هو بعد سد باب الحديد في عمالة بلخ وراء جيحون بمقربة من مدينة ترمذ كما جاء في بعض المؤلفات ^(١)؟ ولم يتضح لنا بعد وجود هجمات تصدّ بذلك السد وهو خلاف اسمه ليس فيه حديد وقد بناه كسرى نوشروان.

ام سد ثان في مضيق جبال قفقاز الممتدة من بحر الخزر الى البحر الأسود ، المسمى بمضيق داريال ^(٢) بين بلدة تفليس وولادي كيوكز.

وهذا السد المسمى باللغة المحلية «دمير قاثو» اي : باب الحديد : يقع في ذلك المضيق بين جبلين شاهقين يمتدان من جانبيه ، وهو الفتحة الوحيدة الرابطة بين جانبي الجنوبي والشمالي مع ما ينضم إليها ، من بحر الخزر والبحر الأسود ، حاجز طبيعي بطول ألف من الكيلومترات يحجز جنوب آسيا من شمالها.

وكان يهجم في تلك الأعصار أقوام شريرة من قاطني الشمال الشرقي من آسيا من مضيق جبال قفقاز الى ما يواليها من الجنوب ، فيغيرون على ما دونها من أرمينستان ثم ايران حتى كلدة والآشور ، كما هجموا حوالي المائة السابعة قبل الميلاد فعمموا البلاد قتلا وسبيا ونهباً حتى بلغوا نينوى

(١) في مجلة المقتطف المصري ١٨٨٨ كما نقله في الجواهر انه اتضح لنا من المصنفات العربية وجود سد وراء جيحون في عمالة بلخ واسمه سد باب الحديد بمقربة من مدينة ترمذ وقد اجتازه تيمور لنگ بجيشه ودعا مؤرخه شرف الدين اسم المحل «خلوجة» ومر به ايضا شاه روح وكان في خدمته ومن بطانته الالماني : سيلد برجر . وذكر السد في كتابه وذلك في أوائل القرن الخامس عشر وذكره الاسباني : كلما فيجو في رحلته سنة ١٤٠٣ وكان رسولا من ملك كستيل (قشتاله) بالأندلس الى : تيمورلنك . قال : ان سد مدينة باب الحديد على الطريق الموصل بين سمرقند والهند.

(٢) لعله من اصل داربول بمعنى المضيق بالتركية ويسمى باللغة المحلية «دمير قايو» اي : باب الحديد.

عاصمة الآشور وذلك في عهد كورش.

ويذكر المؤرخون في كهردوت اليوناني سير كورش الى شمالي ايران لإخماد نائرة الفتن المشتعلة هناك ، وكأنه هو باني ذلك الردم في هذا المضيق ، وهو الردم الوحيد الذي بني بالحديد بين جبلين ، ويذكره يوسف اليهودي المؤرخ عند ذكر رحلته الى شمالي قفقاز ^(١) وبينه وبين كسرى باني سد باب الحديد قرون!

ثم هناك نهر بالقرب منه يسمى «سايروس» وهو اسم كورش عند الغربيين ^(٢). ولأنه الردم الوحيد الذي نعرفه حتى الآن فعله هو الذي بناه ذو القرنين ، او سوف يكتشف ردمه ، لا نتأكد الآن شيئا ، والظاهر لحد الآن أنه «باب الحديد» هذا ، حيث يوافق الردم اسما ومسمى وموقعا جغرافيا ، وهو الوحيد فيما نعرفه! ثم ولا غرض عقلائيا ولا قوة عادية ولا موقع جغرافيا في بناء ردم فولاذي إلا كما يقصه القرآن ، وإذ لا نجد غير «دمير قاثو» في نفس الموقع والهدف والقوة فليكن هو الردم المذكور في القرآن والله اعلم ^(٣)

(١) الدر المنثور ٤ : ٢٥٠ . اخرج ابن المنذر عن علي بن أبي طالب (عليه السلام) انه سئل عن الترك فقال : هم سيارة ليس لهم اصل هم من يأجوج ومأجوج لكنهم خرجوا يغيرون على الناس فجاء ذو القرنين فسد بينهم وبين قومهم فذهبوا سيارة في الأرض.

(٢) هذا التاريخ نقله عن الميزان ج ١٦ ص ٣٩٤ والتحليل والمقايضة منا.

(٣) الدر المنثور ٤ : ٢٥٠ . اخرج ابن جرير وابن مردويه عن أبي بكرة النسفي ان رجلا قال : يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)! قد رأيت سد يأجوج : قال : (صلى الله عليه وآله وسلم) : انعتة لي . قال : كالبرد الحجر طريقة سوداء وطريقة حمراء . قال : (صلى الله عليه وآله وسلم) قد رأيته.

ومن هم يأجوج ومأجوج؟

لقد كثير القيل والقال حولهما ، ما يحمل تناقضات من أسطورات تدهش العقول وتوحش الحقول ، ولأن فتح يأجوج ومأجوج من أشراط الساعة كما في الكتاب والسنة ^(١) فعلينا النقب والتنقيب الكثير حول «من هما

(١) نور الثقلين ٣ : ٣٠٩ ج ٢٣٩ في كتاب الخصال عن أبي الطفيل عامر بن واثلة عن حذيفة بن أسيد الغفاري قال : كنا جلوسا في المدينة في ظل حائط قال : وكان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في غرفة فاطلع إلينا فقال : فيم أنتم؟ قلنا : نتحدث . قال : عماذا؟ قلنا عن الساعة . فقال : انكم لا ترون الساعة حتى تروا قبلها عشر آيات : طلوع الشمس من مغربها والدجال ودابة الأرض وثلاثة خسوف يكون في الأرض : خسف بالمشرق وخسف بالمغرب وخسف بجزيرة العرب وخروج عيسى بن مريم وأجوج ومأجوج ويكون في آخر الزمان نار تخرج من اليمن من فعر الأرض لا تدع خلفها أحدا الا تسوق الناس الى المحشر ، كلما قاموا قامت ثم تسوقهم الى المحشر .

وفي ح ٢٤٠ حديث حذيفة قال سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول : عشر آيات بين يدي الساعة : خمس بالمشرق وخمس بالمغرب فذكر الدابة والدجال وطلوع الشمس من مغربها وعيسى بن مريم وأجوج ومأجوج وانه يغلبهم ويغرقهم في البحر ولم يذكر تمام الآيات .

وفي الدر المنثور ٣ : ٢٥٢ . اخرج الحاكم وصححه عن حذيفة قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) انا اعلم بما مع الدجال معه نهران أحدهما نار تأجج في عين من رآه والآخر ماء ابيض فان أدركه احد منكم فليغمض ويشرب من الذي يراه نارا فانه ماء بارد وإياكم والاخر فانه الفتنة واعلموا انه مكتوب بين عينية كافر يقرؤه من يكتب ومن لا يكتب وان احدى عينيه ممسوحة عليها ظفرة انه يطلع من آخر امره على بطن الأردن على ثنية أفيق وكل احد يؤمن بالله واليوم الآخر ببطن الأردن وانه يقتل من المسلمين ثلثا ويهزم ثلثا ويبقى ثلث ويجن عليهم الليل فيقول بعض المؤمنين لبعض ما تنتظرون ان تلحقوا إخوانكم في مرضات ربكم من كان عنده فضل طعام فليقد به على أخيه وصلوا حتى ينفجر الفجر وعجلوا الصلاة ثم اقبلوا على عدوكم فلما قاموا يصلون نزل عيسى بن مريم امامهم فصلى بهم فلما انصرف قال هكذا فرجوا بيني وبين عدو الله فيذوب وسلط الله عليهم من المسلمين فيقتلونهم حتى ان الشجر والحجر لينادي يا .

واين هما وهل فتحوا حتى الآن أماذا؟ فلنجعل الكتاب الإمام أمامنا ، فندرس آيتي يأجوج ومأجوج نراسا ينير لنا الدرب الى معرفتهما ، ومتراسا يبير كل يأجوج ومأجوج اختلقتهما ايدي الدس والتجديف ، وتقولتها ألسنة التحريف.

﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾ (٩٧) قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا (٩٨) وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾

﴿وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ (٩٥) حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢١ : ٩٧﴾

قد تعني مقابلة ﴿جَعَلَهُ دَكَّاءَ﴾ ل ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا

. عبد الله يا عبد الرحمن يا مسلم هذا يهودي فاقتله فيقتلهم الله وينصر المسلمون فيكسرون الصليب ويقتلون الخنزير ويضعون الجزية فبينما هم كذلك اخرج الله يأجوج ومأجوج فتشرب أولهم البحيرة ويبيء آخرهم وقد انتشفوا ولا يدعوا فيه قطرة فيقولون ظهرنا على أعدا انا قد كان هاهنا اثر ماء فيجيء نبي الله وأصحابه وراءه حتى يدخلوا مدينة من مدائن فلسطين يقال لها : لد فيقولون ظهرنا على من في الأرض فتعالوا نقاتل من في السماء فيدعو الله نبيه عند ذلك فيبعث عليهم قرحة في حلوقهم فلا يبقى منهم بشر فيؤذي ربحهم المسلمين فيدعو عيسى فيرسل الله عليهم ريحا فتقذفهم في البحر أجمعين.

وفيه اخرج نعيم بن حماد في الفتن وابن مردويه بسند رواه عن ابن عباس قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بعثني الله ليلة أسري بي الى يأجوج ومأجوج فدعوتهم الى دين الله وعبادته فأبوا ان يجيبوني فهم في النار مع من عصى من ولد آدم وولد إبليس.

اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ﴿١﴾ إضافة الى دكداك الردم نفسه ، أنهم سوف يستطيعون ان يظهره او يستطيعون له نقبا فينقبونه ، ظهور الغلبة عليه هدمًا ام التحليق عليه دون هدم! لذلك ترى آية الأنبياء تنسب الفتح الى يأجوج ومأجوج ، دون تصرّيح او تلويح لذلك الردم هدمًا ، بل **﴿وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾** ﴿٢﴾ قد تلمح أنهم يظهرهون على حدب الردم ضمن كل حدب دون دكّ لايّ حدب حتى الردم. فان ثبت لدينا فتح ليأجوج ومأجوج والردم باق ، لم يثبت تحافت بين آيتي الكهف والأنبياء!

كما ومقابلة **﴿وَعْدُ رَبِّي﴾** ب **﴿رَحْمَةً مِنْ رَبِّي﴾** تعني رجعة الإفساد من يأجوج ومأجوج كوعد للعذاب بعد الرحمة ، سواء أبقى الردم ام دكّ بدكاء الوعد العذاب. وذلك الوعد هو قبل القيامة الكبرى وهو من أشرطها ، حيث **﴿نُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾** بعده ، وفتح يأجوج ومأجوج عند اقتراب الوعد الحق! وترى إن **﴿وَعْدُ رَبِّي﴾** شرطًا من أشرط الوعد الحق ، هل يختص برده خاص من الزمن او قد يتكرر؟

آيات الإفساد العالمي الاسرائيلي مرتين كما شرحناها في «الأسرى» تدلنا على كرور الوعد ، فعلّ العالمي منه اثنان ثم هناك وعد أم وعود جانبية ومنها الهجمة الجنكيزخانية التي سودت وجه التاريخ الانساني!

ومهما كان يأجوج ومأجوج في البداية أمتين من بني الإنسان في سالف الزمن ، فقد تعني ، **﴿حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾** كل امة مفسدة

تؤجج نيران الفساد في هذه المعمورة ومن أفسدها «إسرائيل» : ﴿لَتُفْسِدَنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾ ..! مهما كان الأولون من المغول والتتار آمن ذا؟

آية الأنبياء الأولى : ﴿وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ تحرم الرجعة الى الدنيا بعد الموت فهي من آيات الرجعة ^(١) والثانية : ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ﴾ تقرر أمد هذه الرجعة أنها بعد ما فتحت يأجوج ومأجوج ، وعلة الإفساد العالمي الثاني الإسرائيلي قبيل الرجعة ، أو الأول قبلها ، ام الهجمة الجنگيزية قبلهما ، ام تعنى الثلاثة تعميما ليأجوج ومأجوج الى مؤججي نيران الفساد أيا كانوا وأهمه الإفسادان العالميان ﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾ او ان بني إسرائيل هم رؤوس الفساد في هذين ، ويأجوج ومأجوج يؤججانه إماما ذا؟

يأجوج ومأجوج هما كلمتان أعجميتان معربتان حيث هما ممنوعا الصرف ، ولا شك أنهما أمتان من امم البشرية هما أمثلة الإفساد طول التاريخ بمن يساندهما. وقد يلمح ﴿وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾ إلى انتشارهم في أرجاء المعمورة بعد ما صدهم ذو القرنين بسدّهم ، وقد سئل الامام علي (عليه السلام) عن الترك فقال : هم سيارة ليس لهم أصل ، هم من يأجوج ومأجوج ولكنهم خرجوا يغيرون على الناس فجاء ذو القرنين فسد بينهم وبين قومهم فذهبوا سيارة في الأرض» ^(٢)

(١) تفصيل البحث حول آية الأنبياء تجده عند تفسيرها ، ومن الوجوه الراجحة ان اهل قرية أهلكنها حرام عليهم الرجوع لتكملة الحياة حتى إذا فتحت .. فإذا فتحت يرحبون لا لتحصيل السعادة وانما لتكميل الشقاوة فإنهم ممن محض الكفر محضا ، فالآية إذا من آيات الرجعة وتدل على ان فتح يأجوج ومأجوج قبيل الرجعة فيناسب قبلها القريب كالإفساد العالمي الثاني الإسرائيلي ، والبعيد كفتنة المغول ، او انهما معنيان.

(٢) الدر المنثور ٤ : ٢٥١ . اخرج ابن المنذر عن علي بن أبي طالب ...

وكذلك نرى الامة الاسرائيلية كانوا طول قرونهم والى احتلال فلسطين ، كانوا سيارة في الأرض مفسدين أيا كانوا.

لست أقول انهم من أصل الترك ويأجوج ومأجوج ، فانما كونهم سيارة الأرض المفسدين يجعلهم مع يأجوج ومأجوج أمة الإفساد في التاريخ ، بل هم لعلمهم أشد منهم وأنكى او هم الأصل في الإفساد منذ كانوا وعلى هوامشهم سائر الأمم المفسدة.

ولان اللغات متطورة كما المجتمعات ، فقد يقرب القول أنهما المغول والتتار وهما من الترك ، والمغول في الصيني «منكوك» او «منجوك» وكأن الكلمتين نقل عبراني وهما في التراجم اليونانية وغيرها للعهد العتيق «كوك» و «ماكوك» والمشابهة الكاملة بين «ماكوك» و «منكوك» يقضي انهما متطورة من «منكوك» كما اشتق منه «منغول» و «مغول».

فلعل يأجوج هو «كوك» ومأجوج هو «ماكوك» فهذا المغول وذلك التتار ، وقد ذكر بعض المدققين أن المغول والتتار من رجل واحد يقال له «ترك» وهو الذي سماه أبو الفداء باسم يأجوج ، وقد كانوا يشغلون الجزء الشمالي من آسيا ، تمتد بلادهم من «التبت والصين» إلى المحيط المنجمد الشمالي وتنتهي غربا بما يلي بلاد «تركستان»^(١).

ويذكر المؤرخون المسلمون والإفرنج أن هذه الامة النكدة كانت تغير قديما وفي مختلف الزمن على الأمم المجاورة لها ، ومنهم المتوحشة كالسيول الجارفة التي انحدرت من الهضبات المرتفعة من آسيا الوسطى وذهبت الى أوروبا قديما ، فمنهم أمة السيت والسمرياق والمسجيت والهون ، وكم أغاروا

(١) كما في (فاكهة الخلفاء) وابن مسكويه في (تهذيب الأخلاق) وفي (رسائل اخوان الصفا) فقد ذكروا ان هؤلاء هم يأجوج ومأجوج.

على بلاد الصين وعلى أمم آسيا الغربية التي كانت مقر الأنبياء ، فكانوا يحذرون قومهم من هؤلاء .. (١).

طلب من ذي القرنين أن يجعل بينهم وبين قاطني الشرق الأقصى سدًا فعمل ردما فظلوا محجوزين ردحا من الزمن ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾ في مثلث الإفساد العالمي ، يتكفل أولاه في داهية دهياء وغارة عشواء «تموجين» الملقب نفسه «جنكيزخان»

إنه . وكما في القرآن : ﴿وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾ خرج بجيشه الجرار من الهضبات المرتفعة والجبال الشاهقة التي في آسيا الوسطى في أوائل القرن السابع من الهجرة . جنكيزخان بعد ما يجمع أمة التتار تحت حكمه العارم يخضع الصين الشمالية ثم يذهب إلى البلاد الإسلامية ويخضع سلطان محمد السلجوقي ملك خوارزم ، وكان يمتد ملكه على بلاد تركستان والفرس ، فسقطت هذه الدولة بعد عشر سنين من الحرب المتواصلة . جنكيزخان المغول الفاتح بعد هذه المدة يرتكب من المنكرات هناك ما لم يسمع مثله في التاريخ ، فقد قتلهم رجالا ونساء وأطفالا ، وارتكبوا من الفواحش ما سؤد وجه التاريخ . في مدينة خوارزم وحدها ، يفتك بها هدمًا وإحراقًا وإهراقًا لدماء الأبرياء فأصبحت أنهارًا من الدماء ، كما فعلوا مثلها بسمرقند وبخارى

(١) لقد فصل في رسائل قديمة ألفت في القرنين الثالث والرابع ان امة يأجوج ومأجوج هم سكان تلك الجبهة المتقدمة شمال الصين وحددت بلادهم بأنها من نحو سبع وعشرين درجة من العرض الشمالي الى نحو خمسين درجة منه وهذه البلاد الآن جزء عظيم من الصين وفيها بكين عاصمتها الآن ولقد كانوا أغاروا على الأمم جميعا وكانوا كفاتحين للعالم كله.

وغيرهما ، وفتكوا بأهالي نيسابور وأفنؤهم عن آخرهم حتى الأطفال والحيوان وأحرقوا البلد ، وأصبحت القتلى في واقعة مرو مليوناً وثلاثمائة وثلاثين ألفاً!

وهذه نبذة يسيرة من بحر فظايجهم هناك ^(١) ومن ثم كافة البلاد إلّا شذرا : فقد أخضعوا بلاد الهند فمات «جنكيزخان»

ولما ملك ابنة (اقتاي) أغار ابن أخيه (باتو) على الروس (٧٢٢) ودمروا (بولونيا) و (بلاد المجر) وأحرقوا وخرّبوا .

وبعد موت (اقتاي) قام مقامه (جالوك) فحارب ملك الروم وألجأه إلى دفع الجزية . ثم مات (جالوك) وقام مقامه ابن أخيه (منجوا) فكلّف أخويه (كيلاي وهولاكو) ان يستمر في طريق الفتح ، فيتجه الأوّل الى بلاد الصين والثاني إلى الممالك الإسلامية . ففعلوا ما فعلوا من القتل والتدمير .

أسلمت بغداد سبعة ايام للقتل والسلب والنهب فسالت فيها أنهر الدماء وطرحوا الكتب العلمية في دجلة وجعلوها جسرا يمرون عليه بخيولهم وقتل الخليفة العباسي المستعصم بالله وعلقت جثته في ذنب حصان وساروا بها بين أسوار بغداد .. وقد استمرت فتوحات المغول إلى سوريا ..

الفتنة المغولية تفتك بالبلاد كلها من مشارق الأرض ومغاربها إلّا مكة والمدينة وبيت المقدس ، وعلّه إليها الإشارة في حديث يأجوج ومأجوج أن مقدمتهم في الشام وساقطهم بخراسان ، وكما في تصريحة أخرى انهم لا يدخلون المدن الثلاث .

وقد يعنيه الحديث «ويخرج في آخر الزمان رجل يسمى أمير العصب»

(١) راجع دائرة المعارف وابن خلدون وفاكهة الخلفاء .

أصحابه محسورون محقرون مقصون عن أبواب السلطان يأتونه من كل فج عميق كأنهم فزع الطريق يورثهم الله مشارق الأرض ومغاربها.

ومن «السبب الظاهر في هذه الفتنة أن سلطان خوارزم يقتل رسل «جنكيزخان» والتجار المرسلين من بلاده ويسلب أموالهم ويغير على أطراف بلاده فيغتاز «جنكيزخان» ويكتب إليه كتابه يهدده فيه بما فعل^(١).

ذلك إفساد في الأرض مرة شاملة من ﴿يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ﴾ وقد تلمح ﴿حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ﴾ أنها الأولى منهم والأخيرة كشرط من أشرط الساعة ، ومن ثم إفسادان عالميان من بني إسرائيل كما في آية «الأسرى» ، فانها تخص إفسادهم في مرتين لا كل إفساد من أي كان ، كما وآية الفتح ليأجوج ومأجوج تخص فتحهم في إفسادهم الظاهر في مرة. أو أن فتحهم يعني جنسه الشامل للمرات الثلاث ، مرة تخصهم كما

(١) نص الكتاب هكذا : «كيف تجرأتم على اصحابي ورجالي وأخذتم تجارتي ومالي؟ وهل ورد في دينكم أو جاز في اعتقادكم ويقينكم ان يريقوا دم الأبرياء أو تستحلوا اموال الأتقياء أو تعادوا من لم يعادكم وتكذبوا صفو عيش من صافاكم ، وتحركون الفتنة النائمة وتنبهون الشرور الكامنة أو ما جاءكم عن نبيكم سريكم وعليكم ان تمنعوا عن السفاهة غويكم وعن الظلم الضعيف قويكم أو ما خبركم مخبروكم وبلغكم عنه مرشدوكم ونباً محدثوكم «اتركوا الترك ما تركوكم» وكيف تؤذون الجار وتسيئون الجوار ونبيكم قد اوصى به مع انكم ما ذقتم طعم شهادته او صابه ولا بلوتم شدايد أوصافه او صابه ، ألا إن الفتنة نائمة فلا توقظوها وهذه وصايا إليكم فعوها واحفظوها وتلافوها هذا التلف قبل ان ينهض داعي الانتقام وتقوم سوق الفتن ويظهر من الشر ما بطن ويروج بحر البلاء ويموج وينفتح عليكم سد يأجوج ومأجوج وسينصر الله المظلوم والانتقام من الظالم امر معلوم ولا بد ان الخالق القديم والحاكم الحكيم يظهر سر ربوبيته وآثار عدله في بريته فان به الحول والقوة ومنه النصرة مرجوة فلتزود من جزاء أفعالكم العجب ولينسلن عليكم يأجوج ومأجوج من كل حذب (جنكيزخان) (تفسير الجواهر ٩ : ٢٠٤).

مرت ، ثم هم يشتركون في المرتين الإسرائيليتين العالميتين ، طالما هم فيها أصلاء ، ويأجوج ومأجوج هوامش عملاء ، كسائر المفسدين الهوامش اللّعاء.

فكل من يشارك إسرائيل في مرقى الإفساد العالميين من عمال الفساد هو في سجيته وعلايته وسريته ، إنه إسرائيلي مهما كان من يأجوج ومأجوج آمن ذا؟

كما الفتنة الأاجوجية تشمل كل عميل من غيرهما أيا كان وأيان!

وطبيعة الحال قاضية أن الإفساد العالمي الإسرائيلي في مرتبه ، لا يخص بني إسرائيل إلا

كأصول ، فكل مفسد في الأرض يشاركهم أصيلا وبديلا وعميلا آمن ذا؟ :

نحن نعيش الآن الإفساد الاسرائيلي العالمي الاول ، فالمفسدون الأصلاء هم

إسرائيليون ، والمفسدون العملاء او البدلاء من كفار الشرق والغرب ، ومن يساندهم من زعماء المسلمين آمن ذا . هؤلاء كلهم إسرائيليون فروع! فالكفر ملة واحدة!

او قد يعني ﴿إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾ الإفساد العالمي الثاني بعلوه الكبير من

إسرائيل ، ويأجوج ومأجوج وهما أمثلة الإفساد شرقا وغربا يعملون عمالاتهم الإسرائيلية في

مشارك الأرض ومغارها؟ كل محتمل! مع الحفاظ على ان هناك مراحل ثلاث من الإفساد

العالمي طول التاريخ الرسالي يتكفل أولاها ﴿يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾ كأصلين اصيلين في ذلك

الإفساد ، والأصلاء في الآخرين هم الاسرائيليون وغيرهم عملاء من يأجوج ومأجوج

وسواهم!

وأيا كان إفساد يأجوج ومأجوج فاللائح من آيتي الكهف والأنبياء وحدته فيما هم فيه

أصلاء : ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ فهو يوم

وزمن واحد ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾ فهو فتح واحد بنسل واحد! مهما كانوا في المرتين الإسرائيليتين فروعا عملاء ، كما قد يكون هؤلاء عملاء في المرة التي يأجوج ومأجوج فيها أصلاء.

وقصارى الاقتصار على المرتين الإسرائيليتين أن يأجوج ومأجوج في الثانية أصلاء كما الاسرائيليون لا عملاء ، ولكنهم الأصل الاول وهما الأصل الثاني.

وقصارى المستفاد من الآيتين في الزمن التقريبي لفتحهما أنه قبيل الرجعة وقيام المهدي (عجل الله تعالى فرجه الشريف) حيث عقب قيام الساعة : ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾ ب ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ في آية واحدة ، ولو لا آية الأنبياء ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ .. وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ ..﴾ بعد ﴿وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ ..﴾ لاحتملنا قريبا او قلنا أن فتحهم بين الرجعة والقيامة!

فهناك قرب قريب إلى الوعد الحق هو الرجعة وقيام المهدي (عليه السلام) وقبلهما قرب ابعد منه هو فتح يأجوج ومأجوج ، مما يقرب احتمال أنه من الإفساد الاسرائيلي العالمي!

ثم ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ يعني ترك المستضعفين والمستكبرين المفسدين يمج بعضهم في بعض ، وبه تملأ الأرض ظلما وجورا ومن ثم ملأها قسطا وعدلا بالقائم المهدي من آل محمد (صلى الله عليه وآله وسلم).

ومما يؤيده او يؤكد أنه هناك وعدين لا ثالث لهما ، الوعد الاول يخص فتح يأجوج ومأجوج : ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ ..﴾ والوعد الثاني هو القيامة الكبرى ﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ﴾ إذا فقبل الوعد الحق كأنه

وعد واحد ، رغم ان الإفسادين العالميين الإسرائيليين هما وعدان قبل الوعد الحق ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا ... فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ ..﴾ فليكن الوعد اليأجوجي مع الوعد الثاني الإسرائيلي!

اللهم إلا أن الوعدين هذين متجهان الى الاسرائيليين ، وذلك الوعد اليأجوجي متجهة الى غيرهم حيث هم بفتحهم وعد العذاب على العالم أجمع؟ وقد يكون الإفساد الثاني الإسرائيلي محط الوعدين ضد إسرائيل وعملائه ، وضد العالم أجمع! ومهما يكن من شيء فلا ريب أن الإفساد الثاني والآخر العالمي يشترك فيه كافة المفسدين ، يفتح فيه كل يأجوج ومأجوج والإسرائيليون وكافة العملاء ، وفيه العلو الكبير ﴿لَتُفْسِدَنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾.

ولأنه من أقرب أشرار الساعة لحد تلحقه القيامة ﴿وَتَرَكْنَا﴾. ﴿وَنُفِخَ ..﴾ ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ ... وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾! وأن الإفساد العالمي يتطلب نسل المفسدين من كل حذب دون أي صدّ أو سدّ ﴿وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَذَبٍ يَنْسُلُونَ﴾ وأن كلا من إسرائيل ويأجوج ومأجوج أصل في هذه الفتنة العالمية ، فقد يقرب ما قرناه!

ولكنما الفتنة المغولية التي هي من يأجوج ومأجوج قد تجعل نسلهم من كل حذب لمرات ثالثتها أقواها وهي في الإفساد الاسرائيلي الثاني. وقد يظهر من حديث النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) «ليحجن البيت وليعتمرن بعد خروج يأجوج ومأجوج» ^(١) أن افسادهم يمنع الحج

(١) رواه البخاري في صحيحه.

والعمرة ثم الله يفرج عن المستضعفين ويبدلهم من بعد خوفهم أمنا ، وليس هذا إلا في الإفساد الاسرائيلي الثاني حيث تملأ الأرض ظلما وجورا ثم تملأ قسطا وعدلا .

وكما يظهر من حديثه الآخر «فإذا كان عند خروج يأجوج ومأجوج أرسل الله تعالى جبرئيل فرفع من الأرض القرآن والعلم والحجر من ركن البيت ومقام ابراهيم وتابوت موسى بما فيه .. ^(١) يظهر أن الأرض يومئذ تملأ ظلما حتى فيما بين المسلمين لحد كأن القرآن رفع عنهم والعلم ، ولن يرفع عن كونه بينهم وإنما عن كيانه!

وقد يعني حديث النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) عن فتح الردم أن لفتحه مراحل أخيرتها المرة الأخيرة من الإفساد الاسرائيلي اليأجوجي : «لا إله إلا الله ويل للعرب من شر قد اقترب فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه وحلق . قلت يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)! أنهلك وفينا الصالحون؟ قال : نعم إذا كثرت الخبث ^(٢)

ف ﴿يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾ مثال عن كل أمة شريرة ، ولفتحهم مراحل عدة أخيرتها التي هي أوسعها تواطىء الإفساد العالمي الأخير الاسرائيلي ، «إذا كثرت الخبث» لحد ملئت الأرض ظلما وجورا!

فلقد أخذ ذلك الفتح يتسع منذ الرسول كلما كثرت الخبث حتى القرن السابع من الهجرة ففتح شبه العالمي بالمغول والتتار ، ثم يتسع أكثر وأكثر

(١) سفينة البحار للمحدث القمي ج ١ ص ١١ ويدلج ، النبوي .

(٢) الدر المنثور ٤ : ٢٥١ . اخرج البخاري عن زينب بنت جحش قالت استيقظ رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) من نومه وهو محمر وجهه وهو يقول : ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ...﴾ واخرج ابن أبي شيبة عن أبي هريرة عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه وعقد بيده تسعين .

في هذين الإفسادين العالميين وأقوامهما الأخير بعلو كبير ، تتساعد فيه كافة السواعد الطاغية من مشارق الأرض ومغاربها مهما كان الإسرائيليون هناك أصلاء أم أقوى الأصليين أم ماذا؟
﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا (٩٨) وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا (٩٩) وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا﴾ (١٠٠).

ان النفخ في الصور هو الناقور مرتان ، أولاهما هي نفخة الإماتة وأخرها نفخة الإحياء ^(١) : ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ (٣٩ : ٦٨) وعلّ هذه نفخة الإحياء ﴿فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾ او ان «جمعا» يعني جمعي الإماتة والإحياء كما النفخ يجمع الجمعين ، نفخة أولى يجمعهم الى الموت . ونفخة اخرى يجمعهم بعد جمع الموت الى الحياة ، فيوم القيامة ككل . قيامة الإماتة والإحياء . إنه يوم الجمع ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمُ لِيَوْمِ الْجُمُعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾ (٦٤ : ٩) ﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجُمُعِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ (٤٢ : ٧) جمعا الى موت ثم جمعا الى حياة ومن ثم جمع الحساب فالثواب والعقاب :

﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا﴾ (١٠٠)

في جمع الإحياء وبين جموع الأحياء تعرض جهنم للكافرين عرضا للعقاب بعد العرض على الرب للحساب : ﴿وَعَرَضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا﴾ (١٨ : ٤٨) ﴿أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ﴾ (١١ : ١٨) ثم لا عرض

(١) راجع ج ٣٠ . الفرقان ص ٣٤ حول الآية «يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ»

للمؤمنين على الرب!

ومن ثم الكافرون يعرضون على جهنم النار : ﴿وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الدُّلِّ﴾ (٤٢ : ٤٥) ثمّة عرض الحساب وهنا عرض العقاب ولما.

فلما ذا العرض وليس الدخول؟ حيث الدخول الحسبان لزامه الحجة العيان ، فليعرض الكافر على ربه ليرى هل تربى بما رباه؟ ثم عرضا على جهنم هل عمل لها وهو من أهلها؟ فلما رأى اللاتربية هناك في نفسه ، ورأى مجانسته مع النار هنا فليدخل . إذا . النار بحجة باهرة : ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ﴾ (٤٦ : ٣٤) ﴿... أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا﴾ (٤٦ : ٣٠) فبعرضهم على الرب يعرف ويعرفون أنهم ما تربوا بتربيته ، وبعرضهم على النار أنهم من أهل النار إذ لم تبق لهم طيبات في الحياة! ﴿عَرَضْنَا .. عَرَضًا﴾ به يفضحون وينكبون ، وبه يدخلون النار ويخلدون ، إعرضا عن الرب هنا ، فعرضا على الرب وعلى ناره هناك!

﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ (١٠١).

وترى الأعين المغطّية عن ذكر الله فلا يستطيع ذكره ، والسمع المغطّية عن استماع كلام الله فلا يستطيع سماع كيف يعرض أصحابها على الجحيم ، والاستطاعة شرط التكليف؟

انها الأعين المغطّية بما غطّوها تعاميا عن ذكر الله ، أعين الأبصار وأعين البصائر عشوا متعمدا متعاميا : ﴿وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ (٤٣ : ٣٦) ف «لم يعتبهم بما صنع هو بهم ،

ولكن عاجهم بما صنعوا ولو لم يتكلفوا لم يكن عليهم شيء»^(١) ثم و «غطاء العين لا يمنع عن الذكر والذكر لا يرى بالعين»^(٢) وانما الغطاء على تبصر العين فهي مفتوحة حيوانيا ومغطية إنسانيا.

فهي السمع المغطاة عن السمع بما غطّوها و : ﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ (٢٦ : ٢١٢) فلما عشوا عن ذكر الرحمن وصمّوا عن سمعه ، أصبحوا صمّا عميا بما صمّوا وعموا ف ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾ (١١ : ٢٠) فقد كانوا ينظرون فلا يعتبرون ، او تعرض لهم العبر فلا ينظرون.

ليس ذلك عشو البصر عمى وصمم الاذن ، بل تعامي البصر وعشو البصيرة وصمم القلب : ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّمَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ (٢٢ : ٤٦) لذلك : ﴿وَنُطْبِغُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ (٧ : ١٠) ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّةِ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ (٧ : ١٧٩).

(١) نور الثقلين ٣ : ٣١٠ ح ٢٤٢ في تفسير العياشي عن محمد بن حكيم قال : كتبت رقعة الى أبي عبد الله (عليه السلام) فيها : أتستطيع النفس المعرفة؟ قال فقال : لا . فقلت يقول الله : ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ قال : هو كقوله ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾ قلت فعاجهم؟ قال : ..

(٢) المصدر ج ٢٤٣ عيون الاخبار باسناده الى أبي الصلت الهروي قال : سأل المأمون أبا الحسن علي بن موسى الرضا (عليه السلام) عن قول الله تعالى ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ...﴾ فقال : ان غطاء العين .. ولكن الله شبه الكافرين بولاية علي بن أبي طالب بالعميان لأنهم كانوا يستقلون قول النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فيه ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ ..

فتلك هي أعين في غطاء الغفلة والتعامي ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ (٥٠ : ٢٢) وهي آذان لا يسمعون بها ، فلا يستطيعون بعد ذلك سمعا ولا إبصارا بما ختم الله على سمعهم وعلى أبصارهم كما ختموا ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (٢ : ٧).

ثم و ﴿كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ .. وَكَانُوا﴾ يضربان الى اعماق الماضي ، أنهم كانت أعينهم في غطاء منذ كانت لهم أعين ، وكانوا لا يستطيعون سمعا منذ كانت لهم سمع ، امتناعا بالاختيار ، ثم ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾.

ومن ثم ﴿فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي﴾ تجعل أعينهم غارقة في غطاء حيث غطتها من كل جانب ، فلا منفذ إذا لمعاينة الحق وذكره وهذه أعمى العمى!

﴿وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ تجعل على آذانهم وقرا وصمما محيطا لحد لا يستطيعون سمعا لو أرادوا سمعا وهذه أصم الصمم! حيث الأصم قد يسمع إذا صيح عليه وأصغى ، وذلك لا يستطيع سمعا!

وكما لمعاينة الآيات وذكر الله وسمعها درجات ، كذلك لغشاء الأعين وصمم السمع دركات وهذه أسفل الدرجات.

و «عن ذكري» تلميحاً كتصريحه أن غطاء الأعين لم تكن على الحقيقة في غطاء يسترها ، وحجاز يحجزها ، بل كانوا ينظرون فلا يعتبرون ، أو تعرض لهم العبر فلا يعبرون ، فقد كانت أعينهم تذهب سدى وصفحا عن مواقع العبر ، فلا يفكرون فيها ، ولا يعتبرون بها فيذكرون الله سبحانه وتعالى عند إجماله افكارهم ، وتصريف خواطرهم.

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤) أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا (١٠٥) ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمَ بِمَا كَفَرُوا وَتَوَلَّوْا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا (١٠٦) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا (١٠٧) خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حَوْلًا (١٠٨) قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَذَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا (١٠٩) قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ

بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾

﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بي إلحادا ونكرانا لي ، ام بتوحيدي إشراكا ﴿أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي﴾ الذين هم «من دؤني» او ﴿يَتَّخِذُوا عِبَادِي﴾ دون إذني ﴿مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ﴾ يتولونهم كآلهة ام شركاء لي او محولين في ولاية شرعية أما ذا؟ ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا﴾ تحضيرا ﴿جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا﴾ نزولا إليها كما نزلوني عن وحدتي وربوبيتي في زعمهم.

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾

﴿بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ هم في الدرك الأسفل من ضلال السعي وخسار الأعمال ، لا يوازهم أحد من الخاسرين حيث الأفعل هنا مطلق فلا يساوى أو يسامى ، كما لا يفوقهم أحد في الخسران! وأصل الضلال ذهاب القصد عن سنن طريقه ، فكأن سعيه لما كان في غير طريقه المؤدي الى مرضاة ربه ، فهو ضال في سعيه ، خابط في غيّه وحابط في عمله. فقد يكون الإنسان بطّالا لا يسعى في الحياة الدنيا ، لا لها ولا للآخرى ، او يسعى للدنيا ، مهتديا الى منافعها دون الاخرى ، او يسعى دونها ضالا في سعيه للدنيا وهو عارف بضلاله ام يسعى لها ضالا في سعيه وهو يحسب أنه يحسن صنعا دركات بعضها سفلى بعض والرابعة سفلاها ، حيث يحرم الآخرة إذ لم يسع لها ، ويحرم الدنيا لضلال سعيه لها ، ويحرم الاهتداء إلى ضلاله إذ يحسب أنه يحسن صنعا ﴿خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾!

وترى ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾؟ ظرف لضلاله؟ أن سعيه ضل عن الحياة العليا في الحياة الدنيا ، فظل يسعى لها دون الأخرى ، وقد يكون ناجحاً في هذه الأدنى مهما حرم الأخرى؟ وليس من الأخسرين أعمالاً ، حيث الأخسر منه من زاد ضلالاً على ضلال ، ١ . ضل سعيه عن الآخرة . ٢ . ثم ضل في سعيه للدنيا ، أن تكون ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ ظرفاً لسعيه ، فسعيه في الحياة الدنيا ضل ، ضلال في ضلال ، ومن ثم ﴿وَهُمْ يَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ ضلال ثالث ، فهناك يتم ثلوث الضلالة!

فطالما البطالون خاسرون ولكنهم قد يهتدون ، وكما الساعون للدنيا المهتدون إلى منافعها ، فقد يفيقون عن غفوتهم ، ويستقيمون عن زلتهم ، بل والضالون في سعيهم لها ، العارفون بضلالهم ، مهما كانوا بعاداً عن الهدى ، ولكن الذي ضل في سعيه عن الحياة العليا إلى الحياة الدنيا ، ثم ضل في سعيه للدنيا ، وهو يحسب أنه يحسن صنعا ، غارقاً في ثلوث الضلالة ، فانه دائب في سعيه إلى خساره في الأولى والأخرى ، ولا ترجى إفاقته عن غفوته وضلاله إذ لم يبق له منفذ إلى صالحه ، فهو من الأخسرين أعمالاً!

إنه بسعيه الهادف إلى فوائده في الدنيا يخسرهما كما خسر الأخرى ، كادحاً إلى خسران ، منفقاً حياته في تعب هدرا دونما عائدة إلا الخسران ، كمن يذبح نفسه بذات يده وهو يحسب أنه ذابح خروفا يشويه لطعامه مكداً مجداً في ذبحه!

قد يصبح الساعي بضلاله فيما يعمل من الأخسرين أعمالاً في الآخرة وهو في الدنيا رابح حياتها : ﴿.. أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ .. الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ : أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءٍ يُضَاعَفُ لَهُمْ

الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ، أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ. لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زِينَتًا لَّهُمْ أَعْمَاهُمْ فَأَعْمَاهُمْ هُمْ يَكْمَهُونَ. أُولَئِكَ الَّذِينَ هُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ ﴿٢٧﴾ (٥ : ٢٧)

هؤلاء وهؤلاء من الأخسرين في الآخرة ، ومنهم من لم يخسر دنياه ، فليس من الأخسرين اعمالا في النشاطين إلا في الأخرى ، فاما الذي ضل سعيه في الحياة الدنيا وهو يحسب أنه يحسن صنعا فقد خسر الاولى كما الاخرى وقد تكون خسراه في عقباه أقوى حيث هو في أولاه أغوى.

لا أخسر مطلقا في سائر القرآن إلا هنا وفيمن كادوا بإبراهيم ﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾ (٢١ : ٧) ولكنهم الأخسر في الآخرة كالأولين ، وفي دنياهم في الكيد الذي كادوا به إبراهيم وهم في سائر دنياهم رابحين.

لآية الأخسرين مصاديق من ضلّال أهل الكتاب والمسلمين . الغارقين في ثالث الضلالة في الدنيا والدين كـ «الرهبان الذين حبسوا أنفسهم في السواري» ^(١) وكفرة أهل الكتاب المبتدعين ^(٢) «ولا أظن إلا أن الخوارج منهم» ^(٣) وكل من يتكشف فيما يظنه شرعة أهلية وهو خطر على الدين والدينين.

(١) الدر المنثور ٤ : ٢٥٣ . اخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن أبي خميصة عبد الله بن قيس قال سمعت علي بن أبي طالب (عليه السلام) يقول في هذه الآية انهم ..

(٢) نور الثقلين ٣ : ٣١٢ ح ٢٥٠ في كتاب الاحتجاج عن الأصبغ بن نباتة قال ابن الكوا لأمر المؤمنين (عليه السلام) اخبرني عن قول الله عز وجل : «الآية» قال : كفرة اهل الكتاب اليهود والنصارى وقد كانوا على الحق فابتدعوا في أديانهم وهم يحسبون انهم يحسنون صنعا.

(٣) الدر المنثور ٤ : ٢٥٣ . اخرج عبد الرزاق والفريابي وابن المنذر وابن أبي حاتم .

وكما لها مصاديق من المكذبين بآيات الله الصادقين عن سبيل الله ، وقد يكون المتظاهر بالدين ، والمتكشف الجاهل أخطر منهم وأضل سبيلا!
فالأخسرون اعمالا دركات بعضها سفلى بعض ، مهما كان الغارقون فى ثالث الضلالت كلهم من الأخسرين ، ولكننا الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه هم الأسفلون وكما جرت عليهم الآية وتتلوها :

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا﴾ (١٠٥) :

﴿كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ عشوا عنها وتعاميا ومدّا فى كفرهم بقرن شيطانهم فضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، وغرهم فى دينهم ما كانوا يفترون ، كفر مطلق لا مخلص عنه ﴿كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ﴾ يوم الدنيا بما يقرهم الى الله زلفى ويوم الآخرة بنكرانها فلقاء الرب هو لقاء ربوبيته ، فى الأولى ربوبيته التكليف التكميل فزلفى المعرفة ، وفى الأخرى ربوبية الحساب ومن ثم الثواب والعقاب فى الجنة او نار ، فى دار ليس الأمر فيها إلا الله ، يصيرون إليها ولا محيص لهم عنها ، وإذ لا أحد فيها يستطيع انصرافا عن الوجهة التى أمر الله سبحانه بجمع الناس إليها وحشرهم نحوها سمي ذلك لقاء الرب.

﴿فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ ومساعدتهم فأصبحت ﴿كَسْرَابٍ بِقِيَعَةٍ يَخْسَبُهُ الظُّمَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ لَا يَجِدُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَاهُ حِسَابَهُ﴾ ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا﴾ إذ لا أعمال لهم صالحة حتى توزن ولا وزن للطالحة فتوزن!

﴿أُولَئِكَ ..﴾ تعريف ثالث بالأخسرين اعمالا بعد ﴿وَمَنْ يَعْشُ﴾ و

. وابن مردويه من طريق عن علي (عليه السلام) انه سئل عن هذه الآية فقال : لا أظن.

و ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ﴾ ثالث الضلالة في مثلث التعريف باهل الدرك الأسفل من النار. فكفرهم مطلق لا مخلص عنه ولا مناص حيث يشمل آيات ربهم كلها ، آفاقيا وانفسيا ، تكوينيا وتشريعيا ، رساليا ورسوليا إمّا ذا ، حيث عشوهم عن ذكر الرحمن مطلق ، وآيات الرحمن تذكّر الرحمن لغير العاشين عنها. ثم الكفر بآيات الرب كفر بلقائه ، والكافر بآيات ربه ولقائه لا أعمال له ثابتة إلا زائلة خابطة حابطة ، واصل الحبط انتفاخ بطن الدابة بنوع سامّ من الكلال فتلقى حتفها ، فالجاهل يراها سمينة شبعانة ، وهي في سبيل الموت! وهذا أنسب وصف لأعمال الكفار ، أنها تنتفخ ويظنها أصحابها رابية رابحة وهي باثرة رائحة.

أترى اعماله الحابطة هي الطالحة؟ وهي ثابتة كما الصالحة! ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ. وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾!

ام الحابطة هي الصالحة؟ وليست للأخسرين اعمالا اعمال صالحة! لكفرهم المطلق! الحبط هنا يعني زوال الوزن ، فصالحة أعماله خاوية عن وزن للكفر المطلق ، مهما أنفق وسعى في إصلاح الحياة ، فتحبط أعمالها عن وزن ، وطالحة اعماله خفيفة حابطة بلا إحباط ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ حيث تبقى أعماله كلها طالحة خفيفة ليس لها وزن ، فكيف يقام له وزن؟

وذلك الحبط يشمل الدنيا والآخرة ﴿فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ (٢ : ٣١٧) في ميزان الله ، فلا وزن لهم في الدنيا كما الآخرة ، إذ لا تحسب صالحاتهم صالحات ، ولا فلاح لهم في طالحات ، فهم أخفّاء عند الله وعند أهل الله في الأولى كما الاخرى : ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ

ثَقُلْتُ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ، وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٧ : ٩﴾.

فهناك الوزن محصور في الحق ^(١) ، فلا وزن للباطل حتى يقام له وزن ، سواء أكان الباطل حابطاً من أصله كسائر الباطل ، أم محبطاً كان فيه شائبة الحق فأحبطه الله لحبطه في شاكلته ، كصالحات الكفار من خدمات بشرية تصلح الحياة : ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ. أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١١ : ١٦)

ليس الوزن عند الله إلا ما يقرب إلى الله ف «ليؤتين يوم القيامة بالعظيم الطويل الأكل الشروب فلا يزن عند الله تبارك وتعالى جناح بعوضة» ^(٢) ومن أخفهم وأخسهم «أئمة الكفر وقادة الضلالة فأولئك لا يقيم لهم يوم القيامة وزناً ولا يعاب بهم ، لأنهم لم يعابوا بأمره ونهيهِ ..» ^(٣).

﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً﴾ (١٠٩).

هذه تحيل مداد كلمات الرب ولو كان ضعف البحر ، وأخرى تحيل

(١). لم يقل «الوزن يومئذ حق» وإنما «الحق» تدليلاً على أن الوزن هو الحق فلا وزن للباطل حتى يوزن أو يقاس بوزن الحق!

(٢) الدر المنثور ٤ : ٢٥٤ . اخرج ابن عدي والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي هريرة قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ... اقرؤا ان شئتم ﴿فَلَا نَقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾.

(٣). نور الثقلين ٣ : ٣١٢ ح ٢٥٣ في كتاب الاحتجاج للطبرسي عن أمير المؤمنين (عليه السلام) حديث طويل يذكر فيه أهل الموقف وأحوالهم وفيه ومنهم أئمة الكفر ..

مداد كلمات الله ولو كان ثمانية أضعاف البحر : ﴿وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ
وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٣١ : ٢٧).

فما هو البحر؟ ثم مداد مثله ، او من بعده سبعة أبحر؟ وما هي كلمات ربي؟
وكلمات الله؟ ثم ولها حد بعد ام لا حد لها؟

علّ «البحر» فيهما هو مجموعة بحار الأرض ، فانها هي المعروفة لدينا عينيا وقرآنيا (١)
دون سواها من بحار ، و ﴿مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ﴾ لا تجاوب إلا ما في الأرض من
بحار ، حيث البحر المحيط في الكون تناسبه الشجر المحيط في الكون! فلا هو مطلق البحر في
الكون ، ولا بحر بعينه في الأرض ، حيث اختلاف بحار الأرض ينافي تعريف «البحر» إلا
جنسه الشامل لكل بحر ، ف «البحر» إذا عوان بين البحرين لمطلق الكون أو خاص من
الأرض.

والمداد ما يمدّ به من مادة للمدّ او قلم يمدّها ، فهناك البحر مداد وما في الأرض من
شجرة أقلام المداد.

ثم ﴿كَلِمَاتُ رَبِّي﴾ هي الدالات لفظيا وعلميا وعينيا على الربوبية العليا كما
«كلمات الله» هي الدالات على الألوهية وهي أشمل من كلمات الربوبية ، فالكلمة ما تدل
على معنى في أية زاوية من الثلاثة أماهيه ، وإذا كانت نعمة الله لا تحصى وهي محدودة في
الواقع لحدوثها ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ فأحرى بكلمات الرب وكلمات الله ألا
تحصى!

ثم «لو» في آيتي مداد الكلمات تحيل ان يكون البحر مدادا لكلمات

(١). لا نجد في ٤٠ موضعا فيها البحر بصيغة موضعا يدلنا على بحر في غير الأرض ، اللهم إلا ما يصلح التعميم
وهذا ليس دلالة على بحر في غير الأرض يستدل بها! مهما دلت أحاديث عدة أن في السماء بحار.

ربي وكلمات الله ، و «لو» الثانية في الأولى إحالة ثانية دون وقفة عليها ، ﴿يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَنْجُرٍ﴾ في الثانية تعني استمرارية الاستحالة دون وقفة على السبعة الزائدة ، الرامزة الى الكثرة الكثيرة ، والقصد فيهما إلى استحالة مدّ الكلمات ككلّ باي مداد ، حيث إن مداد البحار والأشجار هي ايضا من الكلمات ، أيا كان الكاتب ، وباية سرعة كانت الكتابة وأيان ﴿لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي﴾.

«كلمات ربي وكلمات الله» وهي كل دالة على الله ، ليست هي ذات الله ولا من ذات الله ، وإنما هي مخلوقات الله ولا بد وأنها حادثة محدودة ، كما توحيه ﴿قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي﴾ ولكنها ليست بالتي تعد أو تحصى ، فضلا عن ان تكتب ، إحالة في بعدين : ١ . ان لا احد يمكنه إحصاءها فضلا عن كتابتها . ٢ . ولو أمكنه فالكاتب نفسه ، ومداد البحار والأشجار والورق المكتوب فيه ، هي كلها من كلمات الله ، ولو أنها كتبت فيما يكتب فنفس الكتابة بخذافيرها من كلمات الله فتسلسل مستحيل ، او ﴿لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي﴾!

إن كتابات الوحي وكافة التشريعات الإلهية ، التي تحملها الأصوات والكتابات والمفاهيم ، هي من كلمات الرب ، وحملتها الرسل والأئمة وسائر العلماء بالله ، هم من كلمات الرب ، وكافة الرحمات الإلهية رحمانية ورحيمية هي من كلمات الرب ، ومجموعة الكائنات هي آيات الله وكلماته ، فأين مداد البحار والأشجار من مدّ كلمات الله!

فكلمات الرب هي الدالات على ربوبيته ، وكلمات الله هي الدالات على ألوهيته في ذاته ورحماته رحمانية ورحيمية ، ومن نعم او نقم إمّا ذا.

ففيما ﴿إِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ فاستحالة الإحصاء والكتابة التي هي أصعب ، في كلمات النعم والنقم إمّا ذا هي أخرى! :

واين أنت ايها الإنسان الهزيل الجاهل العاجز الذليل ، والغوص في خضم ذلك البحر الملتطم ، واليَم المنجسم من كلمات الرب الله ، إلا غرقا فيها عن سباحتك!

قد يدرك الإنسان الغرور بما يسجله من مكان من الكون ، فتأخذه نشوة الظفر في ظهور علمي وفي القدرة فيحسب أنه على شيء!

ولكنما الآيات الربانية والإلهية تواجههم بأفاقها المترامية ، فإذا هم على خطوات من الشاطئ ولما يخوضوا البحر .. وحتى لو كان البحر مدادا بيده ﴿لَنفَدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ ﴿يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾ مدادا! ف «قد أخبرك ان كلام الله عز وجل ليس له آخر ولا غاية لا ينقطع ابدا» ^(١) فيما نخصيه!

كلمات الله بعد كل مداد تنتظر مدادا يمددها ، ولن يمددها أي مداد ، فطالما هو أيضا من كلمات الله إذا ﴿لَنفَدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي﴾!

فيا لنا من غباوة وعمى ، وحماسة كبرى ، نعيش كلمات الله ، غارقين في خضمها ، ومارقين عن الذي تدل عليه وترشدنا إليه ﴿فَإِنَّمَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾!

كلمات تذكرنا الرحمن ﴿وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾!

(١). نور الثقلين ٣ : ٣١٣ ح ٢٥٦ حدثنا محمد بن احمد عن عبد الله بن موسى عن الحسن بن علي بن أبي حمزة عن أبيه عن أبي بصير عن أبي عبد الله (عليه السلام) في حديث قلت : قوله عز وجل «قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفَدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا» ، قال : قد أخبرك ..

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ (١١٠)

آية يتيمة منقطعة النظير في سائر قرآن التوحيد ، تجمع من مجامع التوحيد ما لا توجد في غيرها ، لحد يقول الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) عنها : «لو لم ينزل على أمتي إلا خاتمة سورة الكهف لكفتهم» ^(١) كفاية عن سائر التوحيد في القرآن وأصلي النبوة والمعاد! وكأنها تختصر الوحي في خاتمة الرسالة على ما يتبنى كل الرسالة وتبناه كل الرسالة : ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ .. أَحَدًا﴾ إظهارا لها وتظاهرا بها في عقيدة القلب ، ولفظة اللسان وعمل الأركان وتوجيه العالمين أيا كانوا وأيان! وقد جمعت الأصول الثلاثة نبوة : ﴿يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ وتوحيدا في كافة الجنبات : ﴿أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ﴾ ومعادا : ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ ..﴾ وقد تقدمت النبوة السامية المحمدية لأنها أكمل تعريف بنفسها وبأصلي التوحيد والمعاد!

هنا وفي «فصلت» يؤمر الرسول ان يقول ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ﴾ كلمة توحيدية أحكمت هنا وهناك وفي اضرابهما ثم فصلت في سائر القرآن.

في فصلت يؤمر بعد مع العالمين بالاستقامة الى الله .. ﴿فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ (٦) وهنا يكمل كلمة التوحيد ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ ..﴾! واحتصار كيان محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) في نفسه بأنه بشر ، كلمة يقولها المرسلون أجمع : ﴿قَالَتْ هُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا

(١). الدر المنثور ٤ : ٢٥٧ . اخرج الطبراني وابن مردويه عن أبي حكم قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : ..

كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٤ : ١٢﴾ فهو بشر في كل ما للبشر.

ثم ولا يستثنى هو وهؤلاء إلا في وحي الرسالة : ﴿يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ فيستثنى عن بشريته كل خطأ وشر ، دونما استقلال بجنب الإله ، ولا استغلال لشأن من الإله ، وإنما «بشر رسول» : ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ (١٧ : ٩٣).

إنه بشر كسائر البشر في جسمه وروحه محمد ، اللهم إلا في روحه كرسل حيث يمتاز بها عن سائر البشر! فهو في حاجيات ومتطلبات البشرية كسائر البشر يأكل ويمشي في الأسواق ويتزوج وينام ويفيق ... ولكنه معصوم بالوحي عن أخطاء البشر وكلما ينافي الرسالة الإلهية من مثلث العصمة : تلقيا للوحي وإلقاء وتطبيقا في نفسه وسواه!

إن الرسول البشر . أم أي كائن سوى الله . ليس ليشرك بالله أم يشارك الله ، أو يخول عنه ما ليس إلا لله : ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ^(١) لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ ..﴾ (٣ : ٧٩) كما وأن البشر ليس ليمنع عن رسالة الوحي لأنه بشر رغم ما يهرفه الخارفون : ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾ (٦ : ٩١) ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ (٣٢ : ٢٤) ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ (٢٣ : ٣٣) ﴿فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ﴾ (٦٤ : ٦) ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ (٧٤ : ٢٥)!

إن كيانه محمد كرسل يختصر فيما يوحى إليه من ربه دون استمداد بمن سواه شورا وسواه او اجتهدا من رأيه ، ف ﴿مَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ. إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ فلا يتجّه في نفسه او يواجه العالمين ألا بالوحي ﴿قُلْ إِنَّمَا

أُنذِرْكُمْ بِالْوَحْيِ ﴿١﴾ إِنَّ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ ﴿٢﴾!

ثم هذه الآية الوحيدة تحمل توحيديات عدة : ١ . توحيد محمد (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) في البشرية كونا وكيانا ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ ٢ . توحيد نبوته المختصرة في وحي الله ﴿يُوحَى إِلَيَّ﴾ ٣ . توحيد الله في كافة شؤون الألوهية : ﴿أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ ٤ . توحيد اللقاء فلا يرجوا الموحد إلا لقاءه : ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ﴾ ٥ . توحيد العمل في الصالح لذلك اللقاء : ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾ : ٦ . وتوحيد العبادة لله : ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾!

١ . ف «قل إنما أنا في البشرية مثلكم» «يوحى الي». ولكن خصني بالنبوة دونكم»^(١) لا أزيد ولا انقص عن نوع البشر كما يقتضيه «انما» بحصرها كيانه (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) في البشرية المماثلة.

٢ . ﴿يُوحَى إِلَيَّ﴾ وانا في النبوة كسائر من يوحى اليه مهما كانت بيننا درجات ، ليس نازلتها خارجة الوحي ، ولا عاليتها أعلى من الوحي ، وليس الوحي إلا اتصالا علميا معرفيا وعمليا خارق العادة المستمرة بالله.

٣ . ومادة الوحي ﴿أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ : هي ترك الإشراك في كافة دركاته وهي هي المحجب كلها ، التي تحول دون لقاء الرب ، فاللقاء المعرفي الزلفى للرب ، ولقاء رحمت الرب ، لزامه خرق المحجب الإشراك في كافة دركات الإشراك! لترقى درجات اللقاء ، فاخترق كل دركة ارتقاء الى درجة ، كما اختلاق كل دركة تنزل عن درجة فهناك كفر وبعد

(١) نور الثقلين في الاحتجاج للطبرسي عن أبي محمد الحسن العسكري قال قلت لابي علي بن محمد عليهما السلام . الى ان قال : ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ يعني أكل الطعام ﴿مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ يعني : قل لهم : انا في البشرية مثلكم ولكن ربي خصني بالنبوة دونكم ...

مطلق للمشرك والملحد المطلق ، وهنا لقاء مطلق للموحد المطلق ، وبينهما درجات بعضها فوق بعض ودركات بعضها تحت بعض.

أترى ان وحيه مختصر في ﴿أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ ومن وراءه أصول أخرى وفروع؟ علّه لأنه الأصل الذي تتبناه كافة الرسالات الإلهية ، وسائر الأصول وكل الفروع تتبنى ذلك الأصل! ولأن أصل الرسالة هنا أصل موضوع «يوحى الي» ثم ﴿أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ ومن ثم ثالث الأصول المعاد ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ﴾ ثم الأعمال التي تنتجها الأصول ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾!

(٤) ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ﴾

وطالما الرب واحد ولكنما لقاء الرب درجات حسب مختلف المقامات والقابليات والفاعليات ، ف «ربه» تلمح الى مقام الملاقي الخاص به في لقائه ، و ﴿كَانَ يَرْجُوا﴾ تضرب الى عمق الماضي المستمر ، ثم ﴿فَلْيَعْمَلْ .. وَلَا يُشْرِكْ﴾ هما دعامتان للحصول على ما يرجوا من لقاء ربه ، والوصول إليه.

في سائر القرآن اللقاء المرجو للصالحين لقائان : لقاء الله ولقاء الرب ، سواء أكان في الدنيا والآخرة ام فيهما ، كما أن هناك لقاء في الآخرة لغير الصالحين لا يرجونه وهو الحشر إلى يوم الله وعالم الله ، ورجاء اللقاء يخص الصالحين بما قدموا من صالحات : ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (٢٩ : ٥) ولا مقابل ومضاد لرجاء اللقاء إلا الكفر به والمرية فيه وعدم رجاءه.

وآيتنا رجاء اللقاء تعنيان فيما تعنيان لقاء الزلفى المعرفي في الحياتين مهما كان في الأخرى أهدي سبيلا ، كذلك ولقاء ثوابه ، دون اختصاص بالأولى وإن كانت الأخرى أنبل واجلى ، وقد تشملهما ﴿الَّذِينَ يَطْنُونَ أَنفُسَهُمْ يَخْلَقُ لَهُمْ مِنْ دُونِهِمْ آلًا﴾

رَبِّهِمْ وَأَتَّخِذُوا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٨﴾ فلا تخص الرجاء الحياة الحساب فانها متيقنة فوق الرجاء ولا تكفيها الرجاء وانما ﴿يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ﴾ في مثلث اللقاء بما فيه اللقاء القرب الزلفى ولقاء الثواب ، إذ لا يحتمان على الرب قضية الحالة الايمانية العوان بين الخوف والرجاء.

فإذا قال «فمن كان يوقن لقاء ربه» اختص بأصل المعاد ، وحين يقول «فمن كان يرجو لقاء الله» يعمه والآخرين المرجوين للمؤمنين! فيما تتوفر كافة الربوبيات الرحيمية لرب العالمين هنالك يتحقق اللقاء التام والمطلق دونما حجاب ، اللهم إلا حجات ذات الالوهية فانها لزام الذات ، كما حصل للرسول محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) في مقام «أو أدنى» حيث «تدلى» فلم يبق بينه وبين الله احد ولا من حجب النور حتى نور ذاته (صلى الله عليه وآله وسلم) فأصبح عيناً كلاً ، متغافلاً عما سوى الله.

ثم وفيما دونه من لقاء ، تستمر الموازنة بين العمل الصالح للقاء وبين اللقاء.

(٥) ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾ لما يرجوه من لقاء ربه معرفة وثواباً أمّاذا؟.

عملاً صالحاً في مادته ، في علانيته وسريته ، زوايا ثلاث في صلاح العمل تتبنى إصلاحه ، فانه «لا قول إلا بعمل ولا قول ولا عمل إلا بالنية ، ولا قول ولا عمل ولا نية إلا باصابة السنة» فإصابة السنة هي مادة العمل وعلانيته ، والنية هي سريته.

فلا تنفع النية الصالحة ﴿لِقَاءَ رَبِّهِ﴾ ما لم يعمل ، ولا ينفع العمل الصالح ﴿لِقَاءَ رَبِّهِ﴾

ما لم ينو ، ولا ينفع العمل بالنية الصالحة ﴿لِقَاءَ رَبِّهِ﴾ ما لم يصب السنة.

ومن صلاح العمل هو خلوصه لله دون اي اشارك فيه لمن سوى الله.

﴿(٦) وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ فالمشرك بالله لا يعبد الله ، وطالما المؤمن يعبد الله دون إشراك في الألوهية ، ولكنه قد يشرك في العبودية رثاء أو سمعة إما ذا : ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ .

عبادة الرب لها جنبات قوامها النيات ، ثم ظواهرها ومظاهرها ، فلا إشراك في نفس العمل في نفسه أو مقدماته ولا في نيته باعثا ولا غاية في أية زاوية من مثلث الزمان ولا إشراك فيها لأحد حتى نفسه أن يعبد ربه حظوة روحية أو ثوابا أو فرارا عن عقاب أم حالة خارقة للعادة تحصل لبعض العابدين ، فالعبادة الصالحة للقاء ربه مطلقا متحللا عن أية واسطة ، هي المتحللة عن أي إشراك كما يقول أهلها «ما عبدتك خوفا من نارك ولا طمعا في جنتك بل وجدتك أهلا للعبادة فعبدتك»!

فالعمل العبادي بادئ من أسفل الدرجات الى أعلى الدرجات وبينهما متوسطات ، من عبادة باطلة ، ثم صحيحة غير مقبولة غير قابلة للقاء ربك ، ثم مقبولة قابلة ولكنها درجات الى مقام التدلي . «او أدنى» وهو أعلى الدرجات.

ومن أسفل الدرجات العبادة الباطلة علانية وسرا ، حيث تفقد شروط الصحة في ظاهرها ، والنية الخالصة الصادقة في باطنها ، ثم الفاقدة لإحدهما ..

والفاقدة لصالح النية هي التي يؤتى بها رثاء حين يؤتى ، أم بعد حين حيث يجب أن يظهر بعد خفاء ويحمد عليه فتشملها الرثاء ، ف «الإبقاء على العمل أشد من العمل إن الرجل ليعمل فيكتب له عمل صالح معمول به في السر يضعف أجره سبعين ضعفا فلا يزال به الشيطان حتى يذكره للناس ويعلنه فيكتب علانية ويمحى تضعيف أجره كله ثم لا يزال به الشيطان حتى يذكره للناس. الثانية ويجب أن يذكر ويحمد عليه فيمحي من

العلانية ويكتب رثاء ، فأتقى الله امرء صان دينه فان الرياء شرك» ^(١) بل و «إن يسيرا من الرياء شرك» ^(٢) سواء أكان قبل العمل ان تخبر غيرك أنك سوف تعبد ربك ، او معه ان ترائي غيرك في العمل ، ام بعده ، ان تخبر بما عملت سرا وجهرا بنية صافية ، فالعمل الصالح الخالي عن الرياء هو المتحلل عنه في مثلث الزمان.

فقد تعبد ربك علانية دون رثاء إذ لا ترائي الناس ، فانما تعبد بينهم تقربا الى ربك إذ أمرك كالحج وصلاة الجماعة ، او تقريبا لغيرك وتشويقا كالإنفاق جهرا ، وهي عبادة صالحة خالية عن إشراك.

وقد تعبدته سرا إذ لا تجد أحدا ترائيه وأنت تحب ان ترى ^(٣) ثم تخبر أنك عبدت ربك سرا ، او تعبدته سرا مخلصا ولا تحب الرثاء ، ثم الشيطان يملك على المرائة فتخبر أم أخبرت غيرك أنك سوف تعبد ربك سرا ، ولكنك أخلصت حين العبادة ثم لم تخبر أحدا بعدها ، فأنت فيها كلها مرء

(١) الدر المنثور ٤ : ٢٥٧ . اخرج البيهقي عن أبي الدرداء ان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : ...
(٢) المصدر . اخرج الحاكم وصححه والبيهقي في شعب الايمان عن معاذ بن جبل سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول : ان يسير من الرياء شرك وان من عادى اولياء الله فقد بارز الله بالمحاربة وان الله يحب الأبرار الأخفياء الأتقياء الذين ان غابوا لم يفتقدوا وان حضروا لم يدعوا ولم يعرفوا قلوبهم مصابيح الدجا يخرجون من كل غبراء مظلمة.

واخرج احمد والبيهقي عن أبي امامة عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : ان احسن اوليائي عندي منزلة رجل ذو حظ من صلاة احسن عبادة ربه في السر وكان غامضا في الناس لا يشار اليه بالأصابع عجلت منيته وقل ترائه وقلت بواكيه.

(٣) نور الثقلين ٣ : ٣١٥ ح ٢٦٤ في اصول الكافي عن أبي جعفر (عليه السلام) في الآية . قال : الرجل يعمل شيئا من الثواب لا يطلب به وجه الله انما يطلب تزكية الناس يشتهي ان تسمع به الناس فهذا الذي أشرك بعبادة ربه ..

رغم اختلاف دركات الرثاء.

فان كانت عبادة واجبة بطلت ، وان كانت مستحبة سقطت ، وعلّ الاخيرة صحيحة لأنك فيها تأتب عما نويت.

ف ﴿لَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ لا تنحصر بحال العمل ، بل تشمل كل الأحوال ، فمن مات عن عمل ولم يشرك به غير الله ، فهو صالح خالص لله ، ومن مات عن عمل أشرك به غير الله لم يكن صالحا ، سواء أتى به حينه مراعاة الناس ، أم اخبر به قبل او بعد وقد أتى به سرا ، أم ولم يخبر ولكنه كان يحب أن يراه الناس ^(١) ، كل ذلك رثاء الناس مهما اختلف الرثاء فيها.

ثم ما وقع رثاء لا ينقلب عما وقع ، وما وقع صالحا دون رياء ينقلب الى رياء إذا استقبله الرثاء ، ولا ينقلب رثاء إن كانت بنية صالحة مهما تقدمه الرثاء.

فمهما أشرك العابد في عبادة ربه أحدا سوى ربه ، فعمله . إذا . غير صالح ، حتى إذا كان هذا الأحد نفسه أنه يرتاح ويتتهج نفسيا من هذا العمل ، اللهم إلا إذا كانت راحة في مرضات الله دون شهوة النفس ، فضلا عما إذا ارتاح برثاء الناس ، أظهر لهم عملا أم أسر عنهم ف «إذا جمع الله الأولين والآخرين ببقيع واحد ينفذهم البصر ويسمعهم الداعي قال أنا خير شريك كل عمل عمل لي في دار الدنيا كان لي فيه شريك فأنا أدعه اليوم ولا أقبل اليوم إلا خالصا ..» ^(٢)

(١) الدر المنثور ٤ : ٢٥٥ . اخرج هنا في الزهد عن مجاهد قال جاء رجل الى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فقال يا رسول الله : أتصدق بالصدقة والتمس بها ما عند الله وأحب ان يقال لي خيرا فنزلت : ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا﴾ ..

(٢) المصدر اخرج الطبراني عن شداد بن أوس قال قال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) : ... ثم قرأ ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا﴾

والإشراك في العبادة قد يكون في نفس العبادة كان يتوضأ بمساعد^(١) أو يصلي متكأ ام بمساعد وهو قادر على الصلاة دون متكأ او مساعد.

ثم الإشراك في نية العبادة قد يكون في باعثها او غايتها ام هما معا ، فمن لا بيعته أمر الله ورضوانه إلا بأمر آخر فقد أشرك فيها ، ومن يتبعث بأمره تعالى ولكن أخف مما يكون هناك امر آخر فقد أشرك فيها ، فالإخلاص في باعث العبادة وغايتها شرط لصحتها ، وقد لا ينافيه ان يسره ظهورها^(٢) دون ان يكون باعثا او غاية لها.

وإشراك أحد في عبادة ربه يشمل رثاء الناس فيها ، وإرضاء نفسه ضمن ما يرضي ربه ، والاشتراك فيها وقد أمر أن يأتي بها وحده ، وكل

. **صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا** .

(١) المصدر ح ٢٦٧ في الكافي علي بن محمد بن عبد الله عن ابراهيم بن إسحاق الأحمر عن الحسن بن علي الوشا قال : دخلت على الرضا (عليه السلام) وبين يديه إبريق يريد ان يتهيأ للصلاة فدنوت منه لأصب عليه فأبى ذلك وقال : مه يا حسن! فقلت له : لم تنهاني ان أصب عليك تكره ان أوجر؟ قال : توجر أنت وأوزر انا؟ قلت له : وكيف ذلك؟ قال : اما سمعت الله عز وجل يقول : ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ وها أنا ذا أتوضأ للصلاة وهي العبادة فأكره ان يشركني فيها احد وروى انه (عليه السلام) دخل يوما على المأمون فرآه يتوضأ للصلاة والغلام يصب على يده الماء فقال : لا تشرك بعبادة ربك أحدا ، فصرف المأمون الغلام وتولى إتمام الوضوء بنفسه.

(٢) نور الثقلين ٣ : ٢١٥ القمي عن زرارة عن أبي جعفر (عليه السلام) قال : سألته عن الرجل يعمل الشيء من الخير فيراه انسان فيسره ذلك؟ قال : لا بأس! ما من أحد الا وكتب ان يظهر له في الناس الخير إذا لم يصنع ذلك لذلك . أقول يعني لم يكن ظهوره من بواعثه او غاياته.

ذلك يشملہ النفي ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ ، ولكن في شمول «أحدا» لنفسه خفاء فلا تبطل.

وأما أن يأتي بها دون إشراك أحد ، يتغني بها الفرار عن العقاب أو طلب الثواب ، فلا تشملها الآية مهما كانت عبادة العبيد أو التجار ، دون الأحرار ، فهذه درجات ثلاث للعبادة الصحيحة المقبولة حيث لا شريك فيها ولا في نيتها مع الله.

(١٩) سُورَةُ مَرْيَمَ مَكِّيَّةٌ

وَأَيَّاهَا ثَمَانٍ وَتِسْعُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿كهيعص﴾ (١) ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا (٢) إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا (٣) قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا (٤) وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا (٥) يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا (٦) يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا (٧) قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا (٨) قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا (٩) قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا (١٠) فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ

فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا (١١) يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا
(١٢) وَخَنَانًا مِّنَ لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا (١٣) وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا (١٤) وَسَلَامٌ
عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾

سورة تسمت بمريم ، ولا تجد في سائر القرآن امرأة اخرى وحتى أفضل منها كفاطمة
(عليها السلام) تسمت باسمها سورة أو يؤتى باسمها في آية ، ومريم آتية في أربع وثلاثين آية
وخامسة هي «سورة مريم»! أترى ذلك لفضلها على نساء العالمين؟ وفاطمة أفضل منها
حسب النصوص الإسلامية ^(١) وذكر الاسم في القرآن لا يدل على فضيلة ، فزيد يذكر في
القرآن ولا يذكر الاكثرية الساحقة من النبيين ، ولا احد من خلفاء الرسول المعصومين ولا
من صحبه الكرام الميامين!

ورغم ان القرآن ليس من دأبه ذكر النساء بأسمائهم حفاظا عليهن حتى في أسماءهن ،
نراه يدأب في ذكر مريم مرات عدّة ليس إلا ذودا عنها ما مسته

(١) راجع سورة الكوثر من الفرقان ج ٣٠.

اليهود والنصارى من كرامتها ونسبتها الى غير اللائق بحرمتها ، فكان من الواجب الرسالي في الوحي الأخير ذكرها في مذكرات شأنها بعصمتها وطهارتها ، كما وفي سائر القرآن مذكرات لعصم المرسلين حيث تعرضت في محرفات من كتابات الوحي لما لا يليق بساحة الرسالة ولا الايمان بل ولا أي إنسان! وآي الذكر الحكيم عاصمة عصم الوحي ، كما هي عاصمة الرسالة والوحي.

* * *

﴿كهيعص﴾ (١).

إنها الفريدة في الحروف المقطعة القرآنية في العدد التركيبي ، ففي الشورى ﴿حم عسق﴾ خمسة في تركيبين اثنين ، وهنا خمسة في تركيب واحد ، ثم لا خمسة في سائر القرآن ، والمتبع من قراءتها هي المتواترة في كتب القرآن «كاف . ها . يا . عين . صاد» دون سائر القراءات (١).

ولا بد هنا من رباط بينها ومغزى السورة ، كما في سائر الحروف المقطعة مهما كانت هنالك إشارات أخرى لا تحويها السورة ، فإنها مفاتيح كنوز القرآن وبرقيات رمزية إلى نبي القرآن!

روايات من الفريقين تدلنا أنها حروف من أسماء الله على اختلافها في

(١) من كسر الهاء وفتح الياء وهي قراءة أبي عمرو وابن مبادر او (مناذر) والقطعي عن أيوب ومن عكسها وهي قراءة حمزة والأعمش وطلحة والضحاك عن عاصم ، ومن امالتهما كسرا فيهما وهي قراءة الكسائي والمفضل ويحيى عن عاصم والوليد بن اسلم عن ابن عامر والزهري وابن جرير ، ومن ضم الهاء وفتح الياء وهي قراءة الحسن ويروى عنه عكسها ايضا وروى صاحب الكشف عنه ضمها ، واشتمامهما شيئا من الضمة (تفسير الفخر الرازي ج ٢١ : ٧٨)

«ما هي تلك الأسماء» ^(١) وهذه الأسماء المرموز بها لا تختص بهذه السورة ، فقد تأتي بألفاظها أو معانيها في السور كلها! ويروى عن القائم المهدي (عجل الله فرجه الشريف) أنها إشارات الى رزية العاشور ^(٢) وليس بذلك البعيد ، لمكان المشابهة التامة بين الحسين (عليه

(١) الدر المنثور ٤ : ٣٥٨ . اخرج ابن مردويه عن الكلبي انه سئل عن ﴿كهيعص﴾ فحدث عن أبي صالح عن ام هاني عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : كاف هاد عالم صادق» أقول : لم تذكر هنا اشارة الياء وقد ذكرت فيما رواه القمي عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال : هذه اسماء الله مقطعة واما قوله ﴿كهيعص﴾ قال : الله هو الكافي الهادي العالم الصادق ذو الايادي العظام» ف «ذو الايادي من اليد فهو رمز الياء وفي معاني الاخبار باسناده الى محمد بن عمارة قال : حضرت عند جعفر بن محمد (عليهما السلام) فدخل عليه رجل فسأله عن ﴿كهيعص﴾ فقال (عليه السلام): «كاف» كاف بشيئتنا «ها» هاد لهم «يا» ولي لهم «عين» عالم باهل طاعتنا «صاد» صادق لهم وعده حتى يبلغ بهم المنزلة التي وعدهم إياها في باطن القرآن» أقول : وهذا يختلف في اشارة الياء «ولي» عن سابقه «ذو الايادي» وظاهر الاشارة فيها الى اسماء الله تعالى هو الحرف الاول ، فذو الايادي مفضل على «ولي» الا ان تقول الولاية الى ذي اليد. وفي المجمع روي عن امير المؤمنين (عليه السلام) انه قال في دعائه : اسألك يا كهيعص.

(٢) نور الثقلين ٣ : ٣١٩ في كتاب كمال الدين وتمام النعمة باسناده الى سعد بن عبد الله القمي عن الحجة القائم حديث طويل وفيه «قلت : فاخبرني يا بن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ، عن تأويل ﴿كهيعص﴾؟ قال (عليه السلام) : هذه الحروف من أنباء الغيب ، اطلع الله عبده زكريا عليها ثم قصها على محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وذلك ان زكريا (عليه السلام) سأل ربه ان يعلمه اسماء الخمسة فاهبط الله عليه جبرئيل (عليه السلام) فعلمه إياها فكان زكريا إذا ذكر محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وعليا (عليه السلام) وفاطمة (عليها السلام) والحسن (عليه السلام) سرى عنه همه وانجلي كربه وإذا ذكر الحسين (عليه السلام) خنقته العبرة ووقعت عليه .

السلام) ويحيى ، و ﴿كَهْيَعَص﴾ هي ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾ وقد تعنيهما هذه الخمس فيما تعنيه من إشارات ، ما وصلتنا منها إلا هذه وتلك.

وماذا يمنع أن تكون هذه أسماء لله أو حروفا من أسماء الله ، وبضمنها إشارات أخرى منها رزية الحسين (عليه السلام) وهو اسم من أسماء الله وقد حقق كفاية الكافي وهدايتيه وعمله وصدقه ويده وولايته في جهاده وجهوده ، وهو صنو عظيم من يحيى بن زكريا في ﴿لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾ وفي استشهاديه اما ذا من امره المرير .

﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾ (٢) إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ﴿٣﴾.

. البهرة فقال ذات يوم : إلهي ما بالي إذا ذكرت أربعاً منهم (عليهم السلام) تسليت بأسمائهم من همومي وإذا ذكرت الحسين (عليه السلام) تدمع عيني وتثور زفرتي؟ فأنبأه تبارك وتعالى عن قصته فقال : ﴿كَهْيَعَص﴾ فالكاف اسم كربلاء والهاء هلاك العترة. والياء يزيد لعنه الله وهو ظالم الحسين (عليه السلام) والعين عطشه والصاد صبره ، فلما سمع بذلك زكريا (عليه السلام) لم يفارق مسجده ثلاثة ايام ومنع فيها الناس من الدخول عليه واقبل على البكاء والنحيب وكانت ندبته : إلهي أتفجع خير خلقك بولده؟ أنزل بلوى هذه الرزية بفناءه؟ ألبس عليا وفاطمة ثياب هذه المصيبة إلهي أتحل كربة هذه الفجيعة بساحتهم؟ ثم كان يقول : إلهي ارزقني ولدا تقر به عيني عند الكبر ، واجعله وارثا ووصيا واجعل محله مني محل الحسين (عليه السلام) فإذا رزقتني فافتني بحبه وافجعني به كما تفجع محمدا حبيبك (ص) بولده ، فرزقه الله يحيى (ع) وفجعه به وكان حمل يحيى ستة أشهر وحمل الحسين (عليه السلام) كذلك.

وفي مناقب ابن شهر آشوب عن إسحاق الاحمري عن الحجة القائم (عليه السلام) مثله سواء.

أقول : لا غرو ان ذلك الترتيب اسم واحد او اسماء من الله تعالى تحمل في حروفها إشارات الى ضحية الله

وثأره.

كأن «ذكر» خبر ك ﴿كهيعص﴾ ام «هذا» اما ذا؟ والأول أولى لذكر ما يصلح كونه المبتدء ، ويناسبه بعض التأويل ، فرحمة الكفاية والهداية واليد الولاية والعلم وصدق الوعد ، رحمت خمس إلهية لعبده زكريا ، وكلها رحمت ربانية لعباد الله المخلصين ، اما ذا من رحمت تذكر في هذه السورة لمريم (عليها السلام) واضرابها من المكرمين .. وقد يعني «عبده» الرسول محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) ف «زكريا» إذا عطف بيان ل «رحمة» ف ﴿كهيعص﴾ و ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ﴾ ، هي ذكر رحمة ربك زكريا لعبده محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) او المعنيان معنيان ، ف «عبده» يشملهما على البدل وهو أجمل.

ومن رحمته استجابة دعوة عبده ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾ . ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ. فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ (٢١ : ٩٠).

والنداء هي الدعوة جهرا للمدعو مهما كانت خفية عن الآخرين وكما ﴿نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنْ أَنْتَ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (٢٦ : ١٠) و ﴿إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ (٧٩ : ١٦) فلا تنافي «نداء» كونها «خفيا» كما الوحي الى موسى جلي لموسى وخفي عمن سواه ، ولا سيما بالواد المقدس إذ لم يكن معه أحد حتى أخيه هارون المشارك له في وحي النبوة أحيانا.

ومن آداب الدعاء كونها خفية : ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ (٧ : ٥٥) ابتعادا عن الرئاء ، و ﴿إِنْ تَجَهَّرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ (٢٠ : ٧) فلما ذا الجهر إذا وان لم تكن رثاء؟!.

وليس من لزوم النداء العبد حتى توجه نداء زكريا بتخيّل البعد عن ربه

تخضعاً ، رغم ان الدعاء حالة القرب حتى للبعيد عن ساحة القرب فضلاً عن المقربين!
انه يناجي ربه بعيداً عن أسمع وعيون الناس ، إخلاصاً لربه وكشفاً عما يثقل كاهله
وتجنباً عن مقالة هازئة : زكريا يطلب ولداً وقد اشتعل رأسه شيباً وكانت امرأته عاقراً ، يدعو
في سر مستسر وان كان ربه يسمع دون دعاء ويرى دون رثاء ولكنما المكروب يستريح الى
الدعاء وقد أمره ربه بالدعاء : ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ حيث الدعاء التماس
والتجاء وهو مخ العباداة :

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ (٤).

عرض متين من نبي أمين لشروط لاستجابة الدعاء ومقتضيات وعدم الموانع فيما
لديه: «رب» دون «يا» لتكون اقرب لفظياً كما هو قريب معنوياً فان «يا» لنداء البعيد!
«اني وهو العظم مني» وإذا وهن العظم وهو المتن المكين فسائر البدن أو هن وسرعة الفناء
إليه أهون ﴿وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾ شعلة النور والبيضاء حتى لا تبقي سواداً ، فانه بتعبير ما
ألطفه عن تكاثر الشيب في الرأس كأنه مشتعل يقهر بياضه وينصل سواده ، سرعة في
تضاعف الشيب وتزايد وتلاحق مدده حتى يصير في الإسراع والانتشار كاشتعال النار ،
يعجز مطفيه ويغلب متلافيه.

وترى الشيب من شروط استجابة الدعاء وقد يشيب الإنسان على الشقاء؟ ﴿وَلَمْ
أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ لم تسبق لي منذ التكليف لحد المشيب شقوة في دعائك : دعائك
إياي فيما امرتني ونهيت حيث أطعت دونما شقاء وعناء ، ودونما تعنت وكبرياء ، وهذا من
اصول إجابة الدعاء ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُون﴾ (٢ : ٤٠) فعهدي هو
عهد العبودية

الخالصة : ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ. وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ (٣٦ : ٦١) ومن عهدكم استجابة الدعاء ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ ﴿وَلَمْ أَكُنْ﴾ فيما مضى «بدعائك» إياي وهو العهد الأول ﴿رَبِّ شَقِيًّا﴾ وعلى ضوئه ، ولم أكن بدعائي إياك وهو العهد الثاني ﴿رَبِّ شَقِيًّا﴾ فان دعاء الأَشْقِيَاء لا تستجاب ، وإذ لم أكن شقيا بدعائك إياي لم أكن شقيا بدعائي إياك ^(١).

هذه سابقتي المشرقة في بعدين قبل المشيب ، أفبعد المشيب وانا أخرى بالاستجابة وأرحم أنت لا تستجيب؟.

ورغم «إني وهن العظم مني» فلا يهن العزم منك ، ومع أنه ﴿اشْتَغَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾ فرحمتك مشتعلة للشيب أكثر مما قبل المشيب ، فحالي الضعيفة وماضي من حالي إذ ﴿لَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ تقتضي رعاية حالي واستقبالي ، وكما لم أكن في حال بدعائك رب شقيا فلا تكن بدعائي ربّ إلا حفيا ، فقد عودتني الاستجابة في فتوتي وقوتي فما أحوجني في هرمي وكبرتي! ثم وليست هذه الاستجابة لصالحى شخصا ، بل والحفاظ على مستقبل الرسالة وراثته الدعوة :

﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا﴾ (٥).

ليس لي ولد يرثني رضيا ، وإني خفت من يليني من ورائي ان يصبحوا أخلافا متخلفين ، فلا يقوموا على تراث النبوة مالا وحالا ، تضييعا للمال في غير موضعه ، وتحويلا للحال الى غير حال.

(١) ف «دعائك» يعني المعنيين على الترتيب في الأدب اللفظي باضافة المصدر الى الفاعل كما في «عهدي» ثم اضافته الى المفعول كما في عهدكم ، وكما هو الترتيب المعنوي ان استجابة الدعاء من مخلفات استجابة العبد دعاء ربه وما الطف به جمعا لهما لفظيا ومعنويا.

ورغم ان حالي وماضيّ واستقبالي تقتضي إجابة دعائي لصالح استمرارية الدعوة والحفاظ على بيت النبوة ، ولكني «وهن العظم مني» كمانع أول للإيلاد ﴿وَكَاثَتْ أَمْرًا قِي عَاقِرًا﴾ كمانع ثان للولادة ، ولكنك لا يمنعك أيّ مانع ولا يقف دون مشيتك اي رادع ، «وكانت» تلمح لكونها عاقرا منذ ماض بعيد وهي الآن شيخة فأصبحت ذات عقرين! فهذه . إذا . ثلاث!

﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا (٥) يَرِثُنِي وَيَرِثْ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ (٦).
 ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ (٣) :
 (٣٨) ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ (٢١ : ٨٩).

يدعو ربه بكل ضراعة آيسا من نفسه ، وهنا لعظمه وعقرا لزوجته ، راجيا ربه أنه سميع الدعاء وهو خير الوارثين ، فهب لي وليا يرثني خيرا وأنت خير الوارثين ، وقد تشير «من لدنك» إلى أن مطلوبه يحمل رحمة لدنية رحمانية حيث الأسباب العادية قاصرة لمكان العقر والشيخوخة ورحمة لدنية رحيمية هي النبوة وهما من خوارق العادة في الرحمتين ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ..﴾!

وهنا ﴿وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ تصرف ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثْ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾ عن وراثة النبوة ، او تعمها لكل وراثة من مال ونبوة ^(١) فلو كانت «يرثني» مختصة بوراثة النبوة وهي تتطلب في أصلها وفرعها كون الوارث رضيا ، لكانت

(١) الدر المنثور ٤ : ٢٥٩ واخرج الفرياني عن ابن عباس قال كان زكريا لا يولد له فسأل ربه فقال : ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا يَرِثُنِي وَيَرِثْ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾ قال : يرثني مالي ويرث من آل يعقوب النبوة.

﴿وَأَجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ طلبا لتحصيل الحاصل ، أو أن الله يورث النبوة لغير المرضي فيدعوه زكريا ﴿وَأَجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾!

فلقد كانت دعائه ذات بعدين ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا يَرِثُنِي ..﴾ ﴿وَأَجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ وكما في آل عمران : ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ..﴾ (٣٨) كتصريحه ثانية ، ثم وتلميحه في الأنبياء ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ (٨٩).

فلا يطلب ويستوهب وليا غير رضي ، ولا رضيا غير ولي ، وانما يطلب وليا رضيا يرثه وهو الولد من صلبه فميراث النبوة . على مجازها . لا يختص بذرية وارثة ، كما وهذا الإرث لا يقتضي كون الوارث رضيا . فقد يدعو زكريا ربه أن يهبه ولدا هو مجمع الوارثين ، ولو اختصت بوارثة النبوة أصبحت مجازا لا محسن له ولا دليل ، وسقطت «واجعله رضيا» عن الفائدة . فليعن ب ﴿وَلِيًّا يَرِثُنِي﴾ ميراث المال والأعم بقرينة ﴿وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾ وب ﴿وَأَجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ النبوة المجعولة في وارث المال ، وعلى أية حال فارث المال أصل قاطع في «يرثني» ولكي ينضبط ﴿وَأَجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾!

فهنا الحديث المختلق على الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) هضما لفدك البتولة الزهراء (عليها السلام) ، مصلحية الحفاظ على الخلافة البتراء «نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركنا صدقة» يردّ الى قائله لمخالفته نصا من كتاب الله ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ..﴾ وحيث لا تختص بإرث النبوة ، بل لا تورث النبوة حتى تشملها ^(١) ، وإنما هي الاستفادة من ﴿وَأَجْعَلْهُ

(١). فالورثة في وجه عام تختص بالمال حيث ينتقل بحكم الله الى الورثة ، فاما العلم والتقى ، والرسالة واضرابها من الخصائل المعنوية فلا تورث كما المال ، اللهم إلا مجازا ، ان الله يجعل النبوة في ولد النبي فيعبر عنه بالورثة لمشابقتها وراثة المال رغم الفوارق .

رَبِّ رَضِيًّا ﴿ جعلها ثانيا باصطفاء بعد جعل الولادة.

ولان عموم الحكم في هذا المختلق معلل بالنبوة «معاشر الأنبياء» فلا تخصيص فيه إلا تعاميا عن العلة فتغاضيا عن أصل الحكم ، فلا يقبل تخصيصا بالكتاب ان وراثه المال في آل يعقوب تستثنى من عموم الحكم رغم عموم النص ونص العموم في **﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾** (٤ : ١١) أفعلى عمد يترك كتاب الله في عمومه وخصوصه؟ او ان الصديقه الزهراء لم تكن من أولاد الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ام لم تكن مسلمة ترث أباهاماهية؟!.

تقول فيما يروى عنها (سلام الله عليها): «أفعلى عمد تركتم كتاب الله ونبذتموه وراء ظهوركم إذ يقول الله تبارك وتعالى : **﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ﴾** وقال عز وجل فيما اقتص من خبر يحيى بن زكريا **﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا يَرِثُنِي وَيَرِثْ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾** وقال عز ذكره : **﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾** وقال : **﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾** وقال : **﴿إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْأُولَادَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾** وزعمتم ان لا حظوة لي ولا ارث من أبي ولا رحم بيننا! أفخصكم الله بآية أخرج نبيه منها؟! ام تقولون أهل ملتين لا يتوارثان؟! أو لست وأبي من أهل ملة واحدة؟! أم أنتم أعلم بخصوص القرآن وعمومه من النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)؟ **﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾**؟ أغلب على إرثي ظلما وجورا **﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ**

. بينهما ، ولا مجال في هذه الآية لهذا المجاز ، اللهم الا ان يعنى من «يرثني ..» كلا الميراثين والقدر الثابت وراثه المال ، حيث النبوة المذكورة في «وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا».

يَنْقَلِبُونَ .. ﴿١﴾.

هنا «يرثني» يعم الإرثين أو يخص ارث المال. فما ذا يعني ﴿وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾؟
قد يعني يعقوب بن ماثان أخا عمران ابن ماثان أبي مريم ، وكانت امرأة زكريا اخت مريم ، فلأنها من آل يعقوب فأرثه عنها إرث من آل يعقوب ، ولكنه بعيد في عرف القرآن حيث لا يذكر فيه يعقوب إلا ابن إسحاق ، إذا فال يعقوب هم بنو إسرائيل فالإيراث إذا يعم النبوة والمال.

﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾ (٧).
﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (٣ : ٣٩) ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ (٢١ : : ٩٠).

لقد تحققت الاستجابة لتوفر شروطها ، مسارعة في سابق الخيرات وسابغها والدعاء رغبا ورهبا والخشوع لله وقد جمعها في إجمال ﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾.
وقد تعني ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾ إصلاحها عن عقرها لتلد ، وإصلاحها

(١). ج ٦ بحار الأنوار ، يقول صاحب البحار هذه الخطبة من المشهورات بين الفريقين مع بعض الاختلاف في بعض الألفاظ وينقلها هنا عن كتاب «بلاغات النساء» لابي الفضل احمد بن أبي طاهر.

لإيلاء صالح ليصلح رضا ، مهما كانت صالحة ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ ..﴾! كما ﴿وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ لا تلمح لنبوة غير صالحة لمكان الوصف ^(١) ف «نبيًا» يعني رفيعا ف ﴿مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ تعني رفيعا من الصالحين ، لا رضا كسائر الصالحين ، فهي استجابة فوق المستدعى ! حيث النبي يصطفى بين الصالحين وهم المرسلون ف ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ وقد فضل يحيى في هذه الدعاء على جماعة من الصالحين بمن فيهم رسل غير أنبياء.

و ﴿لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾ تنفي غلاما قبله اسمه يحيى ، وقد تنفي معه من كانت من قبل سمته كـيحيى ، ف «سميًا» تشمل الاسم والسمة ، وهكذا كان يحيى ثم من بعده نجد له أسماء في الاسم ، لا في السمة إلا الحسين بن علي (عليهما السلام). ﴿لَمْ نَجْعَلْ ..﴾ دليل أن الله هو الذي سماه يحيى وقد سمى من قبل بعض عباده بأسمائهم ، «وسميًا» لا يخص الاسم إذ ليس بخصوصه كثير الأهمية ، وإنما هو مع السمة والميزة الخاصة وكما الله ﴿فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ (١٩ : ٦٥) حيث الاسم بمجرد ليس ليخص العبادة والاصطبار لها بالمسمى لأن التسمي بأي الأسماء هين ، فالسمي هو المثل في الاسم والسمة وهي أولى وطالما المسيح كان سميه في سمات عدة فهو بعده وتنقصه

(١). فلا يقاس ب «وَأَجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا» حيث يقابله غير الرضى ، فهو قبل ذلك الجعل ليس من الصالحين فضلا عن كونه من النبيين ، ولكن الصالحين منهم نبي ومنهم غير نبي وركريا طلب فقط صلاحه في «وَأَجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا» فزاده الله تعالى نبوة «وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ»!.

سمة الشهادة الخاصة وهي للإمام الحسين (عليه السلام) خاصة ، وكما لم يجعل له (عليه السلام) من قبل سمي في الاسم ولا الشهادة ، اللهم إلا يحيى في سمة الشهادة! فهو أسمى الاسماء ليحيى بعده ^(١) وبعده المسيح (عليهما السلام).

وترى ان الله بشره دون وسيط كما تلوح ﴿يَا زَكَرِيَّا .. لَمْ نَجْعَلْ لَهُ ..﴾؟ ام بوسيط الملائكة ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ﴾؟ وكيف الجمع بينهما! .. ان قول ملائكة الوحي المرسلين الى الرسل هو قول الله ، فلا فرق إذا بين ﴿قَالَ رَبُّكَ ..﴾ و ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ﴾ أو أنه نداء ان ، بواسطة الملائكة أولا ، ثم دون وسيط ام بوسيط ملك الوحي الخاص جبريل ثانيا! ﴿قَالَ رَبِّ اَنْىَ يَكُونُ لِىْ غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَاَتِيْ عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ (٨).

وترى كيف يختار زكريا فيما يدعو ويختار ، فلو كان بعيدا عن رحمة الله أو مستحيلا في قدرة الله لما كان يختاره بكل ضراعة وإصرار؟ وقد عرض في معرض دعائه مانعا منه فيه وفي زوجه ، عقرا وكبرا عتيا ، رجاء من الله أن يزيله فيهب له غلاما رضيا زكيا!

(١) نور الثقلين ٣ : ٢٢٤ عن مجمع البيان عن أبي عبد الله (عليه السلام) في الآية وكذلك الحسين (عليه السلام) لم يكن له من قبل سمي ولم تبك السماء إلا عليهما أربعين صباحا ، قيل له : وما كان بكاءها؟ قال : كانت تطلع حمراء وتغيب حمراء وكان قاتل يحيى ولد زنا وقاتل الحسين ولد زنا وفي ارشاد المفيد روى سفيان بن عيينة عن علي بن يزيد عن علي بن الحسين (عليه السلام) قال : خرجنا مع الحسين بن علي (عليهما السلام) فما منزل نزلا ولا رحل منه الا ذكر يحيى بن زكريا وقتله وقال : ومن هو ان الدنيا على الله أن رأس يحيى بن زكريا اهدي الى يغي من بغايا بني إسرائيل.

إنه لا يتساءل ﴿كَيْفَ يَكُونُ﴾ استبعادا لأصل الولادة أو كيفيتها ، وإنما ﴿أَنَّى يَكُونُ﴾ سؤالاً عن زمانها ، أقرب أم بعيد ، رغم أن ﴿امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ فليكن قريباً لكي تكون لي ولأمة حظوة ، ولا فرق عندك بين تعجيله وتأجيله حيث الكبر والعقر قائم ولا سيما في تأجيله .

وان كان الجواب يلوح باستبعاد لذكرا في الاستجابة ﴿قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ..﴾ فانما هو من قصور فيه وفي زوجه ، ولا أنه كان يستبعد القدرة الإلهية ، أو أنه كان يستبعد الإجابة لأنها خارقة ، فأخذته الحيرة لما بشر بيحيى فانفلت من لسانه «أنى»! إذ لم يتمالكه في عجاب البشرى واستفسار خصوصياتها ، استغراباً من الأسباب ، لا من هبة مسبب الأسباب ، كما ولا يذكر إلا عقراً لامرأته وعتياً لنفسه دون شيء من ربه إلا ما سبق في دعائه ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ ﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾!

هنا يذكر من قصوراته في موانعه : لامرأته عقراً وشيخوخة ، فلو لم تكن عاقراً لم تلد الآن للشيخوخة وهي عاقر شيخوخة! ولنفسه اشتعال الرأس شيخوخة وانحساد الشهوة عتوة : يبسا وجفافاً لنبعة النطفة ، ضعف على ضعف وعقر على عقر فاستعجاب من بشارة الولادة جانبياً ، يستوضح ب «أنى» زمنها وكيفيتها ، لا أصلها المستجاب فيما تطلبه بكل رغبة و :

﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ (٩).

«قال» الله «كذلك» الذي بشرت هو واقع دون منعة مانع ولا دفعة دافع ﴿كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ﴾ : ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ كيف لا ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ أفعيّا بعد عن خلق غلام من أبوين؟.

وترى ﴿خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ﴾ تعني خلق زكريا من أبويه الصالحين للإيلاد؟ فهو أهون من خلق يحيى من أبوين عاقرين ولا أولوية في هذا القياس! أم يعني خلق الإنسان الأول دون أبوين ، المنتهي خلق زكريا إليه؟ والصحيح الفصيح هو الإفصاح عنه ب «وقد خلقت آدم ولم يك شيئا»!.

وقد يلّمح ﴿وَلَمْ تَكْ شَيْئاً﴾ الى خلق المادة الأولية . وهو منها . لا من شيء ، وهو أولوية قاطعة بالنسبة لكل خارقة ، حيث الخلق من شيء أهون من الخلق لا من شيء وينتهي خلق كل شيء الى «لا من شيء».

أو أنه ليس قياسا وإنما تسوية في الخلق الهين بين خلقه من صالحين وبين خلق يحيى منهما بموانعه ف ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيْنٌ﴾ كما ﴿قَدْ خَلَقْتُكَ ..﴾ وكان هينا ، دونما صعوبة عليّ في خارقة العادة ، وهذا هو الواقع في حساب الله ان ليس في خلقه على مختلف المراتب سهولة وأسهل وصعوبة وأصعب ، وإنما ذلك في حسابنا وكما يحدثنا بهذا الحساب : ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ (٣٠ : ٢٧) فالصعب يعيي ولكن الله لا يعيي : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾ (٤٦ : ٣٣)! وقد يعنيهما ﴿وَلَمْ تَكْ شَيْئاً﴾ جمعا بين برهاني قياس المساوات والاولوية!

﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ (١٠).
 ﴿... أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَادْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعُشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ (٣ : ٤١).

ترى وكيف يطلب آية وهو مطمئن ببشارة الله وقد طمأنه ثانيا وعد الله؟ .. انه لم يطلب آية لتدله على صدق الوعد! وما هي الصلة بين آية خارقة وبين صدق الوعد؟ ونفس الوحي آية هي أقوى من كل آية! وسائر الآيات

ليست إلا لتدل المرسل إليهم الى آية الوحي المدعى للرسول!.

إنه يطلب آية لتدله على زمن تحقق البشارة حيث تتوق اليه نفسه ولا يعلمه بأصل البشارة. والنص ﴿اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ﴾ آية مرتبطة به لإعلامه الوقت ، لا مرتبطة بالله لكي يصدق في البشارة ، ام ليتأكد أن البشارة هي من الله وليس من سواه! فان ﴿رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾ برهان لا مرد له على تأكده انها بشارة ربانية ، فرواية هذه القيلة مطروحة^(١) والأنبياء معصومون في مثلث زاويته الأولى تلقي الوحي ، إذ لا يشتبه عليهم غير الوحي بالوحي!

وفي إنجيل «لوقا ١ : ٢١) وها أنت تكون صامتا ولا تقدر أن تتكلم الى اليوم الذي يكون فيه هذا لأنك لم تصدق كلامي الذي سيتم في وقته (١٩) وكان الشعب منتظرين زكريا ومعجبين من إبطائه في الهيكل (٢٠) فلما خرج لم

(١) في تفسير العياشي عن أبي بصير عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال : ان زكريا لما دعا ربه ان يهب له ذكرا فنادته الملائكة بما نادته أحب ان يعلم ان ذلك الصوت من الله اوحى اليه ان آية ذلك ان يمسك لسانه عن الكلام ثلاثة ايام قال : لما امسك لسانه ولم يتكلم علم انه لا يقدر على ذلك الا الله.

وفي الدر المنثور ٤ : ٢٦١ اخرج إسحاق بن بشير وابن عساكر عن ابن عباس في الآية . الى قوله : فقال : ﴿رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا﴾ خاف انها لا تلد قال : كذلك قال ربك يا زكريا هو علي هين وقد خلقتك من قبل ان أهب لك يحيى ولم تك شيئا وكذلك اقدر ان اخلق من الكبير والعافر وذلك ان إبليس أتاه فقال : يا زكريا دعاؤك كان خفيا فأجبت بصوت رفيع وبشرت بصوت عال ذلك الصوت من الشيطان ليس من جبريل ولا من ربك قال : رب اجعل لي آية حتى اعرف ان هذه البشرية منك. قال : آتيك .. أقول ماذا يدل على ان الإجابة كانت بصوت جلي ، وهل هنالك آية معجزة أقوى من الوحي نفسه؟! فالحديثان مطروحان دون ريب لمخالفة القرآن.

يستطع أن يكلمهم ففهموا أنه قد رأى رؤيا في الهيكل فكان يؤمي إليهم وبقي صامتا»
(٢١).

وقد اقحم في هذه الآيات ما يحس من كرامة الرسالة فتعرض عرض الحائط ويصدق ما يصدقه القرآن وسائر البرهان.

و «ألا تكلم الناس . ثلاث ليال او ثلاثة ايام سويا إلا رمزا» آية تامة الهية تدله على ما يروم ، فقد يكون ترك الكلام لعقدة في اللسان ام لأي مرض كان ، وهو يقول «سويا» : حال أنك سليم ولو كان لمرض يمنع لم يقتسم بين ناس وسواهم وهو يقول ﴿أَلَا تُكَلِّمُ النَّاسَ﴾ فقد يكلم الله ويكلم ملائكة الله كما كان ، لكنه يعجز في وقته المحدد أن يكلم الناس «إلا رمزا» ويومر أن يذكر ربه ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾!

وترى كيف الجمع بين ثلاث ليال ، تجمع مع نهارين ، وثلاثة أعمار ، وثلاثة ايام أليست إلا ثلاثة أعمار بلياليهن ام ليلتين؟ ولم يكن الحد الزمني لآيته إلا إحداهما!

ثلاثة ايام نص في ثلاثة أعمار ظاهر في ثلاث ليال . وثلاث ليال نص . في ليليتها الثلاث وظاهر في ثلاثة أعمار ، ونتيجة الجمع بين النصين والظاهرين هي ثلاثة ايام بمجموع أعمارها ولياليها ، واستعمال ثلاث ليال في المجموع سنة مستمرة ، وقد يعني الإتيان بالليالي إبرازا لأهميتها في هذا المجال ل ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾.

ثم «إلا رمزا» سماح له أو أمر لتوجيه الناس الى تسبيح الله :

﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ (١١)

ذلك . وليعيشوا في جو النور الذي أمر أن يعيشه ، تحضيرا للبشارة

وشكرا على العدة ، و ﴿بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ تعني في مجموعة ثلاثة ايام صباح مساء ، وقد يعني ذكرهما أنهما كانا أصليين لأوقات العبادة في شرعة التورات ، أم هما أفضل الأوقات ، لأنهما البداية والنهاية في اليقظة او الشغل ، فليبكروا بتسبيح الله وليعشوا به .

ثم ﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ﴾ هو الرمز المسموح له في تكلم الناس أيا كان فهو «وحي الإشارة» كما يروى عن امير المؤمنين (عليه السلام) ^(١) .

﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ (١٢) .

هنا يطوى عن «متى ولد يحيى؟ وكيف ولد؟ وماذا حصل بهذه الولادة؟» طيا لصفحة زكريا في صمته بتسبيحه ، وسدلا لستار عليه وعلى الولادة ، فتحا لصفحة جديدة ومختصرة غير مختصرة عن يحيى (عليه السلام) حيث ليس كتاب القصة إلا ما يقص منها للنبهة والتذكرة ، إبرازا لاهم الحلقات وطيا لسائرها حيث لا تعني ما يعنيه القرآن من قصته .

يؤمر يحيى أن يأخذ الكتاب بقوة ، حاكما به وداعيا إليه «صبيّا» وهو قبل بلوغ الحلم ، ويروى عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) انه «أعطي الفهم والعبادة وهو ابن سبع سنين» ^(٢) و «قال الغلمان ليحيى بن زكريا اذهب بنا نلعب فقال يحيى : ما للعب خلقنا اذهبوا نصلي فهو قول الله :

(١) في تفسير النعماني باسناده عن الصادق (عليه السلام) قال قال امير المؤمنين (عليه السلام) حين سأله عن معنى الوحي فقال : منه وحي النبوة ومنه وحي الإلهام ومنه وحي الإشارة فقلوه ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ اي أشار إليهم كقلوه تعالى : ﴿أَلَا تَكَلِّمُ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْرًا﴾ .

(٢) الدر المنثور ٤ : ٣٦٠ . اخرج ابو نعيم وابن مردويه والديلمي عن ابن عباس عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في الآية قال : اعطي ...

﴿وَأَتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾^(١).

أترى ان ذلك الحكم . فقط . هو الفهم والعبادة من دون وحي ونبوة؟ وله نظائر من الصبيان علما وعمالا! وهكذا حكم ليس لزامه أخذ الكتاب بقوة ، حيث البالغ المؤمن العادل يأخذ كتاب الشريعة بقوة ودون قوة ويحيى كان نبيا دونما ربية!

أم إنه النبوة وقد عطفت بالكتاب في آيات عدة ^(٢) تجمع بين الكتاب والحكم والنبوة ، مما يدل على أن الحكم ليس لزامه النبوة ، ١ فقد يؤتى الكتاب دون حكم ولا وحي ولا نبوة ، كالمرسل إليهم بكتاب الشريعة ، ٢ او يؤتى كتابا بوحى الرسالة بحكم الولاية الشرعية كسائر المرسلين ٣ ام وحكم الملك كداود وسليمان (عليهما السلام) ٤ او يضاف الى وحي الرسالة بحكميها أو أحدهما النبوة وهي الرفعة في الرسالة ، ٥ أو يؤتى حكم الولاية الشرعية دون وحي كسائر ولات الشرع ، ٦ او ولاية الملك فقط على غرار الشريعة دون وحي ولا ولاية شرعية كما لطالوت الملك!

فالحكم . أيا كان . كائن في الخمسة الاخيرة فليس لزامه خصوص وحي الرسالة فضلا عن النبوة!

(١) المصدر (٣٦١) اخرج الحاكم في تاريخه من طريق سهل بن سعيد عن الضحاك عن ابن عباس قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : ...

(٢) «مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ الْكِتَابُ وَالْحُكْمُ وَالنُّبُوَّةُ .. (٣ : ٧٩) «أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ» (٦ : ٨٩) «وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ» (٤٥ : ١٦) «فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا» (٤ : ٥٤).

فهل يعني حكم يحيى الذي أوتيهِ صبييا حكم الملك؟ ولم يكن ملكا وإنما ذبحه كما الحسين (عليه السلام) ملك ظالم! أم حكم ولاية الرسالة أو النبوة؟ ولا دليل عليه حين كان صبييا مهما بلغ بعد صباه الى رسالة أم نبوة! أم حكم الولاية الشرعية ولما يبلغ أشده؟ أو حكم العقل والفهم بصورة خارقة للعادة وهو مادة الولاية الشرعية؟ وهو القدر المتيقن من حكمه ، كخارقة إلهية لمن لم يبلغ أشده ، مهما أبلغه الله شدا واحدا وهو العقل الرزين والإدراك المتين ^(١) فلا نبي فيمن نعرف أوتي حكما قبل ان يبلغ أشده وكما موسى : ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ (٢٨ : ١٤) وفي يوسف ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ (١٢ : ٢٢). ولم يك عيسى نبيا في المهدي مهما تكلم بوحى النبوة ، ذودا عن أمه المعصومة ، وتبشيرا برسالته

(١) نور الثقلين ٣ : ٣٢٥ ح ٣٤ في كتاب الاحتجاج للطبرسي وروي عن موسى بن جعفر (عليه السلام) عن أبيه عن آبائه عن الحسين بن علي (عليهم السلام) قال : ان يهوديا من يهود الشام وأخبارهم قال لأمير المؤمنين (عليه السلام) فهذا يحيى بن زكريا يقال : انه اوتي الحكم صبييا والحلم والفهم وانه كان يبيكي من غير ذنب وكان يواصل الصوم؟ قال علي (عليه السلام) : لقد كان كذلك ومحمد (صلى الله عليه وآله وسلم) اعطي أفضل من هذا ان يحيى بن زكريا كان في عصر لا أوثان فيه ولا جاهلية ومحمد (صلى الله عليه وآله وسلم) اوتي الحكم والفهم صبييا بين عبدة الأوثان وحزب الشيطان فلم يرغب لهم في صنم قط ولم ينشط لأعيادهم ولم ير منه (صلى الله عليه وآله وسلم) كذب قط وكان أميناً صدوقاً حليماً وكان يواصل صوم الأسبوع والأقل والأكثر فيقال له في ذلك فيقول : اني لست كأحدكم اني أظل عند ربي يطعمني ويسقني وكان يبيكي (صلى الله عليه وآله وسلم) حتى يبتل مصلاه خشية من الله عز وجل من غير جرم. أقول : قياسه صبا محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) بصبا يحيى دليل على ان الحكم فيهما ليس النبوة وإنما الحالة المتحضرة للنبوة الآتية.

كهلا ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (٣ : ٤٦) فلم يكلم الناس كرسول بين مهده وكهله!

هذا ، ومن أئمتنا المعصومين من بلغ الامامة والولاية الكبرى الاسلامية قبل أشده إلا شدا في عقله كالإمام محمد بن الحسن المهدي عجل الله تعالى فرجه حيث تقلد إمامة الأمة في الخامسة من عمره الشريف ، ثم جواد الاثمة (عليهم السلام) في الثامنة او التاسعة من عمره ^(١).

(١) المصدر ح ٣٢ . الحسين بن محمد عن معلى بن محمد عن علي بن أسباط قال : رأيت أبا جعفر (عليه السلام) وقد خرج عليّ فأجدت النظر اليه وجعلت انظر الى رأسه ورجليه لأصف قامته لأصحابنا بمصر فبينما انا كذلك حتى قعد فقال يا علي : ان الله احتج في الامامة بمثل ما احتج به في النبوة فقال : وآتيناه الحكم صبيا ولما بلغ اشده وبلغ أربعين سنة» فقد يجوز ان يؤتى الحكمة وهو صبي ويجوز ان يؤتى الحكمة وهو ابن أربعين سنة» أقول : الآية الثانية غير مرتبطة بالنبوة فان بدايتها ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا .. حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ ..﴾ الى قوله : ﴿إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ فانها ليست فيها اشارة الى النبوة اللهم الا الايمان الاسلام وهو أعم ، ثم الآية الاولى ليس فيها الا الحكم وهو كما قسمناه لا يخص حكم النبوة ، إذا فهذه الرواية مؤولة او مطروحة مردودة الى من نسبها الى الامام (عليه السلام).

وفيه (٣٥) عن المناقب محمد بن إسحاق بالإسناد جاء ابو سفيان الى علي (عليه السلام) فقال : يا أبا الحسن جئتكَ في حاجة قال : وفيهم جئتني؟ قال : تمشي معي الى ابن عمك محمد فنسأله ان يعقد لنا عقدا ويكتب لنا كتابا فقال : يا أبا سفيان لقد عقد لك رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) عقدا لا يرجع عنه ابدا وكانت فاطمة (عليها السلام) من وراء الستر والحسن يدرج بين يديها وهو طفل من أبناء اربعة عشر شهرا فقال لها : يا بنت محمد قولِي لهذا الطفل يكلم لي جده فيسود بكلامه العرب والعجم فأقبل الحسن الى أبي سفيان وضرب احدى يديه على انفه والاخرى على لحيته ثم أنطقه الله عز وجل بأن قال : يا أبا سفيان قل : لا اله الا الله محمد رسول الله .

ثم وما تعني ﴿خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾؟ إنه أخذ التوراة بقوة العلم والعمل والحكم بهما بين الناس بالولاية الشرعية لما يبلغ أشده (١).

﴿وَحَنَانًا مِّنْ لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا (٣) وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا (١٤) وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا (١٥)﴾.

«و» آتيناه حنانا من لدنا وبراً بوالديه .. «إيتاءات وعطيات إلهية «وكان» قبلها وبعدها «تقيا» فلم تكن تلك الموهبات اللدنية دون شيء. فانما «زكاة» من لدنه ﴿وَكَانَ تَقِيًّا﴾ في زكاته ، حيث الغايات اللدنية تنزل حسب القابليات والفاعليات فقابلية «زكاة» كانت من لدنه ، وفاعلية ﴿وَكَانَ تَقِيًّا﴾ منه (عليه السلام) نسخة طبق الأصل!.
هنالك حنان وزكاة وبر ، وبينها تقى منذ ولد حتى الممات إذا فكله ﴿سَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾!.

والحنان هو الإشفاق المتضمن للصوت الدال على الشفقة. و «من لدنا» تجعله خارقا للعادة المألوفة وفي مربع من الحنة ١ حنان من الله وعطف بما يحمله وحيه الحنون ورحمته الحنون «كان إذا قال يا رب قال الله عز وجل :

. (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) حتى أكون شفيعا فقال : الحمد لله الذي جعل من ذرية محمد المصطفى نظير يحيى بن زكريا ﴿آتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ أقول : ولم يكن الحسن (عليه السلام) حينذاك اماما وانما اوتي حكما : عقلا وفهما.

(١) نور الثقلين ٣ : ٢٢٥ ح ٢١ في اصول الكافي باسناده عن أبي جعفر (عليه السلام) في حديث طويل يقول فيه : مات زكريا فورثه ابنه يحيى الكتاب والحكمة وهو صبي صغير اما تسمع لقوله عز وجل : ﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ فلما بلغ عيسى (عليه السلام) سبع سنين تكلم بالنبوة والرسالة حين اوحى الله اليه فكان عيسى الحجة على يحيى وعلى الناس أجمعين.

لبيك يا يحيى^(١) ، ٢ . وحنان له من لدنه جعله يحن اليه ليل نهار بحنين وأنيته وعبادته ، ٣ . وحنان منه الى عباد الله ، يد آب في دعوتهم إلى ربهم ٤ . وحنان من الناس إليه وكما في موسى ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾! فهو إذا محبط الحنان ومصدره بين الله وخلقه ، ورأس الزاوية من حنانه انجذابه الخاص الى ربه لحد لا يؤلف في سواه اللهم إلا الاخصين من الصالحين محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وعترته الطاهرين (عليهم السلام).

هنالك حنان يمازجه ضيق بيكاء دائب إشفافاً من ربه واشتياقاً إليه ، صوت المشتاق المفتاق الى ربه مثلما كان لأستوانة الحنّانة حنين بفراق الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ولذلك سميت حنانة!

«وزكاة» : آتيناه زكاة . طهارة عما يدنس ساحة الإنسانية والإيمان الإسلام «و» الحال انه ﴿كَانَ تَقِيًّا﴾ ف ﴿الَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾ (٤٧ : ١٧) فلما كان تقياً يتقي الموبقات ، آتيناه زكاة عما يتقى من جهل وسوء خلق وفسوق وعصيان فأصبح زكياً دون عيب في نماء وريوة روحية متعالية ، متزكياً في نفسه مزكياً لغيره ، زاكياً زكياً ذكياً في كل الحقول محلقة على كل العقول.

«و» آتيناه ﴿بِرًّا بِوَالِدَيْهِ﴾ وترى إن بر الوالدين من ميّزات الرحمات اللدنية الربانية؟ ولم يذكر في عدادها لسائر المرسلين! ولا من دونهم من أولياء الله المكرمين! فإنه من صفات المؤمنين قبل هذه الدرجات العليا! فكيف يذكر في سائر القرآن بين سائر المرسلين . فقط . ليحيى وعيسى عليهما السلام!.

(١) في الكافي بإسناده عن أبي حمزة عن أبي جعفر (عليه السلام) قال : قلت : فما عني بقوله في يحيى : ﴿وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً﴾؟ قال : تحنن الله . قلت : فما بلغ من تحنن الله عليه؟ قال : كان إذا قال : يا رب ...

﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَجْعَلْ لِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ (١٤).

إن السيد المسيح كما يأتي قد افترى عليه بخلاف البرّ لوالدته وأنه كان جبارا عليها عصيا ، فدافع عنه القرآن هنا ، ولأن يحيى الرسول كان مبشرا بالمسيح ، وكانت مهمته الرسالية ذلك التبشير : ﴿أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيُحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (٣ : ٣٩).

لذلك يزود عنه ايضا تلك الوصمة كإعداد لأصله المبشّر به ، فإذا كان يحيى المبشر بالمسيح برا بوالديه فأحرى بالمسيح كونه برا بوالدته! ﴿وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا﴾ : مستعليا مستكبرا يحمل غيره على ما أراد ولا يتحمل عن غيره ما يراد «عصيا» : كثير العصيان. هذه جوامع أحوال يحيى في نفسه وما آتاه ربه ، وأمام الخالق والمخلوق ، زوايا ثلاث من حياته منذ ميلاده حتى موته : حاكما حكيما حنوناً زكياً تقياً وبراً بوالديه ولم يكن جباراً عصياً ، فهو جملة وتفصيلاً سلام في سلام الى سلام.

﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ (١٥)

صحيح أن ﴿سَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ﴾ (٣٧ : ١٨١) جملة وسلام عليهم تفصيلاً ، إلا أنّ يحيى وأحرى منه عيسى قيل فيهما أقاويل تمس من كرامة الرسالة ولادة وموتا وبعثا لذلك نجد مثلث السلام لهما في سائر القرآن بين سائر المرسلين ، هذا ليحيى ومن ثم المسيح (عليه السلام) : ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ (٣٣).

ف «ان أوحش ما يكون في هذا الخلق في ثلاثة مواطن ، يوم يولد ويخرج من بطن امه فيرى الدنيا ، ويوم يموت فيعابن الآخرة وأهلها ، ويوم يبعث فيرى أحكاماً لم يرها في دار الدنيا وقد سلم الله عز وجل على يحيى في هذه

الثلاثة مواطن وآمن روعته فقال ﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ وقد سلم عيسى بن مريم على نفسه فيها» ^(١) فسلام الولادة والموت سلام طول حياة التكليف ، وسلام البعث حيا هو سلام الخلود في عطاء غير مجذوذ ويعني مثلث السلام للمسيح (عليه السلام) أكثر مما يعنيه في يحيى ذودا عن ساحته فيها لا مزيدا لسلامه فيها ^(٢).

و «سلام» في إرساله يعم كل سلام من كل مسلم : من الله في رحمته ، ومن الملائكة طلب الرحمة كما في سائر المرسلين والصالحين ، ومنه نفسه كلما يقدمه لكل سلام منذ الحكم حتى الموت ، ومن سائر الناس ان يعتقدوا فيه كل سلام. إذا فهو في مربع السلام تكويننا وتشريعنا لا يجوز لأحد ان يقول فيه غير «سلام»! وهل يوجد بين الأتقياء أتقى من يحيى؟ علّه نعم فانه لم يكن من أولي العزم مهما بلغ من تقاه ، ثم القرآن يصرح بان الرسول محمدا (صلى الله عليه وآله وسلم) أول العابدين! او علّه لا إلا محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) مهما سبق سائر اولي العزم في سائر عزمهم على يحيى ، ولكنه اتقى منهم ^(٣) ام هم على سواء إلا خاتمهم (صلى الله عليه وآله وسلم).

(١) نور الثقلين ٣ : ٣٢٧ ح ٣٨ عيون الاخبار باسناده الى ياسر الخادم قال : سمعت أبا الحسن الرضا (عليه السلام) يقول : ان أوحش.

(٢) يأتي تفصيله في سلامات المسيح بعد قليل.

(٣) ويتبع محمدا (صلى الله عليه وآله وسلم) اهل بيته المعصومون (عليه السلام) وقد تضافرت الرواية عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) في فضل يحيى ففي الدر المنثور ٤ : ٢٦٢ . اخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه وابن خزيمة والدارقطني في الافراد وابو نصر السنجري في الابانة والطبراني عن ابن عباس قال كنا حلقة في مسجد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) نتذاكر فضائل الأنبياء ، فذكرنا نوحا وطول عبادته وذكرنا ابراهيم وموسى وعيسى ورسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فخرج .

وسلم) ، فسلام عليه من عيسى **﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ﴾** من الله ليحيى قد يلمح لكونه اتقى من عيسى مهما كان المسيح أفضل منه في ولاية العزم اللهم إلا في تقاها ^(١).

. علينا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فقال : ما تذاكرون بينكم فذكرنا له فقال : اما انه لا ينبغي ان يكون احد خيرا من يحيى بن زكريا اما سمعتم الله كيف وصفه في القرآن **﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾** . الى قوله . **﴿وَكَانَ تَقِيًّا﴾** . لم يعمل سيئة قط ولم يهمل بها أقول : لعله نعم الا محمدا (صلى الله عليه وآله وسلم) لقوله تعالى **﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾** ولآية التطهير وأمثالهما من ادلة تفضيل محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وآله على العالمين أجمعين وفيه اخرج ابن عساكر عن ابن شهاب ان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) خرج على أصحابه يوما وهم يتذكرون . وذكر مثله في معناه . فقال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) اين الشهيد ابن الشهيد يلبس الوبر ويأكل الشجر مخالفة الذنب يحيى بن زكريا وفيه اخرج احمد والحكيم الترمذي في نوادر الأصول والحاكم وابن مردويه عن ابن عباس ان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : ما من احد من ولد آدم الا وقد اخطأ أو هم بخطيئة إلا يحيى بن زكريا لم يهمل بخطيئة ولم يعملها أقول يستثنى من عمل الخطيئة كافة المرسلين وسائر المعصومين ، ومن اهم بالخطيئة الرعيل الأعلى منهم وفي إنجيل متى : «عن السيد المسيح «الحق أقول لكم لم يقم بين المولودين من النساء أعظم من يوحنا المعمدان ..» وهو اسم ثان ليحيى حسب الإنجيل.

(١) الدر المنثور ٤ : ٢٦٢ . اخرج عبد الرزاق واحمد في الزهد وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن الحسن قال : ان عيسى ويحيى التقيا فقال عيسى ليحيى استغفر لي أنت خير مني فقال له عيسى بل أنت خير مني سلم الله عليك وسلمت انا على نفسي وفيه اخرج احمد وابو يعلى وابن حبان والطبراني والحاكم والضياء عن أبي سعيد قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) الحسن والحسين سيذا شباب اهل الجنة الا ابني الخالة عيسى بن مريم ويحيى بن زكريا أقول قد يعني بذلك من مات شابا فلا يشمل الامام المهدي (صلى الله عليه وآله وسلم) واما الامام الجواد فقد يعني من .

وترى لماذا ﴿يَوْمَ يَمُوتُ﴾ وهو ميت حال نزول آية السلام؟ لأنه ينقل «سلام» عن حال حياته ، لا أنه «سلام» بعد استشهاده حال نزول آية السلام!

ولماذا «حيا» بعد ﴿يَوْمَ يُبْعَثُ﴾ والبعث ليس إلا بعث الحياة؟ قد يعني أنه لا يموت عن حياة البرزخ الى حياة الآخرة ، وإنما يزداد حياتها الى حياته ، لأنه والمسيح ممن استثنى من الصعقة ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ (٣٩ : ٦٨) فهما ممن شاء الله ألا تأخذهم الصعقة بموت أم غشوة ، وإنما انتقالا من برزخ الحياة الى آخرها ببعث لبدن والروح حي يزداد حياتا بهذا البعث!

وقد تلمح «حيا» فيما تعني أنه حي في البرزخ بحياة الشهادة ، حياتا في حياة لا تسلبان عنه إذ ﴿يُبْعَثُ حَيًّا﴾ وما أَلطفه جمعا بين الحياتين فيما تعنيه «حيا» ^(١) وهو . إذا . حال عن يحيى

. الشباب غير اهل بيت الرسالة المحمدية فإنهم في الدرجة العليا من العصمة لا يدانيهم احد كما تدل آية التطهير ورواياته!.

(١) الدر المنثور ٤ : ٣٦٣ وخرج ابن عساكر من طريق علي بن زيد بن جدعان عن علي بن الحسين (عليه السلام) عن الحسين بن علي (عليه السلام) قال : كان ملك مات وترك امرأته وابنته فورث ملكه اخوه فأراد ان يتزوج امرأة أخيه فاستشار يحيى بن زكريا في ذلك وكانت الملوك في ذلك الزمان يعملون بأمر الأنبياء فقال له : لا تتزوجها فانها بغية فبلغ المرأة ذلك فقالت ليقتلن يحيى او ليخرجن من ملكه فعمدت الى ابنتها فصيعتها ثم قالت : اذهبي الى عمك عند الملاء فانه إذا رآك سيدعوك ويجلسك في حجره ويقول : سليني ما شئت فانك لن تسأليني شيئا الا أعطيتك فإذا قال لك قولي : لا اسألك شيئا الا رأس يحيى وكانت الملوك إذا تكلم أحدهم بشيء على رعوس الملاء ثم لم يمض له .

المضمّر في «يبعث» ^(١). ف ﴿يَوْمَ يُبْعَثُ﴾ للحياة الآخرة حالكونه «حيا» بالحياة البرزخية وحياة الشهادة ، ولا نجد البعث حيا إلا في يحيى والمسيح (عليهما السلام) مهما يبعث أضربهما من أولياء الله الكرام أحياء ، بحياة إن ماتوا أم حياتين ان استشهدوا ، فغيرهم لا يبعثون أحياء ، وإنما عن موت برزخي مهما كان الشهداء أحياء قبل البعث أكثر من سائر الأحياء!.

زكريا ويحيى في القرآن والعهدين :

يذكر زكريا سبعا ويحيى خمسا في سائر القرآن بكل تبجيل وتحليل ، ومن ميزات يحيى أنه ولد خارقة العادة وسماه الله يحيى وآتاه الحكم صبيا ، وقد تشير «يحيى» إلى انه يحيى حياة طيبة ، وأنه تستمر حياته البرزخية إلى بعثة : ﴿يَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ دون موت في البرزخ! ومما يلمح في رسالة يحيى انها رسالة التبشير بالمسيح (عليه السلام) و ﴿أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ (٣ : ٣٩) فرسالة التبشير هذه هي رأس الزاوية من رسالته المباركة.

ولأن شعب إسرائيل حسب البشارة في العهد العتيق كانوا ينتظرون المسيح ، ظنوا يحيى وهو يوحنا المعمدان أنه المسيح (عليه السلام) فنفي لمرات عن نفسه أنه المسيح وكما في «لوقا الاصحاح الثالث» :

نزع من ملكه ففعلت ذلك فجعل يأتيه الموت من قتل يحيى وجعل يأتيه الموت من خروجه من ملكه فاختر ملكه فقتله ، فساخت بأمرها الأرض...».

(١) اجل حال لا مفعول فان البعث يتعدى لمفعول واحد وهو هنا نائب الفاعل في «يبعث» وحتى إذا عدي البعث الى مفعولين فلا يتعدى الى ثان هو «حيا» لأنه تحصيل حياة حاصلة ، اللهم إلا مزيد الحياة المعنى ب «حيا» وهي حال ليحيى!.

«وإذا كان الشعب ينتظر والجميع يفكرون في قلوبهم عن يوحنا لعله المسيح (عليه السلام) ١٥ أجاب يوحنا الجميع قائلاً : أنا أعمدكم بماء ولكن يأتي من هو أقوى مني الذي لست أهلاً أن أحلّ سيور حذائه وهو سيعمدكم بالروح القدس ونار (١٦) الذي رفضه في يده وسينقي بيده ويجمع القمح الى مخزنه (١٧)

وفي يوحنا ١ : ١٩ . ٢٧ : «وهذه شهادة يوحنا حين أرسل اليهود من أورشليم كهنة ولاويين ليسألوه من أنت؟ فاعترف ولم ينكر وأقرّ : إني لست أنا المسيح ، فسألوه إذا ماذا؟ إيليا أنت؟ فقال : لست انا! النبي أنت؟ فأجاب : لا! فقالوا : من أنت لنعطي جواباً للذين أرسلونا ماذا تقول عن نفسك قال : أنا صوت صارخ في البرية . قوّموا طريق الرب كما قال اشعيا النبي . وكان المرسلون من الفريسيين ، فسألوه وقالوا له ما بالك تعمّد؟ إن ان كنت لست المسيح ولا إيليا ولا النبي؟ أجابهم يوحنا قائلاً : أنا أعمد بماء ولكن وسطكم قائم الذي لستم تعرفونه هو الذي يأتي بعدي الذي صار قدامي الذي لست بمستحق أن أحلّ سيور حذائه».

هذه الآيات ترسم الجوّ الإسرائيلي بانتظار ثلاثة اشخاص بعد يحيى : «المسيح - إيليا والنبي»! وقد صدقهم يحيى هكذا كما الفريسيون ، وليس «النبي» إلا الرسول محمد (صلّى الله عليه وآله وسلم) الذي بشرت به كتابات العهدين العتيق والجديد ، وقد كان معروفاً لديهم لحد الغنى عن ذكر اسمه وكأنه . فقط . نبي لا سواه ، و «إيليا» هو علي دون «إلياس النبي» لاختلاف الاسم وسبقه على يحيى بزمان ، وقد أتى إيليا لعلي في بشارات اخرى ^(١).

(١) راجع كتاب «رسول الإسلام في الكتب السماوية».

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ اتَّيَبَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْفِيًّا (١٦) فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا (١٧) قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا (١٨) قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا (١٩) قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا (٢٠) قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا (٢١) فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا (٢٢) فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا (٢٣) فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا (٢٤) وَهَرَيَّ إِلَيْكَ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا (٢٥) فَكُلِّي وَاشْرَبِي

وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرِينِ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا
 (٢٦) فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا (٢٧) يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ
 أَبُوكَ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا (٢٨) فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ
 صَبِيًّا (٢٩) قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ
 وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (٣٢)
 وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (٣٣) ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ
 الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ (٣٤) مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ
 فَيَكُونُ (٣٥) وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٣٦)

فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٣٧) أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٣٨) وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٣٩) إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾

عرض عريض لقصة الولادة والنبوة العجيبة لعيسى تلو يحيى لما بينهما من مشابهاة فيهما. فقرصته مختصرة عابرة للمبشر تتقدم لتقدمه في رسالة البشارة . ثم تتلوها قصة المسيح بداية من أمها في حملها وحملها وولادتها ، وهي أعجب من قصة يحيى ، فإذا ولد من عاقر وشيخ قد اشتعل رأسه شيئا فهنا الولادة دون بعل من ، طاهرة عذراء كأعجب ما يشهده تاريخ الإنسان إلا ما لم يشهده من خلق آدم مهما عرف بوحى القرآن . ذلك ولكي تكون الولادة من غير أب دلالة على إمكانية دون أبوين ،

كما أن هذه دلالة على أوليتها دون أب ليهتدي أولاء وهؤلاء فلا يخيّل إليهم أصل الأنواع ولا النبوة الإلهية ، وهذه الولادة بجنب ذلك خارقة لببت إسرائيل الخارفة التي لا تحن إلى آية إلهية خارقة ، اللهم إلّا جديدة محيرة كهذه ، رغم ان طائفة منهم اتخذوها فرية واخرى بنوة إلهية دون أية حجة إلّا أهواء مضللة!

يولد المسيح هكذا ﴿وَلَنَجْعَلَنَّ آيَةً لِلنَّاسِ﴾ مثالا للخلق الأول وخارقة للآخرين ، تدليلا على حرية وطلاقة القدرة الإلهية دون احتباس في النواميس التي قررها ف ﴿اللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ حادثة واحدة لن تتكرر حيث انقطعت النبوة بعد محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) ولكي تبقى معلما بارزا أمام البشرية على حرية المشية الإلهية!.

﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ اتَّخَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ (١٦).

«مريم» لغة سريانية تعني الغالبة المرتفعة ، وعّلّها لأنها غلبت شهوتها وأحصنت فرجها رغم جمالها وكثرة الراغبين إليها ، وغلبت على الولد الذي هوته أمها في قداستها وإنتاجها. وارتفعت عما افترؤا عليها ، وعن أقرانها من نساء العالمين وقبل كل ذلك هي موهوبة الرب وقد «تقبلها» ﴿رَبُّهَا يَقْبُولُ حَسَنٍ﴾ (٣ : ٣٧) تقبلها مريم كما تسمت بما تعنيه من معانيها!. وفي حين تذكر مريم خمسا وثلاثين مرة في القرآن بكل تبجيل وتحليل ، لا تذكر في الإنجيل إلّا خمسا بكل مهانة وتخجيل^(١).

(١) وهي ١ : قصة فانا الجليل (يوحنا ٢ : ٣) : إذ أرادت ان تكلم ابنها وهو يعلم تلاميذه و (متى ١٢ : ٤٦) ومرقس ٣ : ٣١ ولوقا ٨ : ١٩ : ٣ : عند صلبه (يوحنا ١٩ : ٢٦) ٤ : وفي الأيام الاولى بعد صعوده (يوحنا ١٤١ : ١٤) ٥ : عند ذكر ابنائها : يعقوب ، يوشي ، يهودا ، شمعون وعدة من بناتها (متى ١٣ : ٥٥ و ٢٧ : ٥٦ ومرقس ٦ : ٣ و ١٥ : ٤٠ و ٤٧. أقول لم يكن لها ولد الا المسيح حسب القرآن والحديث ويأتي توضيح موارد الاهانة بها في هذه الآيات.

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ﴾ هنا يؤمر الرسول أن يذكر في الكتاب مريم وما هو ذلك الكتاب؟ أهو القرآن وذاكر مريم وسواها مما يذكر فيه ليس إلّا الله ، فانه كلام الله والرسول وسيط لنقله الى العالمين!

إنه ذكرها في القرآن بالوحي ، فالقرآن هو كلام الله في الأصل ، وهو كلام الرسول كرسول ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ. ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ (٨١ : ٢٠) ف ﴿اذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ﴾ ذكر بالوحي في بعدي اللفظ والمعنى كما في «ابراهيم وموسى وإسماعيل وإدريس»^(٢) وذكرى الخمسة كلها في هذه السورة! ..

او انه ذكرها في نفسه (صلّى الله عليه وآله وسلم) مما أوحى إليه ليلة القدر وهنا التفصيل ، فالكتاب إذا هو القرآن المحكم ، أو أنه يعنيهما جملة وتفصيلاً. وذكر مريم في سورتها وسواها ذكر لواجب قصتها التي تتبنى طهارتها وطهارة المسيح عليهما السلام ، لا سردها على طولها كما تقص في كتب القصص!

ان مريم هي فتاة عذراء ، قديسة حوراء ، تستوهبها أمها من ربها فيهبها ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا...﴾ (٣ : ٣٧) ...

هذه الفتاة . وهي حليفة المحراب ، تأخذها انتبازات وهزات تنبض لها

(٢) وهم على الترتيب في ١٩ : ١٦ . ٤١ . ٥١ . ٥٤ . ٥٦ .

ولابنها المسيح بآية دائبة وحياة! وهي بعد ما اهتزت بالبشارة الملائكية من قبلها.

نبذة أولى : ﴿إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا...﴾ ثم هزة ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا. قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا.﴾

وهزة ثانية : ﴿لَا هَبْ لَكَ غُلَامًا زَكِيًّا قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ...﴾

وهزة ثالثة : «فحملته» وهنا نبذة ثانية ﴿فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا.﴾

وهزة رابعة : ﴿فَاجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا﴾ وهنا بشارة تخفف عنها هزاتها ﴿فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا.﴾

ثم هزة خامسة : هي الاخيرة ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ امْرَأَ سَوْءٍ﴾ ولكنها تسكن الى راحة ورحمة : ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ...﴾ ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ!﴾

﴿إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ والنبذ هو الطرح المضمن معنى الرفض امتهاننا أحيانا : ﴿فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ﴾ (٢٨ : ٤٠) ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾ (٣ : ١٨٧) وامتحانا أخرى ﴿فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ (٣٧ : ١٤٥) فمنه مذموم ﴿لَوْ لَا أَنْ تَدَارِكُهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ (٦٨ : ٤٩) ومنه غير مذموم وان ترائى انه مذموم ، كالتكاليف النسائية الواجبة من غسل وأمثاله.

وانتباد مريم وانطراحها مكانا شرقيا قبل تمثل الروح لها بشرا سويا وقبل حملها ، علّه لحالة خاصة بالفتات تستحي فيها من أهلها كالغسل عن

حيضها ، حيث يقتضي الاحتجاب عنهم مكانا شرقيا تشرق عليها الشمس تخفيفا عن برودة الماء.

ولأنها كانت دائبة المقام في محرابها كما نذرت لذلك فلم تكن عند أهلها إلا أيام عذرهما. فانتباذها إذا من أهلها مكانا شرقيا واتخاذها من دونهم حجابا ، ليس انعزالا في عبادتها وإنما فيما يستحي منه وإلا فلما ذا الانتباذ والحجاب والمكان الشرقي؟!.

فها هي ذي في شأنها الخاص حيث توارث حتى عن أهلها وهي عارية عن ملابسها تفاجأ مفاجأة عنيفة تهز أركانها وتفزع مدعورة منتفضة لأول مرة في حياتها :

﴿فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ (١٧).

ها هي محتجبة عن أهلها وحتى عن أمها ، مشغولة بشأنها في غسلها. مطمئنة الى انفرادها وهي عريانة بكامل جسدها ، فإذا بشر سوي أمامها يفجأها في خلوتها وعراها رغم حجابها! فتدخلها رهبة تفجئها رغم أهبتها بما بشرت في الأولى ، إذ ترى أمامها بشرا سويا وليس هنالك سوي ولا غير سوي ليكون هو منهم ، فانها ﴿انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا﴾ فما لها وبشرا أمامها ، إلا اختلاسا عليها إذ يحضر عندها وهي عارية في شأنها الخاص دون أهبة ولا استئذان. وكأنه من أقرب المحارم ، بل هو زوج لا يكاد يستأذن زوجه!

وترى من هو «روحنا» المتمثل ﴿لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾؟ ولماذا لم يظهر بصورته الأصلية حفاظا على اطمئنانها؟ هنا «روحنا» واهب لمريم غلاما زكيا بإذن الله نفخا فيها في فرجها ، وفي أخرى المنفوخ في فرجها هو «من روحنا» :

﴿الَّتِي أَحْصَنْتَ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا﴾ (٦٦ : ١٢) وهي تفسر ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا﴾ (٢١ : ٩١) أن النفخ من روحنا فيها لم يكن إلا في فرجها ^(١) وإضافة «نا» الإلهية فيهما لا تعني إلا تشريفاً للنافخ والمنفوخ أحهما من الأرواح المشرفة التي خلقها ، كما في آدم (عليه السلام) ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ (٣٨ : ٧٢) ثم في بنيه : ﴿... وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ، ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ، ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾ (٣٢ : ٩) وهذه الأرواح الاربعة : «روحنا» . «من روحنا» «من رُوحِي» «من روحه» كلها من أمر الله لا من ذاته ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ (١٧ : ٨٥) فانها تفسر الأرواح كلها أنها من أمر الله ، وليس أمر الله ذاته او من ذاته ، وإنما هو فعله المختلف عن ذاته بكل بينونة ذاتية وصفاتية ، مهما كان مفضلاً على سائر الأرواح أماذا؟.

«وروحنا» المرسل لذلك النفخ ليس إلا الروح الأمين النازل بالوحي ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ﴾ (٢٦ : ١٩٣) والنازل بروح النبوة على رجالات الوحي : ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ..﴾ (١٦ : ٢) فهو النازل بروح المسيح وجسمه ﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْثَمٍ وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ (٤ : ١٧١) مهما كان النافخ في الحق هو الله ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا﴾ (٦٦ : ١٢).

ومهما كانت هذه الأرواح المضافة الى الله مفضلة على سائر الأرواح جملة ، ففيها التفاضل بينها كما بينها وبين سائرهما ، ف «روحنا» يمتاز عن «روحي» كما «روحي» يمتاز عن «روحه» حضوراً لجمعية الصفات في أولها ، وحضوراً دونها في ثانيها ، وغياباً مفرداً في ثالثها ، كما وأن روح المسيح

(١) راجع ج ٢٨ الفرقان ص ٤٥١ . ٤٥٥ . تجد كيف النفخ والحمل؟.

(عليه السلام) مفضل على روح آدم ، وهو مفضل على بنيه كمجموعة ، اللهم إلا المفضلين عليه كبعض النبيين وأكابر المعصومين!

وإنما تمثل لها بشرا ، حيث التجلي بالصورة الملكية ليس إلا أحيانا لرجالات الوحي دون الآخرين : ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ﴾ (٦ : ٩) .. ومن ثم «سويا» فان غير السوي لا يناسب تمثل «روحنا» فإنه إزاء به ، ولا المتمثل لها فانه إخافة لها ومهانة في الرسالة إليها ، ثم وفي بشر سوي هزة صادقة لها تهيئة لتحمل حمل هو حمل لها في ظاهر حالها!.

هذه هزة اولى تأخذها ، عضه على أركان طهارتها وهي الطاهرة الزكية البريئة.

﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتُ تَقِيًّا﴾ (١٨).

تحاول الهرب مستعيذة بالله إذ تظنه معتديا أثيما ، او فاجرا زنيما ، وهي التقية المؤمنة ، العفيفة الطاهرة ، وتستعيذ بالرحمن خالقها منه إن كان تقيا يتقي بأس الرحمان ، فغير التقى لا يستعاذ منه حيث لا يتقي على أية حال إلا بمعجزة ينجيها الله بها منه ، وهي تستعيذ بالرحمن منه إن كان تقيا ، استيقاظا لروح التقوى فيه واستجاشته لكيلا يقر بها مخافة الرحمن!

ثم لماذا العوذة بخصوص «الرحمن» العام ، دون «الرحيم» الخاص ، وعوذة التقى تناسب الرحيم؟

هنالك عوذة خالصة بالله من الشيطان وحزبه لا يخاطب فيها الشيطان وإنما الله : «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» ومن ثم عوذة بالرحمن ممن يؤمن به وهي ذات بعدين ، اصيل هي بالرحمن ، وفرع هي بمن كان تقيا ،

ف «لقد علمت مريم ان التقى ذو نهيّة»^(١) والتقوى ينتفض وجدانه عند ذكر الرحمن ويرجع عن دفعة الشهوة ونزعة الشيطان وقد كانت ملامح التقى ظاهرة فالمؤمن ينظر بنور الله! ف «الله» يستعاذ . فقط . به عند الإياس عن كل دافع عن الشيطان ، و «الرحيم» يستعاذ به فيما تكون للرحمة الخاصة موقع كأن يكون المستعاذ منه ذو رحمة خاصة تدفعه عما يخاف ، وكما نعوذ بالله منه «أعوذ بك منك»! بشفاعته رحمة الخاصة ، ثم الرحمان يستعاذ به ممن غلبته الشهوة وهو تقى ، والشهوة الغالبة لا تعرف رحمة ، وإنما التقوى من الرحمن ، تذكر بتلك الرحمة الشاملة التي تنفذ في كل شيء ، وأنا الطاهرة مريم شيء ، وأنت البشر السوي شيء . وهنا ليس احد يدفع إلا الرحمن ف ﴿إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا﴾ .. ولكنه يعيد طمأنينتها ويسكن روعتها إذ :

﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾ (١٩).

انا فوق التقى الذي يتحول عند الشهوة الى شقي ﴿إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ﴾ ينحصر كوني وكياني وتمثلي عندك برسالة ربك ، رسالة تربوية معصومة من ربك الذي ربّاك حتى الآن ويربيك ما دمت حيا ، أما تستقبلين رسول ربك حيث يحمل لك هبة ربانية منقطعة النظير ، هو البشير النذير ﴿لَأَهَبَ لَكِ﴾ في هذه الرسالة بإذن ربك ﴿غُلَامًا زَكِيًّا﴾ بكل طهارة وسلام؟ وكل نضارة ووثام.

فلقد طمأنها في هذا اللقاء بأمرين : ﴿أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ﴾ بعيد عن الشهوة الجنسية فلا حاجة إلى عوذة! ﴿لَأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾ من دون وقاع مهما كان حلا فضلا عن الحرام ، وإنما احمل هبة ربانية هي خارقة.

(١) الدر المنثور ٤ : ٢٦٧ . اخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن أبي وائل في الآية : ...

ولكن كيف تصدقه وقد تكون حيلة فاتك يستغل طبيعتها ، وكيف تحب لي غلاما زكيا وأنت رسول وأنا ما عرفت رجلا ، وهي الآن في هذه الهزة الثانية تسأل في صراحة تغاضيا عن احتمال الحيلة ، كأنها لا هي مصدقة برسائله فتطمئن الى هبة ربها ، ولا مكذبة فتجانبه فورا ، فرغم أنها اطمأنت بالأمان من ناحيته تغشيها سحابة الحزن من أخرى ، وتطوف بها موجة من الاسى ، إلا ان هول الموقف ليس ليعقد لسانها ، حيث تذكر هذه البشرى قبلئذ على إجمالها من ملاك ربها ، ولكن هول البشرى . إذ هي على أشرف تحققها دون بعل ، وقد تخلف تهم الجاهلين . إنه يبعثها لسؤالها حائرة ذعرة.

﴿قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ (٢٠).

هبة الغلام لها وسيلة تكوينية من نكاح أم سفاح ولا أعرف ثالثة ، ف ﴿أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾ اي زمن وأيان؟ ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ بنكاح ﴿وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ بسفاح؟ وترى ألم تكن هناك في خلدها وسيلة مستقبلية لهذه الهبة الربانية بهذه البشارة؟ كلا! حيث «لأهب» تقاطع كل وسيلة مستقبلية ، وتصرف مثلث زمن الهبة الى الحال ، وبواسطة رسول الرب! فلا وسيلة لأصل الهبة حيث تتحقق الآن إلا ماضية من نكاح او سفاح وهي منتفية ، فلا تعرف هي من «لأهب». تغاضيا عن مقارنته . معنى إلا البشارة بغلام زكي انعقد قبل البشارة وهي نافية لكل انعقاد ماض! ولما يخلد بخلدها أنها بشارة بخارقة ربانية دون اي لقاح من نكاح ام سفاح! اللهم الا ما بشرته الملائكة باجمال ... فيأتي الجواب الحاسم هنا كما أتاها من ذي قبل :

﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ (٢١).

«قال» أمرك في هذه الولادة العجيبة «كذلك» الذي قلت عن رسالة

ربك ﴿قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ أن تلدي دون زوج ، ولما ذا؟ لحكم شتى .. ﴿وَلَنَجْعَلَنَّ آيَةً لِلنَّاسِ﴾ برهانا ساطعا قاطعا على القدرة الخارقة الإلهية ، وعلى صدق الرسالة العيسوية ، لهؤلاء الذين لا تكفيهم آيات مضت في الرسالة الموسوية ﴿وَرَحْمَةً مِنَّا﴾ عليك خاصة وعلى الناس عامة ، فهو إذا آية ورحمة ، مهما كان عليك حملا وزحمة ، فانه من الألفاظ الخفية الالهية على صعوباته ﴿وَوَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ لا يتحول بإباء ولا دعاء! فأستعدي لهذه الآية الرحمة مهما بلغت بك الصعوبة!

هنالك تنتهي الحوار بينهما حيث استسلمت لحكم ربها في هذه الهبة الزكية ، ونرى في آل عمران حوارا بينهما وبين الله والملائكة ، فما هو التلاحم بينهما؟ :

﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ. وَيَكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ. قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٣ : ٤٧).

تستوحش من هذا البشارة الملائكية ، وحق لها إذ لا ترى لنفسها ضجيجا ، ولم تعرض بخلدتها حتى الآن قصة الزواج ، وهي عارفة أن البشارة محققة لمستقبل قريب لا تلائمة الولادة كالعادة : ان تتزوج وتلد من فوره!

وهل «الملائكة» هم «روحنا» جمعا في واحد؟ وهي هنا تحاور ربها في استعجابها أن يكون لها ولد وهناك الحوار مع «روحنا»! إنها عرض لبشارتها بالملائكة قبل ان يتمثل لها «روحنا» بشرا سويا ، تعبدا لطريقها الى هذه المفاجات والهزات ، فأصبحت على خبرة إجمالية عن

هذه الكلمة البشري ، سائلة رها ﴿أَنْ يَكُونُ لِي وَلَدٌ...﴾ فطويت الحوار هنا طيا وهي بانتظار كيف تتحقق البشري ، ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ لا للبشري إذ تقدمت بالملائكة وانما لتحقيق البشري : ﴿لَأَهَبَ لَكَ غُلَامًا زَكِيًّا﴾ ولكنها ذعرت إذ فوجئت بما لم تحسب له حسابا أن البشارة تتحقق ببشر سوي ، فحق لها ان تختار مترددة هل إنه الذي يحقق البشري ، وما طمأنت له حتى ﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ...﴾ بما سبقت لك فيه البشري ، فاطمأنت لحدّما ، ولكنها بعد متحيرة ولكي تطمئن ﴿قَالَتْ أَنْ يَكُونُ لِي غُلَامٌ...﴾ فلما سمعت نفس الصيغة الماضية من الملائكة في بشرائها ﴿قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ...﴾ انتهت الحوار وأصبحت كأنها في قرار! مستسلمة لتحقيق البشري :

﴿فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا﴾ (٢٢).

فقد حملت الغلام الزكي الموهوب بنفخ رباني وإلقاء : نفخ «روحنا» وإلقاء «كلمته». هنا «فحملته» وفي أخرى ﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ (٤ : ١٧١) وفي ثالثة ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا﴾ (٦٦ : ١٢) فالحامل للغلام الزكي الموهوب هو «روحنا» والحمول هنا هو الغلام ، ثم المنفوخ هو «من روحنا» والملقى ﴿كَلِمَتُهُ... وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ والحاملة هي مريم ، وهل هنا فرق بين الغلام الزكي وروح منه ومن روحنا وكلمته الملقاة الى مريم؟ تعبيرات اربع في سائر القرآن عن تكوين المسيح (عليه السلام).

ولأن ضمير الغائب في «حملته» راجع الى ﴿غُلَامًا زَكِيًّا﴾ فليكن هو المحمول بروحه وجسمه ، وعلّ جسمه هو الكلمة الملقاة وروحه هو المنفوخ ، فتحققت إذا ازدواجية ذلك الحمل المبارك ، وفي قرن «كلمته» ب «روح منه» تلميح بذلك القرن في حملها ، وكلا النفخ والإلقاء من فعل الله وليس «روحنا» إلا وسيطا في تحميل هذه الهبة الربانية وعلّها دون نفخ منه ولا إلقاء!

فلقد كان حملا بإلقاء الكلمة في الفرج وهي النطفة الرجولية التي تشكل جسم المسيح ، إلقاء بدفع في قعر الرحم لتتزاوج نطفة الأنثى لتكوّن الجنين ، وينفخ الروح تباعا في الجسم الكلمة ومن ثم الولادة!

وترى إن مكوث الحمل كأصله كان خارقا للعادة؟ كأنه هو حيث «فحملته» تطوى زمن حلول الروح في الجسم طيا كأنهما مقارنتان ام مقارنتان بان البويضة في هذه الخارقة ما سارت بعد النفخة سيرها كسيرتها العادية ، بل اختصرت مراحلها اختصارا ، وأعقبهما تكوّن الجنين ونموّه واكتماله في فترة وجيزة! ^(١).

ثم ﴿فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا﴾ دلالة ثانية على هذا الطي ، حيث الفاء لتفريع القريب ، فالانتباذ كان تلو الحمل ، ولا داعي الى الانتباذ فور الحمل إلّا طيا لدور الحمل ، فقد اقتلعت عن مكان الحمل الى مكان قصي لوضع الحمل.

ترى أكان الحمل كاملا من ساعته أم تسع ساعات ام أية سويعات ، او ستة أشهر ^(٢)؟ لا ندري إلا ما تلمح لنا آية الحمل الانتباذ المخاض ، قدر ما يحتاجه انتبازها الى مكان قصي!

(١) مجمع البيان وروي عن الباقر (عليه السلام) .. فكمل الولد في الرحم من ساعته .. فخرجت من المستحم وهي حامل فحج مثقل فنظرت إليها خالتها فأنكرتها ومضت مريم على وجهها مستحيية من خالتها ومن زكريا ...

(٢) هنا روايات ثلاث في مدة حملها من ساعة كما رواه في المجمع عن الباقر (عليه السلام) انه تناول جيب مدرعتها فنفخ فيه نفخة فكمل الولد في الرحم من ساعته كما يكمل في أرحام النساء تسعة أشهر ، ومن تسع ساعات يرويها عن أبي عبد الله (عليه السلام) ومن ستة أشهر رواها في العلل والكافي عن أبي عبد الله ولفظها «ولم يولد . ولم يعيش . لستة أشهر الا عيسى بن مريم والحسين بن علي (عليهما السلام) ورواية رابعة .

وكيف انتبذت مكانا قصيا واين ذلك المكان؟ لا ندري! وقد يكون انتباذها بنبذة الهية خارقة ولا سيما ان المنتبذ إليه مكان قصي ، أو أنها لشدة هزتها بهذه الوشيكة المواجهة بها أهلها بالفضيحة ، لذلك انتبذت مكانا قصيا بعيدا عنهم خلوا عمن يعرفها! وهذه الانتباذة تناسب بيت اللحم المعروف أنه مولد المسيح (عليه السلام) وتلك الخارقة تناسب الفرات كما وردت بها روايات ^(١)! ومما يلمح بأقصر الحمل ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٣ : ٥٩) ومطلق المماثلة يقتضي الولادة فور الحمل او بفصل قريب ، و ﴿ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ تؤيده الا تدرج في هذا الحل كما لم يكن في خلق آدم!

. في الكافي عن أبي الحسن موسى (عليه السلام) في حديثه مع نصراني ... واما اليوم الذي حملت فيه مريم فهو يوم الجمعة للزوال ... واما اليوم الذي ولدت فيه مريم فهو يوم الثلاثاء لأربع ساعات ونصف من النهار ... (١) نور الثقلين ٣ : ٣٢٦ ح ٢٩ عن اصول الكافي عن أبي الحسن موسى (عليه السلام) في حديثه لنصراني ... والنهر الذي ولدت عليه مريم عيسى هل تعرفه؟ قال : لا قال : هو الفرات وعليه شجر النخل والكرم وليس يساوي بالفرات شيء للكرم والنخل ...

وفي تهذيب الأحكام عن علي بن الحسين في الآية قال : خرجت من دمشق حتى أتت كربلا فوضعت في موضع قبر الحسين (عليه السلام) ثم رجعت من ليلتها وح م د في روضة الكافي عن سليمان بن داود المنقري عن حفص قال : رأيت أبا عبد الله (عليه السلام) يتخلل بساتين الكوفة فانتهى الى نخلة فتوضأ عندها ثم ركع وسجد فأحصيت في سجدة خمسمائة تسبيحة ثم استند الى النخلة فدعا بدعوات ثم قال : يا حفص انما والله النخلة التي قال الله جل ذكره لمريم (عليها السلام) ﴿وَهَؤُلَاءِ إِلَيْكَ يَجِدُ النُّخْلَةَ تَسْقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا حَنِينًا﴾.

﴿فَاجْأَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنَسِيًّا﴾
(٢٣).

فاجأها المخاض فأجاءها . ان جاء بها . الى جذع النخلة لتجعله لبأسها سنادا ولظهرها عمادا . فانها وحيدة تعاني حيرة العذراء في أول مخاض ، دون ان تعرف منه شيئا او يعينها احد في شيء فلجئت الى جذع النخلة كقابلة تسندها .

معاناة المخاض من ناحية وغربتها من اخرى وهزتها من ولادة دون بعل من ثالثة تسقطها في يديها وتحيرها في أمرها وتشد حزنها وتغلي مرجل غيظها فتقول متأوهة حائرة :
﴿يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنَسِيًّا﴾!

ترى وكيف قالت قولتها هذه وهي عارفة بأن هذه الولادة هي من الله آية للناس ورحمة للعالمين؟ علّها لكربتها وغربتها وشدة وطئتها نسيت الآية الرحمة ، و «لأنها لم تر في قومها رشيدا ذا فراسة ينزهها عن السوء» ^(١) مهما دافع عنها أهلها!

﴿مِتُّ قَبْلَ هَذَا﴾ قد يعني قبل حملها ، او يعني قبل وضعها ام يعينهما حتى لا تقع في هذا المأزق المزلق ، ﴿وَكَُنْتُ نَسِيًّا﴾ ما يحق ان ينسى لدناءته كخرقة حيض او علقته ، ثم «منسيا» يعني نسيانا على نسيان! ألا يتذاكروني في شيء وأنا منذ الآن علقه الألسن تتداولني في نقاض ونقاش!

(١) نور الثقلين ٣ : ٢٢٠ ح ٤٦ مجمع البيان في الآية انما تمت (عليها السلام) الموت استحياء من الناس ان يظنوا بها سوء عن السدي وروي عن الصادق (عليه السلام) : انما ...

أترى لماذا ﴿إِلَى جَذَعِ النَّخْلَةِ﴾ دون «النخلة»؟ عله للإشارة الى ييوستها أن بقي لها جذع خشبة تلتجئ به! حيث الجذع هو القطع فهو إذا مقطوع النخل منفصلا عنه ام قطعاً عن حياته وما أنسبه لجوء العذراء التي ليست لتلد دون بعل الى جذع النخلة اليابسة عن وليد الثمر ، وليتشابها حين أثمر!

﴿فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ (٢٤).

لقد ولد المسيح (عليه السلام) هكذا إلى جذع النخلة وفي حديث أنه كان يوم العاشور^(١) أم ماذا^(٢) ما ندري إلا أنه ولد فيا لله! طفل هو حمل لفترة قصيرة ووليد اللحظة ، ينادي أمه من تحتها ، يطمئننها في حالها الغريبة المضطربة ، ونفس ندائه تطمئننها دون ان تحمل هذه البشارات : ﴿أَلَا تَحْزَنِي﴾ لكربتك على غربتك ، لوحدتك حين وهدتك ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ من الرفعة ، وهو المسيح الرفيع ، او من السري : السريان : نхра سرّيا خلق الساعة^(٣) ، ووليدا سرّيا يسرى صيته ويجري صوته في مشارق الأرض

(١) نور الثقلين ٣ : ٢٢ في تهذيب الأحكام عن أبي جعفر الباقر (عليه السلام) انه قال وقد ذكر يوم عاشوراء . وهذا اليوم الذي ولد فيه عيسى بن مريم (عليه السلام) ...

(٢) المصدر في من لا يحضره الفقيه عن الرضا (عليه السلام) قال : ليلة خمس وعشرون من ذي القعدة ولد فيها ابراهيم (عليه السلام) وولد فيها عيسى بن مريم (عليه السلام).

(٣) الدر المنثور ٤ : ٢٦٨ واخرج الطبراني وابن مردويه وابن النجار عن ابن عمر سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول : ان السري الذي قال الله لمريم ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ نخر أخرجه الله لها لتشرب منه واخرج مثله الطبراني في الصغير وابن مردويه عن البراء بن عازب عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وقد روي في المجمع عن أبي جعفر الباقر (عليه السلام): ضرب جبرئيل برجله فظهر ماء عذب يجري.

ومغاربها ، ناداها المسيح فانه محور الكلام وحاصل المخاض فهو من تحتها ، دون جبريل أم ملك سواه إذ ليس تحتها ^(١) وسريتها هو نهرها الساري تحتها ووليدها الخارج من تحتها فانه سرو رفيع وسار منيع ، ويا للسريين هذين من رفعة ومناعة فإنهما صنيعا ربهما كما وصنع لها رطباً جنياً ، مثلثا من خارق العادة رأس زاويته سري المسيح.

﴿وَهَزِي إِلَيْكَ بِجَذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رُطْبًا جَنِيًّا﴾ (٢٥)

فلأنها اهتزت لما ولدت دون بعل ، فلتهز جذع النخلة اليابسة فتتهز بالحياة دون سبب ظاهر فتحمل وتساقط عليها رطباً جنياً دون لقاح باهر ودون مكوث لفترة الإيقار والإثمار والإيناع ونحسبها عليها اندهشت في خطوة وبهتت على أهبة كيف تمتد يدها الى جذع النخلة اليابسة لتساقط عليها رطباً جنياً فإذا بالنخلة المورقة المثمرة المونة تساقط عليها ودقا من رطب جني طري!.

ويا لها من طاهرة عذراء تحمل دون بعل ، فأجاءها المخاض الى جذع نخلة يابسة بتراء ^(٢) فإذا هي تثمر دون وقتها . ولا لقاح . وبعد موتها ، كما

(١) المسيح هو آخر المراجع الصالحة لضمير الغائب في ناداها اضافة الى ما ذكر في المتن وانما ما كانت تطمعن الى هذه المقالة في حالتها المزرية الا مقالة المشاهد وهو المسيح.

(٢) نور الثقلين ٣ : ٣٣١ ح ٥٥ عن كتاب المناقب عبد الله بن كثير قال : نزل ابو جعفر (عليه السلام) بواد فضرِبَ خبائه فيه ثم خرج يمشي حتى انتهى الى نخلة يابسة فحمد الله عندها ثم تكلم بكلام لم اسمع بمثله ثم قال : أيتها النخلة أطعمينا ما جعل الله فيك فتساقطت رطباً أحمر واصفر فأكل ومعه ابو امية الانصاري فقال : يا أبا امية هذه الآية فينا كالأية في مريم ان هزت إليها النخلة فتساقطت رطباً جنياً.

أقول وفي بصائر الدرجات روى مثله عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال : أيتها النخلة السامعة الطيبة المطيعة لربها أطعمينا مما جعل الله فيك فتساقط علينا رطباً مختلفاً ألوانه .

أن العذراء تلد فور وهبة رها دون وقتها ولا لقاح ، ويجري في لحظتها ينبوع ، طعام وشراب محضران بخارقة الرب كما هي وابنها آية للعالمين :

﴿فَكُلِّي وَاشْرَبِي عَيْنًا فَإِمَّا تَرِينَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾ (٢٦).

كلي من رطب جني واشربي من السري ، وما أحسنه وأسلمه أكلًا للنفساء رطب جني ف «أكرموا عمتكم النخلة فانها خلقت من الطين الذي خلق منه آدم (عليه السلام) وليس من الشجر شجرة تلقح غيرها . أطعموا نساءكم الرطب فان لم يكن رطب فتمر فليس من الشجر شجرة أكرم من شجرة نزلت تحتها مريم بنت عمران» ^(١) «ولو علم الله طعاما هو خير لها من التمر

. فأكلنا حتى تضلعنا فقال (عليه السلام) : إليكم سنة كسنة مريم (عليها السلام)

وفيه عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال : خرج الحسن بن علي بن أبي طالب (عليه السلام) في بعض عمره ومعه رجل من ولد الزبير كان يقول بإمامته قال : فنزلوا في منزل من تلك المنازل تحت نخل يابس قد يبس من العطش قال : ففرش للحسن تحت نخلة وللزبير بجذاه تحت نخلة أخرى قال فقال الزبير ورفع رأسه : لو كان في هذا النخل رطب لأكلنا منه فقال الحسن (عليه السلام) وانك لتشتهي الرطب؟ قال : نعم فرفع الحسن (عليه السلام) يده الى السماء ودعا بكلام لم يفهمه الزبير فاحضرت النخلة ثم صارت الى حالها فأورقت وحملت رطباً قال فقال الجمال الذي اكتروا منه : سحر والله! فقال الحسن (عليه السلام) : ويلك ليس بسحر ولكن دعوة ابن نبي مجابة! قال : فصعدوا الى النخلة حتى تصرموا ما كان فيها فأكفاهم.

(١) الدر المنثور ٤ : ٢٦٩ . اخرج ابو يعلى وابن أبي حاتم وابن السنن وابو نعيم معا في الطب النبوي والعقيلي وابن عدي وابن مردويه وابن عساكر عن علي (عليه السلام) قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ... وفيه اخرج ابن عساكر عن أبي سعيد الخدري قال سألنا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) مما ذا خلقت النخلة؟ .

لأطعمها إياه»^(١).

هنا اطمأنت نفسها وعاد إليها ما عزب من لبها واستجمعت قوتها ، ومع الدستور الصارم تخفيفا لوضعها العارم : ﴿فِيمَا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي...﴾ لا تكلمي بشرا يواجهك إلا قوله الإشارة : ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا﴾ للصمت لا عن الأكل والشرب ﴿فَلَنْ أَكَلِمَ الْيَوْمَ﴾ واليوم فقط «إنسيا» مهما أكلم ربي وغير الانس من ملك امن ذا ، ولأن الانسي هو الذي يعارضني في ولدي دون بعل ، والله بملائكته يؤنسي غير ملهم! هذا طرف من قصة الولادة المباركة العجيبة للمسيح بن مريم (عليه السلام) وهنالك هرطقات إنجيلية تعارضها ، مما يجعل الجمعية الرسولية

. قال : خلقت النخلة والرمان والعنب من فضل طينة آدم (عليه السلام).

(١) اخرج ابن عساكر عن سلمة بن قيس قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): أطعموا نساءكم في نفاسهن التمر فانه من كان طعامها في نفاسها التمر خرج ولدا حليما فانه كان طعام مريم حيث ولدت عيسى ولو علم الله .. وفي نور الثقلين ٣ : ٣٣٠ ح ٥٠ في كتاب الخصال فيما علم امير المؤمنين (عليه السلام) أصحابه من الأربعمأة باب مما يصلح للمسلم في دينه ودنياه ما تأكل الحامل من شيء ولا تتداوى به أفضل من الرطب قال الله تعالى لمريم : ﴿وَهَئِذَا إِلَيْكَ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رُطْبًا غَنِيًّا...﴾

أقول : قول المسيح حينذاك وحيا هو من قول الله وفي (٥١) عن الكافي عنه (عليه السلام) قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ليكن أول ما تأكل النفساء الرطب فان الله عز وجل ... قيل يا رسول الله فان لم يكن ابان الرطب؟ قال : سبع تمرات من تمر المدينة فان لم يكن فسبع تمرات من تمر أمصاركم فان الله عز وجل يقول : وعزتي وجلالي وعظمتي وارتفاع مكاني لا تأكل النفساء يوم تلد الرطب فيكون غلاما الا كان حليما وان كانت جارية كانت حليمة.

الامريكية تعترض على جوانب من هذه القصة حسب القرآن قائلة : ^(١) «ان القرآن مشتبه في قصة مريم إذ ينسب إليها قصة هاجر أم إسماعيل ، فانها هي التي كانت في البرية وهزت إليها بجذع النخلة ومريم كانت في بيت لحم اليهودية والمسيح لم يتكلم في المهدي وهذه كلها مأخوذة من خرافات المسيحيين دون سناد عن كتابات الوحي ^(٢) .

وعجب من هؤلاء كيف يخطئون في قصة هاجر وهي في برية لا ماء فيها ولا كلاء ولا نخلة أماذا؟ ثم أنى لهم أن المكان القصي الذي انتبذته مريم كانت برية قفرا فلا شجرة فيها ولا نخلة ، فهل القصي في قاموسهم هو القصي عن الماء والكلاء؟ وليس إلا البعيد القاصي عن أهلها وعن ملاء الناس لكيلا يرونها تضع حملها فلا يسارعونها في الاتهام ، وليست النخلة إلا في المعمورة ، فقصبيهم . إذا . قصي عما يرام!

فهل ان القصي الطري المعمور بالنخلة ورطبها الجني أخرى بهذه الولادة المباركة للعدراء الطاهرة أم الآخور معلف الحيوان كما ينقله الإنجيل؟

فان زعمت الجمعية الرسولية أن مكانها القصي خلو من النخل فإنجيل يوحنا يصرح : «ان الكثيرين في اورشليم أخذوا سعوف النخل وخرجوا للقاء المسيح» (١٣ : ١٢ - ١٣) وبيت اللحم من ضواحي اورشليم ^(٣) .

وحين لا تسمح هذه الجمعية لمريم الطاهرة كرامة الرطب الجني تدنس

(١) راجع كتابنا «عقائدنا» ص ٥٠٠ . ٥٠٣ وما قبلها وبعدها ففيها تفصيل مقارنة للقصة بين القرآن والإنجيل .

(٢) ج ٢ ص ٩٢ . ٩٣ من الهداية للجمعية الرسولية الأمريكية نقلا بالمعنى .

(٣) سبق ان من المحتمل في المكان القصي بعد بيت اللحم هو الكوفة وكلاهما من منابت النخل كما في روضة الكافي باسناده الى حفص قال : رأيت أبا عبد الله يتخلل بساتين الكوفة فانتهى الى نخلة فتوضأ عندها ثم ركع وسجد فأحصيت في سجدة .

ساحتها وتصدق الخرافة الهاتكة الانجيلية «انها جاعت فانفتحت السماء ونزل عليها إناء فيه كل دواب الأرض والزحافات والطيور وقيل لها : إذ بحى وكلي فقالت : يا رب! اني لم أكل قط شيئا نجسا؟ فقيل لها : ما ظهره الله فلا تدنيسه» (يوحنا : ١١٠ . ١٦) فهل إن الله ينزل على مريم شيئا نجسا ويأمرها بأكله أن طهره أمره ، ام كيف تعارض الطاهرة المتعبدة أمر ربها ، أتريد ابطال حكم إلهي تعبيدا لطريقة المسيح الذي يفتدي البشرية عن لعنة الناموس ابطالا لشريعة التوراة؟

وحين تحيل الجمعية الرسولية اخضرار النخلة واثمرارها من ساعتها بأمر الله ، فلتحل مثل ذلك في عصى موسى حيث «وضعها في خيمة الشهادة وفي الغد وجدها قد أفرخت فروخا ، وأزهرت زهرا وأنضجت لوزا» (عد ١٧ : ٧ . ١١ وعب ٩ : ٤)!

﴿... فَأَمَّا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا﴾ رؤية حتمية لبشر «ترين» إذا حصلت «إمّا» . «أحدا» جنس البشر واحدا او أكثر ﴿فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ..﴾ وكيف تقول مقالتها وهي حسبها صائمة عن أية قوله لبشر؟ ..

هنا تقول الجمعية الرسولية : (٢ : ٥٢) إله القرآن يأمر مريمه تقول كذبا : إنها نذرت للرحمن صوما فلن تكلم اليوم إنسيا ، وهي لم تكن صائمة بدليل أمره إياها ان تهز إليها بجذع النخلة .. ﴿فَكُلِّي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا ..﴾ .. ثم أمره إياها أن تقول إنها صائمة لا تتكلم متناقض حيث

. خمسمائة تسبيحة ثم استند الى النخلة فدعا بدعوات ثم قال : يا حفص! إنها والله النخلة التي قال الله جل ذكره لمريم (عليها السلام). ﴿وَهَزِي إِلَيْكَ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا حَنِينًا﴾.

أمرت ان تقول : ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا...﴾.

وعجب من هؤلاء الاغفال كيف جمعوا بين صوم الصمت والطعام ، و ﴿فَلَنْ أَكَلِمَ...﴾ دليل انه صوم الصمت! ثم «قولي» لا يختص بقول الكلام ، حيث الإشارة المفهمة قول كما الكلام : ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ ولم يقل «قالت» وحتى لو قالت ف ﴿إِنِّي نَذَرْتُ...﴾ لا يحدد بداية الصوم ولعلها بعد هذه القولة إن كانت لفظة ولم تكن.!

ويا لها من كرامة للعدراء تعتذر بعذر شرعي شرعه لها ربها حتى لا تواجه بشرا بشرط كلمة قبل ان يذاد عنها بخارقة الهية ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا﴾ ، وعَلَّه فقط صوم الصمت ^(١) ام صوم يعم الصمت ولم يكن أكلها وشربها إلا قبل ان تواجه بشرا فلم يشملها صومها ان عمّ الطعام كما الكلام ، ولكنه الصمت فقط حيث النفاس من حالات منعة سائر الصيام ، وتفريعها على صومها : ﴿فَلَنْ أَكَلِمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾!

وصوم الصمت شرعة توراثية انقطعت بالشرعة القرآنية ، فأيات الصوم تمنع فيما تمنع عن ما سوى الصمت ، اللهم إلا صمتا عن الكذب على الله ورسوله حيث يبطل الصوم ، ام مطلق الكذب حيث ينتقصه ، وكما ثبت بالسنة الثابتة ^(٢) واما الصمت المطلق فلا صوم فيه إسلاميا!

(١) المصدر ح ٦٠ في كتاب المناقب لابن شهر آشوب في مناقب أبي جعفر الباقر (عليه السلام) وسأل طاووس اليماني أبا جعفر (عليه السلام) عن صوم لا يحجز عن أكل وشرب؟ فقال : الصوم من قوله تعالى : اني نذرت للرحمن صوما.

(٢) نور الثقلين ٣ : ٣٣٢ ح ٥٨ في الكافي باسناده عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال : ان الصيام ليس من الطعام والشراب وحده ثم قال : قالت مريم : اني نذرت .

﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا﴾ (٢٧) **يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا** (٢٨) **فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا** (٢٩).

﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا﴾ . ان مكانها القصي لم يكن بذلك البعيد كالكوفة ﴿فَأَتَتْ .. تَحْمِلُهُ﴾ دون ان تتركه مخافة العار حيث اطمأنت أنه عطية ربانية فهو ذائد عنها ما يمس كرامتها ﴿قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا﴾ : موضعا لفرية بالغة المدى ام عظيما بديعا ف «لقد» تأكيد ان و «فريا» كمبالغة الفرية تشكل عليها ثلوث الفرية ومن ثم التأنيب كأنها ثابتة لا حول عنها : ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ امْرَأَ سَوْءٍ ...﴾!

وهنالك مندوحة للعدراء الوالدة . مع الغض عن احتمال معجزة الهية . : عليها اجتذبت نطفة الرجولة دون لقاح ان جلست مكانا فيه النطفة ، وحالة المؤمن وفعله محمولة على الصحة ، أفلم يلمس قومها ايمانها وهي عائشة الحراب ، صالحة الذهاب والإياب ، فالحة في حراب الشهوات!؟.

ثم ولماذا ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ﴾ وهو أخو موسى وبينهما قرون خلت؟ كما اعترضته الجمعية الرسولية الامريكان (٣ : ٣١) : «خلط هارون أخا موسى باخي مريم!» وكأنهم يخصون اسم هارون باخي موسى ثم لا يحق لمن بعده ان يتسمى بهارون! «ألا أخبرتهم أنهم كانوا يسمعون بالأنبياء والصالحين قبلهم» (١)؟!

. للرحمن صوما . أي صوما صمتا . صمتا . فإذا صمتتم فاحفظوا ألسنتكم وغضوا ابصاركم ولا تنازعوا ولا تحاسدوا . (١) الدر المنثور ٤ : ٢٧٠ . اخرج ابن أبي شيبة واحمد وعبد بن حميد ومسلم والترمذي والنسائي وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن حبان والطبراني وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن المغيرة بن شعبة قال بعثني رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) الى اهل .

ولماذا يتقدم هارون أخوها على أبيها ومن ثم أمها؟ علّه لأن هارون كان اقدس أنسابها وأشهر في قدسيته من أبيها لحد يتعالى حتى عن أن ينفى عنه السوء ، ثم أبوها ما كان امرء سوء ، ثم أمها ما كانت بغيا!

ومثلت النسبة هذه والرعاية العالية الطاهرة في ظله يجعل من البنت طاهرة بعيدة عن هذه الفعلة العاهرة ، فيا للمفارقة بين هذه النسبة المباركة وتلك المقارفة النكدة الدنيئة التي لا تأتيها إلا بنات بغايا والآباء السوء!.

والقول إن هارون هذا لم يكن أخاها وإنما مثلها في التقوى مشهورا بها ، غير فصيح ولا صحيح ، حيث الحقيقة لا تصرف الى مجاز إلا بقرينة ، وأنهم كانوا في تفرعها وتأنبها سابق الجملة : ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا قَرِيبًا﴾ ولا حقها : ﴿مَا كَانَ أَبُوكَ امْرَأَ سَوْءٍ ..﴾ والاخوة المثلة بهارون ، لها مدحة بالغة! ^(١).

أشارت إليه إشارة قائلة ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا﴾ وأسألوه فانه المجيب عما تسألون! أم قالت لهم نذرهما قبل بدايته وقبل أن يكلموها ، ثم أشارت إليه إجابة عما افتروا عليها ، هنا يهرهم العجاف على الغيظ الذي ساورهم ، كيف تتبجح فتسخر من متسائليها ، صامئة مشيرة الى ﴿مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ قالوا جوابا عن إشارتها الهازئة الفالسة في حسابهم ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾!؟.

وترى ما هي مكانة «كان» هنا وكل أحد كان في المهد صبيا مهما كان

. نجران فقالوا أرايت ما تقرؤون ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ﴾ وموسى قبل عيسى بكذا وكذا فرجعت فذكرت ذلك لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فقال : ألا أخبرتهم ..

(١) مجمع البيان : يا اخت هارون فيه اقوال : أحدها ان هارون هذا كان رجلا صالحا في بني إسرائيل ينسب اليه كل من عرف بالصلاح عن ابن عباس وقتادة وكعب وابن زيد والمغيرة بن شعبة يرفعه الى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أقول وهذا المرفوع اليه مرفوع عنه في المعنى لما قلنا ومضى عنه (صلى الله عليه وآله وسلم). والراوي عنه في هذين المتعارضين واحد وفصاحة القرآن تنافي الثانية.

الآن ايضا صبيا ام شابا او شائبا هرما؟

علّ «كان» هنا تامة وصبيا حال ، كيف نكلم طفل المهد حال صباه وليس بأهل لكلام او حوار ما كان في المهد ، إذا ف «كان» تركّز صباه انه بعد طفل المهد ولما يخرج منه حتى يؤهل لكلام ، و «كان» هذا كاضرابها في سائر القرآن تدليلا على تمكّن مدلولها في حال ام ماذا ^(١).

والقول ان «كان» هنا زائد زائد من القول إذ لا يليق بفصيح الكلام كسائر القول هنا إلا ما نبهنا عليه والله اعلم بما «كان»!.

﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْ لِي جَبْرًا شَقِيًّا (٣٢) وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (٣٣) ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ (٣٤).

تنزيهات سبع تخصه ، تغلق عليه السبع أبواب جحيم الافتراءات الموجهة اليه ، المفتحة عليه ، وثامنة هي تقديسة تامة هامة تكرر حياته الطاهرة وحياة امه الزاهرة العذراء: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ﴾!

والحق أقول إنه بيان صارم على اختصاره يحرف عنها كل هرطقة عارمة تحرف او كلمة تحرف في كتابات مزورة!.

(١) مثل قوله تعالى : «قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا» (١٧ : ٩٣) ان البشرية والرسالة تمكنتا في فلا املك ما يملكه ربي . وقوله تعالى : «وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا» (١٧ : ٣٦) حيث النصرة لزام الولي المقتول .. وكذلك «مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا» حيث الصبا بعد لزامه ولما يخرج من صباه!.

١ ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ..﴾؟

إن كلامه وهو في المهد صبي رضيع ، وبهذه البداية المباركة يذود عنه تفريط المفرطين :
 انه ولد زنا. وإفراط المفرطين انه الله او ابن الله ، فكيف ينطق ولد زنا بخارقة الهية اللهم إلا
 من اصطفاه الله ، وكيف يعترف الله او ابن الله ام اقنوم الالهية انه عبد الله؟! .
 ففي حين أنه لم يصرح هنا بالطهارة عن الزنا استلزم كلامه في بعدية أنه الطاهر
 المصطفى آية لله : ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً﴾ (٢٣ : ٥٠) وهنا يتهدم صرح كل مفرط
 ومفرط بحق المسيح وأمه (عليهما السلام) ، حيث الأقاويل فيهما ولا سيما فيه متشابكة
 متشاكسة لا يكاد تخمد نيرانها إلا بصراح القول من المسيح نفسه وهو في المهد صبي!
 نجد قرابة ثمانين موضعا في الأناجيل أن المسيح يعترف بعبوديته لله وأنه ابن الإنسان
 (١) ورغم تحرفها لا نجد فيها ولا تصريححة واحدة من وحي الإنجيل أنه الله إلا «الآب والابن
 وروح القدس» والآب باللغة اليونانية تعني الخالق ، فالابن ليس إلا مخلوقا للخالق وهو ابن
 الإنسان ، وروح القدس هو الوسيط بين الخالق والابن. ولكنهم رغم الحفاظ على الصيغة
 اليونانية يفسرونها بالآب كأنها عربية مع الغض عن مدّها ، تحريفا خارفا مجازفا جارفا لم يتنبه
 له إلا القليل ممن وفي لرعاية الحق من العارفين.

(١). كما في إنجيل يوحنا ١ : ٥١ و ٤ : ٦ و ٣ : ٢٦ و ٢٤ : ٤ و ٣٤ : ١٩ و ٤٤ : ٥ و ١٩ : ٢٤ ، و
 ٣٠ : ٤٤ و ٦ : ١٤ و ٢٨ : ٢٩ و ٤٤ : ٧ و ١٦ : ١٨ و ٢٨ : ٣٣ و ٤٠ : ٨ و ٢٦ : ٢٨ و ١١ :
 ٤١ و ١٢ : ٢٧ هو عبد الله.
 وفي متى ٨ : ٢٠ و ٩ : ٦ و ١٦ : ١٣ و ٢٧ : ١٧ و ٩ : ١٢ و ٢٢ : ١٨ و ١١ : ١٩ و ٢٨ : ٢٠ :
 ١٨ و ٢٠ . انه ابن الإنسان.

﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ حاله ومقاله وسمة أفعاله طول حياته ، مهما اختلق عليه مقالات أخرى ^(١) فهو لا يعرف لنفسه صلاحا بجانب ربه فكيف يجعل نفسه عدلا لربه؟ : «وإذا واحد تقدم وقال له : أيها المعلم الصالح .. فقال له : لماذا تدعوني صالحا؟ ليس أحد صالحا إلا واحد وهو الله» (متى ١٩ : ١٦ - ١٩) . (مرقس ١٠ : ١٨) (لوقا ١٨ : ١٩) ويندد ببطرس المتطرف ، المتطرق له لقب الرب : «حاشاك يا رب! فالتفت وقال لبطرس : اذهب عني يا شيطان! أنت معثرة لي لأنك لا تهتم بما لله لكن بما للناس» (متى ١٦ : ٢٢ - ٢٣) . ويندد بمن اختاله معادلا لربه : آبي يعمل وأنا أعمل فمن أجل هذا قالوا : إنه كسر السبت وجعل نفسه معادلا لله» (يوحنا ف ١٧) ^(٢) .

٢ ﴿آتَانِي الْكِتَابَ ..﴾

فرية أخرى على المسيح (عليه السلام) ان ليس له كتاب شرعة ، وإنما الحواريون ومن اتباعهم هم الكاتبون سيرته وسموها الإنجيل ، لذلك لا نرى عندهم إنجيلا ينسب الى المسيح إلا ما تطرق له التاريخ وأصبح منسيا مع الزمن.

(١). كالقائلة انه ابن الله : (متى ٣ : ١٧) وأول مواليده (عب ١ : ٩) وابن الله المبارك (مرقس ١٤ : ٦١) والقائلة انه هو الله والكلمة : (يوحنا ١ : ١) الازلي (عب ٩ : ١٤) والرب وقد كرر في الأناجيل وانه عمانوئيل : الله معنا (متى ١ : ٢٣) ويعارضها التصريحات الثمانون في الرقم (١) ومثل : يهو . الله : يرسل أنبياء وحكماء وكتبة (متى ٢٣ : ٣٤) و (لوقا ١١ : ٤٩) ويهو هو رب الشريعة فبقدرته الشخصية يتم ناموس موسى ويعدله (متى ٥ : ٢١) ويهو يعقد عهدا مع البشر (متى ٢٦ : ٢٨ و مرقس ١٤ : ٢٤ و لوقا ٢٢ : ٢٠) .

(٢). راجع كتابنا : عقائدنا ص ٦٥ - ١٤٥ . تجد فيه تفصيلا واسعا عن خرافة الألوهية والنبوة للمسيح وتزييفها.

إن القرآن يثبت له إنجيلا : ﴿وَأَتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ (٥ : ٤٦)! وجماعة من المسيحيين ينكرون هذه الحقيقة الناصعة ، ك : القس و . ت . جردنر الإنجليزي^(١) و : او ميم ميلر^(٢) رغم اعتراف جماعة آخرين منهم بإنجيل المسيح وكما في الإنجيل الحالي نفسه : «بعد ما أسلم يوحنا جاء يسوع إلى الجليل يكرز . يبشر . بإنجيل ملكوت الله ويقول : قد كمل الزمان

(١). في كتابه : محاورة الوحي باعتبار التوراة والإنجيل والقرآن ، صدر من الجمعية الاسقفية ببولاقي مصر . طبع بمطبعة النيل المسيحية بشارع المناخ نمرة ٣٧ . يقول فيه : «في القرون التي مضت بين المسيح ومحمد (صلى الله عليه وآله وسلم) لم يعترف المسيحيون بإنجيل غير الإنجيل الحالي اي : العهد الجديد . وليس هناك اقل بينة تدل على انه كان لدى المسيحيين كتاب آخر غير الكتاب الحالي او الإنجيل الحقيقي او ان الحقيقي فقد بعد زمن الهجرة .. ان الإنجيل الحالي هو إذا الإنجيل الحقيقي ، وان زعم وجود كتاب آخر انزل على عيسى هو وهم وخطأ ، فيكفي ان نقول فقط : ان كاتبي اسفار الإنجيل ألهموا ان يدونوها بطرق مختلفة ووسائل متنوعة ولذلك يعتبر جوهر ما دونوه موحى به» .

(٢). هو العالم الشهير الانجيلي في كتابه : التمدن القديم في باب تعاليم المسيح ، يقول فيه : «ان ربنا عيسى المسيح لم تكن له شريعة كموسى ، انما قرر شريعة التوراة ، انه كلمة الله الطاهرة وكان عنده خزائن علم الله وحكمته فلم يكن من اللازم ان ينزل عليه كتاب ، والمؤمنون الأولون انما كانوا يستفيضون من كلماته النبوة ، فأين لزوم كتاب ينزل عليه؟ فان اعماله وكلماته كانت مكتوبة على صحائف قلوب الحواريين ، فلم يكونوا إذا بحاجة الى كتاب شريعة إذ كانت تكفيهم شريعة التوراة ، ولا كتاب سنة عملية أخلاقية لأن المسيح كان ذلك الكتاب بأعماله وأقواله . ولكن المسيحيين لما لم يروا المسيح في الجسم على الأكثر ، فهم بحاجة الى كتابات تذكرهم بمعجزات المسيح وحياته لكي يغنيهم البيان عن العيان ، لذلك رأى مؤلفوا الأناجيل الذين كانوا يعرفون حياة المسيح بعيان وبصيرة . رأوا من المفروض عليهم تأليف هذه الأناجيل ويشرحوا فيها أحواله وأقواله ومعجزاته وهذه الكتب هي المراجع الدينية الثانوية بعد المسيح وتلاميذه» .

واقترب ملكوت الله فتوبوا وآمنوا بالإنجيل» (مرقس ١ : ١٥) ^(١) «وكان يسوع يطوف كل الجليل يعلم في مجامعهم ويكرز بإنجيل الملكوت» (متى ٤ : ٢٣ و ٩ : ٣٥) ويعرف به بولس قائلاً : «أولا أشكر الهي يسوع المسيح من جهة جميعكم أن إيمانكم ينادي به في كل العالم فإن الله الذي أعبدته بروحي في إنجيل ابنه شاهد لي كيف بلا انقطاع اذكركم» (روم : ١) وفي : برنابا : «ولقد قال لي صدق يا برنابا اني اعرف كل نبي وكل نبوة وكل ما أقوله إنما جاء من ذلك الكتاب» ^(٢) «وأنتم شهداء على هذا كيف أنكر على هؤلاء الأشرار الذين بعد انصرافي عن العالم سيبتلون حق إنجيلي بعمل الشيطان ، ولكنني سأعود قبل النهاية» (برنابا ٥٢ : ١٤ - ١٥) «... مع أنني الآن أبكي شفقة على الجنس البشري لأطيلن في ذلك اليوم عدلا بدون رحمة لهؤلاء الذين يحتقرون كلامي ولا سيما أولئك الذين ينجسون إنجيلي» (برنابا ٥٨ : ٢١ - ٢٢) وكما يشهد بولس بهذه الخيانة الفاضحة إذ يندد بهم : «إني أتعجب أنكم تنتقلون هكذا سريعا من الذي دعاكم بنعمة المسيح إلى إنجيل آخر. ليس هو آخر. غير أنه يوجد قوم يزعمونكم ويريدون ان يحولوا إنجيل المسيح» (اغلا : ٦ - ٧)!

(١). هذه الآية تلمح كأهم ما كانوا ليصدقوا إنجيله إذ كان عبثا وحملًا عليهم ، حتى يفسح لهم مجال اختلاق اناجيل أخرى.

(٢). حينئذ قال التلاميذ : حقا ان الله تكلم على لسانك لأنه لم يتكلم انسان قط كما تتكلم؟ أجاب يسوع : صدقوني : انه لما اختارني الله ليرسلني الى بيت إسرائيل أعطاني كتابا يشبه مرآة نقية نزلت الى قلبي حتى ان كل ما أقول يصدر عن هذا الكتاب ومتى انتهى صدور ذلك الكتاب من فمي اصعد عن العالم ، أجاب بطرس : يا معلم! هل ما تتكلم الآن به مكتوب في ذلك الكتاب؟ أجاب يسوع : ان كل ما أقوله لمعرفة الله ولخدمة الله ولمعرفة الإنسان ولخلاص الجنس البشري إنما هو جميعه صادر من ذلك الكتاب الذي هو انجيلي (برنابا ١٦٨ : ١

وهناك في الأناجيل اللاحقة لهذه الأصول الانجيلية عندهم تصريحات تتجارب معها ، ك «إنجيل السلام للمسيح» (١ ف ٦ : ١٥) و«إنجيل الخلاص» (١ ف ١ : ١٣) و«إنجيل الرب (أول تسلو ٢ : ٩).

وكذلك تصريحات أخرى من علماء المسيحية ومؤلفيهم ، ك «نارتن» حيث ينقل عن «أكهارن» وتذكر دائرة المعارف الإنجليزية إنجيل المسيح (عليه السلام) في عداد خمسة وعشرين إنجيلا ^(١) ويؤيده كتاب اكسهوموا ^(٢) و «أكهارن» وكثير من متأخري علماء النمسا ، ومال إليه المحققون . «ليكلرك . كوب . ميكائيلس . ليسنك . نيمير ومارش» ^(٣).

٣ . ﴿وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۖ﴾

تري كيف تأخرت النبوة عن إتيان الكتاب الذي يضم النبوة والرسالة كليهما؟ لأن النبوة للرسول هي الرفعة في رسالته. فهناك نبوة ثم رسالة ثم نبوة ، فمن نبيء ليس برسول ومن رسول ليس بنبي ، وكما تتأخر النبوة الجامعة مع الرسالة عنها في سائر القرآن ، تدليلا على أنها أخص من الرسالة : ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾ (١٩ : ٥١) ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾ (١٩ : ٥٤) ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ (٧ : ١٥٧) ﴿فَأَمْنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ ۖ﴾ (٧ : ١٥٨) ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ ۖ﴾ (٢٢ : ٥٢) فهذه

(١). في المطبوعة ١٣ ص ١٧٩ . ١٨٠ تحت عنوان : ابو كريفل لتريجر : خرافات الادبيات.

(٢). ألفه حكيم بروتستاني يذكره في الباب ٥ من كتابه المطبوع ١٨١٣ م في لندن.

(٣). راجع كتابنا «المقارنات العلمية والكتابية بين الكتب السماوية» ص ٩ . ٦٠ تجد فيه تفاصيل الأناجيل.

النبوة السامية كسائر النبوات متدرجة من العبودية ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ الى نبوءة وحي ثم رسالة : ﴿آتَانِي الْكِتَابُ﴾ ثم نبوءة ﴿وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ فبين النبوة والنبوة متوسط الرسالة ، وكل من هذه الرحلات درجات حسب درجات النبوات.

ثم ﴿وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ تحصر كيانه ككل في النبوة رفضا لما سواها من الوهية او نبوءة حقيقية او تشريفية اماهيه مما يهرفه الخارفون حول السيد المسيح (عليه السلام) من وراثة الالوهية او النبوة!

﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ﴾ بركة شاملة تكرر كيانه ككل ، تسلب عن ساحته كل المثالب والمآلبي التي اختلقتها أيدي الدس والتجديف ، ف ﴿أَيْنَ مَا كُنْتُ﴾ تضرب إلى أعماق الماضي في أصلاب شامخة وأرحام مطهرة حيث تنقل من كل الى اخرى وإلى امه الطاهرة العذراء ، ما يطهر ساحته في ماضيه وبأحرى حاله ومستقبله كما يشملها مثلث السلام ، فلم تكن في هذا البين مقارنة محرمة على أية حال ، ولا مقارنة لها في كل حل وترحال ومن مستقبله المجيد.

إنه لم يخلد بخلد مريم الطاهرة إلا رجاء الذود عن ساحة هذه الولادة ، فإذا هي تجدد وليدها : «جعلني نفاعا للناس أين اتجهت» ^(١) ومعلما ومؤدبا ^(٢).

(١) الدر المنثور ٤ : ٢٧٠ . اخرج الاسماعيلي في معجمه وابو نعيم في الحلية وابن لال في مكارم الأخلاق وابن مردويه وابن النجار في تاريخه عن أبي هريرة قال قال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قول عيسى (عليه السلام) وجعلني مباركا أينما كنت قال : جعلني .. وروى مثله في معاني الاخبار باسناده الى عبد الله بن جبلة عن رجل عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال : نفاعا ، وهذا تفسير بالمصداق الجلي .

(٢) المصدر اخرج ابن عدي وابن عساكر عن ابن مسعود عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في الآية ...

في بركة كاملة كافلة لكافة الأصلاب والأرحام التي تنقلا بينها.

وذلك تعريض عريض على كل التقولات الكتابية في عهدي القديم والجديد ، مما تدنس هذه الساحة المباركة بمن قبلها من ساحات النبوات وسواها من أصلاب وأرحام!

صحة الأناجيل خطر على قدسية المسيح عليه السلام.

العهدان يتناصران في تبعيد المسيح (عليه السلام) عن حزب الله ولا يسمحان له الدخول في جمعية الرب إذ يفترقان عليه أنه من جدود أربعة هم من أولاد زنا . وعودا بالله!

موآب . فارص . بن عمي . سليمان :

هؤلاء الأربعة من أجداد المسيح حسب الإنجيل ، تجد كلهم من أولاد الزنا حسب الكتابات المقدسة! :

«موآب» : عوييد جد داود النبي أمه روث» (متى ١ : ٥ - ٦) وهي من نسل موآب ، والمسيح من نسل داود من سليمان (متى ١ : ١) فموآب أحد أجداد المسيح وداود وسليمان.

«بن عمي» : رجبعام بن سليمان من أجداد المسيح (متى ١ : ٧) أمه من نسل بن عمي (املوك ١٤ : ٢١).

«فارص» : وهو ايضا في سلسلة أجداد المسيح (متى ١ : ١ - ٤) ونحن نجد هؤلاء الثلاثة وسليمان في التوراة من ولد الزنا! فموآب وبن عمي هما ابنا لوط حيث زنى ببنتيه سكرانا فولد من الكبرى موآب ، ومن الصغرى بن عمي ، وهما يرأسان سلسلتي موآب وبن عمي (تكوين ١٩ : ٣٠ : ٣٨) ..

وفارص او برص ولد من زنا من «تامار» حليمة ابن يهودا حيث زنى بها فولدت فارص وزارج توامين (تكوين ٣٨ : ٦ - ٣٠) وسليمان من ولد «بت شبع» امرأة او ريثا حيث زنى بها داود النبي (متى ١ : ٦) وحاشاه.

فداود وسليمان والمسيح هم أولاد زنا . وعودا بالله . من المحارم ، نتيجة تجاوب العهدين في عرض نسبهم ، ثم التورات تأتي بتصريحات تخرج المسيح وهؤلاء من حزب الله ولا تأذن لهم الدخول في جمعية الرب!.

... «لا يدخل ابن زنى في جماعة الرب ، حتى الجيل العاشر لا يدخل منه أحد في جماعة الرب. لا يدخل عموني ولا موآبي في جماعة الرب حتى الجيل العاشر. لا يدخل منهم أحد في جماعة الرب الى الأبد ... لا تلتمس سلامهم ولا خيرهم كل أيامك إلى الأبد» (تثنية ٢٣ : ٢ - ٣ و ٦)!

إذا فلا خير في مسيح الإنجيل ولا يدخل في جماعة الرب فضلا عن ابن يرأسهم . لا يدخل : نحميا او إخبارا . هو وكل ولد زنى ولا سيما الموآبين وبن عمين وهو منهما! فكيف يعتبر نبيا عظيما من اولي العزم أو ابنا لله ام إلها متجسدا في الناسوت ، هذا الافك والبهت الزور في العهدين تحتته مقالة مسيح القرآن. ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ﴾ .. ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ (٣١).

تلك هي وصية خاصة رابية على أمتة ، بالصلاة : أداء لها بنفسه وإقامة في أمتة وكما في موسى : ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ (٢٠ : ١٤) وابراهيم : ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ (١٤ : ٤٠) وإسماعيل ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ﴾ (١٩ : ٥٥) وهذا النبي والذين معه : ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ (٢٠ : ١٣٢) ﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ﴾ (٢٩ : ٤٥) ما وأوحي الى

المرسلين أجمع : ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ ..﴾ (٢١ : ٧٣).
وقد تدل «واوصاني» في المسيح (عليه السلام) إضافة إلى ما يعم المرسلين انه ما كان
إلا عبد الله ، لا إلها او ابنه وإلا فلن كان يصلي؟! ٦

﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ ..﴾

جعلني برا بوالدي ويا للعجب أن يصبح البر بالوالدة من الميزات الرسالية وهو من
النواميس العامة ، والرسالة تتخطى برا بوالدي أما ذا من قبيله ، وتختص بالميزة القمة التي لا
تشارك فيها الأمة أم أدنى من القمة كإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، دون البر بالوالدة ، ولا نجد
في سائر القرآن ، يعتبره ميزة رسالية اللهم إلا بر الرحمة الالهية : ﴿إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ
هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾ (٥٢ : ٢٨) وفي يحيى ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ (١٩ : ١٤)
ثم وآيات الإحسان بالوالدين نعم الأمم!

ولكن ﴿بَرًّا بِوَالِدَيْهِ﴾ في المسيح تعني ايجابية البر بها التي لا اثر عنها في الكتابات
الإنجيلية ، وكما أن :

٧ ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ (٣٢).

تعني الذود عن ساحته ما مست منه هذه الكتابات إنه كان بها جبارا شقيا!..
المسيح وأمه حسب الإنجيل :

نبدأ هنا بقصة قانا الجليل ما أسوءها لمريم وعيساها إذ تنسب الى المسيح معجزة
صناعة الخمر كاوى معجزاته التي دعت تلاميذه إلى الايمان به ، وذلك باستدعاء مريم وهو
يهتكها في استدعائها رغم أنه يطبقها : «ولما فرغت الخمر قالت ام يسوع : ليس لهم خمر.
قال لها يسوع مالي ولك يا امرأة لم تأت

ساعتي بعد . ومن فوره يأتي ساعته قائلا : املاً والاجران ماء .. فلما ذاق رئيس المتكأ الماء المتحول خمراً...».

هذه بداية الآيات فعلها يسوع في قانا الجليل وأظهر مجده فأمن به تلاميذه! (يوحنا : ١٠ - ١١) .. فمسيح القصة يهتك أمه في كلمة لاذعة «ما لي ولك يا امرأة» رغم إجابتها من فورها لمأمورها كمعجزة أولى!.

هذا . وفتك ثان بها في قصة ثانية يتهمها فيها بعدم الإيمان : «إذ كان يكلم تلاميذه فجاءت حينئذ إخوته وأمه ووقفوا خارجا وأرسلوا إليه يدعونه وكان الجمع جالسا حوله فقالوا : هوذا أمك وإخوتك خارجا يطلبونك. فأجابهم قائلاً : من أمي وإخوتي؟ ثم نظر حوله الى الجالسين وقال : ها أمي وإخوتي لأن من يصنع مشيئة الله هو أخي وأختي وأمي (مرقس ٣ : ٣١) «أمي وإخوتي هم الذين يسمعون كلام الله ويعملون بها» (لوقا ٨ : ١٩ - ٢١) (متى ١٢ : ٤٦ - ٥٠).

فيا لها من نسبة فاسقة كافرة الى مريم وإخوته تمنعا عن مكالمتها فرية عليها أنها تاركة للصالحات ، وفي حين أنه يؤكد بالغ التوكيد باحترام الأمهات وانه من النواميس العشرة التوراتية دون شرط الإيمان وهي الطاهرة المعصومة (متى ١٩ : ١٩) (مرقس ١٠ : ١٩) (لوقا ١٨ : ١٠) أفنقضا للنواميس وتناقضا بين القول والعمل بهذه المثابة. وتذليل الأبوين يخلف لعنة إلهية بتأمين شعب الله : «ملعون من يستخف بأبيه أو أمه ويقول جميع الشعب آمين» (تثنية ٢٧ : ١٦).

ثم هو في قصة ثالثة وهي عند صلبه! ينعزل عن بنوته لها ويهبها لمن يحبه من تلاميذه : (يوحنا) لتكون له اما : وكانت واقفات عند صليب يسوع أمه واخت مريم زوجه «كلوبا» و «مريم المجدلية». فلما رأى يسوع أمه

والتلميذ الذي كان يحبه واقفا قال لأمه : يا امرأة! هوذا ابنك. ثم قال للتلميذ : هوذا أملك.
ومن تلك الساعة أخذها التلميذ إلى خاصته» (يوحنا ١٩ : ٢٥ - ٢٧)!.
هذا. ثم المختصر في علم اللاهوت العقائدي يحاول انجبار حالة مسيح الإنجيل الجبار العصبي^(١)!.

هذه مريم (عليها السلام) ومسيح الجبار العصبي تجاهها حسب الإنجيل ، ثم نجده وامه حسب القرآن في ارفع مقامات العصمة والطهارة.

(١). تأليف لوديفغ اوث ج ٢ ص ١١٢ - ١١٨ . يقول فيه» .. ومريم قد اكتسبت استحقاقات وافرة لا بكفاحها ضد الرغبات الحسية بل بمحبتها لله وبفضائلها الاخرى : الايمان . التواضع . الطاعة : (انظر القديس توما ٣ / ٢٧ : ٣ على الثاني) .. فعند تقديس مريم في أحشاء أمها قيدت الشهوات بحيث انتفت كل حركة حسية منحرفة ، أما لدن الحمل بالمسيح فقد أخذت الشهوات إخمادا بحيث ان القوى الحسية صارت خاضعة كل الخضوع لقيادة العقل : (انظر القديس توماس ٣ / ٢٧ : ٣) ... أعلن المجلس التريدينيتي : «ما من بار يستطيع مدة حياته كلها ان يتحاشى كل الخطايا حتى العرضية الا بامتياز خاص من الله كما تعتقد الكنيسة انه الحال في الطوباوية العذراء. (D ٨٣٣) وقد قال البابا بيوس الثاني عشر في رسالته Mystici corporis عن العذراء ام الله : «بأنها كانت في عصمة من كل خطيئة شخصية او وراثية (D ٢٢٩١) هذه العصمة هي متضمنة في نص لوقا (١ : ٢٨) «السلام عليك يا ممتلئة نعمة ...» .

كان الآباء اللاتين يميزون بعصمة مريم من الخطيئة فيعلم القديس او غسطينوس : ان كل خطيئة شخصية يجب ان تنتفي من العذراء مريم . والقديس افرام يضع مريم البريئة من الدنس في مقام المسيح (انظر : ٣).

مريم في القرآن . :

﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ. فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذَرَيْتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ. فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (٣ : ٣٥ . ٣٧).

﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ (٣ : ٤٣) ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَيْنَا فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقْتَ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُنْتِ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾ (٦٦ : ١٢) وهكذا الى : ٣٥ مرة تذكر في سائر القرآن!.

المسيح في القرآن :

إنه عبد الله ونبيه . جعله مباركا أينما كان عبر الأصلاب والأرحام وعبر حياته النيرة (١٩ : ٣٠ . ٣٢) و ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ﴾ (٤ : ١٧٢) وانما مقالته وحالته طول حياته ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ (٣ : ٥١) و ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٣ : ٥٩) ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ (٤٣ : ٥٩) ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِهْنِينَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ

ما فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ. مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اْعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ﴿٥﴾ (١١٦-١١٧).

وهو واحد من (١) ولي العزم الخمس : ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ...﴾ (٤٢ : ١٢) وكتابه الإنجيل : (٣ : ٣ و ٤٨ و ٥ : ٤٦) وقد سماه الله بالمسيح ﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ (٤ : ١٧١) وهو من شهداء الأعمال يوم القيامة « (٤ : ١٥٩) و (٥ : ١٨٧) ﴿وَجِئَهَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ (٣ : ٤٥) ومن المصطفين المجتبيين الصالحين « (٣ : ٣٣ و ٦ : ٨٦-٨٧) وقد علمه الله الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل « (٣ : ٤٨) وكان مبشرا برسول يأتي من بعده اسمه أحمد (صلى الله عليه وآله وسلم) (٣ : ٤٨) ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا. بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ...﴾ (٤ : ١٥٧-١٥٨) وسيؤمن به أهل الكتاب قاطبة قبل موته : ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ...﴾ (٤ : ١٥٩) والى (١١) مرة عيسى و (٢٥) مرة المسيح المذكورة في سائر القرآن ، وتربوا مرة واحدة على امه الطاهرة مريم (عليها السلام)!.
٨ ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ (٣٣).

هنا في مثلث الولادة والموت وبعثه حيا بعد الموت دلالة شاملة على كيانه الإنساني فالرب لا يولد ولا يموت حتى يبعث حيا ، وفي ﴿يَوْمَ أَمُوتُ﴾ دلالة على نكران صلبه فإنه قتل وليس موتا ، ودلالة ثانية أنه يموت ولا يبقى حيا كما الله خلاف ما يهرفونه!.
ثم ومثلث الزمان هذا هي أهم دورات الحياة : سلام في الولادة عن رحم يولده من زنا ، وعن أصلا ب وأرحام الآباء القدامى والأمهات حتى آدم ،

وزوجته ، وسلام يوم يموت عن أية وصمة او لعنة ، خلاف ما اختلقه عليه جماعات من المسيحيين : أنه صلب وبصلبه لعن تحملا عن لعنة سريعة الناموس ، ما يتقولونه عليه أنه أبطل شريعة العمل وحصر الشريعة في عدة عقائد خرافية ، وما لعنة الصليب عندهم إلا فداء عما اقترفه المذنبون من أمتة هتكا لشريعة الناموس! .. وسلام ﴿يَوْمَ أُبْعِثُ حَيًّا﴾ عن كل وصمة إلا سمة العصمة والطهارة القمة!

﴿أُبْعِثُ حَيًّا﴾ في عيسى (عليه السلام) ك ﴿يُبْعِثُ حَيًّا﴾ في يحيى يدل على أنه ممن شاء الله ألا تأخذه الصعقة الموت حين البعث كما قدمناه في يحيى (عليه السلام). ومن قبل كان مثلث السلام على يحيى المبشر بالمسيح (عليه السلام) كما «وبرا بوالدي» كتقدمه للمسيح أن ليس هو المسيح فقط برا بوالدته بل والمبشر به بر بوالديه!. وترى إن «سلام» في ذلك المثلث من المسيح على نفسه ، فيفضل يحيى عليه إذ الله هو المسلم عليه؟ كلا! حيث المسيح وهو في المهد صبي ليس كلامه الخارق إلا وحيا من ربه ف «سلام علي» يعني سلام الله علي وكما اوحى الله الي ، ان الله سلمني ويسلمني في مثلث الزمان من كل ما لا يناسب ساحة رسالة سامية. ف «سلام» من «السلام» على المسيح «السلام» (عليه السلام) دونما قيد او شرط إلا : ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا وَبَرًّا بِوَالِدِيَّ وَلَمْ يَجْعَلْ لِي جَبَارًا شَقِيًّا﴾!.

﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ (٣٤).

«ذلك» البعيد المحتد عما مسوا من كرامته في هذه الثمانية ﴿عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ لا الذي تتحدث عنه هذه الكتابات المحرفة الزور والغرور . «ذلك»

اعني ﴿قَوْلَ الْحَقِّ﴾ فيه لا نفسه ﴿الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ لا ذاك ، فرغم أن المسيح واحد كونا ، هو متناقض كيانا حسب القرآن والعهدين واين مسيح من مسيح!.

﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٣٥)
وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ (٣٦).

﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ..﴾ و ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ ..﴾ جملتان معترضتان تبعد كيان المسيح عما تقولوا عليه ثم ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي ..﴾ هو البند التاسع من كلام المسيح (عليه السلام) في المهد صبيا.

نجده ﴿فَمَا كَانَ لَهُ﴾ في سائر القرآن نفي يضرب إلى اعماق الماضي تكويننا او تشريعا كإحالة لدخولها ، ولماذا الله يتخذ من ولد لنفسه حتى ولو أمكن وهو محال؟ «سبحانه» في ذاته وصفاته وأفعاله ﴿أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ﴾ ولادة ذاتية ام تشريفية اماهيه ، ف «من» جنس و «ما كان» ينفي ذلك الجنس أيا كان ولماذا؟ حيث ﴿إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا﴾ عاديا ام خارقا العادة ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ وقوله هنا فعله بإرادته ، والمخاطب تكويننا قد يكون شيئا يتحول الى شيء آخر عاديا كسائر الولادات ، ام خارق العادة كما في آدم والمسيح ، ام لا يكون شيئا فعليا كالمادة الأولية وأول ما خلق الله فهنا المخاطب غيره هناك ، حيث التكوين هنا إيجاد لا من شيء ، لا من لا شيء ، كما أنه هناك ايجاد من شيء ، والأشياء بجنب الإرادة التكوينية ثلاثة :

١ . لا شيء بالفعل ، وبالإمكان أن يوجد شيئا ، فبعلاقة الأول يسمى قبل شيء شيئا.

٢ . لا شيء ولا يمكن في المصلحة الإلهية ان يوجد شيئا ، فبعلاقة الإمكان يسمى شيئا.

٣. شيء يجوز تحويله الى غير شئته عاديا ام خارق العادة وهو الشيء حقيقة ، وأما المستحيل ذاتيا فليس يسمى شيئا حتى تتعلق به القدرة و ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ من تلکم الثلاث «قدير» لا على اللاشيء الذي لا يستحق الشيئية ولا تمكن فيه ذاتيا! (١).

فكلما أن الله تعالى قضى خلق آدم من تراب دون أب وأم ، كذلك قضى خلق المسيح دون أب مع ام وهو أهون عليه و ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٣ : ٥٩).

إن الحاجة الى الولد تنسيلا من الوالد مستحيلة على الله إذ لا أجزاء له ، وإلى اتخاذ الولد خروجا عن الوحدة ، وسندا في الوحشة مستحيلة لعدم الحاجة ، فلما ذا يتخذ ولدا سبحانه وهو مستحيل على ساحته ذاتيا وفي صفاته وفعاله؟ ﴿إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾!

﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾.. تشبه الآية الإنجيلية «اني ذاهب الى آبي وأبيكم ..» : خالقي وخالقكم ، ولكنهم تغامضوا عن مد الآب حيث يعني الخالق في لغته اليونانية وفسروه بالأب ، وقد جيئت بنصها في آل عمران والزخرف! . إذا فهي معطوفة على ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ .. والايقان قبلها معترضتان ، وأصبحت البنود التسعة من كلامه اعترافا بعبوديته بداية ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ .. ونهاية ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾ خير بداية وخير ختام «متى أرسل بالإنجيل وصار نبيا؟»

أترى بعد ذلك كله ان المسيح (عليه السلام) آتاه الله الإنجيل وجعله نبيا وهو في المهدي صبيا؟ ولم تنقل عنه ولا شطر كلمة رسالية حين صباه الى

(١). راجع ج ٢٩ من الفرقان . كلام في القدرة من أول سورة الملك.

كهولته إلا هذه المعرفة لكيانه الرسالي والذائدة عن امه الطاهرة؟ ان تكليمه الرسالي بداية وهو في المهد . ومن ثم منذ الكهولة حتى صعوده ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (٣ : ٤٦) ﴿إِذْ أَيْدُتَكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا ..﴾ (٥ : ١١٠).

فقد كان مؤيدا بروح القدس إذ يكلم الناس في المهد وكهلا ، ولم يقل من المهد الى الكهولة ، وانما ﴿فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا ..﴾ مما يختص تكليمه في الحالين دون ما بينهما ، فتكليمه في المهد يكرس أنباء رسالته كهلا ويذود عن امه وقد سئل الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) «فما شأنك لم تتكلم بالحكمة حين خرجت من بطن أمك كما تكلم عيسى بن مريم على زعمك وقد كنت نبيا قبل ذلك؟ فقال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) : إنه ليس أمري كأمر عيسى بن مريم ان عيسى بن مريم خلقه الله عز وجل من أم ليس له أب كما خلق آدم من غير أب ولا أم ولو ان عيسى حين خرج من امه لم ينطق بالحكمة لم يكن لامه عذر عند الناس وقد أتت به من غير أب وكانوا يأخذونها كما يؤخذ مثلها من المحصنات فجعل الله عز وجل منطقته عذرا لأمه»^(١).

(١) نور الثقلين ٣ : ٣٣٦ ح ٧٦ في كتاب علل الشرايع عن وهب اليماني قال : ان يهوديا سأل النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فقال : يا محمد! كنت في ام الكتاب نبيا قبل ان يخلق آدم (عليه السلام)؟ قال : نعم . قال : وهؤلاء أصحابك المؤمنون مثبتون معك قبل ان يخلقوا؟ قال : نعم . قال : فما شأنك ..» أقول يعني به ثبوت النبوة في علم الله وفي الايمان به من النبيين اجمع قبل ان يخلق ويبعث ، فعلى هذه السابقة الشريفة المنقطعة النظر فما شأنك .. وقد بحثنا عن نبوءته قبل رسالته في «الضحى» نبوءة ونبوة غير ظاهرة الرسالة ، لم يؤمر بها قبل الأربعين كما لم يوح اليه القرآن قبله.

فقد «كان يومئذ نبيا حجة لله غير مرسل»^(١) حيث تنبأ بنبي الوحي ولما أرسل بكتاب ، وما كلامه عن كتابه ووصيته بالصلاة والزكاة ما دام حيا وبرا بوالديه ، إلا انباء لمستقبل أمره ، فكتابه الرسالي هو منذ كهولته ، وصلاته وزكاته وبره منذ بلوغه او غلمته واما عبوديته لله فم منذ ولادته.

ولو كان رسولا حجة على الخلق أجمعين منذ تكلمه في المهد لكان حجة على زكريا ويحيى ، وإنما «كان في تلك الحال آية لله ورحمة من الله لمريم حين يكلم فعبر عنها وكان نبيا حجة على من سمع كلامه في تلك الحال»^(٢) دون الخلق أجمعين فضلا عن زكريا ويحيى! وهذه الكرامة الالهية للمسيح تفسح مجالا لتصديق كرامات اخرى لآخرين من أولياءه الصالحين كما للبعض من أئمتنا المعصومين في مظاهر أمرهم^(٣) وان كان كلهم اصحاب هذه الكرامات منذ ولادتهم!

(١. ٢) المصدر ٣٣٣ ح ٦٦ في اصول الكافي باسناده الى أبي جعفر الكناسي قال : سألت أبا جعفر (عليه السلام) أكان عيسى بن مريم حين يكلم في المهد حجة الله على اهل زمانه؟ فقال : كان يومئذ نبيا حجة لله غير مرسل اما تسمع لقوله حين قال : ابي عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيا وجعلني مباركا أينما كنت واوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيا» قلت : فكان يومئذ حجة الله على زكريا في تلك الحال وهو في المهد؟ فقال : كان عيسى في تلك الحال آية لله ورحمة من الله لمريم حين يكلم فعبر عنها وكان نبيا حجة على من سمع كلامه في تلك الحال ، ثم صمت فلم يتكلم حتى مضت له سنتان وكان زكريا الحجة لله عز وجل بعد صمت عيسى بستتين ثم مات زكريا فورثه ابنه يحيى الكتاب والحكمة وهو صبي صغير اما تسمع لقوله عز وجل ﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ فلما بلغ سبع سنين تكلم بالنبوة والرسالة حين اوحى الله اليه فكان عيسى الحجة على يحيى وعلى الناس أجمعين وليس تبقى الأرض يا أبا خالد يوما واحدا بغير حجة لله على الناس منذ يوم خلق الله آدم (عليه السلام) واسكنه الأرض».

(٢) نور الثقلين ٣ : ٣٣٤ ح ٦٧ . عن اصول الكافي عن صفوان بن يحيى قال قلت .

﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (٣٧).

اختلفوا في كل من هذه البنود الثمانية ، في ١ . عبوديته . ٢ . كتابه . ٣ . ونبوته . ٤ . ويركته . ٥ . وصلاته وزكاته . ٦ . وبره بوالدته . ٧ . وان لم يكن جبارا شقيا ! . ٨ . والسلام عليه . ففي كونه عبدا وهو أهم كونه اختلفوا من بينهم بين مثلثين ^(١) ومريميين ثنوية ^(٢) او مثلثين ^(٣) ومؤلفي المسيح كإله واحد ^(٤) ، غضا عن الوهية الله وموحدتين حقيقيين وقليل ما هم ^(٥) وكما اختلفوا في ولادته وحياته وموته ، وفي كتابه وشريعته أما ذا من كيانه وامه !.

. للرضا (عليه السلام) قد كنا نسألك قبل ان يهب الله لك أبا جعفر فكنت تقول : يهب الله لي غلاما ، فقد وهب الله لك فقر عيوننا فلا أرانا الله يومك فان كان كون فالى متى؟ فإشار بيده الى أبي جعفر (عليه السلام) وهو قائم بين يديه فقلت : جعلت فداك هذا ابن ثلاث سنين! قال : وما يضره من ذلك شيء قد قام عيسى (عليه السلام) بالحجة وهو ابن ثلاث سنين وفي نقل آخر عنه (عليه السلام): ان الله تبارك وتعالى بعث عيسى ابن مريم رسولا نبيا صاحب شريعة مبتدأة في أصغر من السن الذي فيه ابو جعفر (عليه السلام). أقول : الرسالة الفعلية للمسيح (عليه السلام) منذ ثلاث من عمره لا يصدقها تاريخ رسالته ولا القرآن ، بل و «كهلا» في آتيه لعله يعارضها ، اضافة الى الحديث السابق حيث بدء رسالته من السبع ، فلا يصدق من هذه الروايات الا ما يصدقه القرآن او لا يكذبه والله اعلم.

(١) «إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْفَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا» (٤) : (١٧١).

(٢) «وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِهْنِينَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ...» (٥ : ١١٦).

﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ عن القول الحق في المسيح (عليه السلام) ﴿مَنْ مَشَّهَدَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أوله يوم الرجعة حيث ينزل المسيح (عليه السلام) وثانيه يوم الموت ، وثالثه يوم القيامة وهي ايام الله وان كان الأخير أعظمها! . :

﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (٣٨).

﴿يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ فرادى و ﴿يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ جماعات يومي الموت والقيامة الكبرى ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ﴾ : ما أسمعهم وأبصرهم بالحق فيهما بعد ما عاشوا صما وبكما في الظلمات يوم الدنيا ، فلا ينفعهم ما يسمعون من الحق وما يبصرون إذ قضى الأمر ولات حين مناص ، فليقولوا حاسرين ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ (٣٢ : ١٢) ﴿لَكِنِ الظَّالِمُونَ﴾ إذ ظلموا في صممهم وعما هم عامدين ﴿الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ في ضلال هناك نتيجة ضلالهم هنا ، عن رحمة الله ، فقد تناسوا في اليوم الأول غده ثم ليس لليوم الآخر غد يقدمون له! .

ثم الحق الذي يسمعونه ويبصرون هو كل الحق ، ما تركوه وكذبوا به ، وما خلفه تكذبيهم ، حيث السمع والبصر هنالك حديد : ﴿لَقَدْ كُنْتُمْ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكُمْ غِطَاءَكُمُ فَبَصُرْتُمُ الْيَوْمَ حَدِيدًا﴾ (٥٠ : ٣٢).

(٣) في اللاهوت العقائدي ج ٢ ص ١٠٨ المؤلفه لوديغ اوث «ان مريم هي حقا ام الله تقول الكنيسة في قانون الرسل بان ابن الله ولد من مريم العذراء فهي ام الله من حيث هي ام ابن الله.

(٤) «لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ...» (٥ : ٧٢) «لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ» (٥ : ٧٣).

(٥) هم الثلثان من أعضاء نيقية الموحدون حيث اضطهدوا بالثلث غير الموحدين ويأتي تفصيله بطيات آياته.

وقد يشمل ﴿اسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ﴾ امر الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) كشهيد الشهداء أن يجعل سائر أهل الحشر يسمعون ويصرون ^(١) حالة هؤلاء الظالمين النكدة ، إذا ف «اسمع» جامعة هنا بين الأمر وأفعل التعجب ، ولا يعني العجاب هنا إلا أنه موضعه لمن يعجب دون الله سبحانه فانه ليس ليعجب!.

﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٣٩).

﴿يَوْمَ الْحَسْرَةِ﴾ هو يوما الموت والقيامة الكبرى حسرة على الظالمين : ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتِي عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾ (٣٩ : ٥٦) ﴿كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ (٢ : ١٦٧) ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾ (٦ : ٣١) لذلك فهو لهم ﴿يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ أمر التكليف ومجال التوبة عما أترفوا فيه ، فلا حسرة عما مضى إن كان هنالك انجبار يصلح ما يأتي.

وقد يعني يوم الحسرة هنا فقط يوم الموت ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ حيث البرزخ ليس يوم الغفلة ولا يوم الايمان حتى ينددوا بعدم الايمان ، اللهم الا لمن يجمع يوميه ظالما وهو الذي يموت بالنفخة الاولى ويحيى بالثانية وهم قلة قليلة امام جمع الظالمين المحشورين ، فمهما كان يوم القيامة الكبرى هو يوم الحسرة الكبرى ولكن ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ يختصه هنا بالقيامة الصغرى ، اللهم إلا ان يعتبر اليومان واحدا هما ﴿يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ ف ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ يعني بداية يوم الحسرة وهو القيامة الصغرى ، وقد يعني ﴿إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ﴾. فيما يعني . قضاء امر الموت ^(٢)

(١) و «هم» اعتبارا بأفعل التعجب دون الأمر فانه متعدد بنفسه.

(٢) الدر المنثور ٤ : ٣٧١ . اخرج سعيد بن منصور واحمد وعبد بن حميد والبخاري .

لأهل الجنة تماما ، ولأهل النار ما داموا هم في النار .

﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ (٤٠).

تأكيدات اربع «ان . نا . نحن . نرث» تدليلا صارما على وراثة الأرض ومن عليها لله

الواحد القهار ، ومن ثم ﴿وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾.

انه لا وارث لله من ولد يتخذه مسيحا ام سواه ، بل هو الوارث للأرض

. ومسلم والترمذي والنسائي وابو يعلى وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن حبان وابن مردويه عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار يجاء بالموت كأنه كبش أملح فيوقف بين الجنة والنار فيقال : يا أهل الجنة! هل تعرفون هذا؟ فيشرفون وينظرون ويقولون : نعم هذا الموت وكلهم قد رآه ثم يقال يا أهل النار هل تعرفون هذا فيشرفون وينظرون ويقولون نعم هذا الموت وكلهم قد رآه فيؤمر به فيذبح فيقال يا أهل الجنة خلود فلا موت ويا أهل النار خلود فلا موت ثم قرأ رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ﴿وَأَنذَرَهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ وأشار بيده وقال : أهل الدنيا في غفلة» وفي تفسير القمي ابو ولاد الحناط عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال : سئل عن قوله ﴿وَأَنذَرَهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ﴾ قال : . وذكر مثله الى قوله : ثم يقال : يا أهل الجنة خلود فلا موت ابدا ويا أهل النار خلود فلا موت ابدا وهو قوله عز وجل : ﴿وَأَنذَرَهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ اي : قضى على أهل الجنة بالخلود فيها وقضى على أهل النار بالخلود فيها.

أقول : يختلف الخلودان والأبدان في الخلودين في الحديثين ، فالخالدون في الجنة لا يموتون ابدا فانها ﴿عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْدُودٍ﴾ والخالدون في النار منهم من يخرج الى الجنة فلا يموت كسائر أهل الجنة ، ومنهم من يظل في النار ما دامت النار فلا موت إذا في النار ، واما الفناء بفناء النار فلا ينافي الخلود ولا أبده في النار ، فأبدا الخلود في النار بقدر بقدر ابد النار كما الجنة بالجنة . راجع ج ٣٠ تفسير قوله تعالى ﴿لَا يَبْقَىٰ فِيهَا أَحْقَابٌ﴾ وسورة الاسراء من هذا التفسير ففيه بحث فصل حول الخالدين في النار .

ومن عليها مسيحا وسواه. لقد ملكنا ربنا أنفسنا والأرض محنة التكامل بالاختيار ومهنته بما هبانا من وسائل واسباب ، ملكا عرضيا مؤقتا لذلك الهدف الاسمى ، دون ملك حقيقي فانه لزام ربوبيته دون انتقال ، ثم الله ينشئ النشأة الاخرى حيث تنزل هذه الملكية العرضية فهو الوارث لما ملكه من ﴿الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا﴾ فَإِذَا هُمْ ﴿إِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ فلا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا إلا ما قدموه يوم الدنيا ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ (٤٠ : ١٦) فهم منذ موتهم حتى الأبد معزولون عما ملكوا يوم الدنيا ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ﴾ (١٥ : ٢٣) ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (٣ : ١٨٠)!

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ (٤١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا (٤٢) يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (٤٣) يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (٤٤) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (٤٥) قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَمِمْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ

وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (٤٦) قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا (٤٧) وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَفِيًّا (٤٨) فَلَمَّا اعْتَزَلْتُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا (٤٩) وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾.

نجد «إبراهيم» عليه السلام ٦٩ مرة في الذكر الحكيم ، وأصله العبراني أبراهام . او .
أب رام ، يعني : أبا جماعة كثيرة ، وكما في التوراة : التكوين ١٧ : ٢٠
«وليشماعيل شمعيخا هينه برختي اوتو وهيفرتي اوتو وهيريتي اوتو بمئدمئد شنيم عاسار
نسيئيم يولد ونتتيو لغوي غادل».

«ولإسماعيل سمعته (إبراهيم) ها انا أباركه كثيرا وأغنيه وأثمره كثيرا وارفع مقامه كثيرا
بمحمد واثنى عشر إماما يلدهم إسماعيل واجعله امة كبيرة^(١)

(١) راجع كتابنا رسول الإسلام في الكتب السماوية.

﴿إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا﴾ : كثير الصدق ومبالغه في تطابق حاله وأقواله وأفعاله في حلّه وترحاله «نبيا» : رفيع المنزلة بين الصديقين فإنهم بين ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ...﴾ (٥٧ : ١٩) ثم معصوم لا رسول ولا خليفة رسول كمریم (عليها السلام) : ﴿وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾ (٥ : ٧٥) ثم خلفاء الرسول المعصومين ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾ (٤ : ٦٩) ثم الرسل ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ (١٩ : ٥٦) و ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ...﴾ (١٢ : ٤٦) فإبراهيم نبي : رفيع المنزلة بين الصديقين الرسل فضلا عن سواهم ، وقد يكفي «نبيا» تدليلا على رفعة بين الرسل ، إلا ان صديقا يضيف اليه نبوة بين الصديقين الرسل فضلا عن سواهم ، ومن نبوته الصديق حواراه الصارم مع أبيه حيث لم يجرفه جوّ الربوة والتربية الشركية ، فلم يزلزله عن موقفه الصارم في التوحيد ودعوته.

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾ (٤٢).

أبوه هذا ليس الأب الوالد ، بل هو عمّه أم جد لأمه ، فكان يربيّه كأب منذ طفوليته إذ مات والده ، وهنا يوجّهه باحترام ودونما احترام : «يا أبت» ^(١) ! سائلا عنه السبب لعبادته الأوثان من دون الله ، وأقله أن تسمع او تبصر ، ومن ثم تغني وتكفي عنه شيئا ، وأكثره أن يكون الخالق الكامل

(١) الدر المنثور ٤ : ٢٧٢ . اخرج ابو نعيم والديلمي عن انس قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : حق الوالد على ولده ألا يسميه الا بما سمى ابراهيم أباه : يا أبت . ولا يسميه باسمه . أقول هذا لا يدل على ان أباه كان والده حيث الاحترام للوالد ومن هو بمنزلته كالعم والجد.

الكافل لكل ما يحتاجه عبده ، ولا تملك الأوثان كثيرا ولا قليلا مما يسبب عبودتها ، والرب يكون مع عبده يراعيه : ﴿إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾.

﴿يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾ (٤٣).

إنه لا بد للجاهل متابعة العالم ولا سيما الذي جاءه من العلم ما جاء ابراهيم من علم الملكوت وحيا إضافة الى علمه الفطري الناضج وآزر يحرم العلمين قصورا عامدا وتقصيرا!.

وليست الهداية الى صراط سوي دونما عرج ولا حرج ولا عوج إلا على ضوء علم يأتي الإنسان من الله ﴿جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ حيث العلم الداخل من فطرة وعقل ، او مكتسب كما الداخل من غير الله ، هذا العلم ليس معصوما عن خطأ مهما أصاب ، فلا يصيب الصراط السوي الا على ضوء العلم الخارج وحيا!.

﴿يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا﴾ (٤٤) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ

يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ (٤٥).

أترى بعد ما يندد به لأنه يعبد ما لا يسمع ولا يبصر ، كيف ينهاه هنا عن عبادة الشيطان واسمع به وابصر؟! وان كان لا يغني عنه شيئا؟ علّه لا يعني من عبادة الشيطان اتخذه معبودا كما الله ، وإنما طاعته المطلقة كأنه معبود ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (٣٦ : ٦٠).

فما لم تكن هنا طاعة مطلقة للشيطان فكيف يتبع فيما ليس له من سلطان ان تعبد

من دون الله أوثان لا تسمع ولا تبصر ولا تعني شيئا؟ فلو ان

الشیطان كان مطيعا للرحمان لم تحق له العبادة ومطلق الطاعة ، كيف وقد ﴿كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا﴾ فالرحمن الذي منه الرحمة العامة لكل كائن كيف يترك إلى الشیطان وهو عصي الرحمان ، يبدل رحمته نقمة وهده ضلالا .

وترى إذ كان أبوه يعبد الشیطان فكيف يخاف عليه أن يمسه عذاب من الرحمن فيكون وليا للشیطان ، ومس العذاب وولاية الشیطان لزمان لمن يعبد الشیطان؟ والخوف يلمح بتردد راجح! .

في ﴿إِنِّي أَخَافُ﴾ لمحة أن ابراهيم (عليه السلام) لما يعرف حتى الآن أن أباه عدو للرحمن ، فكأنه مستضعف جاهل او يحتمله ، كما وأن ﴿فَتَكُونُ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ لمحة أخرى تؤيدها أنه لم يكن يعلم آنذاك ولايته المعمدة المعاندة الحق للشیطان ، ومن ثم ﴿وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ أيدت تلك اللمحة فأعذرت ابراهيم في وعد الاستغفار وتحقيقه! .
ثم الإنسان ولي لمن والاه في الأخرى كما الأولى والله الآخرة والأولى .
وهذه الدعوة اللطيفة الخفيفة بقاطع البرهان وأرق الألفاظ وأدقها لم تكن لتصل الى قلب خاو هاو فإذا بآزر في عريدة نكراء وطنطنة غوغاء .

﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ (٤٦) .

فلم يكن لولي الشیطان جواب إلا سؤال التنديد الشديد : ﴿أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ﴾؟ رغبة عما أعبدته وأنا أبوك وهي آلهتي ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ﴾ عن هذه الرغبة المعارضة «لأرجمنك» إذ كان الرجم شر عذاب : ﴿وَلَوْ لَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ﴾ (١١ : ٩١) ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِوا لَنَرَجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٣٦ : ١٨) ﴿وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ فاعزب عن محاورتي واغرب عن مواجهتي طويلا! فالتملي بشيء هو التمتع به بملاوة من دهر ، وهناك

شع له الرجاء بعد الخوف والعناء كأن أباه يتمهل بالهجر الملمي ان يفكر مليا علّه يخرج عن غيّه ، وذلك تمهل وشك مقدس ام الى قداسة ولذلك يسلم عليه إبراهيم ويعده الاستغفار إذ:

﴿قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ (٤٧).

هناك يسلم عليه ويعده الاستغفار ولما ، ولماذا السلام على المشرك ووعد الاستغفار؟
و ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ !.

الجواب . ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ..﴾ (٩ : ١١٣) ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ﴾ هنا تبين أنه استغفر له قبل التبين ف ﴿عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ﴾ لا تعني إلا موعدة آزر لإبراهيم حيث ترجى فيها هداه ، فلم يتبين له أنه عدو لله رغم ما تقدم من عداه ، ولا مجال لتفهم هذه الموعدة في القرآن إلا ﴿وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ فلو انه كان مصرا في عداه لكان يرحمه او يلزمه. كيلا ينشر دعوته ضد الآلهة ، إذا ﴿وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ تمتعا بملاوة من الدهر ، يرحيه بموعدة التفكير مليا علّه يهتدي ، ام يقول كلمته الاخيرة بعد ملي التفكير ، لذلك يسلم عليه إخبارا أنه سوف لا يرى منه سوء ، ودعاء ان الله يوقفه في هجرة الملمي لهداه ، ثم يعده الاستغفار موعدة عن موعدة فاستغفر له بعد ملي لم ير منه ما كان يسمعه ويراه من عداه : ﴿وَاعْفِرْ لَأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الصَّالِينَ﴾ (٢٦ : ٨٦) ف «كان» هنا تضرب الى ماضي حاله ، وأما حاله ومنذ موعدته ﴿وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ فلم تتبين له أنها استمرارية ضلاله ، ولذلك يستغفر له ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ فلم يعد يستغفر لأبيه وإن استغفر لوالديه في نهاية أمره وخاتمة عمره عند بناء البيت ، ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ (١٤ : ٤١) فلو أن والده أبوه لأصبح كلام الله ﴿تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ كذبا ، وأصبح إبراهيم رسول الله عاصيا إذ «لم يتبرأ منه»!

إذا فأبوه . هنا . لم يكن والده ، ولم يستغفر لأبيه إلا عن موعدة لم يتبين فيها أنه عدو لله فساحته إذا براء عن الاستغفار للمشارك على تبين عداه ، فانما لا يجوز الاستغفار لمن تبين انه عدو لله فهو من اصحاب الجحيم ، دون المشكوك هداه وعداه.

إذا فالاستغفار جائز لمن يجوز له ان يغفر وان كانت حالته الحاضرة كافرة لا تغفر إذ يجوز تحوله في مستقبل قبل ان يأخذه الأجل فيجوز له ان يغفر . واما الذي تبين أنه من اصحاب الجحيم ، إذ مات مشركا فلا يستغفر له ، لأنه تحميل على الله ما ليس ليقبله او هزء به!

﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي﴾ إذ وعدتني في هجري الملي خيرا ول ﴿إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ : برا لطيفا ، فالحفاوة الربانية تقتضي غفرك بما أستغفر لك ، وهي لا تقتضي عفرا لأصحاب الجحيم ..

فقد كان ابراهيم معذورا في استغفاره لأبيه خطأ في موضوعه لا في حكمه وموضعه ، فلم تكن الأسوة الحسنة فيه تشمل خطاه : ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ ... إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ ..﴾ (٦٠ : ٤).

وترى السلام على المشترك هل يجوز حال شركه مهما جاز الاستغفار له قبل أن يتبين كونه من اصحاب الجحيم؟.

﴿سَلَامٌ عَلَيْكَ﴾ قد يعني الاخبار أن لا يصلحك مني إلا سلام عدل ام فضل دونما ظلم ولا نقير ، وهكذا سلام واجب كل مؤمن وجاه الآخرين أيا كانوا ، مقالا وحالا وأفعالا . وقد يعني الدعاء ان يسلمك الله وينزل عليك رحمته السلام ، وهذا لا يحق إلا لمن يستحق سلاما من الله من مسلم لله آمن هو في سبيل الإسلام او

مشكوكه حاله ﴿وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى﴾ (٢٠ : ٤٧) واما المقطوع انقطاعه عن الله ، الشريد عن الله ، والطريد عن رحمه الله ، فلا يستحق سلاما كما الاستغفار .

وكما جاز وعد الاستغفار لأبيه إذ لم يتبين له أنه عدو لله ، كذلك السلام ولا سيما في مواجهة الدعوة الى الله ، حيث تجلب المدعو بحنانه الى الله ، وحتى إذا تبين أنه عدو لله ، فسلام عليك بمعنى الاخبار لا محذور فيه! ﴿وَقِيلَ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ. فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ (٤٣ : ٨٩) ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبِّغِي الْجَاهِلِينَ﴾ (٢٨ : ٥٥) ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ (٢٥ : ٦٣).

إذا فسلام الاخبار عام لا محذور فيه ، وسلام الدعاء يخص غير من تبين انه من أصحاب الجحيم ، كدعاء الهداية والاستغفار ، مهما كان في حاضره من الكفار .

والقول ان جواز السلام على الكفار لعله شرعة ابراهيمية ليست في الإسلام كما وعديد من الأحاديث تمنعه ، جوابه انه لم ينسخه القرآن . بل وأيده : «وقل سلام . سلام عليكم . قالوا سلاما» وهذه الأحاديث مطروحة بمخالفة القرآن ، او مؤولة الى سلام الدعاء ، المحذور على من تبين انه من اصحاب ، الجحيم ، دون سلام الاخبار ، والسلام! .

﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ (٤٨).

وترى كيف يعتزل صاحب الدعوة الرسالية مرسلا إليهم ويدعو ربه بعيدا عنهم؟ إنه اعتزال عنهم وما يدعون من دون الله! فإذا يهدده المرسل اليه «لأرجمنك» وفي إمكانه رحمه ، ثم يطلب اليه هجره مليا في لحظة إمهاله علّه

يفكر ويرجع عن غيه ، وإلا فليعيش في جوّ الإشراك بالله دونما فائدة إلا ظلامه القرب من الأوثان ، فالاعتزال إذا واجب أو راجح ذو أبعاد ثلاثة ، وفيه ﴿أَدْعُوا رَبِّي﴾ وعله يخفف عن وطأة الشرك في أبيه أو يهديه ﴿عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ هجر ملي ودعاء غير شقي ورب حفي وهنالك تتم وهبة الرحمة الربانية بلسان صدق علي ف «رحم الله عبدا طلب من الله عز وجل حاجة فألح في الدعاء استجيب له أو لم يستجب ..»^(١).

﴿فَلَمَّا اعْتَزَلْتَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ (٥٠).

أترى ان إسحاق هو بكر مواليد إبراهيم فيفرد بذكره هنا؟ ام هو إسماعيل كما يتقدم عليه فيما يذكران^(٢)؟ بكره هو إسماعيل لتقدمه حيث يذكران ، وقد يفرد بذكر إسحاق حيث المقام مقامه والأنبياء الإسرائيليين^(٣) وهنا كامثاله يقتصر على ذكره حيث الهدف ذكر توالي النبوة في الشجرة الإسرائيلية ولذلك يعقبه بيعقوب ابنه دون إسماعيل أخيه ، كما قد يذكر إسماعيل وحده دون إسحاق (عليه السلام)^(٤) حيث المقام يخصه دونه ، وحين

(١) نور الثقلين ٣ : ٣٣٩ ح ٨٦ في اصول الكافي عن ابن قداح عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : ... وتلا هذه الآية.

(٢) «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ» (١٤ : ٣٩) «أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى» (٢ : ١٤) و ٣ : ٨٤ و ٤ : ١٦٣ و ٢ : ١٣٣ و ١٣٦.

(٣) «كَمَا أَمَّا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ» (١٢ : ٦) «وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ» (١٢ : ٣٨) ولا مجال هنا لذكر إسماعيل إذ ليس أبا يوسف وإنما عمه.

(٤) «وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ» (٢ : ١٢٧) . «وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ .

يجتمعان يتقدمه إسماعيل دونما استثناء! وفي التوراة تصديق ان إسماعيل بكر ولده ^(١).

«وكلا» من إسحاق ويعقوب ﴿جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ رسولا رفيع المنزلة بين الرسل ﴿وَوَهَبْنَا لَهُمْ﴾ ابراهيم وإسحاق ويعقوب ﴿مِنْ رَحْمَتِنَا﴾ من طيبة الولادة والعلم والعمل الصالح ، رحمت متصلة بهم ومنفصلة عنهم ، ومن الثانية ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ وهو إجابة لدعوته : ﴿وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ (٢٦ : ٨٤) وما الآخرون في البيئة الرسالية الصادقة إلا محمد وعترته المعصومون (عليهم السلام) فهم إذا لسان صدقه العلي!

هنا وان لم يذكر إسماعيل (عليه السلام) إذ لم يكن المقام محله ، فقد ذكر عاليا في لحة ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ حيث الآخرون هم من نسل إسماعيل وهم لسان صدق لهم عليّ ينطق بالرسالة الصادقة والولاية الفائقة ما لم يسبق له مثيل.

ولسان صدق من اضافة اللسان الى أفضل حالاته وأشرف متصرفاته ، وعمل اللسان وهنا لسانان : لسانهم الرسالي لأممهم ، المبشر بلسان صدق في الآخريين كما بشروا في كتاباتهم بالرسول محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) . ولسان آخر منفصل عنهم يصدقهم فيما أرسلوا وبشروا وهو محمد خاتم النبيين ، لو لا لسانه الصدق عنهم ، المصدق لهم لما صدقنا رسالاتهم ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ

. إسماعيل إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ» (١٩ : ٥٤) «وَأَذْكُرْ إسماعيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْآخِرِينَ» (٣٨ : ٤٨)

«وإسماعيلَ وإدريسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ» (٢١ : ٨٥)

(١) تكوين المخلوقات الاصحاح ١٦ . الآيات ١٠٦ . ومنها قول سارة زوجته «ادخل على جاريتي لعلني ارزق منها بنين (٢)».

مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴿٣٣ : ٤٠﴾ والخاتم هو المصدق آخر الكتاب ،
ومحمد يختم كتاب الرسالات ختاماً وتصديقاً ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ
كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ...﴾ ﴿٣ : ٨١﴾.

فهم - ابراهيم - إسحاق - يعقوب - لسان صدق علي ، ولهم في الآخرين لسان صدق
علي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وعلي وعترتهما المعصومون وهم أعلى! فأين نبي من
نبي وولي من ولي وعلي من علي؟.

وقد يعني ﴿وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا﴾ - في أهم ما يعنيه - أهل بيت الرسالة المحمدية ، كما
وأهم لسان صدق علي ^(١) «ولسان الصدق للمرء يجعله الله في الناس خير من المال يأكله
ويورثه» ^(٢) او «يورثه من لا يحمد» ^(٣)!.

(١) نور الثقلين ٣ : ٣٣٩ في تفسير القمي ﴿وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا﴾ يعني لإبراهيم وإسحاق ويعقوب ﴿مِنْ
رَحْمَتِنَا﴾ : رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ يعني أمير المؤمنين حدثني بذلك
أبي عن الحسن بن علي العسكري (عليه السلام).
أقول : يعني أمير المؤمنين تفسير بمصدق مختلف فيه ليلحق بالمصدق المتفق عليه وهو الرسول (صلى الله
عليه وآله وسلم).

(٢) المصدر ح ٨٨ في اصول الكافي عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال قال أمير المؤمنين (عليه السلام).
(٣) في نهج البلاغة قال (عليه السلام): ان اللسان الصالح يجعله الله للمرء في الناس خير له من المال يورثه من لا
يحمد.

﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾ (٥١) وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا (٥٢) وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا (٥٣) وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا (٥٤) وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا (٥٥) وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (٥٦) وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا (٥٧)

﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾ (٥١)

المخلص . فتحا . هو الذي أخلصه الله بعد ما أخلص هو نفسه فأصبح مخلصا لله ، عصمة إلهية تجعل العصمة البشرية بالغة المدى لحد ينتجب لرسالة ، ونبوة إلهية ، و ﴿رَسُولًا نَبِيًّا﴾ مر بيانه وسطع برهانه .

﴿وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾ (٥٢)

«الأيمن» هنا كما في ﴿وَاعِدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ﴾ (٢٠ : ٨٠) صفة تفضيل لجانب ، يعني الجانب الأيمن من الطور لا اليسار ولا اليمين ، وليس صفة للطور حيث الأيمن في طه منصوب لا يناسب صفة للطور ، وانه لم

يوصف في ثمان أخرى^(١) بالأيمن! ولأن الوحي يمن ويمين فمناداته جانب الأيمن مكانا كما هو الأيمن مكانة! أفضل اليمن واليمين.

ثم و «من» تقرر منفذ الوحي اليه في كلام يسمع فليكن في مكان كما الموحى اليه في مكان ، مهما لم يكن للموحي المناادي مكان ولا زمان ، حيث يخلق الكلام كما يخلق سائر الخلق ، ولكنه كلام خارق سنة الكلام في لفظه ومعناه حيث هما من الله دون مكلم بشري أو ملائكي أمن ذا؟

فكما الله خلق المسيح دون أب ، وخلق آدم دون أبوين ، كذلك الكلام الذي كلم به كلمه خلقه دون لسان وشفه ومخرج صوت.

﴿وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾ ..

«نجيا» حال من المقرب وحال من المتقرب وعلى أية حال يعني النجوى كما يعني النجاة : ﴿فَلَمَّا اسْتَبَأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا﴾ (١٢ : ٨٠) اللهم إلا نجاة الله إذ لا يخاف حتى ينجو ، فقد قربه «نجيا» هو عمن يبعده او يشغله من اهله ، وعمن يتربص به دائرة السوء كآل فرعون ، ومن ثم «نجيا» في نجواه إليه وحيا ، ونجوى موسى الى ربه وقد يجمعهما ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى. قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَاهْتَشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِي فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى﴾ (٣٠ : ١٨).

ف «نجيا» هذا يجمع بين شرطي ذلك القرب ، سلبا في نجى النجاة عمن سوى الله ، وإيجابا في نجى النجوى مع الله ، وقد يشير الى نجاته ﴿فَاَخْلَعْنَا نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طَوًى﴾ . والى نجواه : ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى﴾ (٢٠ : ١٢) !.

(١) هي ٢ : ٦٢ و ٩٣ و ٤ : ١٥٤ و ٢٨ : ٢٩ و ٤٦ و ٥٢ : ١ ، وقد وصف مرة بسيناء ٢٣ : ٢٠ وأخرى بسنين ٩٥ : ٢ .

وهل هناك نجي النجوى دون من اليه يوحى؟ أجل وقد يكون أجل واجلى من بعض الرسل كأئمة الهدى ^(١) حيث النجوى تعم الوحي والإلهام بمراتبهما ، فوحي النبوة يخص الأنبياء ، وإذا ختم الوحي بختم النبوة فإلهام قد يكون أرقى من بعض الوحي كما كان يلهم الى أئمة الهدى!.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾ (٥٣).

هارون! يا له من وهبة رحيمية ربانية لبلاغ الرسالة الموسوية «نبييا» : رسولا رفيع المنزلة هبة باستعداداته واستعداداه ﴿وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي﴾.

(١) نور الثقلين ٣ : ٣٤٠ ج ٩٢ في بصائر الدرجات عن محمد بن مسلم قال قلت لابي عبد الله (عليه السلام) ان سلمة بن كهيل يروي في علي أشياء قال : ما هي؟ قلت : حدثني ان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) كان محاضر أهل الطائف وانه خلى بعلي يوما فقال رجل من أصحابه : عجبنا لما نحن فيه من الشدة وانه يناجي هذا الغلام مثل اليوم؟ فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : ما انا بمناج له انما يناجي ربه فقال ابو عبد الله (عليه السلام) : هذه أشياء يعرف بعضها من بعض أقول : يعني (عليه السلام) ان هذه النجوى تعم أئمة الهدى (عليهم السلام) وفيه ح ٩٤ باسناده الى أبي رافع قال : لما دعا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) عليا (عليه السلام) يوم خيبر فتفل في عينيه ثم قال له : إذا أنت فتحتها فقف بين الناس فان الله امرني بذلك قال ابو رافع فمضى علي (عليه السلام) وانا معه فلما أصبح بخير وقف بين الناس وأطال الوقوف فقال الناس : ان عليا يناجي ربه ، فلما مكث امر بانتهاب المدينة التي افتتحها قال ابو رافع فأتيت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فقلت : ان عليا وقف بين الناس كما امرته فقال قوم : الله ناجاه؟ فقال : نعم يا أبا رافع ، ان الله ناجاه يوم الطائف ويوم عقبة تبوك ويوم خيبر.

وفي رواية علي بن أعين عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) في قصة الطائف .. فسمعنا صرير الرحا فقبل ما هذا يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)! قال : ان الله يناجي عليا أقول وإذا يناجيه في حياة الرسول فباحرى ان يناجيه بعد وفاته وهو وحده الرابط بينه وبين خلقه بالهامات متواصلة.

هَارُونَ أَخِي ... قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى ﴿٣٦ : ٢٠﴾ !.

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾ (٥٤).

لم يذكر إسماعيل في (١٢) موضعا يذكر في القرآن ، بمشروح أحواله إلا هنا ، إلا شذرا أنه «من الصابرين» (٢١ : ٨٥) «الأخيار» (٣٨ : ٤٨) ﴿وَكَلَّأْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (٦ : ٨٦).

فمن صبره وخيره ﴿قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ (٣٧ : ١٠٢) كما وهو من صدق وعده ربه ومن ثم مع الخلق ^(١) وحقيق له صدقه في صبره ، وصبره في صدقه ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾ ^(٢)

فإسماعيل هذا هو ابن ابراهيم (عليه السلام) جد الرسول محمد

(١) نور الثقلين ٣ : ٣٤٢ ح ٩٩ . اصول الكافي عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال : انما سمي إسماعيل صادق الوعد لأنه وعد رجلا في مكان فانتظره سنة فسماه الله عز وجل صادق الوعد ثم ان الرجل آتاه بعد ذلك فقال له إسماعيل : ما زلت منتظرا لك! ورواه مثله في العيون عن أبي الحسن الرضا (عليه السلام).

أقول : هذا الحديث في ان إسماعيل هو ابن ابراهيم ظاهره كظاهر القرآن ، واما انتظاره سنة فبعيد عن كافة الموازين حيث الوعد لا يتجاوز ساعات او يوما بكامله ، وزائد الانتظار زائد في كل الموازين ، ولا سيما لرسول نبي يترك دعوة الرسالة فيثبت في مكان الوعد سنة دونما جدوى حتى لمن لا شغل له.

(٢) الدر المنثور ٤ : ٢٧٣ . اخرج مسلم عن وائلة ان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : ان الله اصطفى من ولد ابراهيم إسماعيل واصطفى من ولد إسماعيل كنانة . أقول : كنانة من أجداد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم).

(صَلَّى الله عليه وآله وسلم) لا سواه وكما في سائر الاثني عشر موضعا ، فلو كان غيره لم يتفضل عليه بهذه الفضيلة ولقرنت به قرينة تميزه عن إسماعيل في سائر القرآن ^(١)! ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ (٥٥).

في مواصفات إسماعيل رسالة النبوة هي في القمة ، وصدق الوعد والأمر باقام الصلاة وإيتاء الزكاة هي من أهم فروعها الرسالية ، ﴿وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ تكريس لحالاته كلها ، في نفسه وأهله ومن أرسل إليهم والناس أجمعين ، كان في هذه كلها عند ربه مرضيا ، وهي قمة المقامات عند الله مهما كانت لها درجات.

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ (٥٦) ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ (٥٧).

لم يذكر إدريس في سائر القرآن الا هنا وفي الأنبياء : ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ (٨٥) فله مواصفات اربع : صديق نبي من الصابرين ومرفوع الى مكان علي.

تعرفنا من ذي قبل الى «صديق نبي» لإبراهيم ، وان كان بينه وبين إدريس بون حيث الصديق النبي درجات ، ولكنه قبل نوح يحتل المكانة العليا بين المرسلين ^(٢) فلم يذكر بالنبوة أحد بين آدم ونوح وحتى آدم نفسه ، إذا

(١) نور الثقلين ٣ : ٣٤٢ ح ١٠١ في كتاب علل الشرايع في باب العلة التي من أجلها سمي إسماعيل بن حزقيل صادق الوعد عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال : ان إسماعيل الذي قال الله عز وجل في كتابه ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ...﴾ لم يكن إسماعيل بن ابراهيم بل كان نبيا من الأنبياء بعثه الله عز وجل الى قومه فأخذه فسلخوا فروة رأسه ووجهه .. أقول وهو لا يناسب ظاهر القرآن ..

(٢) الدر المنثور ٤ : ٢٧٤ . اخرج ابن المنذر عن عمر مولى غفرة يرفع الحديث الى .

فإدريس أفضل من آدم ومن بعده الى نوح.

ثم ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ دليل معراجيه (عليه السلام) لمكان «مكانا» دون مكانة ، وقد عرفت مكانته ب ﴿صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ وقد يروى عن الرسول (صَلَّى الله عليه وآله وسلم) انه السماء الرابعة ^(١) رفع إليها كما رفع عيسى (عليه السلام) ويروى أنه كان خياطا ^(٢). وإذا يرفع إدريس مكانا عليا فقد رفع محمد (صَلَّى الله عليه وآله وسلم) مكانا أعلى الى سدرة المنتهى ، ومكانة أغلى ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى. فَكَانَ قَابَ

. النبي (صَلَّى الله عليه وآله وسلم) قال : ان إدريس كان نبيا تقيا زكيا وكان يقسم دهره على نصفين : ثلاثة ايام يعلم الناس الخير واربعة ايام يسيح في الأرض ويعبد الله مجتهدا وكان يصعد من عمله وحده الى السماء من الخير مثل ما يصعد من جميع اعمال بني آدم ...» وتتمة الحديث طويلة وكما هنا أحاديث اخرى فيها ما لا يناسب ساحة النبوة الصديقة.

(١) المصدر اخرج ابن مردويه عن أبي سعيد الخدري عن النبي (صَلَّى الله عليه وآله وسلم) ورفعناه مكانا عليا قال : في السماء الرابعة وعن انس بن مالك عنه (صَلَّى الله عليه وآله وسلم) مثله وفي نور الثقلين ٣ : ٣٤٩ ح ١٠٨ عن علل الشرايع باسناده الى عبد الله بن يزيد بن سلام انه قال لرسول الله (صَلَّى الله عليه وآله وسلم) وقد سأله عن الأيام : فالخميس؟ قال : هو يوم خامس من الدنيا وهو يوم أنيس لعن فيه إبليس ورفع فيه إدريس ، وفيه عن تفسير القمي عن النبي (صَلَّى الله عليه وآله وسلم) في معراجيه : ثم صعدنا الى السماء الرابعة وإذا فيها رجل فقلت من هذا يا جبرئيل؟ فقال : إدريس رفعه الله مكانا عليا فسلمت عليه وسلم عليّ واستغفرت له واستغفر لي. (٢) نور الثقلين ح ١١٠ عن الكافي عن عبد الله بن ابان عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال في حديث طويل يذكر فيه مسجد السهلة : اما علمت انه موضع بيت إدريس النبي (عليه السلام) الذي كان يخطط فيه؟.

قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ﴿﴾ وكما رفع ذكره في الملاء الأعلى : **﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾** ﴿﴾ وكما يذكر إدريس الصديق في كتابه بلغته السريانية هذه المكانة العليا لأهل بيت الرسالة المحمدية (صلى الله عليه وآله وسلم) :

يقول بعد عرض عريض في حوار بين آدم وبنيه حول «من هو أفضل الخليفة» فإذا أنا «آدم» بأشباح خمسة باهرة في العرش في غاية العظمة والجلال والحسن والضياء والبهاء والجمال والكمال حيث حيرتني أنوارهم فقلت رب! من هؤلاء؟ فأوحى الي أنهم أشرف خلقي والوسطاء بيني وبينهم .:

إني لهو يوه أنا لبرين وارخ لا الشماى ولا أل ارعا ولا الپردس ولا الكيهن ولا الشمس ولا السعر :

«لولاهم لما خلقتك» يا آدم «ولا السماء ولا الأرض ولا الجنة ولا النار ولا الشمس ولا القمر»

قلت «آدم» : ما هي اسماء هؤلاء الأكارم؟ قال : انظر الى العرش ترى : .
«پارقليطا» (محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) «إيليا» : علي (عليه السلام)
«طيطه» : فاطمة (عليها السلام) «شپر» : حسن «شپير» : حسين.
هليلوه لت اله شوق متي محمد انوي داله» . : «هللوني فانه لا إله إلا أنا ومحمد رسولي» (١)

(١) طبع كتاب إدريس (عليه السلام) باللغة السريانية في لندن ١٨٩٥ وهذه البشارة في ص ٥١٤ . ٥١٥ منه ينقله المغفور له ملا محمد صادق جديد الإسلام في كتابه أنيس الاعلام . وقد فصلناه في كتابنا «رسول الإسلام في الكتب السماوية ص ١٣١ (عربية) وفي كتابنا «بشارات عهدين» باللغة الفارسية ص ٢٢٩ .

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ
 إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا (٥٨)
 فَخَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا (٥٩) إِلَّا مَنْ
 تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا (٦٠) جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ
 الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا (٦١) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ
 فِيهَا بُكْرَةٌ وَعِشْيَا (٦٢) تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا (٦٣) وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا
 بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا (٦٤) رَبُّ السَّمَاوَاتِ
 وَالْأَرْضِ

وَمَا بَيْنَهُمَا فَاغْبُذْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا (٦٥) وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ إِذَا مَا مِثُّ
لَسَوْفَ أَخْرَجُ حَيًّا (٦٦) أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا (٦٧) فَوَرَبِّكَ
لَنَحْشُرَنَّهُمُ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُخْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا (٦٨) ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ
عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا (٦٩) ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا (٧٠) وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا
كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا (٧١) ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾
﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ
إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا
وَبُكْيًا﴾ (٥٨).

كما النعمة الربانية درجات كذلك المنعم بها عليهم درجات أفضلهم النبيون ثم
الصديقون ثم الشهداء ثم الصالحون : ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾

فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴿٤﴾ (٤ : ٦٩).

وقد تلمح ﴿مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ﴾ دون «آدم ومن ذريته» إلى أنه ما كان من النبيين مهما كان من المرسلين آمن ذا؟ .. والذين أنعم الله عليهم . على درجاتهم . هم الذين نستهدي في صلواتنا صراطهم ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ. صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ ونحن أيضا درجات كما هم درجات ، فلا تستهدي كل درجة إلا صراط من فوقها دون من يساويها أو أدنى ، وكما الرسول محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وهو على قمة الصراط لا يستهدي في صلاته إلا أفضل من المنعم عليهم أجمع فانه إمامهم أجمع!

والنبيون المذكورون هنا هم : زكريا ويحيى وعيسى وإبراهيم ، وإسحاق ويعقوب وموسى وهارون وإسماعيل وإدريس ، عشرة من المذكورين في سائر القرآن وسواهم ، ومريم المذكورة معهم من الصديقين و ﴿أُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾ (٥ : ٧٥) وقد شملها ﴿مَنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا﴾^(١). وترى من ﴿النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ﴾ اما كانت تشمل كافة صفحات النبوة في تاريخ البشرية؟ فما هي الحاجة الى «ومن . ومن . ومن ..»؟.

قد تعني هذه الثلاث الثلاثة الباقية من المنعم عليهم وسائر النبيين ف ﴿مَنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا﴾ تعم الصديقين والنبيين غير المذكورين هنا ، وأئمتنا المعصومون (عليهم السلام) كما فاطمة صديقة ومريم صديقة. ف ﴿مَنْ

(١) نور الثقلين ٣ : ٣٥١ ح ١١٤ في كتاب المناقب في مناقب زين العابدين (عليه السلام) قال (عليه السلام): في قوله تعالى : ﴿وَمَنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا﴾ نحن عنينا بها.

النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ ﴿١﴾ وَ ﴿مَنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا﴾ تعمان كل نبي وكل صديق في تاريخ الرسالات الإلهية ثم ﴿وَمَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ﴾ تشمل كل شهيد وصالح.

إذ ليس ﴿مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ نبي أم ولا صديق إلا في ذريته وذريتهم ، والنص ﴿مَنْ حَمَلْنَا﴾ لا «من ذرية من حملنا» حتى تعني النبيين من هذه الذرية ، ثم ولا تختص النبوة بذرية إبراهيم وإسرائيل حتى تعني النبيين من هذه الذرية.

إذا ف «من» الأولى بيانية وسائر الأربع تبعيضية ، تحمل الخمس المنعم عليهم الاربعة ﴿مَنْ النَّبِيِّينَ وَالصَّادِقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾.

وفي تقسيم أبعاد الآية الى المذكورين تكلف ظاهر : أن ﴿مَنْ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ﴾ هو إدريس وحقه إذا «من نبي من ذرية آدم»! ثم ﴿وَمَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ إنه إبراهيم إذ هو من ذرية من حمل مع نوح ، وحقه إذا «ومن ذرية نوح او من ذرية من حملنا مع نوح»! ثم ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ﴾ ان «من إبراهيم» : «إسماعيل وإسحاق» ومن إسرائيل «زكريا ويحيى وعيسى وموسى وهارون»! وحقه إذا ﴿مِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ﴾ حيث تعم كافة النبيين من فرعيه : إسماعيل وإسرائيل دون اختصاص بالمذكورين.

وقد يكون في «من» ﴿حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ صديق كما فيهم صالح وشهيد ، ولكنما ﴿وَمَنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا﴾ يعم مع النبيين غير المذكورين هنا كل صديق وصالح وشهيد ، كما ﴿مَنْ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ﴾ تعم كافة النبيين في صفحات النبوات!.

ومواصفة لهم ثانية شاملة للأربع : ﴿إِذَا تَتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ فإنهم المنعم عليه بنعمة الهداية والعبادة القمة ، لا تحالجهم

غواية في أية حلة وترحالة ، سجدا للرحمن وبكيا في كل حالة ومقالة وفعالة ، فَعَلَ الخرور سجدا وبكيا هو كمال الخضوع والخشوع أمام آيات الرحمن حين تتلى عليهم ، من وحي آيات الوحي المتلوة عليهم بشؤون الربوبية والعبودية والرسالة والنبوة ، سواء أكان التالي هو الرحمن ام وسيط في الوحي وحيا إِمَّا ذا من تلاوة حسب درجات المنعم عليهم ، من النبيين الى الصالحين ، حيث الآيات تأخذ بازمة قلوبهم فيخرون بكيا ومن ثم بقوالبهم فيخرون سجدا.

وإذا كانت السجدة والبكاء للرحمن فلما ذا هي ﴿إِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ﴾ ولا يختص مقام الرحمن بما تتلى؟ إنه مزيد الايمان والانجذاب إلى الرحمن حين يكلم المنعم عليهم ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَحْمِهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (٨ : ٢) و ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْنَاهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (٥٩ : ٢١).

ثم للسجود والبكاء حين تتلى آيات الرحمن درجات أدناها الاستماع إليها والإنصات لها ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (٧ : ٢٠٤) فإنهما من السجود الخضوع دون تمامه ، وهما لزام لأصل الايمان وأدناه : ﴿فَمَا هُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ، وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ﴾ (٨٤ : ٢١) مهما كان كمال السجود والبكاء لزام كمال الايمان وأعلاه ﴿إِذَا تُلِيَتْ ... خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾

فكما يجب ان يكون المؤمن بالله ساجدا لله خاضعا له في أحواله كلها ، كذلك السجود لآيات الله ولا سيما حين تتلى ، فترك الاستماع إليها والإصغاء لها نابع من عدم الايمان!

ولماذا ﴿آيَاتُ الرَّحْمَنِ﴾ دون «الله» او «الرحيم» لان العناية المناسبة

لمطلق السجود والبكاء تقتضي الرحمة العامة بما فيها بشارة الثواب ونذارة العقاب ، فالسجود نتيجة البشارة والبكاء نتيجة النذارة مهما عمهما السجود والبكاء في توسع يليق بالمنعم عليهم.

وكما السجود في وجه عام يشمل أدناه إلى أعلاه كذلك البكاء تشمل التباكي وحالة البكاء كما تشمل أعلى البكاء ، درجات حسب الدرجات.

﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا﴾ (٥٩).

«فخلف» هؤلاء المنعم عليهم «خلف» ^(١) خالفوهم فيما هم وتحلفوا عما هم حيث ﴿أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا﴾ كما خلف من بعدهم خلف أقاموا الصلاة وتركوا الشهوات فسوف يلقون ربا.

لكل صاحب دعوة إلهية خلف وخلف ، وطبيعة الدعوة وصنيتها تقتضي الخلف دون الخلف ، وخلف الدعوة الصارمة والتخلف عنها لزامه مضاعفة الغي والعذاب ، كما ان خلفها والاستمرار فيها لزامه مضاعفة الري والثواب!

فلان آيات الرحمن منها مبشرة لمن يعبد الرحمن وقمتها الصلاة ، وأخرى منذرة لمن يتركها اتباعا للشهوات ، فهؤلاء الخلف طول الرسالات والدعوات الإلهية أضاعوا الصلاة واتباعوا الشهوات ، نقطة مضادة لأسلافهم المنعم عليهم ﴿إِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾!

(١) الخلف بالسكون البدل السيء وبالفتح ضده وقد يعكس على ندرة والأصل هو الاول.

واضاعة الصلاة لا تعني فقط فيما تعني ترك الصلاة ^(١) فان إضاعة شيء ليست إلا بعد تكوّن هذا الشيء ، فالذي يعزل فلا يولد له ليس مضيعا للولد ، إنما هو الذي انعقدت نطفته فأضاعها منذ انعقادها الى الولادة إلى الموت عن المصالح المتوجهة إليه لولده.

فإضاعة الصلاة هي إتيانها دون إقامة لها على وجهها الواجب واللائق ، في أوقاتها وشروطها واجزائها ونياتها ، وعلى الجملة في قلبها وقالبها فهم ليسوا بمقيمي الصلاة ، وإنما يأتونها : ﴿وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى﴾ (٩ : ٥٤) ، او يقومون إليها : ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَآؤُنَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٤ : ١٣٢) ام هم سكارى : ﴿لَا تَقْرَأُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ (٤ : ٤٣) ام ساهون عنها متساهلين فيها فهم بين تاركيها وفاعليها : ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ (١٠٧ : ٥) غير معتنين بشأنها ، فلا يقيمونها كما يجب مهما أتوها وقاموا إليها!.

وقد تربوا إضاعة الصلاة . غيا . عن تركها ، كما يربوا الشرك بالله . أحيانا . على الإلحاد في الله ، فتارك الصلاة قد يتركها جهلا بالله ام جهالة في الله ، ولكن الذي يصلي اضاعة لها ، هو هازئ متهتك بالله رغم

(١) نور الثقلين ٣ : ٣٥١ ح ١١٦ عن المجمع عن أبي عبد الله (عليه السلام) أضاعوها بتأخيرها عن مواقيتها من غير ان تركوها أصلا.

أقول : يعني لم يتركوا أصلها وفيه ١١٥ عن الكافي عن داود بن فرقد قال قلت لابي عبد الله (عليه السلام) قوله تعالى : ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ قال : كتابا ثابتا وليس ان عجلت قليلا او أخرت قليلا بالذي يضرك ما لم تضع تلك الاضاعة فان الله عز وجل يقول لقوم : ﴿أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾.

تصديقه ، لذلك ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ...﴾ لا «التاركين لها»! وان كان تركها قد يربوا اضعافها كفرا وعصيانا!.

وكما أن لاقامة الصلاة درجات أعلاها صلاة المقربين ، كذلك لتضييعها دركات أسفلها صلوة المبعدين الأسفلين وبينهما متوسطات ، فهناك صلاة هي في أحسن تقويم ، وأخرى في أسفل سافلين ، ثم متوسطات لحد الواجب ام دونه ام فوقه ، فما دون الواجب فيها تضييع لها وما فوقه اقامة للراجح فيها.

﴿وَاتَّبِعُوا الشَّهَوَاتِ﴾

الشهوات قد تتبع إنسان العقل الوحي فتصبح رحمت وكما يروى عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) «شيطاني أسلم بيدي» وقد يتبعها الإنسان خلاف العقل والوحي فتصبح حيونات ونقومات ، ويقول الله : «ان القلوب المعلقة بالشهوات عين محجوبة»^(١) وقد يشير الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) الى أخلاف من بعده وتلا هذه الآية ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾ من بعد ستين سنة ﴿أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا﴾ ثم يكون خلف يقرءون القرآن لا يحدو تراقيهم ويقرء القرآن ثلاثة مؤمن ومنافق وفاجر»^(٢).

(١) الدر المنثور ٤ : ٢٧٢ . اخرج ابن أبي حاتم عن ابن الأشعث قال : اوحى الله الى داود (عليه السلام) : ان القلوب ...

(٢) المصدر اخرج احمد وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن حبان والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في شعب الایمان عن أبي سعيد الخدري سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وتلا هذه الآية .. أقول ولعله يعني ستين سنة من الهجرة حيث أعلن الفسق زمن يزيد بن معاوية وقتل الحسين (عليه السلام).

ومن اتبع الشهوات «من بنى الشديد وركب المنظور ولبس المشهور» ^(١) ويجمعه «الدخول في الدنيا واتباع الهوى وشهوة البطن وشهوة الفرج» ^(٢) وفوق الكل شهوة الرئاسة والعلو : ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ (٢٨ : ٨٣).

فالشهوات هنا تعمها كلها وأمها شهوة الرئاسة التي تضم سائر الشهوات وتجعل الديار بلاقع.

وذلك النفي والإثبات في اضاءة الصلوة واتباع الشهوات يلقي غيا وعيا : ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ : في الحياة الدنيا عما خلقت له وهيات ، وفي البرزخ والقيامة عما قدره الله وقرره لعباده الصالحين ، غيا في الحياة الدنيا يتمثل في نشأت ثلاث ولا سيما منذ الموت ، حيث العمل السيء هو الجزاء بملكوته يوم يكشف عن ساق وتبلى السرائر : ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ و ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ لقد عملتم غيا فسوف تلقون غيا ، جزاء في نفسه عذابا وفاقا! ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ (٢٥ : ٦٨) :

. وفيه اخرج احمد والحاكم وصححه عن عقبة بن عامر سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول : سيهلك من امتي اهل الكتاب واهل الدين قلت يا رسول الله ما اهل الكتاب؟ قال : قوم يتعلمون الكتاب يجادلون به الذين آمنوا فقلت ما اهل الدين؟ قال : قوم يتبعون الشهوات ويضيعون الصلوات.

(١) نور الثقلين ٣ : ٣٥١ ح ١١٧ في جوامع الجامع «وَاتَّبِعُوا الشَّهَوَاتِ» رَوَوْا عَنْ عَلِي (عليه السلام) مِنْ بَنِي.
(٢) المصدر في كتاب الخصال عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): مَنْ سَلِمَ مِنْ أَمْتِي مِنْ أَرْبَعِ خِصَالٍ فَلَهُ الْجَنَّةُ : الدخول ...

﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا﴾ (٦٠).

﴿إِلَّا مَنْ تَابَ﴾ عن إضاعة الصلاة واتباع الشهوات . الى الله «وآمن» بالله بعد ما كفر عمليا كالمؤمن المضيع ، ام وعقيدا كالمضيع الناصر ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ يجبر ما ضيع ، فلا تكفي التوبة دون ايمان ولا ايمان الا بصالح العمل فيصبح مؤمنا صالحا ﴿فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا﴾ إذ توفي هناك أجورهم ، دون ان ينقص منها شيء لماضي تضيعهم ، فالتائب من الذنب كمن لا ذنب له.

﴿جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًا﴾ (٦١).

«عدن» هو الاستقرار ف ﴿جَنَّاتٍ عَدْنٍ﴾ هي جنات الآخرة حيث لا خروج عنها وانما خلود استقرار ، وتقابلها الجنات البرزخية غير المستقرة حيث تفنى بفناء الدنيا فيخرج الداخل فيها الى المحشر ثم الى جنات عدن ، فهذه تبتدئ بفناء السموات والأرض ، وتلك تنتهي بفنائهما ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرٌ مَجْدُودٍ﴾ (١١ : ١٠٨) والفترة بين الجنتين لا تعتبر جدًا لعطاء فانها قلة لا يحسب لها حساب ، فانتقاله الى عطاء اوفى!

﴿وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ﴾ وعدهم وهو بالغيب كما وهي بالغيب ، والوعد كذلك بغيب الوحي ، مثلث الغيب في وعد الرحمن ﴿إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًا﴾ في الغيب ، وفيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر! ... وترى ما هو مكانة «كان» وإتيان وعده سوف يكون؟ «إنه كان» في موضع تعليل ، فل «انه كان» منذ كان كائن ووعد من الله لاي كان ﴿كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًا﴾ دون تخلف في أعماق الماضي فليكن مأتيا في

المستقبل وهو أهون عليه.

﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ (٦٢).

ليس فيها لغو حتى يسمعون ، إلا سلاما ، استثناء منقطع يبحث اي لغو فيها ويقطعه ويخص مسموعها ب «سلاما» ﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا﴾ (٢٥ : ٧٥) ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا. إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾ (٥٦ : ٢٦) ولأن ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ﴾ (٣٣ : ٤٤) ف «تحية» هنا سلام وليكن سلاما» غير التحية من قول سلام ، ان المسموع فيها كله سلام إخبارا ودعاء أما ذا ، لا ألا كلام فيها إلا سلام ، فهم إذا خرس عن أي كلام إلا السلام! وانما كلامهم لا يعد وكلاما سلاما من تحية أم اي سلام! ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ وهل في جنات عدن بكرة وعشي؟ ولزامهما شمس طالعة وغاربة! والشمس مكورة عند قيام الساعة!

هذه الشمس تكور ثم تخلق شمس اخرى يستظل اهل الجنة بظلالها عنها : ﴿أَكُلْهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا﴾ (١٣ : ٣٥) ولا ظل إلا عن ضوء و ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ (٧٦ : ١٣) فلتكن في الآخرة شمس وزمهير لا يرونها ، كميّزة لأهل الجنة عن أهل النار ، فلو لم تكن هناك شمس ولا زمهير فأهل الجنة والنار على سواء في «لا يرون»!

وإذا كانت هناك شمس فلتكن طالعة وغاربة وأهل الجنة لا يرونها فان «ظليها دائم» ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ كأصول الأوقات الصالحة للأكل وان كان فيها ما تشتهيهِ الأنفس وتلد الأعين و ﴿أَكُلْهَا دَائِمٌ﴾ يأكلون متى شاءوا ولا سيما بكرة وعشيا ، او قد يعني : دوام الأكل كما يقال : أكل الجنة صباح مساء ، يعني انها مستمرة في الأوقات كلها.

ودلالة آية الغدو والعشي وآية المقييل بقرينة قاطعة فيها على البرزخ ^(١) لا تقتضي دلالة آية البكرة والعشي على ما دلنا ، وهي مخوفة بقرينة من قبل «عدن» ومن بعد «نورث» تدل على القيامة.

جنة البرزخ مؤقتة ما دامت الدنيا فليست عدنا ولا سيما للداخلين فيها قبيل الساعة ، ووراثه جنة عدن تعني البقاء فيها من بعدين ، إذا فهي جنة الآخرة ، و ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا﴾ دليل وجود الشمس فيها مستورة ، ﴿بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ دليل كونها طالعة غاربة ، اللهم إلا أن يدل ﴿أَكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا﴾ على دوام النهار فليس فيها . إذا . بكرة وعشي ، ولكنهما نص على شمس طالعة وغاربة ، فليقيد دوام ظلها بأوقات النهار ^(٢) فالرواية المنسوبة الى الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ^(٣) تؤول! أو يقال يكفي في كونها

(١) كقوله تعالى ﴿وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ (٤٠ : ٤٦) وقوله تعالى «أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا. وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا» (٢٥ : ٢٨).

(٢) فكما ان دوام الأكل لا يعني دوام الأكل وانما تهيئ الأكل ، للأكل ، كذلك دوام الظل لا يعني الا الأشجار الملتفة التي تمتع من اصابة الشمس ، فقد يكون ظل غير دائم كالازلال المؤقتة المتحركة كالشمسيات او السحاب او السقف الثابتة ولكنها ظل ما دمت تحتها ، ولكنما الأشجار الملتفة هي دائمة الظل.

(٣) الدر المنثور ٤ : ٢٧٨ . اخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول من طريق أبان عن الحسن وأبي قلابه قالا قال رجل يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)! هل في الجنة من ليل؟ قال (صلى الله عليه وآله وسلم) : وما هيحك على هذا؟ قال : سمعت الله يذكر في الكتاب ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ فقلت : الليل من البكرة والعشي! فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : ليس هناك ليل وانما هو ضوء ونور يرد الغدو على الرواح والرماح على الغد وتأنيهم طرف الهدايا من الله لمواقيت .

عدنا مواصلة الجنتين لحد يعبر عنها بعطاء غير مجذوذ في الجنة البرزخ ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْذُودٍ﴾ (١١ : ١٠٨) ثم الغدو والعشي عليهما يختصان بالجنة البرزخية ، ثم لا غدو وعشيا في جنة الآخرة ، وانما شمس طالعة دون غروب «ظلها دائم» في دوام الطلوع! ثم ورزق البكرة والعشي خير الرزق ف «تغد وتعيش ولا تأكل بينهما شيئا فان فيه فساد البدن»^(١).

﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا﴾ (٦٣)

هل هي ميراث من الله لأهل الله؟ ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾! ولا يموت أو ينعزل عن ملكه حتى يورث! أم هي ميراث ممن أدخل النار إضافة الى ما يملكه أهل الجنة؟ ولم يكن لأهل النار نصيب من الجنة!.

إنه «ما من أحد إلا وله منزل في الجنة ومنزل في النار فالكافر يرث المؤمن منزلة في النار والمؤمن يرث الكافر منزله في الجنة»^(٢) ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ

. الصلوات التي كانوا يصلون فيها في الدنيا وتسلم عليهم الملائكة واخرج ابن أبي حاتم عن أبي هريرة عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : ما من غداة من غدوات الجنة وكل الجنة غدوات الا انه يزف الى ولي الله تعالى فيها زوجه من الخور العين أدناهن التي خلقت من زعفران.

(١) نور الثقلين ٣ : ٣٥١ ح ١٢٠ في محاسن البرقي عن ابن اخي شهاب بن عبد ربه قال : شكوت الى أبي عبد الله (عليه السلام) ما القى من الأوجاع والتخم فقال : تغد .. اما سمعت قول الله عز وجل يقول : ﴿هُمْ رَزَقُوهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ ورواه في كتاب طب الائمة عن محمد بن عبد الله العسقلاني عنه (عليه السلام).

(٢) الدر المنثور ٦ : ٢٣ . اخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي هريرة ان رسول .

الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣ : ٧٢﴾.

فقد كان منها منازل للذين أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات ثم لم يتوبوا فأورثها الله من كان تقيا ، فليست الجنة . إذا . وراثة النسب إذ تنقطع هنالك الأنساب وتقطع الأسباب ، اللهم إلا سبب التقوى حيث يورث أهلها منازل أهل الطغوى الذين أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات!

﴿وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا (٦٤) رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ (٦٥).

هاتان الآيتان تلمحان أحما معترضتان بين آي السورة ، ترى انهما من كلام الله؟ وهو لا يتنزل! وليس له رب! ولا له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك! ام من كلام أهل الجنة وليس دخلوها تنزلا إليها فانه تصاعد وتعال ، ولا يخرجون تنزلا عنها ، ثم ولا يناسبهم بقية القول إذا فهما من كلام ملائكة الوحي ام أولاهما ، كأن هناك سؤالاً ، لماذا ذلك التباطؤ في التنزل بالوحي ام قلته ^(١) والجواب ﴿وَمَا نَنْزِلُ...﴾ والواو فيها

. الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : .. ثم قال . : وذلك قوله : ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ﴾.

(١) وفيه اخرج ابن مردويه عن انس قال سئل النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) اي البقاع أحب الى الله وايتها ابغض الى الله؟ قال : ما ادري حتى اسأل جبرئيل وكان قد ابطأ عليه فقال : لقد ابطأت علي حتى ظننت ان بري علي موجدة فقال : وما نتنزل ..

واخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن عكرمة قال : ابطأ جبرئيل على النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أربعين يوما ثم نزل فقال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ما نزلت حتى اشتقت إليك فقال له جبرئيل انا كنت إليك أشوق ولكني مأمور فأوحى الله الى جبرئيل ان قل له : وما نتنزل الا بأمر بك .. واخرج ابن أبي حاتم عن السدي قال : احتبس جبرئيل عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بمكة حتى حزن .

لمحة إلى معطوف عليه محذوف كـ «ما تباطئنا من أنفسنا أم تقللنا ولا قليناك أو نسيناك .. بل .. وما ننزل إلا بأمر ربك ..» ليس تنزلنا بالوحي إلا لتزييتك ، فأنت الأصل الرسولي ونحن الفروع الرسالي ، وهو يعلم كيف ومتى وبماذا ينزلنا ، ف «ربك» لا «ربنا» ولا ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ يوصل ذلك الوحي إليه من الله حيث يريه التربية القمة بذلك الوحي المجيد.

﴿وَمَا نَنْزِلُ﴾ بالوحي أماذا ﴿إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ ليس لنا من الأمر شيء كما ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ وكياننا نحن وأنت وجه ربك : ﴿لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ﴾ وهو يشمل الكون أجمع أيا كان وأيان! : ف ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِينَا﴾ ما نستقبله من زمان ومكان أو كائن فيهما أيا كان ﴿وَمَا خَلْفَنَا﴾ ما نستدبره كذلك . ﴿وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ﴾ من أنفسنا وإياك وما نحمله من وحي من أو إلى . كل ذلك له لا لنا ولا لك ولا لسوانا ، ومما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك ما ننزل به من وحي ، فليس استنزاله لك ولا التنزل به لنا ﴿إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ كما وإن القول ﴿وَمَا نَنْزِلُ ..﴾ أيضا ليس ﴿إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ فلسنا نحن إذا مقصرين في تباطؤ الوحي عليك واحتباسه عنك.

. اشتد عليه فشكى ذلك الى خديجة فقالت خديجة لعل ربك ودعاك وقلاك فنزل جبرئيل بهذه الآية ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ قال يا جبرئيل احتبست عني حتى ساء ظني فقال جبرئيل : وما ننزل الا بأمر ربك .. واخرج ابن جرير عن مجاهد قال لبث جبرئيل عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) اثنتي عشرة ليلة فلما جاءه قال : لقد رثت حتى ظن المشركون كل ظن فنزلت الآية ..

وفيه اخرج احمد والبخاري ومسلم وعبد بن حميد والترمذي والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والحاكم والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لجبرئيل (عليه السلام): ما يمنعك ان تزورنا اكثر مما تزورنا؟ فنزلت الآية.

واما ربك فلا ينزلنا بالوحي لا بحكمة الربوبية ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ يودّعك نسيا او يفلاك تناسيا : ﴿وَالضُّحَى ، وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى . مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ !

ف ﴿مَا نَنْزِلُ﴾ نفى عنهم التقصير ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ نفاه عن الرب وعن الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم) فلا بد من حكمة خفية في البين ، فلا هو نسيّ ينسى مقصرا ، ولا أنه نسيّ يتناساك غضبا ، ويتمثل ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ في ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ حيث التوديع نسيان ، والقلّى تناس غضبا ، ولقد كان حقا للرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم) ان يستوحش من إبطاء الوحي لاشتياق نفسه للاتصال الحبيب بوحى الحبيب.

ثم و ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ عبارة أخرى عن ﴿لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ﴾ وعَلَّه من كلام الله «فاعبده» تفرّيع لتوحيد العبودية على توحيد الربوبية ﴿وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ﴾ أمر باستقامة العبادة ومنها تنزل الوحي عليه رسوليا ورساليا ، فعليه الاصطبار مهما احتبس عنه لفترة قصيرة أم طويلة ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ من الاسم لـ «الرب» او «الله» ^(١) فهل تعلم له ربا سواه يشاركه في ربوبيته ، ومن السّموّ ، هل تعلم له مشاركا في سمّوه ربا لكل شيء ، ليس له شريك في اسم الرب فضلا عن حقيقته وسمته ، والربوبية المطلقة الوحيدة لساحته المقدسة تقتضي عبادته وحده ، والاصطبار لعبادته وحده!

(١) نور الثقلين ٣ : ٣٥٢ ح ١٢٥ في كتاب التوحيد عن امير المؤمنين (عليه السلام) حديث طويل يقول فيه لرجل سأله عما اشتبه عليه من آيات الكتاب واما قوله : ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ . فان ربنا تبارك وتعالى علوا كبيرا ليس بالذي ينسى ولا يغفل بل هو الحفيظ العليم ... واما قوله : ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ فان تأويله : هل يعلم احد اسمه الله غير الله تبارك وتعالى ..».

هنالك للمثول الدائب بين يدي المعبود بوحيه الحبيب وتلقي رسالته ، عبادة دائبة واصطبار لها ، فاعبده واحشد نفسك في سبيلها لتحتمل أعباء وعناء ، تجردا عن كل شاغل ، وتمردا عن كل حائل ، وتحفزا بكل جارحة وخالجة .. وليكن كلك عبادة لربك ، بحالك ومقالك وفعالك ، بحلك وترحالك ، والعبادة في حواجز الشيطانات وعوائق بوائق تحول دونك وعبادة ربك ، انما بحاجة الى اصطبار باستمرار ، ولتصل الى ساحة القرب فلا تحس بغربة وكربة حين انقطاع الوحي! ف ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ تسميه او يتسمى باسمه او تسمو إليه؟!.

﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ إِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا (٦٦) أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾ (٦٧).

«الإنسان» هنا نوعه بطبعه وعقله المكسوف بطوع الهوى ، كما الإنسان في ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ وقد يصح تسميته إنسانا لأن الله تعالى عهد اليه فنسي ^(١) ان أصله إنسيان : اعلان من النسيان ^(٢) ، وقد يؤيده هنا ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ﴾ وكما في سائر القرآن ^(٣) فالإنسان بنسيانه

(١) لسان العرب ج ١ ص ١١٢ . رواه عن ابن عباس .

(٢) المصدر قاله ابو منصور وهو مثل كيل اضحيان من ضحي يضحى وقد حذفت الياء فقيلا انسان .

(٣) كقوله تعالى «وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ» (١٠ : ١٢) فحين يمس الضر يذكر ما تخبأ في فطرته فلما كشفت عنه ضره ينسى «فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا» (١٧ : ٦٧) «فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا» (٣٩ : ٤٩) يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى» (٧٩ : ٣٥) «يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى» (٨٩ : ٢٣) وهكذا نرى في الكثير من (٦٥) مرة يذكر الإنسان في سائر القرآن يقرن بنسيان الفطرة وسواها مما يجب عليه ان يتذكرها .

فطرته وفكرته ، أنه خلق من قبل ولم يك شيئا ، يتلى بهذا السؤال الاستبعاد الاستنكار .
«ويقول» دون «وقال» لحة الى استمرارية هذه المقالة للإنسان أيا كان وأيان إلا من تذكر ..

﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ﴾ النسيان مهما نسي سائر الأدلة الآفاقية والأنفسية على أنه سوف يخرج حيا ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾؟ والواو هنا عطف على ما لم يذكر مما يجب ان يتذكر من دليل ، وقد ذكر الأعم ذكرا والأقرب تذكر ، الذي يصدقه كل عاقل ومجنون : أنه خلق من قبل ولم يك شيئا ، فهل إن بدء الخلق أهون أم إعادته ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ (٣٠ : ٢٧) أهون عليه في حسابنا ، واما في حساب الله فكله هين لا صعوبة فيه : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ (٥٠ : ٣٨).

أترى ماذا يعني ﴿خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾؟ هل إنه خلق الإنسان كسائر الخلق لا من شيء كان فخلقه للمادة الأولية في أصلابهم ، حمل لنا و ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾ (٦٩ : ١١) ﴿وَأَيَّةٌ هُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ﴾ (٣٦ : ٤١) فالذي خلق الأشياء . كمادة أولية . لا من شيء ﴿وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾ : «في كتاب ولا علم»^(١) هو قادر على أن يخلق الإنسان مرة ثانية وهو شيء بروحه الحي وجسمه التراب إمّا ذا؟.

(١) محاسن البرقي عن حمزان قال سألت أبا عبد الله (عليه السلام) عن الآية فقال (عليه السلام) : لم يكن شيئا في علم ولا كتاب».

أم إنه خلق الإنسان الأول من تراب ولم يك شيئا إنسانيا «لا مقدرًا ولا مكونًا»^(١)
وإنما هو تراب ، فخلقه وهو روح وتراب أهون عليه .

أم إنه خلق كل انسان . بعد الأول من نطفة ثم ... ولم يك شيئا مذكورا ﴿هَلْ أَتَى
عَلَى الْإِنْسَانِ حِينَ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا . إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ
فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ (٧٦ : ٢)؟

كل ذلك خلق للإنسان من قبل ، ففي الأول . حيث المادة الأولية . لم يك شيئا في
كتاب التكوين حيث الشئئية كانت للمادة الأولية ، ولا في العلم في علم غير الله ، إذ كان
الله ولم يكن معه شيء وقد كان في اللوح المحفوظ حيث لا يعزب عنه شيء!
وفي الثاني كان في كتاب التكوين والعلم المفصول ولم يك مقدرًا إنسانيا كسيرة الحلقة ،
ولا مكونًا إنسانيا وإن كان كنطفة .

وفي الثالث «النطفة» لم يك شيئا مذكورا يحق ذكره كإنسان ، أو يليق بالذكر لمكان
قدارة النطفة ، مهما كان مقدرًا في طريقه إلى التكامل ، ومكونًا كخطوة أولى من كينونته فقد
«كان شيئا ولم يكن مذكورا»^(٢) «كان مذكورا في العلم ولم يكن مذكورا في الخلق»
^{(٣)(٤)} أو «كان شيئا مقدرًا لما

(١) في اصول الكافي عن مالك الجهني قال سألت أبا عبد الله (عليه السلام) عن الآية فقال : «مقدرا ولا
مكونا» .

(٢) تفسير العياشي عن زرارة سأل الباقر (عليه السلام) عن الآية فقال : .. وفيه عن عبد الأعلى مولى آل سام
عن الصادق (عليه السلام) مثله .

(٣) عن سعيد الحذاء عن الباقر (عليه السلام) : ...

(٤) الكافي بإسناده عن عبد العظيم بن عبد الله الحسيني بإسناده عن الامام الصادق (عليه السلام) سئل عن قوله
تعالى : «وَلَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا» فقال لا مقدرًا ولا مكونًا» وسئل عن قوله تعالى
﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينَ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ قال : كان مقدرًا غير مذكور .

قدّر من نطفة أمشاج ولما يكون إنسانا!

وقد تعني الآية كل هذه الثلاث ، على اختلاف دلالاتها ، على أن الخلق المعاد أهون عليه ، ﴿أَوَّلًا يَذْكُرُ الْإِنْسَانَ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ﴾ إذ خلقنا أول خلق . وإذ خلقنا الإنسان الاول . وإذ خلقنا النطفة ﴿وَلَمْ يَكْ شَيْئًا﴾ . ام شيئا مقدرا لخلق الإنسان كسيرة مستمرة مثل النطفة . ام شيئا مذكورا مهما كان نطفة ! ، وان كان «شيئا» في سياق النفي تستأصل كل شيئية كما في الخلق الاول ، ولكنها تتحمل نفي الشيء الإنساني كالاخيرين ، ضمن أصل الشيء كالأول ، وقد تؤيده ﴿قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكْ شَيْئًا﴾ (١٩ : ٩) وبرهان المماثلة الاولوية يثبت إمكانية المعاد ، وبرهان العقل العدل والنقل يثبتان معه ضرورته!

﴿فَو رَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهم وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُخْصِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًا﴾ (٦٨) ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًا (٦٩) ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًا﴾ (٧٠) «فو ربك» تحمل برهاني العدل والنقل ، فربوبيته تعالى ولا سيما الرسالية المحمدية تقتضي الحشر والجزاء ، فلو لا الحشر لبطلت الربوبية الحكيمة العادلة وبطلت الرسالة المحمدية وما دونها ، فليس القسم هنا إلا بادلّ دليل على ضرورة المعاد ، وقد تمت البراهين الأربع : إمكانية بالاولوية ، وضرورة بأصل الربوبية العدالة . ضرورة اخرى بالربوبية الرسالية المحمدية فلو لا الحشر لبطلت . والرابع هو النقل الحامل لهذه الثلاث!

نرى ومن هم الشياطين المحشورون معهم؟ إنهم شياطين الإنس والجن» (٦ : ١١٢) وهم ﴿أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٧ : ٤٧) ﴿وَمَنْ

يَعِشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِيضَ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٤٣ : ٣٩﴾

هم دركات كما الشياطين دركات وقد تربو شيطنائهم على شياطينهم أو هم على سواء أم دون ذلك طرائق قددا ، والله يحشرهم وإياهم من أجدائهم : ﴿ثُمَّ لَنُخْصِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾ : بروكا على ركبهم ذلا وانكسارا ، واجمعا حولها كالتراب والحجارة تزدلا وانحسارا ^(١) والثاني يعني الأول تضمنا ، فهم إذا حول جهنم ناظرين حكم أحكم الحاكمين ، فإذا ادّاركوها حولها جميعا ركاما بعضهم على بعض ننزع منهم صلاء الجحيم ووقودها ، التي يتقد بها ويجرق سائر اهل الجحيم :

﴿ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا﴾ : : هنالك أئمة الضلالة وأشباعهم ، ولا يختص وقود النار بالأصلاء بل ومن الفروع ﴿مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ﴾ لننزعن للوقود ﴿أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا﴾ تمردا وعصيانا ، لنجعل وقودا على وقود فنركمه جميعا ، ﴿ثُمَّ لَنُخْضِرَنَّ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا﴾ والصلى مصدر صلى : الوقود ، فمن الوقود ما هو في أصول الجحيم ، وهو اولى بها صليا ، ومنه ما هو في سائر الجحيم وهو دون ذلك صليا : ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ وَقُودُ النَّارِ﴾ (٣ : ١٠) ثم لا وقود إلا من يتقد من فروع الضلالة :

صحيح انها ﴿لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ، الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ (٩٢ : ١٥) ولكنما

الوقود ان هما الأشقى بالنسبة لسائر الأشقياء مهما كان الأولون هم

(١) الاول أصله فعول جمع جائي وهو البارك على ركبتيه . والثاني عن ابن عباس انه جمع جثوة وهو المجتمع من التراب والحجارة . وقد يناسبه ما

أخرجه عبد الدين احمد في زوائد الزهد والبيهقي في البعث عن عبد الله بن باباه قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): كأني أراكم بالكوم دون جهنم جاثين.

أولى بها صلياً ، فنزع الأشد على الرحمن عتياً ليس لأصل الدخول في الجحيم حيث هي مكان العاتين أجمعين ، فليس النزع إلا لصلاء الجحيم ، ولكن ليسوا في صلاتهم سواء ﴿ثُمَّ لَنُخُنَّ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا﴾! فهناك ولي للصلي وهنالك أولى لها!

وآيات الصلي كلها شاهدة على أنها لا تعني مجرد الدخول في النار ولا سيما آية الأتقى فانها تحصر صليها بالأتقى ، فلو أنه الدخول فغير الأتقى إذا . لا يدخلها!

﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا (٧١) ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ (٧٢) :

﴿وَإِنْ مِنْكُمْ﴾ خطاب صارم لكافة المكلفين من الجنة والناس أجمعين ، فلا يختص بأصحاب الجحيم إذ ليس منهم المتقون الناجون من الواردين ^(١) ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ﴾ أحد ﴿إِلَّا وَارِدُهَا﴾ دخولا فانه نص فيه ، لا مروراً قريبا مهما عنيا من الورود بقرينة وكما يروى عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) «لا يبقى بر ولا فاجر إلا دخلها فتكون على المؤمن برداً وسلاماً كما كانت لإبراهيم (عليه السلام) حتى أن للنار ضجيجا من بردهم ﴿ثُمَّ نُنَجِّي﴾

(١) الدر المنثور ٤ : ٢٨٢ اخرج ابن سعد واحمد وهناد وابن ماجه وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن الانباري والطبراني وابن مردويه عن ام مبشر قالت : قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لا يدخل النار احد شهد بدرا والحديبية قالت حفصة : أليس الله يقول : ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾؟ قال (صلى الله عليه وآله وسلم) : الم تسمعيه يقول : ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾؟ وفيه عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : من حرس من وراء المسلمين في سبيل الله متطوعا لا يأخذه سلطان لم ير النار بعينه الا تحلة القسم فأن الله يقول ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾.

الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِّيًّا^(١) :

انهم يرونها على سواء «ثم يصدرن عنها بأعمالهم فأولهم كلمح البرق ثم كالريح ثم كحضر الفرس ثم كالراكب ثم في رحله كشد الرجل ثم كمشيه»^(٢) وأحاديث المرور تطرح ام تأول لمخالفتها القرآن والسنة^(٣) :

ف «واردها» و ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ و ﴿نَذَرُ الظَّالِمِينَ﴾ شهود صدق على الدخول مهما كان عذابا أو رحمة ، فلا عذاب في مرورها ، ولا يذر الظالمين مارين عليها ، وانما هو الورود للجنة والناس أجمعين : ﴿ : وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ (١١ : ١٩) و (٣٢ : ١٣) مليء دون استثناء ، وإنما يستثنى ، المتقون عن عذابها دون ورودها وملئها! :

(١) الدر المنثور ٤ : ٢٨٠ اخرج احمد وعبد بن حميد والحكيم والترمذي وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في البعث عن أبي سمية قال : اختلفنا في الورود فقال بعضنا لا يدخلها مؤمن وقال بعضهم يدخلونها جميعا ثم ينجي الله الذين اتقوا فلقيت جابر بن عبد الله فذكرت له فقال : وأهوى بإصبعيه الى أذنيه . صمنا ان لم أكن سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول : لا يبقى ...

(٢) المصدر اخرج احمد وابن أبي حاتم وابن الانباري والترمذي والحاكم وصححه والبيهقي في البعث وابن مردويه عن ابن مسعود في الآية قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : يرد الناس كلهم النار ثم يصدرن ...

(٣) مثل ما في الدر المنثور . اخرج ابن مردويه عن أبي هريرة قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : ﴿وَأِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ يقول : مجتاز فيها.

أقول لم يقل مجتاز بها . بل . فيها ، مما يدل على الورود ، فبعض يردّها ورود الاجتياز كالمقربين وآخرون يصدرن عنها بأعمالهم ﴿وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِّيًّا﴾ .

.. وقد تلمح «واردھا» دون «يردها» إضافة الى حتمية الورود باسم الفاعل ، إلى انسلاخ ذلك الورود عن الزمان فقد يشمل مثلث الزمان يوم الدنيا والبرزخ والقيامة ، ف ﴿إِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ مثلث الجحيم فالدنيا بشهواتها وهوائها جحيم كما البرزخ والقيامة نتيجة لها ، ولكنما الذين اتقوا منّجون عنها ، عن بواعثها يوم الدنيا حيث يتقون موجبات النار ، وعن كوارثها في برزخها يوم البرزخ وعن نار الخلود يوم الخلود ، إذا فهناك مثلث للورود ، مهما كان فيما سوى الأخير ورود الاجتياز لفترة قصرت كما الدنيا أم طالت كما البرزخ ، ومن ثم ورود في مختلف درجاته او دركاته بمختلف الاستحقاقات والتخلفات!

﴿كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا﴾ ف «ربك» وهو في أعلى درجات الربوبية يورد كلا في الجحيم الأخرى كما أوردتهم في الاولى ، ثم ينجي كلا هناك كما نجى «بالتقوى» هنا ، ولكي يرى المتقون سجن المتمردين فتكون لهم حظوة ، ويرى المتمردون المتقين فتكون عليهم حسرة ، وهذه قضية الربوبية القمة ﴿كَانَ عَلَى رَبِّكَ﴾ المحتومة بما حلف : ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾! فقد كتب على نفسه عموم الورود في الجحيم بربوبيته كما ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لِيَجْمعَكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ::﴾ (١٦ : ١٢) ومن الجمع الرحمة قضية الربوبية الجمع في الجحيم!

﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ والفترة المستفادة من «ثم» درجات حسب درجات التقوى كما سبق عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) «فأولهم» كلمح البرق . وهو منهم . وآخرهم كمشية ، وهم آخر من ينجي مهما بقي ردحا فيها ، وإن كثيرا كالحالدين غير الأبدية فيها ، ف «ثم» نعم اللّمة الى الخلود غير الدائب! ولكن : ﴿وَنَذِرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جَنًّا﴾ قد تخرج المعذبين في النار عن المتقين وهذا هو الحق ، وبقاء الظالمين يشمل بعد المشية الى الخلود وإلى الأبد ، فلا تعني

«ثم» إلّا اللّمة الى المشية ، ثم الباكون هم الظالمون على ذرّكاهم! ويا ويلنا ونحن كلنا واردوها وهذا يقين ، ومن هذا الذي يخرج منها وليس إلّا شكاً بعد يقين ، اللهم إلّا ﴿الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ ولا تنقض اليقين بالشك بل انقضه بيقين مثله ، وكما يروى عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم): «فقد علمت اني وارد النار ولا أدري كيف الصدور بعد الورود»^(١). ولقد أثرت هذه الآية في أصحاب الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) أثراً بالغاً يدهشهم ف «إذا التقوا يقول الرجل لصاحبه هل أتاك انك وارد؟ فيقول : نعم! فيقول : هل أتاك انك خارج؟ فيقول : لا فيقول : فقيم الضحك؟^(٢) اجل وان يقين ورود النار لا يقطعه إلّا يقين التقوى المنجية عن النار ، وقد بينها الله في كتابه المبين ، ونحن كلنا . إلّا المعصومين . سوف نردها ، وهل ننجوا منها؟ الله اعلم! إذ لا ندري هل تختم عاقبة أمرنا بالتقوى فتموت أتقياء ، أم دون ذلك ، فعلينا إذا

(١) الدر المنثور ٤ : ٢٨٢ . اخرج ابو نعيم في الحلية عن عروة بن الزبير قال : لما أراد ابن ربيعة الخروج الى ارض مؤتة من الشام أتاه المسلمون يودعونه فبكى فقال : اما والله ما بي حب الدنيا ولا صباية لكم ولكني سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قرأ هذه الآية ... فقد علمت ... وفيه اخرج ابن المبارك واحمد في الزاهد وابن عساکر عن بكر بن عبد الله المزني قال : لما نزلت هذه الآية ذهب عبد الله بن ربيعة الى بيته فبكى فجاءت المرأة فبكت وجاءت الخادمة فبكت وجاء اهل البيت فجعلوا يبكون فلما انقطعت عبرتهم قال : يا أهلاه! ما الذي ابكاكم؟ قالوا : لا ندري ولكن رأيناك بكيت فبكينا قال : انه أنزلت على رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) آية ينبئني فيها ربي تبارك وتعالى اني وارد النار ولم ينبئني اني صادر عنها فذاك الذي ابكاني .

(٢) الدر المنثور ٤ : ٢٨٢ . اخرج ابن أبي شيبة عن الحسن قال : كان اصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) إذا التقوا ...

الجهاد الدائب في التقوى مستعيزين بالله من كلّ شيطان رجيم!

ولا تناحر آية الورد آية الإبعاد : ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ (٢١ : ١٠١) بل وتناظرها ، حيث الإبعاد ليس إلّا بعد الورد أو القرب ، وآية الورد تبعدهم عنها بعد الورد ، ف «ثم ننجي» تعني ما تعنيه ﴿أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ .
﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ. لَا يَخْرُجُ لَهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ (١٠٣) :

تتلقاهم الملائكة الى الجنة حين ينجّون ويبعدون عن النار ، دون ان يسمعو حسيستها ، ودون ان يحزنهم الجحيم ، بل وقد يفرحون بما رأوا سجن المتمردين رحمة على رحمة ، وكما هي على أهل النار عذاب فوق العذاب! فالنار إذا للمتقين خامدة ^(١) مهما كانت لأهلها محرقة اللهم إلّا حيناً كلمحة ، وهنالك جثو حول جهنم للظالمين وجثو آخر فيها لهم واين جثو من جثو :

إن الذين هم أوّل المقذوفين في الجحيم يردون تصلية للجحيم ، من أئمة الضلالة ومن كل شيعة هم أشد على الرحمن عتيا ، وطلیعة الصادرين من كل الواردين هم الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم) وأئمة الهدى وسائر النبيين من المقربين وطائفة من اصحاب اليمين ، وبينهما متوسطون من الصادرين والباقيين :

(١) تفسير الفخر الرازي ج ٢ ص ٢٤٤ عن جابر بن عبد الله انه سأل رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) فقال : إذا دخل اهل الجنة الجنة فقال بعضهم لبعض أليس وعدنا ربنا بان نرد النار فيقال لهم : قد وردتموها وهي خامدة.

وترى لماذا غير الظالمين يردونها حتى ينجّوا منها؟ إن ورودهم فيها لهم حظوة رحمة حيث يرون سجن الظالمين مبهجين انهم لم يردوها معذبين فانها لهم برد وسلام وللظالمين حرق وإيلام! :

وقد يتحدث المسيح (عليه السلام) فيما ينقله برنابا الحواري عن هذا الورود العام :
 أجاب يسوع : يتحتم على كل احد أيا كان أن يذهب الى الجحيم (٨) بيد أن ما لا مشاحة فيه أن الأطهار وأنبياء الله إنما يذهبون الى هناك ليشاهدوا لا ليكابدوا عقابا أما الأبرار فإنهم لا يكابدون إلا الخوف (١٠) وماذا أقول لكم؟ أفيدكم أنه حتى رسول الله يذهب إلى هناك ليشاهد عدل الله (١١) فترتعد ثمة الجحيم لحضوره (١٢) وبما أنه ذو جسد بشري يرفع العقاب عن كل ذي جسد بشري من المقضي عليهم بالعقاب فيمكث بلا مكابدة عقاب مدة إقامة رسول الله لمشاهدة الجحيم (١٣) ولكنه لا يقيم هناك إلا طرفة عين (١٤) وانما يفعل الله هذا ليعرف كل مخلوق انه نال نفعاً من رسول الله (١٥) ومتى ذهب إلى هناك ولولت الشياطين وحاولت الاختباء تحت الجمر المتقيد قائلًا بعضهم لبعض : اهربوا فإن عدونا محمد قد أتى (إنجيل برنابا ١٢٦ : ١٥٠ - ٧) :

ثم في الآيات ١٧ . ٢١ . تصرّجات أن ما من مات على دين محمد (صلّى الله عليه وآله وسلم) فمصريه إلى الجنة وان كابد العقوبة للأعمال السيئة وترك الصالحات فانه بالمال ينتقل الى الجنة بدعاء محمد (صلّى الله عليه وآله وسلم) وإن عذب في نار البرزخ والقيامة كما يستحق :

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا
وَأَحْسَنُ نَدِيًّا (٧٣) وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئِيًّا (٧٤) قُلْ مَنْ كَانَ فِي
الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ
مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا (٧٥) وَيَرِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ
خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا (٧٦) أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا (٧٧)
أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا (٧٨) كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا
(٧٩) وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ (٨٠)

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا
وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ (٧٣)

هرطقة نكراء وطنطنة خواء في قولة هراء من الذين كفروا للذين آمنوا في حوار دائبة
بترء تضللهم او تقلل من إيمانهم ، ولكنما المؤمن حق الايمان لا يتزعزع بهذه الزلازل ،
فالمؤمن كالجبل الراسخ لا تحركه العواصف ولا تزيله القواصف!

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ لا يفهمونها وهم يسمعون ، مبتهجين ومتبحجين
بالقيم المادية الفانية قائلين : ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ﴾ منا الكافرين ومنكم المؤمنين ﴿خَيْرٌ مَّقَامًا﴾ :
قياماً في هذه الحياة بوسائلها المتوفرة لدى الناشطين ، وقواماً فيها ، ومكاناً لكل قيام وقوام ،
فمن هو خير في مثلث «قياماً» «ثم» ﴿وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ : نادياً لتنادى الشورى ﴿فَلْيَدْعُ
نَادِيَهُ﴾ في مصالح الحياة! ونادياً لكل أنس والإتيان بمختلف الشهوات ﴿تَأْتُونَ فِي نَادِيكُمْ
الْمُنْكَرِ﴾ (٢٩ : ٢٦)؟

إنهم يرونهم في نوادي فخمة ومجامع مترفة بكل ترف وفي كل طرف ، الى جنبهم تلك
النوادي المتواضعة والمنتديات الفقيرة ، دون أبهة ولا زينة وكبرياء فيتقولون لهم : ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ
خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ وإذا الايمان بالله يعجز عن إصلاح الحياة الحاضرة فهو عن إصلاح
المستقبل . لو كانت . أعجز!

ومن هؤلاء سادة من قريش ، قادة الكفر . كالنضر بن الحارث وعمرو ابن هشام
والوليد بن المغيرة وأبي جهل وأبي لهب وإخوانهم المترفين وجاه سادة الايمان ، كبلال وعمار
وخباب واضرابهم من المؤمنين المعدمين ف ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ...﴾؟ ذلك! رغم انها حكمة
الله في صراط الحق ان تظل العقيدة الصادقة مجردة من الجواذب المادية زينة وطلاء وإغرائاً ،
ليقبل عليها من يريدها خالصة لحقها دون زخارفها ، ويدبر عنها من يبتغي زينة الحياة الدنيا.

هنا يأتي جوابا واقعيا غابرا عن ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ﴾ لمحة الى مصارع الغابرين :

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئَاءَ﴾ (٧٤) :

إن القرون الهالكة المالكة هي أكثر مما يملكون و ﴿أَحْسَنُ أَثَاثًا﴾ الظاهرة ، بأحسن منهم مظهرها «ورثيا» إنها ليست قلة منسية ، فعاد ﴿وَتَمُودَ الَّذِينَ جَاءُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ الَّذِينَ طَعَوْا فِي الْبِلَادِ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفُسَادَ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ هؤلاء واضراهم هم أحسن منهم أثاثا ووسائل العيشة ورثيا : منظرنا في أنفسهم وأثاثهم وبيوتهم وما يملكون ، فقد هلكوا بما ملكوا فأَيُّ الفريقين خير مقاما وأحسن نديا؟!

﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ

وَأِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا﴾ (٧٥) :

﴿مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ﴾ غارقا تائها ومضى على ضلالته روح من الزمن فهو لا

يهتدي ، أترى ماذا يفعل به الرحمن؟! أحملا على الهدى وهو مصر على الردى؟ ام لا يمدده

في هوى او ردى وكفى به . لو أمكن . استمرارا في الردى! او ﴿فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا﴾ جزاء

وفاقا إملاء : ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ (٧ : ١٨٣) ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ

خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ (٣ : ١٧٨) ﴿فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ

مَدًّا﴾ الإملال الامهال عمرا وأسبابا ، من بنين واموال ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنَ

نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (٢٣ : ٥٥) مدا لهم في أسباب العذاب ثم مدا في

العذاب ﴿كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا﴾ (١٩ : ٧٩) ! :

﴿فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ﴾ قبل

الساعة كتقدمه ﴿وَأَمَّا السَّاعَةُ﴾ التي هي بداية العذاب الأصيل وهنا او هناك «فسيعلمون» عين اليقين ﴿مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا﴾ وجاء ما كانوا يقولون للذين آمنوا ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ حيث يرون أنفسهم شرا مكانا رغم ما كانوا يزعمونهم ﴿خَيْرٌ مَقَامًا﴾ وكانوا في زعمهم أحسن نديا : نادي الأعوان الجنود ونادي الشهوات ، فيرونهم «أضعف جندا! فلا تنفعهم جنود النوادي أيا كانوا بل يضرونهم كما كانوا يضلونهم: فقد زادوا ضلالا على ضلال في الدنيا ثم هم يوم القيامة من المردولين ، واما الذين اهتموا ؟:

﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا﴾ (٧٦) :

كما هناك مدّ للذين كفروا ، كذلك هنا مد للذين آمنوا وابن مد من مدّ : ﴿كُلًّا نُمِدُّ هُوْلَاءَ وَهَؤُلَاءَ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ (١٧ : ٢٠) :
فمد الهدى يتبنى هدى قبلها كمد الردى ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ (٤٧ : ١٧) والخير في هذا البين ليس الذي يزعمه الذين كفروا من أثاث ورئي يفتنى ، بل ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا﴾ ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ (١٢ : ٤٦)^(١) :
الأقوال والأعمال كلها باقية بما يستنسخها الله ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ولكنما الباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا» يثوب

(١) راجع تفسير الآية في الكهف فلا نعيده هنا الا ما أشرنا اليه.

ويرجع الى الإنسان حالا واستقبالا ، حيث الثواب هو رجوع الشيء إلى حالته المقدره المقصودة ﴿وَحَيْرٌ مَرَدًّا﴾ مكان ردها وزمانه في الجنة يوم القيامة وما قبلها.

واما الطالحات الزائلات بشهواتها وهواتها ، الباقيات بخطراتها التي هي لزام فاعليها ، إنها شر عند ربك عقابا وشر مردّا ، فمن هو إذا خير مقاما وأحسن نديا وأثابا ورثيا وخير مكانا وأقوى جندا؟ أهم أصحاب الباقيات الصالحات ، ام الزائلات الباقيات الطالحات؟!

﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ (٧٧) أَطْلَعَ الْغَيْبَ أَمْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا (٧٨) كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا (٧٩) وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ (٨٠).

«أفرايت» استفهام عجاب واستنكار في ﴿الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا﴾ الدالة على توحيد الربوبية ومعادها والرسالة الإلهية بينهما ، كفرا بمثلث الآيات آفاقية وأنفسية.

فرغم أنه ﴿كَفَرَ بِآيَاتِنَا﴾ كلها دون إبقاء ، يتميع بما يخيل اليه انه يتمتع ﴿وَقَالَ لَأُوتِيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ هنا ام في الحياة الأخرى ، وانا رابع في الاولى الواقعة ، وفي الأخرى لو انها واقعة ﴿وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ (١٨ : ٣٦).

طنطنة حمقاء ، وهممة جوفاء ، ويكأن وفرا من المال والولد هو جزاء الكفر بآيات ربنا! ﴿أَطْلَعَ الْغَيْبَ﴾ فيما هنا ام هنا «ام اتخذ» هنا لما هنا وهناك ﴿عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ فلا غيب له مطلع ، ولا عهد عند الرحمن فإنهما أو واحدهما لزامهما صلة عريقة مع الرحمن ، وقد ﴿كَفَرَ بِآيَاتِنَا﴾ فما قولته الجوفاء إلا طنطنة خواء وهرطقة هراء والله منها براء:

وانها قولة تكرر من حماقى الطغيان ، كأنهم يملكون الكون بمكونه ، فهم يحاسبون
بدليل ان يحاسبوا ، فكما هم أولاء هنا غارقون فيما يشتهون ، كذلك هم في الأخرى . لو
كانت . فيما اشتتهت أنفسهم خالدون :

وهل ان ﴿الَّذِي .. وَقَالَ﴾ شخص كافر غابر ليخصه التعجيب التأنيب؟ عله نعم
حيث العبارة العامة «الذين .. يقولون»! او عله لا مهما كان موردا لنزول الآية حيث المورد
لا يخصص ، ف «لا تكونن ممن يقول في شيء انه في شيء واحد».

ويظهر من «كفر» حادث الكفر بعد الايمان ، ام مزيده دون ايمان ، فيعم التعرق في
الشرك كالذي خاطب خباب بن الأرت حين طالبه ديناً كان له عليه فأجاب بما أجاب :
«موعد ما بيني وبينك الجنة فو الله لأوتين فيها خيراً مما أوتيت في الدنيا»^(١) كما يعم ضعيف
الايمان الذي كفر حين خيل اليه ان الكفر يجلب مالا وولدا!

«كلا»! ليس كما يهرف بما لا يعرف «سنكتب» عليه «ما يقول» قولة نكراء وهي
وبالة عليه ﴿وَمَمْدُ لَهُ﴾ هناك ﴿مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا﴾ بدلا عن اي مال وولدا! ﴿وَنَرِثُهُ مَا
يَقُولُ﴾ لو اوتي هنا او هناك مالا وولدا ف ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِنَّا
يُرْجَعُونَ﴾ (١٩ : ٤٠) ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ دون مال ولا ولد فمم يكون له . إذا . مال وولدا؟! :

(١) رواه فيمن رواه القمي عن أبي الجارود عن أبي جعفر (عليه السلام) ومثله في معناه في الدر المنثور عن خباب
بن الأرت قال كنت رجلاً قيناً وكان لي على العاص بن وائل دين فأتيته أتقاضاه فقال : لا والله لا أقضيك حتى
تكفر بمحمد فقلت : لا والله لا أكفر بمحمد حتى تموت ثم تبعث ، قال فإني إذا مت ثم تبعث جئتني ولي ثم مال
وولد فأعطيك فأنزل الله الآية.

أقول تخصيص نزول الآية بموردها هذا بعيد ، إلا ان يكون من مصاديقها.

﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا (٨١) كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا (٨٢) أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤْزُهُمْ أَزًّا (٨٣) فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعْدُهُمْ عَذَابًا (٨٤) يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا (٨٥) وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرْدًا (٨٦) لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا (٨٧) وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا (٨٨) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (٨٩) تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (٩٠) أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا (٩١) وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا (٩٢) إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِيَ الرَّحْمَنِ عَبْدًا (٩٣) لَقَدْ أَخْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَذَابًا (٩٤) وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا (٩٥)﴾

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا (٩٦) فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا (٩٧) وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا؟ (٩٨)

﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا (٨١) كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ (٨٢) :

واذّلاه لمن يتخذ من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا ، تحطّيما لكرم الإنسانية ، وتعزيزا للذليل وتقديما له على من خلقه الله في أحسن تقويم ، كيف يردّ نفسه بتخيّل العز أسفل سافلين .

أترى العز في ألوهة الأصنام والأوثان والجبّات؟ وهي لا تسمع ولا تبصر ولا تغني عن أنفسها شيئا فضلا عن عابديها!

ام في ألوهة الطواغيت؟ وقد استكبروا عليهم وحطّوا من كرامة إنسانيتهم حيث استخفّوهم وسقطوهم عن كرامتهم!

أم في ألوهة الأولياء من الملائكة والنبیین؟ وهم يرون عزّهم وإياهم في عباده الله ، وليسوا هم ليغنوا عنهم من الله شيئا إذ ﴿لَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾! ام ليعتزوا بهم عند الله ، ﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾؟ وفي ذلك

مس من كرامة الله ان يتخذوا سلطانا من دون الله ما آتاهم به الله ، وأن يعبدوا من دون الله إزرأ بساحة الربوبية ، وكيف يصلح المبعد مقربا ، ام كيف يطلع البغيض عزيزا! ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ : لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ﴾ (٣٦ : ٧٥).

فأين ذلك العز الأعز من الوهة الله وحده وعبوديته؟ وهكذا يكون دور من يستند الى غير القرآن ويستعين به تاركا لكتاب الله ، معترزا بسواه لتعزيز دين الله باللقاب براقة مطمئنة ، وكلمات عملاقة! هي عن كثير من الحق فاضية خاوية!

«كلا» لا عز هنا وهناك ام هنالك ، «وهم» الآلهة ﴿سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ﴾ : ﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَائُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ::﴾ (١٠ : ٢٨) ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ (٣٥ : ١٤). كما وهم أولاء ﴿سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ﴾ ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ (٦ : ٢٣) :

وهذا من الطف الجمع بين ضميري الجمع ، سيكفرون بعبادتهم حيث يعم الكافرين واقعا لا نكير له! ثم «ويكونون» كل «عليهم» على كل «ضدا» حيث زلّ الله بينهم فظهر الحق عن الباطل وغلب هنالك المبطلون!

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَوْرُهُمْ أَرْأَ﴾ (٨٣) :

إنهم تهزهم تحريكا بشدة وإزعاج هزا ، وتحرضهم على الشر حرصا ، ولو لم يكن الكافر هزا في نفسه بزا لم يسطع الشياطين ان تهزهم هزا.

ولا يعني الإرسال هنا بعثا إليهم ليضلّوهم أكثر مما هم ، بل عدم

المنعة عن هزهم ، وهو يمنعهم عن هز المؤمنين ، وفي «على» هنا دون «إلى» لحظة حيث تعني الاستعلاء ، فيذرهم الله في خوضهم يلعبون وفي غيهم يترددون جزاء بما كانوا يعملون ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾.

فهو - إذا - إرسال «على» وليس إرسال «إلى» وليس إلّا جزاء وفاقا حيث كذبوا المرسلين الصالحين إليهم ، فأبدلهم الله بإرسال الشياطين عليهم تؤزهم أزا. فليس ﴿يَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ فقط في الحياة الاخرى ، بل وفي الاولى إذ تؤزهم أزا وهم يعبدونهم ﴿لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾! وفي «يكونون» هنا وجاه «سيكفرون» لحظة لضدهم في الآخرة والاولى ، مهما اختص كفرهم - إلّا الصالحين - بعبادتهم في الأخرى. ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا﴾ (٨٤) :

﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ﴾ بفنائهم ودمارهم إذ لا يستقلون ويغلبون أماننا ، فلا نمهلهم إلّا عليهم حيث ﴿نَعُدُّ لَهُمْ﴾ سيئاتهم البئيسة وأنفاسهم التعيسة «عدا» كما قدرنا لهم فالمعدود لهم عدا هو «كل شيء حتى النفس» ^(١) بل «لكنه عدد الأنفاس» ^(٢) بما تحمل فيها كل نفس ظالمة من كوارث انحاس! ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا تُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا تُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ (٣ : ١٧٨).

(١) الدر المنثور اخرج عبد بن حميد عن أبي جعفر محمد بن علي في الآية : ..

(٢) الكافي بإسناده عن عبد الأعلى مولى آل سام قال قلت لابي عبد الله (عليه السلام) قول الله عز وجل : ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا﴾ قال (عليه السلام) ما هو عندك؟ قلت : عد الأيام ، قال الآباء والأمهات يحصون ذلك ولكنه عدد الأنفاس.

ليس أمد بقاء الإنسان بتعميره إلا بلاء حسنا بتعميره ام سيئا بتدميره : ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ (١٨ : ٧).

وليس قصر المدة ام مدّها إلا كما قدر لكل نفس في صالحاتها وطالحاتها ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ﴾ ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ﴾ (١٠ : ١١):
﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾ (٨٥) ﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرِثَةً﴾ (٨٦) لا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ (٨٧) :

إن بين الحشر الوفد والسوق الورد بونا شاسعا كما بين المتقين والمجرمين ، فالوفد هم القوم الركب الوافدون لزيارة او استنجاز حاجة وقد «يحشرون على النجائب» ^(١) والورد هم العطاش المتحرون عن تروية لهم

(١) في محاسن البرقي باسناده عن حماد بن عثمان وغيره عن أبي عبد الله (عليه السلام) في الآية قال : يحشرون على النجائب.

وفي تفسير القمي باسناده عن عبد الله بن شريك العامري عنه (عليه السلام) قال : سألت علي (عليه السلام) رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) عن تفسير هذه الآية قال (صلى الله عليه وآله وسلم) : يا علي! الوفد لا يكون إلا ركبانا أولئك رجال اتقوا الله عز وجل فأحبهم واختصهم ورضي أعمالهم فسماهم الله المتقين .. وروى في حديث آخر تفصيل خروجهم من قبورهم وركوبهم من نوق الجنة ووفودهم الى الجنة ودخولهم فيها وتنعمهم بما رزقوا من نعمها.

وفي الدر المنثور عن ابن مردويه عن علي (عليه السلام) عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في الآية قال (صلى الله عليه وآله وسلم): اما والله ما يحشرون على اقدمهم ولا يساقون سوقا ولكنهم يؤتون بنوق من الجنة لم تنظر الخلائق الى مثلها رحالها الذهب وارمتها الزبرجد فيقعدون عليها حتى يقرعوا باب الجنة.

فلا يردون إلا جهنم ليشربوا من حميمها ، هذا لطغواه وذلك لتقواه حيث اتقى يوم الدنيا عن
ورد الجحيم ، وهؤلاء طغوا وبغوا فلهم - إذا - ورد الجحيم :

﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ﴾ ان يشفعوا او يشفع لهم لا أولاء ولا هؤلاء ﴿إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ
الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ وعامته عهد العبودية ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ
لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ، وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ (٢٦ : ٦١) وذلك تعم الشافعين
والمشفع لهم ،

ثم وخاصته عهد الشفاعة كشافعين ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ
شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (٤٣ : ٨٦) :

فلا شفاعة هناك بين العباد والمعبودين من دون الله ، إذ لا عهد لهم اتخذه عند
الرحمن ، وقد زال عزهم المخيل إليهم هناك ، كما لم يكونوا لهم عزا هنا ﴿وَحَسِرَ هُنَالِكَ
الْمُبْطِلُونَ﴾ ﴿حَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ !
﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ (٨٨) ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا﴾ (٨٩).

واتخاذ ولد للرحمان أيا كان حقيقة او تشريفا ، إنه إذ : منكر فضيح فظيع «شيئا»
واقعا ولن يكون! ام قولاً زورا فلا يهون.

﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا﴾ (٩٠) ﴿أَنْ دَعَا لِلرَّحْمَنِ
وَلَدًا﴾ (٩١) ﴿وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ (٩٢) :

لو لا أن الله يمهل هؤلاء الحماقى الأغباش ، لكان تفتّر السماوات وانشقاق الأرض
وخرور الجبال هدا : في هدم واقع ساقط . واقعا ، إذ هي ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنَّ
يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ (١٨ : ٥٠) فإنهم ﴿لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا﴾ ﴿أَنْ دَعَا لِلرَّحْمَنِ
وَلَدًا﴾ فانه الخالق

لكل شيء برحمة رحمانية : فكيف يتخذ ولدا؟ أبولادة؟ وهو خالق وليس والدا ، ام بتشريف
ولا تشريف أعلى من العبودية ، والبنوة التشريعية تزييف لساحة الرحمن ﴿وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ
أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾

﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ (٩٣) لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ
عَدًّا ﴿٩٤﴾.

كلهم يأتونه عبدا ليوم الدنيا ويوم الدين ، طوعا أتوه ام كرها حيث العبودية ذواتهم
وصفاتهم وأفعالهم ، ومهما هم أتوه هنا بأموال وبنين وسائر زخرفات الحياة زينة لها وابتلاء
فيها ، ولكنهم :

﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ (٩٥) :

«فردا» عن كلما لديهم يوم الدنيا إلا ما قدمت لهم أنفسهم او عليهم ، فهم إذا فرد
يومئذ عما كانوا يظنون ، وشفع بما لم يكونوا يحتسبون ، فويل لهم من فردهم وويل لهم من
شفعهم ، إلا فردا عبدا ، وشفعا بعبودية!.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ (٩٦) :

إن الإيمان وعمل الصالحات هما في ميزان الله محوران اصيلان للودّ الحب ، جعلاً له
قدرهما طول الزمان وعرض المكان ، مهما كان ليوم الرجعة والبرزخ واليوم الآخر عرضه
العريض كل حسب ، ولكنما الدنيا ايضا لها نصيب مهما غشيتها أية غاشية ، فانها تبرز في
مواردها حجة للإيمان ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ :

وفي «سيجعل» الرامية الى مستقبل قريب تلميح مليح بمثلث الأيام ، مهما شمل
مستقبل الايمان وعمل الصالحات منذ بزوغها واين مستقبل من مستقبل ، واين ودّ من ودّ؟:

وقد تضافرت اسباب النزول عن الفريقين في قول الرسول (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) أنها نزلت في علي (عليه السلام) ^(١) وهو أعلى منزل لهذه النازلة الفاضلة كتأويل بأعلى المصاديق وأعلى منه الرسول (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) فانه وده فوق وده ، فهذا . إذا . تأويل مصداق مختلف فيه في قمة الود ، يذكره الرسول (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) كأنه فقط ذلك الود وترفيعا لمنزلته وتثبيتا لمحتده ، وهذا لا ينافي في عموم الآية ل ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ ككل كما هو منطوقها وقد نطق به الرسول (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) ^(٢) :
﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لَّدَا (٩٧) وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ (٩٨).

﴿يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ﴾ لا فقط «بلغتك» ، فمن العربية ما هي صعب التفهم ومن غيرها سهلة ، ولكن القرآن العربي اليسر في نفسه بلسان محمد (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) بيانا له وتبيانا ، فيه مثلث بارع

(١) القمي بإسناده عن أبي بصير عن الصادق (عليه السلام) قلت قوله عز وجل ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ قال : ولاية امير المؤمنين هي الود الذي ذكره الله ، وفي الدر المنثور اخرج ابن مردويه والديلمي عن البراء قال قال رسول الله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) لعلي (عليه السلام) قل : اللهم اجعل لي عندك عهدا واجعل لي عندك ودا واجعل لي في صدور المؤمنين مودة فانزل الله الآية ...

(٢) الدر المنثور اخرج الحكيم الترمذي وابن مردويه عن علي (عليه السلام) قال : سألت رسول الله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) عن قوله ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ ما هو؟ قال : المحبة في قلوب المؤمنين والملائكة المقربين ، يا علي إن الله أعطى المؤمن ثلاثا : المتعة والمحبة والحلاوة والمهابة في صدور الصالحين.

من التيسر ، وهذه سنة دائمة للرسول ان يرسلوا بلسان قومهم ، لا فقط بلغتهم : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ (١٤ : ٤) ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (٤ : ٥٨)

فالتبيين بالقرآن والتبشير والإنذار والتذكير ، كل ذلك على ضوء مثلث التيسير تأخذ مسيرها في العالمين كأوضح ما يمكن بيانا للقرآن العظيم ، الذي «فيه تبيان كل شيء» حاويا كافة المعارف الممكن التعرف إليها وحيا الى البشير النذير ، تبشيرا للمتقين وإنذارا لقوم لدا لا يؤثر فيهم التبشير ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾.

﴿يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ﴾ بعد ان كان عسيرا في ام الكتاب : ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ، وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِّي حَكِيمٌ﴾ (٤٣ : ٤) تيسيرا للمحكم بتفصيل ، وتيسير ثان تفصيله باللغة العربية ، وثالث تفسيره ببيان الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) تبينا للقرآن بنفسه إذ يفسر بعضه بعضا ، وتبيننا ثانيا بسنته.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ﴾ جماعات في قرون مضت قرن بعض وتلوه ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ﴾ أثرا ﴿أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ صوتا ، فلا صيت لهم ولا صوت ، وانما موت دون فوت.

الفهرس

- «سورة الكهف» لم يجعل له عوجا؟ صعيدا جززا ١٨ - ١٩
- اصحاب الكهف والقيم من الآيات العجاف! من هؤلاء الفتية؟ ضرب على آذانهم ٢٢ - ٣١
- «انهم فتية آمنوت ..» ، «اذا قاموا» وكيف؟ الشمس تراورهم وتقرضهم ، اين كهفهم؟ ٣١ - .
- ٤٣
- «يوما او بعض يوم»! «كذلك اعثرنا عليهم ل ..» عددهم؟ يصرف بالتأمل في آياتهم! ٤٤ - .
- ٥٧
- «هل قال الرسول (ص)؛ نى فاعل دون «ان شاء الله» حتى ينهى؟ ٦١ - ٧٠
- «لا مبدل لكماته ..» من ادلة ختم الوحي وعدم نسخة . ما هي «ثلاثمائة سنين وتسعاً»؟
- ٧٣ - ٦٨
- ينبي الرسول عن اشياء لم يقتربها! ٦٩ - ٨٢
- مثل الجننتين . «قال له صاحبه» تخدم صرح صاحب الغار! ٨٧ - ١٠٢
- كيف «عرضوا على ربك صفاً» وهم حاضرون عنده منذ كانوا؟ ١١٠ - ١١٢
- سجود الملائكة لآدم لم يكن سجود عبادة ولا احترام . وما كنت متخذ

المضلين عضداً الغاية الصالحة لا تبرر الوسيلة غير الصالحة..... ١١٥ - ١٢٥
 كيف يتعلم موسى من خذر وهو الرسول اليه؟ تفاصيل هذه الرحلة المدرسية العالية مسائل
 عقائدية - فقهية - اخلاقية - دراسية. آداب والتعلم..... ١٣٤ - ١٥٨
 قصص ذي القرنين - من وهو وما هي الاسباب المستخدمة له؟ ما هو سج ذي القرنين - من
 هم يأجوج ومأجوج؟ وهل هم الأصلاء في الافساد العالمي أم هم بنو اسرائيل وهؤلاء
 اتباعهم؟..... ١٦٢ - ٢٢٣
 الأخسرون اعمالاً؟ البحر المداد - الرثاء من الشرك..... ٢٣٣ - ٢٤٦
 «سورة مريم» ماذا تعني «كهيعص» الأنبياء يورثون المال كما العلم..... ٢٥١ - ٢٦٠
 «اني يكون في ولد» أليس نكراناً لآية الهية موعودة؟..... ٢٦٢ - ٢٦٦
 «وأتيناه الحكم صبياً» وما هو الحكم «ويوم يبعث حياً»؟..... ٢٦٧ - ٢٧٧
 زكريا ويحيى في القرآن والعهدين..... ٢٧٧ - ٢٧٨
 «واذكر في الكتاب مريم» هنات لمريم في الحمل والولادة العجيبة قول فصل في رمز الولادة -
 كيف حملت ووضعت؟ مقارنات بين مريم القرآن ومريم الانجيل - قال اني عبد الله ٣٨٢ - .

٣١١

صيحة الانجيل خطر على قدسية المسيح عليه السلام - المسيح وامه حسب الانجيل ٣١١ - .

٣١٦

مريم والمسيح في القرآن - منى ارسل بالأنجيل وصار نبياً؟..... ٣١٦ - ٣٢٣
 ابراهيم يحاور اباه آزر - قد يجوز السلام على المشرك فضلاً عن الجواب ٣٢٩ - ٣٤٨
 من هو اسماعيل صادق الوعد؟ بشارة من كتاب ادريس بحق الرسول (ص) ٣٤١ - ٣٤٤

..... ٣٩٠ الجزء السادس عشر

..... ٣٧٥ - ٣٧٠ كلنا ندخل النار يم ينحّي المتقون

..... ٣٩٠ - ٣٨٩ «فانما يسرنا بلسانك»؟